سلسلة الرسائل الجامعية 14

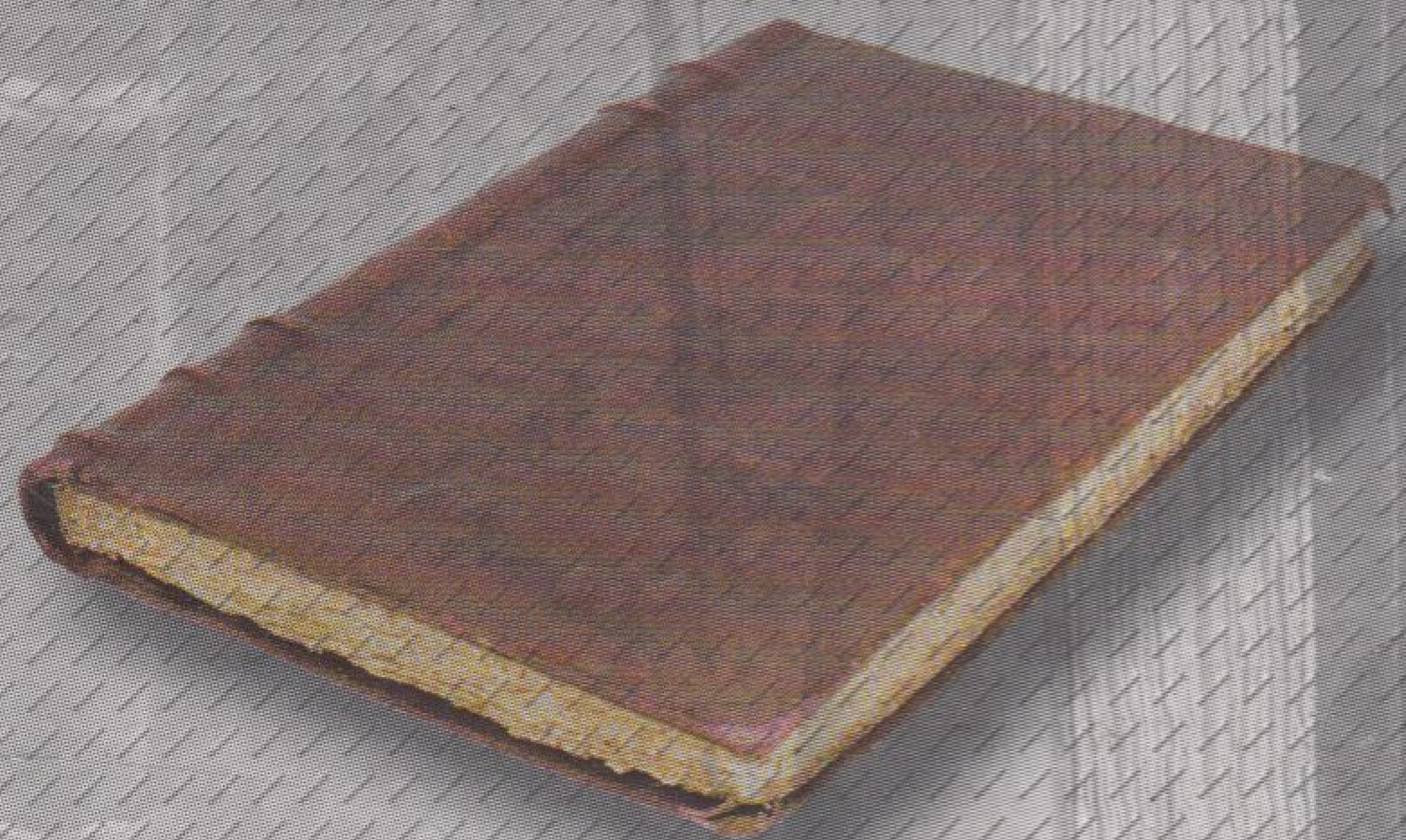
«الدراسات العليا»

الشيخ أحمد ديدات

ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة

مع دراسة تمهيدية موسعة عن الإسلام والمسلمين في جنوب افريقيا





حمزة مصطفى ميغا

الجزء الأول

منشورات
كلية الدعوة الإسلامية

الشيخ أحمد ديدات

ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة

الطبعة الأولى

1373 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ 2005 مسيحي

منشورات
كلية الدعوة الإسلامية

الشيخ أحمد ديدات

ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة

مع دراسة تمهيدية موسعة عن الإسلام والمسلمين في جنوب افريقيا

إعداد الطالب

حمزة مصطفى ميغا

الجزء الأول

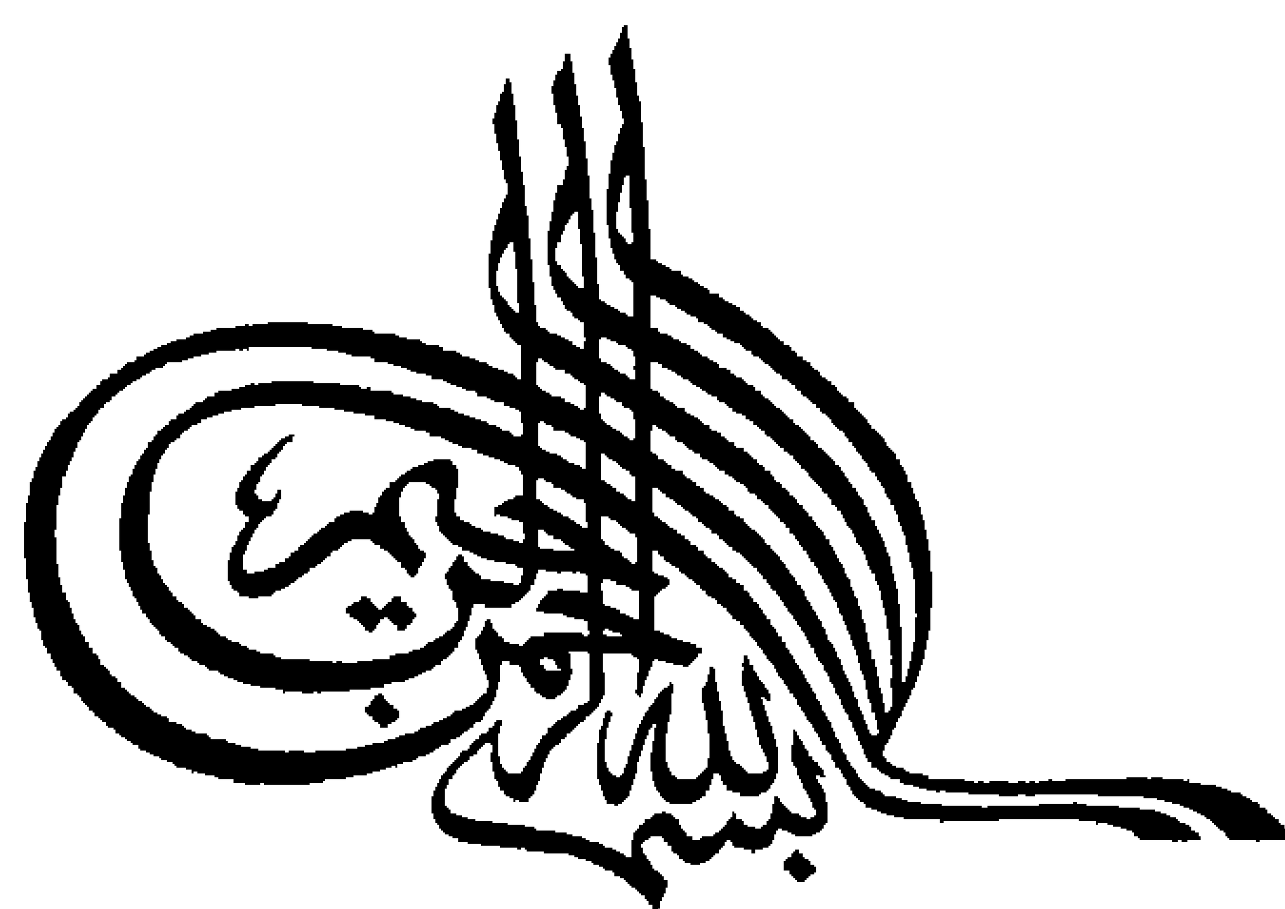
إشراف

د. محمد فتح الله الزيادي
مشرفاً أولاً

د. عارف علي النايض
مشرفاً ثانياً

منشورات

كلية الدعوة الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

❖ قال تعالى :

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ .

[النحل : 125]

❖ وقال :

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ .

[الأحزاب : 23]

❖ وقال :

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ .

[الرعد : 24]

❖ عن قيس عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ، قال:

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر اللّه وهم ظاهرون» .

البخاري : جـ 6 / ص: 2667 .

❖ قال رسول ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللّه عزّ وجلّ» .

مسند أحمد: جـ / ص: 279 .

إهداء

❖ إلى داعية وراعي أكبر لقاء حواري بين مسلمي ومسيحيّي العصر قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية العقيد معمر القذافي .

وإلى الشعب الليبي الكريم المضياف.

حباً وإعجابا .

❖ إلى داعية العصر، فارس المناظرات الدامغة الذي لا يشق له غبار. الشيخ الداعية / أحمد ديدات شمله الله برحمته وحلاّه بمغفرته وكرمه.

وفاء وتكريما .

❖ إلى جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، رائدة الخطاب الدعوي النيّر، وقائدة العمل الإسلامي الحكيم في عالم التحولات الكبيرة، وعصر الأزمات الروحية والسياسية الخانقة.

تحية وتجلّة .

❖ إلى كلية الدعوة الإسلامية الكريمة الزاهرة .. قلعة الصحوة والانبعاث، منارة العلم والوعي، ومسرح الفكر والتنوّر .

شكراً دائماً وتقديراً تاماً .

❖ إلى كل جنود الإسلام وأعلامه المغمورين المعتصمين بصدق وإخلاص في ميادين العمل الإسلامي الممتدة المترامية.

رمز وفاء وعرفان وميسم دعم ومشاركة .

❖ إلى كل أولئكم : أهدي هذا الجهد المتواضع لقاء جهودهم الدائمة، وجهادهم المقدس في معركة العقيدة والخلاص، لصالح الإنسان في كل مكان، فعسى أن يتسع كرمهم لقبوله مني على تواضعه، آملاً أن يجدوا فيه ما يبرر الأمل لصالح العمل، ويدفع نحو المزيد من التضحية والبذل ....

من غريمكم وربيبكم الوفيّ .

حمزة مصطفى مايغا

القسم الأول

منهج الشيخ أحمد ديدات
في الحوار والدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله ربّ العالمين، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فهيأ من بعده في كل عصر رجالاً يرفعون لواء دعوته الزاهرة بأليق الأساليب وأنسب الوسائل، وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وآله وصحبه البررة الكرام، ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعــد :

فقد اقتضت حكمته وقدرته تعالى بأن يقيِّض لدينه الإسلام منذ أن ظهرت دعوته في الوجود رجالا عظامًا خدموه حق الخدمة بمنتهى الصدق والإخلاص، وفي غاية الالتزام والوفاء، وقفوا حياتهم على نشر دعوته كما نافحوا عن كيانه وذادوا عن حياض أمته .

وإذا كان مقام الدعوة إلى الله من أجلّ المقامات وأسماها، فإن هؤلاء الناس ـ بالطبع ـ من أفضل الناس مكانَة، وأكرمهم شأنًا، وذلك بسبب تعلقهم بأمر من أهم وأشرف الأمور قدراً، وأعظمها أجراً، ومن ثمّ فإن الإنسان المسلم مرشح ومدعو دائمًا للتطلع بنفسه إلى هذا المستوى الدعوي الرفيع الذي يمتاز به ورثة الرسول ﷺ وقليل ما هم حقيقة، في حين ما أكثر من ينتمي إليهم في هذا العصر .

والواقع أنه لا مراء في اعتبار الشيخ الداعية : أحمد ديدات – رحمه الله – واحداً من أولئك الصفوة من الدعاة، بل هو من طلائعهم في هذا العصر؛ حيث إنه يعد عن

جدارة واستحقاق من أبرز أعلام الدعوة منـذ نصف قرن أو ما يزيد ، وذلك بفضل ما بذله من جهود دعوية طيبة متنوعة ، غلب عليها الحوار والجدل على حساب الجوانب الأخرى ، والتي هي أيضًا على أهمية لا تنكر ولا يستهان بها ، مع علم القليلين فقط بما كان للشيخ فيها من إسهام معتبر ومشاركة فعّالة .

وهو بذلك يجسد شخصية دعوية فذة ، لها جلالها ووقارها ، استطاعت أن تحتل في قلوب أغلب من عرفه من المسلمين مكانة عالية ، وأن تتمتع بقسط وافر من الإعجاب والتقدير ، قل من ينافسها في ذلك من بين دعاة العصر .

ومن المعلوم أن صيته قد ذاع في الآفاق ، وجابت شهرته الأقطار من خلال ما قام به من مناظرات دامغة ونقاش معجز للخصوم ، في بديهة حاضرة ورباطة جأش هي غاية في الثبات والاستقرار ، والهدوء والاطمئنان ، الأمر الذي أتاح له بالإضافة إلى كل ما اجتمع فيه من صفات وخصائص متفرقة ، أن يكون أنموذجًا حيًا من النماذج القليلة التي انبرت للمواجهة ضد التنصير ، وتعقب أعداء دين الله على مر التاريخ الإسلامي أو تاريخ المسلمين بمعنى أدق .

ومع ما تعرض له من تحديات وابتلاءات ؛ من أخطرها إصابته بالفالج الكلي الشامل ، فاستمر قعيد الفراش لبضع سنين ، إلاّ أنه باحتماله الواسع ظل شامخًا قويًا ، صابرًا ومثابرًا ، ملتزمًا ما درج عليه من خطاب دعوي فريد ، كان من نتائجه وإيجابياته الكثيرة - وإن اتّسم بالاستثنائية في هذا العصر - أنه أسهم على نحو بارز في التمكين الإعلامي لفكرة أن الدين الإسلامي بكل اعتزاز وموضوعية هو دين الحوار والانتصار ، وأن الإقناع به عن طريق الفكر والتناظر من أحكم وسائل انتشاره ، وأقوى مناهج ظهوره في العالم .

هذا . . . وبالرغم مما اكتسبه الشيخ من شهرة عالمية على المستويين الإعلامي والعملي ، إلا أنه ما يزال في عداد المغمورين على الصعيد العلمي ؛ إذ لم ينصف بعد على مستوى الدراسة العلمية ، بل لم يعط أدنى حقه من الاهتمام المعرفي . الواقع

المؤلم الذي حرم الناشئين والمتدربين على الدعوة من الإفادة من مسلكه العام في العمل الإسلامي، ومن منهجه الحواري الدعوي بالأخص. إذ من الصعب أن تجد له ذكراً في الكتابات التي اطلعنا عليها مع تواضعها وقلتها .

ولعل الاهتمام به يعظم، ويشتد الحذر منه عند المنصِّرين الذين يدركون إدراكًا واعيًا خطورة دور الشيخ ديدات ضد عملهم، وبخاصة من جانبين اثنين: في تحصين عامة المسلمين من مكرهم من جهة، وفي استقطاب أتباعهم بتنويرهم وهدايتهم إلى الدين الحق، والصراط المستقيم من جهة أخرى. ولا يخفى أن واقعًا كهذا من الإهمال الذي يطال كبار دعاة الأمة هو واقع كارثي مأسوف عليه غاية، ولاسيما في ظرف ما أحوج المسلمين فيه إلى استلهام المناهج المعتمدة لدى علماء الأمة ودعاتها وبخاصة تلك التي ثبت نفعها في تكوين دعاة محاورين ذوي كفاءة عالية، ومقدرة فائقة في علم الدعوة ومقارنة الأديان، وذلك للمبادرة والدفاع عن عقيدتنا وعن وجودنا ضد هذه الزوبعة القائمة من الحملات الشرسة، والتي تعد امتداداً لمعركة تاريخية طويلة، ما فتئت على امتداد العالم كله تشنّ على الإسلام والمسلمين من قبل القوى المعادية من استعمار، وصهيونية، وتنصير وغيرها. وبالأخص في عقر ديار الإسلام في أفريقيا وآسيا؛ عالمي الإسلام بحكم الأغلبية .

ومما يضاعف مرارة الأسف في النفوس ويكثف من دواعي الاهتمام والاشتغال بموضوع من هذا القبيل: هو أن الجهل العلمي بالشيخ ديدات مع ضخامة جهوده وعظمة نتائجها ليس قاصراً على العامة من الناس دون غيرهم، بل وإنما يذهب بعيداً ليخيم حتى على بعض أولئك الذين نكن لهم كل احترام وتقدير ممن أطبقت شهرتهم العلمية والدعويّة على العالم الإسلامي، وذلك على الأقل إن لم يكن العالم كله، كما أن من الناس من يحلو لهم الاعتراض على من يعلق أهمية على دراسة هذا المنهج؛ لوقوفهم على طرف نقيض من اتجاه ديدات الدعويّ الحواريّ، بحجج ومبررات تدور في فلك الاعتراض والرفض .

وأيًا كانت الوجاهة الظاهرية لبعضها مع احترامي لأصحابها فإنها لا تقوى على الصمود في وجه المواقف المغايرة لها، والتي تقدم المصلحة العليا للعمل الدعوي الإسلامي فوق كل الاعتبارات الوضعية والظرفية الأخرى .

ومن هنا تنكشف بعض الدوافع التي حدتْ بالباحث إلى اختيار وولوج هذا الحقل البحثي رغم صعوبته العلمية، وتوقع كافة مخاطره العملية، حيث إن المرء يلاحظ اليوم من حوله أن الغيورين على الدعوة الإسلامية، المتحمسين للدفع بها إلى الأفضل ونحو غد مشرق، يتساءلون وقد اعتصر قلوبهم الألم والقلق، كيف فترت هذه الجهود الدعوية القوية عن مواجهة المدّ التنصيري، وكيف استحالت تلك الهمم الدعوية المشتعلة بقوة الإيمان ويقين الفكر الأقوى والأصح إلى واقع من الخمود والجمود على نحو أدى بالعمل الإسلامي المعاصر إلى الوقوف عاجزًا أعزل أمام تحديات داخلية وخارجية تستعصي على الحصر ؟. ومن ثم، فإني رأيت رسالتي في هذه الحياة، ما أشرفها حين تخصص علميًا وعمليًا للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها من قضايا الدين والدعوة والأمة! والتي تستأثر بجماع الفكر والجهد وتستوعب كل الحياة .

على أنني لست من وراء ما سبق من ملاحظات أرمي إلى التقليل من أهمية الأدوار الكبيرة التي تقوم بها جهات وشخصيات موقرة ومشكورة، كما أنني لا أغمز من قناة إخلاص عدد وافر من الدعاة المخلصين لدينهم، وتضحياتهم الغالية من أجل الدين والأمة، ولكن الرسالة أكبر وأثقل مما يمكن أن تحتمله رجال ومؤسسات مهما كان عددها، كما أن القضية أوسع من أن تستوعبها جهود مبعثرة، ومحاولات متعثرة، بينما العمل الإسلامي بحاجة إلى أضعاف الجهود المبذولة حاليًا: كمًا ونوعًا ونظمًا .

ففي مناخ هذا الإحساس المتدفق بالتحدي المتعدد المراكز والأطراف من جانب، وضرورة المواجهة الدعوية المنتصرة من جانب آخر، نشأت فكرة تبني هذا الموضوع البحثي، وفي أجواء المتابعة لما يجري على الساحة الدعوية نمت الفكرة وترعرعت، إلى أن ظهر

الموضوع إلى الوجود، وهو يرمي إلى ما يمكن إجماله من جملة الأهداف في التصور الآتـي:

فمن حيث الأهداف تطمح هذه الرسالة إلـى الإسهام المتواضع في الإجابة على عدد من الأسئلة والإشكاليات العلمية والدعوية، من أهمها: دراسة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا ووضع المسلمين فيها قديمًا وحديثًا، بالتعريج على بعض أعلام الدعوة والعمل الإسلامي فيها، ومن هو أحمد ديدات من بين هؤلاء الأعلام البارزين في حركة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقية، وذلك بتفصيل القول عن بيئته ونشأته، مع محاولة تعليل جهوده وحركته الدعويّة في ضوء تحليل المكونات الذاتية والموضوعية لشخصيته، عارضًا لحياته المبكرة، وصلته بالعمل الإسلامي في مختلف مجالاته، مما يستدعي التركيز عل جهوده الحوارية الدعويّة ممارسة وتأهيلاً للدعاة وما أسفرت عنه تلك الجهود من نتائج ثرّة تشكل موردًا للدارسين على الصعيدين العلمي والعملي، الأمر الذي يستلزم رسم معالم منهجه وبيان مسلكه العام في الفكر والعمل الدعويين بتقديم تصوره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر، بتحدياته ومتغيراته.

وبما أن الجانب الإعلامي في هذا الصدد على قدر كبير من الأهمية، فمن هنا يحاول هذا البحث تلمس ما يوليه الداعية أحمد ديدات من عناية لمختلف الوسائل الإعلامية من أشرطة مرئية مصورة، ومنشورات مطبوعة، بالإضافة إلى نشاط المناظرات والمحاضرات العامة. ويتم ذلك من خلال عروض تتسم بالتحليل والنقد، للانتقال إلى مقارنة منهج أحمد ديدات الحواري بغيره ممن يتحقق، أو يظن أن ديدات قد تأثر بهم من قدامى ومعاصرين في الفكر والممارسة الحوارية. ومؤدى هذه المقارنة وغايتها الوصول إلى ما يُمكّن من إبراز السمات والخصائص المميزة لمنهجه للكشف عما يمتاز به من إبداع وتجديد، وما يشترك فيه مع غيره من اتباع وتقليد. وهذا مما سيضعنا في موقف تقييم منهج ديدات ببيان رأي الفريق المنتقد إياه وحججهم في ذلك، مشفوعًا برأي المؤيدين وأدلتهم حاسمًا الأمر بالترجيح بين الفريقين من خلال إيضاح موقف كل من الدارس والمدروس لهذا المنهج، وعن صاحبه الداعية الكبير.

ثم إن من جوهريات أهداف هذه الرسالة الكشف عن سبل الإفادة من إيجابيات تجربته ومنهجه في العمل الإسلامي، ويقتضي ذلك في حد ذاته التطرق إلى عدد من أهم الدوائر والمحاور الدينية والفكرية، كنماذج لما يمكن توظيف المنهج الديداتي في حقولها الدعوية والحوارية. مع عدم إغفال الحديث دومًا عن بعض الآليات والمقترحات التي نراها كفيلة بضمان التوظيف الأمثل والأفعل لهذا المنهج، إن صح أنه دعوي ومفيد.

تلكم هي حدود هذه الرسالة ومستهدفاتها التي سوف يسعى الباحث بعون الله تعالى إلى تحقيقها أو بعضها في حدود قدراته المتواضعة ووفق الفرص والإمكانيات المتاحة له، آخذًا في الاعتبار أن نطاق هذا البحث واسع بتضمناته، ومتشعب بقضاياه. وما أسعد الدارس وأعظم حظ هذه الدراسة من التوفيق إن قدر لها أن تشكل مدخلاً علميًا صحيحًا وموضوعيًا، ولو إلى بعض من أهم قضايا هذا الحقل العلمي الفسيح المترامي.

وهكذا ترتسم في آفاق هذه الحدود والغايات البحثية ملامح الأهمية العلمية لهذا الموضوع، والتي بالإمكان تفصيل القول فيها على النحو اللاحق :

فمن حيث أهمية هذه الدراسة فهي ذات حيثيات متنوعة ومتكاملة، نذكر من بينها :

أ ـ بالنسبة للعلم : فالموضوع كما تم عرضه يشكل مجمعًا مفقودًا لمثلث معرفي متكامل طالما عانى الفكر الدعوي من مسيس الحاجة إليه، ويتمثل ذلك في التوثيق المعرفي بين علم الدعوة تاريخًا ومنهجًا وأعلامًا في قطر من الأقطار الأفريقية، وبين دراسة العمل التنصيري في جانب منه بإمكاناته ووسائله، بالإضافة إلى أنشطة واتجاهات أخرى مناوئة للفكر الإسلامي الصحيح.

ومن ثم، الوقوف على سبل مواجهة كل تلك الأنشطة المضادة بالاستعانة بآداب الحوار، ونتائج علم مقارنة الأديان تراثًا وممارسة، ذلك العلم الذي يوظفه الآن أعداء الإسلام لمحاربته، بعد أن افتقد المسلمون زمام الريادة والمبادرة فيه. هذا ومن شأن بوتقة بحثية كهذه تنصهر فيها معارف ثلاث أن تعمل على إحياء منهج عملي مهمل أو

صياغة جديد أو مجدد، يتوقع منه في كل الحالات أن يقدم الكثير لحاضر العمل الدعوي وغده بطموحاته وآماله، كما أنه يسهم في تطوير فهم عامة المسلمين لأساليب الدعوة التي لا تزال عند كثير من الدعاة تنحصر في الخطب والمواعظ الدينية على نحو تقليدي بعيد عن واقع الحياة المعاصر بهمومه ومتطلباته.

والموضوع بهذا الاعتبار يعد بحثًا وبلورة منهجية معقولة ومعتدلة لما بات يعرف بالخطاب الدعوي الإسلامي المعاصر، على تنوع مقولاته وتعدد أنماطه. ولاشك أن الوقوف على تجربة ديدات وتفهم جهوده ومنهجه يمثل تجلية حقيقية لجانب هام ومتميز من هذا الخطاب، فضلاً عن الإخطار بضرورة التحري ووضع الخطط المضادة تحسبًا لكافة المخاطر والمحاذير التي تحيق بالدعوة والأمة قبل وقوعها. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ومن المعلوم علميًا أن الدعوة إلى الله تعالى عن طريق الكتابة والحوار والإقناع، لها تأثيرها الكبير وبخاصة في عصرنا هذا، الذي بدا فيه كثير من الناس عقلانيين يعتمدون على الحقائق المقنعة، ويتلمسون من خلال الأديان ما ينقذهم من حيرتهم، ويأخذ بأيديهم من غرقهم المادي العقدي إلى شاطئ السعادة والنجاة.

ب ـ **ومن حيث الدعوة والعمل الإسلامي**: فإذا تأكد الاعتقاد بأن العالم في هذا القرن سيشهد عودة قوية إلى الأديان ودعوة ملحة للإيمان وأنه لابد من العودة إلى دين الفطرة والحق، ليقتبس منه العزاء عن معاناته وشقائه الحاليين، ويستمد منه المعاني الروحية الكبيرة والخالدة، فتتحتم على أساسه الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة في أوسع وأشمل دلالتها، بما فيها الرد بأسلوب علمي وفني جذاب على ما ينسب ويثار ضد الإسلام من شبهات وأباطيل، وما يرمى به أهله من جمود وتطرف وإرهاب... !!!

هذا ومن ناحية أخرى تكمن الأهمية الدعوية لهذا الموضوع: في قلة وانعدام الدعاة المحاورين بالتي هي أحسن بالمعنى الشامل الفاعل من بين دعاة العصر؛ إذ يغلب على تكوينهم العلمي واتجاههم العملي التقوقع على الذات في مجتمعات وأجواء

إسلامية، أو ممارسة الدعوة في أوساط وثنية في حالات نادرة، مهملين بذلك أكبر جماعة دينية ضالة في العالم، وهم الصليبيون الذين ينشرون شباك المكائد للمسلمين، لاصطيادهم إلى حظيرة الغواية والضلال، أو الإيقاع بهم خارج حدود دينهم ليحيوا ملحدين، أو علمانيين في أحسن الأحوال المذمومة .

وليس أقل شأنًا وتأثيرًا من هذا دوره في مناهضة تغلغل النفوذ الصهيوني اليهودي في عموم القارة الأفريقية، ولاسيما في إقليميها الشرقي والغربي على نحو أخص. ويأتي ذلك - في إحدى إمكاناته - بتوظيف منهج الشيخ ديدات ضد دعاته وعملائه، وكافة مناصريه، إظهارًا لمكائده وفضحًا لمقاصده، ولربما يدرك كل هؤلاء وأولئك خطورة الدور الذي يمكن أن يؤديه هذا المنهج في ممارسة نوع ملحوظ ومجتنب من التهديد لمواقعهم الفكرية، على نحو من القوة والنضج لم يسبق لهم أن عاينوا مثلها من قبل، وكل ذلك يعني أن لهذا المنهج من الفاعلية والغلبة ما يشكل به خطرًا على الحياة الدينية والفكرية المعاصرة، ولاسيما المضادة للإسلام والمسلمين، على نحو وبقدر لا يمكن إنكاره .

فهل يحمل بعض دعاتنا عبء هذا المنهج المحمود، فيعيدوا للدعوة أمجاد انتصاراتها، ويحققوا للأمة دفاعًا قويًا يخاف ويحذر منه كل الحذر؟؟. وإني لأرجو من هذه الدراسة أن تضعنا على الطريق الصحيح نحو كل تلك الغايات المنشودة، بناء على الأهمية المركزية والاستثنائية المعلقة على هذا المنهج الذي نصبو إلى دراسته من شتى جوانبه .

جـ- **وأما بخصوص أهميته للباحث :** فيتوخى من هذه الدراسة أن تهيء للدارس معرفة علمية أعمق بالموضوع إلى القدر الذي يتحقق له من خلاله طابع التخصص والخبرة في هذا المجال، كما يؤمل منها أن تتيح له حسن التمرس على الكتابة العلمية، بمقاييس البحث العلمي المتعارف عليها، الأمر الذي من شأنه تنمية قدراته الجامعية، وترقية مستنداته إلى الأفق الذي تنمو في رحابه شخصيته العلمية على نحو منهجي معتمد مطلوب .

ومن هنا حق لموضوع مثل هذا أن يستقطب هموم واهتمام باحث مبتدئ في مثل حالي ومستواي، ولولا ما أسلفت الإشارة إليه من أهميات متنوعة، ما كنت لأعنى بهذا القبيل من البحث الصعب المراس، مع عظم فائدته، وتنوع مشكلاته، والتي نذكر منها ما يلي:

1ـ مشكلة الانطلاق من فراغ بحثي للتأسيس العلمي لموضوع بلا أساس:

إن انعدام دراسات سابقة تؤسس لهذا الموضوع شكلت عقبة مثيرة أمام الباحث، ولعل سبب ذلك عائد إلى تحفظ البعض، واعتراض البعض الآخر على إجراء دراسات من هذا القبيل، تتناول شخصيات معاصرة، وربما حيّة؛ وذلك بدعوى حياة العَلَم المراد درسه، وأن مصيره وعاقبة أمره مجهولان، ومن ثم فإن تجربته غير مكتملة باعتبارها قابلة للمراجعة والإضافة، والإقدام والإحجام.... إلخ. وبينما تلوح أحيانًا مثل هذه الآراء والمواقف الفكرية في بعض أجواء البحث العلمي نجد في واقعنا المعاصر العديد من المؤسسات العلمية شرقًا وغربًا ترحب بدراسات علمية عن شخصيات حيّة، وفي هذا ما فيه من احتفاء بالعلم وتكريم له في حياته، والإفادة وهو حي من تجربته ومنهجه، قبل اللجوء إلى البحث عنه في ركام الصفحات والمذكرات بعد رحيله بتفويت فرصة الإفادة منه، فيضيع بذلك جزء كبير من مفاتيح شخصيته وحياته، ونفتقد قدرًا لا يستغنى عنه من تجربته وعطائه. والواقع أن المعلومات المدونة مع أهميتها فإنها لا تعدو أن تغطي بعضًا لا كلا ممّا يرجى الانتفاع به في حياة عَلَم من الأعلام.

وبما أن ديدات لم يعن بالتوثيق العلمي لسيرته الذاتية، فضلاً عن عدم عناية الدارسين قبلي بهذا الشأن ـ وذلك في حدود ما أعلم ـ إلا ما كان من تصريحات صحفية، وردت في صفيحات قليلة من كتاب: «هذه حياتي» «سيرتي ومسيرتي» من إعداد أحد الإعلاميين، فإن هذا الواقع من غير شك يشكل عائقًا بحثيًا كبيرًا، إلى جانب أن لغة مناظراته ومحاضراته، وكافة أعماله الدعوية، هي اللغة الإنجليزية التي لا يجيدها الباحث، ومن هنا دعت الضرورة إلى الاستعانة بعدد من الإخوة والزملاء لتعريب ما

تمس الحاجة إليه من أشرطة مرئية، ومنشورات مطبوعة، كما أني وجدت إسعافًا علميًا لا يمكن إغفال مكانته وأهميته بحال من الأحوال، وذلك من خلال مجموع الجهود الطيبة، التي أقدم عليها كل من دار المختار الإسلامي، ودار الفضيلة المصريتين، في تعريب ونشر أهم أعمال ديدات من مناظرات ومحاضرات، وبحوث، ومنشورات دعوية عامة. وليس بوسعي في هذا المقام أن أمنع نفسي من ميلها إلى تخصيص اعتبار خاص للأستاذ: علي الجوهري على أمانة ودقة معرباته الصادرة عن دار الفضيلة، فهو حقًا أحد الرجال الذين يفرضون على المرء الاعتراف بفضلهم، كما يقطعون لأنفسهم سهمًا وافرًا من حب طلبة العلم وتقديرهم إياهم، حتى دون لقاء سابق بين الطرفين.

وإن هذا البحث مدين له في وجوده إلى حد كبير، ولولا جهوده الطيبة لتعثر العمل وربما تعذر إنجازه.

وأما بخصوص المعلومات المتعلقة بالإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا، فقليلة هي المقالات التي عثرنا عليها بالكاد، بعد جهود مضنية ومشقة تنقيبية بالغة، إذ أن الكتابات العربية من كتب، وبحوث، ومقالات، لا تلحظ حتى الآن حركة الإسلام وشؤون المسلمين في جنوب أفريقيا إلا لمامًا. وقلما، يساق - هذا النادر أيضًا - في قالب علمي مكين، بل غالبًا ما يورد في سياق أدب الرحلات والمذكرات.

ولعله يتبين من خلال تصور هذه المشكلة على حقيقتها أن هذه الرسالة وليدة مخاض متعسّر، وفي ظروف نفسية كان من سماتها أحيانًا الحيرة والاضطراب ولكن بفضل الله استحالت هذه المشكلة البحثية مع سلبيتها البينة، وصعوبة ما تطرحه من تحد وإعاقة، إلى عامل إيجابي شجع كثيرًا على ضرورة إنجاز هذه الرسالة، وظل يبرر للقيام بهذا العمل بما يفيد أن من شأن مشكلة من هذا النوع أن تتيح أكبر فرصة ممكنة للبحث، ليكتسب جدته وأصالته دون منازع أو مزاحم.

2 ـ إثارة البحث لإشكالية معرفية ومنهجية :

من مشكلات هذه الدراسة في غياب دراسات سابقة للشيخ ديدات بدعوته

ومنهجه، أنها تثير – ضمنًا – نوعا من الإشكالية، وهي ذات بعد معرفي ومنهجي معًا، ألا وهي من الناحية المعرفية: إلى أي مدى يتاح لباحث ناشئ مبتدئ أن يشكل للآخرين مرجعية علمية، بأن تسند إليه عهدة رواية وطرح بعض المسائل والقضايا التي قد يتفرد بإبداعها، مما لم يسبق إليه؟

ذلك أن مقتضيات التوثيق والتحقيق منهجيًا تلزم حتى الآن بالعودة إلى جهود سابقة، للتأسيس عليها.

وفيما يخص دراسات عن الشيخ ديدات، فقد علمنا فيما سبق أن محاولات من هذا النوع لا تزال ليومنا هذا معدومة.

ومن جانب آخر تمثل البعد المنهجي لهذه الإشكالية في طرق الاستفادة في هذا البحث من التقارير والمراسلات الإدارية المفتقرة إلى عناصر التوثيق المنهجي، فضلاً عن كونها غير متاحة لعامة الناس، للاطلاع عليها للتأكد من صحة المعلومات المقتبسة منها، كما أن كيفية الاستفادة من معطيات مقابلات شخصية أجريتها مع بعض كبار الأساتذة والدعاة، لم تكن هي الأخرى هينة، بل كانت من الإشكالية بقدر وحجم ما سبق؛ ذلك أني ائتمنت فيها نفسي ولا أزكيها على أمانة التعبير، ودقة نقل تلك الآراء إلى البحث، في حين لا تتاح لكثير من الناس فرصة التحري والتأكد من صحة عزو تلك النقولات الشفهية إلى أصحابها بكل ضبط وإتقان.

وفي هذا الصدد نخلص إلى الاعتراف: بأن من الصعب جداً في هذا العصر إجراء دراسات جامعية، عن شخصيات غير جامعية؛ ذلك أنها تكون في الغالب متحررة عن المعايير والضوابط العلمية المتعارف عليها حاليًا، وهذا مما يجعل إخضاعها للدراسة في ضوء تلك المعايير مهمة علمية عسيرة، في غاية الإشكال وبالغ الصعوبة.

وعلى أساس ما تقدم بيانه عن الموضوع بقضاياه وإشكالاته، تحددت الاختيارات المنهجية لمعالجته، وهي بالنظر إلى طبيعة الموضوع عديدة ومتنوعة، حيث إني اعتمدت في دراستي هذه، جملة من المناهج البحثية، من أبرزها المنهج الوصفي التحليلي،

الذي تجلى واضحًا في كثير من جوانب هذا البحث : في مستويات السرد والعرض ، والطرح ، وبخاصة ما يتعلق بقضايا المناهج والتاريخ ، والسيرة ، غير أنه لم يكن من شأني في هذا العمل سرد سيرة حياة ديدات بأروع وأدق تفصيل ، فهذا شأن أدبي وتاريخي خالص ، بل وإنما كان اهتمامي منصبًا على استكشاف الجوانب الأساسية والتأسيسية منها ، وعلى ما يمكن أن يسهم بقدر يسير أو كثير في تنوير آفاق هذا البحث ، وإضاءة ضروبه المنهجية المجهولة ، كما أن من أهم المناهج التي أخذت بها في هذه الدراسة ، المنهج النقدي البناء الذي لم يكن استخدامه قاصرًا على إبداء ملاحظات نقدية إزاء مواقف وأعمال الشيخ ديدات فحسب ، وإنما طال آخرين ممن تتسع صدورهم غالبًا لممارسة علمية منهجية موضوعية ، من النوع الذي تعددت موارده في هذا البحث ، وكان رائدي في كل ما أقدمت عليه من انتقادات هو البحث عن الحقيقة والكشف عنها ، بموضوعية لا تعير أهمية لاعتبارات غير علمية ، ولا تفتح حسابا للعواطف والأحاسيس المهترئة ، فضلاً عن المجاملات الرنانة الفارغة .

وأيضًا في الحديث عن مناهج الدراسة ، يلاحظ في ثناياها توظيف جوهري وبارز للمنهج المقارن ، الذي غطى بحضوره المكثف مختلف المقارنات التي عقدت بين المناهج والموضوعات والأساليب والأفكار ، سواء بين ديدات من جانب ، وبين الحواريين القدامى والمعاصرين من جانب آخر ، أو بين اتجاهات وشخصيات دينية أو فكرية من جهة أخرى .

وقد ظلت المحاولة جارية في مختلف مراحل الدراسة وعلى امتدادها ، لفهم القضايا المنهجية والفكرية المدروسة في إطار متكامل من الاستقراء والتركيب ، لما يؤمن الدقة والشمولية في التصوير والأحكام والنتائج ، التي قد يتوصل إليها من خلال مختلف فصول هذه الرسالة بمباحثها وأجزائها .

على أن ثمة ملاحظات ، هي ذات اتصال وتعلق بالنواحي المنهجية المعتمدة ولابد من التنبيه والإشارة إليها بذكرها مجملاً على النحو الآتي :

1 ـ لقد راعى الباحث كما حرص غالبًا على عدم الحيلولة بين الشيخ ديدات والقارئ فأتاح لمن يقرأ هذا البحث فرصة التلقي المباشر من ديدات دون وسيط ثالث، عله يصل إلى استكناه بعض المعاني التي قد تفوت على الباحث مع أهميتها، وتلك التي قد لا يعيرها - دون قصد - اهتمامًا كافيًا وجديراً بها .

2 ـ قد يؤخذ على الباحث أحيانًا التكرار في إيراد أفكار وأمثلة كان يمكن تكثيفها في صفحات أقل، دون أن تفقد أهميتها، ومع قوة هذه الملاحظة وصوابها إلى حد كبير إلا أنها مدفوعة بمبررات وتعليقات متعددة منها:

مراعاته لطبيعة الخطة المرسومة لهذا العمل، وتعدد الشواهد والأدوار التي يمكن أن تمثلها الفكرة أو المثال الواحد، ولاسيما إذا كان الموضوع على وحدة فكرية متداخلة، بالإضافة إلى الرغبة في شمولية التناول؛ تأسيسًا لدراسات ديداتية لاحقة، فضلاً عما تواجه هذه المهمة من مطبّات عصية، بسبب ضمور فادح في المعلومات المطلوبة .

3 ـ كما أن من اللافت للنظر تفاوت أحجام مباحث وفصول هذا البحث على نحو ملحوظ ومثير للتساؤل أو الاعتراض؛ وذلك ناشئ عن التفاوت الطبيعي في حدود الموضوعات والقضايا التي تتضمنها تلك المباحث سعة وضيقًا، بالإضافة إلى نسبية المعلومات المتوفرة عنها قلة وكثرة .

ومن ثم آثرت - وأنا بين خيارين - التضحية بالشكليات والظواهر، لصالح المضامين والجواهر.

4 ـ ثم إني وإن كنت قد توسعت أحيانًا في الاطلاع على المراجع العامة، والإكثار تارة من إيراد نقولاتها في هذا البحث، كوسيلة للنقد أو الاستشهاد، أو لاقتصاد عناء التعبير عن كثير من الأشياء التي أوافق فيها أصحابها، إلا أني مع ذلك لم أحرم نفسي - علميًا - من حقوق النقد والتعليق، والأخذ والرد . . . إلخ .

وتلكم هي جملة الحدود المنهجية التي وجهت مسار هذا البحث في ثناياه، ومنعطفاته، من منطلقه إلى مرساه .

وأما فيما يختص بخطة الدراسة وتقسيماتها، فقد آثر الباحث إجراءها بحسب الأقسام، والأبواب، والفصول، والمباحث على الخطوات المرسومة على الهيكلية الواردة على النحو الآتي بالإجمال من غير تعليقات:

عنوان البحث:

«منهج الشيخ أحمد ديدات في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة»

المقدمة:

القسم الأول: دراسة في التاريخ، والسيرة، والأنشطة، والمناهج، والوسائل، والمواقف.

الفصل الأول: الإسلام والمسلمون في جنوب أفريقيا.

المبحث الأول: جمهورية جنوب أفريقيا بين الموقع الجغرافي والواقع التاريخيّ

المبحث الثاني: تاريخ دخول الإسلام إليها وانتشاره فيها.

المبحث الثالث: الوضع المعاصر للمسلمين والعمل الإسلاميّ في جنوب أفريقيا.

المبحث الرابع: من شخصيات وتنظيمات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا.

الفصل الثاني: أحمد ديدات بيئته ونشأته.

المبحث الأول: التعريف به وبعائلته في جنوب أفريقيا.

المبحث الثاني: بداية عهد الداعية أحمد ديدات بالعمل الإسلامي.

المبحث الثالث: أنشطته ومجالات عمله الإسلاميّ

الفصل الثالث: منهج ديدات الحواري بين مؤثراته وتأثيراته.

المبحث الأول: جهوده ومنهجه في حواراته

المبحث الثاني: شخصيته بين مؤثراتها الموضوعية ومكوناتها الذاتية.

المبحث الثالث: صدى حواراته في عالم الاعتقاد والدعوة

الفصل الرابع: جدلية الممارسة والفكر في عمل ديدات الدعوي

المبحث الأول: من وقائع الدعوة في حياة ديدات «صور، ومواقف»

الدينية .

المبحث الأول : الحوار الإسلامي المسيحي بين الواقع والمرتجى .

المبحث الثاني : أ ـ مسالك ديدات في محاورة ودعوة اليهود والصهاينة إلى الإسلام .

ب ـ نحو ضرورة استيعاب الحوار الدعوي لكافة الاتجاهات الدينية في العالم .

الفصل التاسع : الحوار الدعوي مع مختلف التيارات الفكرية .

المبحث الأول : الحوار مع المستشرقين

المبحث الثاني : الحوار مع اتجاهات الغلو الفكري ، والشطط الأدبي ، نماذج : محمد أركون ، حسن حنفي ، نصر حامد أبو زيد ، سلمان رشدي

المبحث الثالث : الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي ، ضرورته آلياته إمكانياته

الخاتمة : مستخلصات البحث ونتائجه العامة .

شكر وعرفان :

وفي الختام :

فبالنظر إلى أهمية الأهداف التي تتطلع إليها هذه الرسالة ، والتي تكون قد أدت مهمتها إن قاربتها بمس أولي خفيف ، أو لفتت النظر إلى قضيتها باعتبارها من أهم الموضوعات على الصعيدين الدّعوي والديني العام ، فإني أقرّ بأن هذا البحث باعتبار أهدافه وغاياته ، هو فوق طاقتي ، وكان من الصعب جداً مع كل الصبر والجهد الملتزم التصدي لهذه المحاولة بزاد فردي ورصيد ضعيف ، لولا ذلك التعاون الواسع الذي كان من حظوظ هذه الرسالة وله الفضل الكبير عليها . ومن هنا تتجه العناية إلى تعميم الشكر لكل من شاركني في هذا العمل قلبًا وقالبًا ، ماديًا ومعنويًا ، فلهم مني جميعًا كل التقدير وغاية العرفان . على أن مبدأ الوفاء يلزمني لاعتبارات كثيرة بتخصيص شكر خاص إلى كل من الشخصيات والجهات التالية ، وفي مقدمتها : مشرفاي الفاضلان

الدكتور: محمد فتح الله الزيادي، والدكتور: عارف علي النايض، حفظهما الله وأدام سعادتهما بنشر العلم، وتعهد طلبته، والرعاية الكريمة للدعاة إلى الله. وفي هذا المقام فإني بخصوص الدكتور: محمد فتح الله الزيادي أعترف بحق أن تأثيره الفكري عليّ، وإعجابي بمنهجه التعليمي واتجاهه العلمي الراقي والأصيل كانا إلى حد كبير من أهم الدوافع التي أملت عليّ بعد انتهائي من المرحلة الجامعية فكرة البقاء لمواصلة الدراسات العليا .

وإني مدين له على كرمه المادي والمعنوي، بما يخرج عن طوق التعبير، ويظل في نطاق الشعور والضمير.

وفيما يخص الدكتور: عارف علي النايض من جهته، فإني أعتقد أنه منح العديد من أمثالي دافعية قوية نحو العلم والصلاح، لقد خلق فيمن حوله من الدارسين إحساسًا صادقًا بأهمية العظمة والطيبوبة، وقد ألفيته بمناسبة محاضراته ولقاءات إشرافه المشترك على هذه الرسالة، مثقفًا كبيرًا من طراز رفيع نادر، ذا شخصية ودودة، ونزعة إنسانية فياضة كريمة، يدوم له عندي من الثناء والاعتبار ما لا حدود له .

والحقيقة أن هذا العمل قد اعترضته جملة من العوائق، ولكن تجاوبهما الدائم معي برغم تعدد الشواغل وضغط الصوارف وتعاونهما الطيب كذلك، كانا من الدعم والتشجيع في المستوى المطلوب، ومن دونهما بفضل الله لم يكن لهذا العمل أن يتحقق.

وقد أحسست بأن اللجنة العلمية بالكلية أرادت تكريمي حين أسندت مهمة الإشراف على هذه الرسالة إلى علمين بارزين من علماء هذا البلد، فكنت بينهما بمثابة واد سحيق تنساب فيه فيوض شلالة من جرعات الفكر والمعرفة، والتوجيه العلمي السديد، فلها مني كل الشكر والتحية .

وليس مما يفوتني شكر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بمؤسسها وراعيها العظيم، وأمينها الشريف محمد أحمد الشريف ومعاونيه، وكافة الموظفين الأكارم في الخارج والداخل، على جهودهم ومجهوداتهم المتواصلة من أجل تعميم وتجديد الخطاب الدعويّ، وكذلك تفعيل العمل الإسلامي في عالمنا المعاصر، والدفع بالأمة نحو ما يشرف

دينها من موقف ومكانة. وإني أؤكد لهم بأن المسلمين في كل مكان سعداء بهذا الدور الإنساني الكبير الذي يؤدونه، وهم بذلك يتفاعلون مع مناشط الجمعية وإنجازاتها المتنوعة بقلوب مفعمة بالسعادة والتوقير، وبنظرة حافلة بالإعجاب والارتياح.

وأما كليتي الموقّرة، كلية الدعوة الإسلامية، فهي في مدد عطائها المتدفق، تمثل دوحة فينانة لاحتضان المحرومين من طلبة العلم، وخدمة الدعاة إلى الله، وهي بما تتيحه من فرص نفيسة وكثيرة في هذا السبيل، تعد أملاً قويًا وكبيراً في نفوس من يتطلعون إلى العلم والدعوة، من أبناء أمتنا الإسلامية من شتى بقاع المعمورة.

وإني أشهد لها بأن العديد - وما أكثرهم - هم أولئك الذين - من منطلق العرفان والوفاء - يشعرون بالدين الثقيل تجاهها؛ ذلك أنهم استفادوا من الكلية معنى رسالتهم في الحياة، وإمكانية تحققها، بوعي فكري منهجي نادر مفقود، وكفاءة علمية وعملية عالية ومطلوبة، وإني أحس بأني غير قادر على ترجمة أحاسيسي ومشاعري إزاء هذه الكلية الحبيبة المعطاءة، والتي هي بمثابة أم ثانية بالنسبة لي ولآلاف من أمثالي.

كما أني لاعتبارات موضوعية وخاصة لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر الشكر وصادق العرفان إلى عميدها الفاضل الدكتور: المختار أحمد ديره - رعاه الله ووفقه - على منهجه الأبوي التربوي السليم، وعلى تواضعه الجم، وصبره الواسع علي ومعي بالذات، وعلى كل ما ظلّ يخصني به من لطف المعاملة وكرم التدليل، إلى جانب اهتمامه المرهق، بمتابعة شؤون أبنائه الطلبة، وسعيه الجاد والمخلص في ضمان سعادتهم، وتأمين نجاحهم. وعليه فإني وكثير غيري كذلك مدين له من أعماق القلب لجهوده الدؤوبة الطيبة بما لا سعة ولا إمكانية للإفصاح عنه.

ولابد في هذا الصدد من إزجاء الشكر العميم لكل جنود الإسلام الأوفياء من موظفي الجمعية والكلية على طول نفسهم في أداء الواجب، وتحمل مشقة وأعباء هذا الجهاد الدعوي التعليمي العسير، كما أنه لابد من اعتبار استثنائي خاص لكل الأساتذة الأفاضل الذين يتعاونون رسالة التربية والتعليم في كل مكان من العالم الإسلامي، وبخاصة في كلية الدعوة الإسلامية - فتحية خالدة ومتجددة لهم، على تضحياتهم الغالية في أخذهم بأيدينا

من تخبط الجهل إلى أبواب العلم والثقافة والوعي، ومن أجل إضاءتهم لنا الطريق نحو نور الفكر، والهدي الإسلامي الصحيح الأصيل.

وممن يتسع قلبي دائمًا لشكرهم وشكرهم، وإن لم تتسع له الصفحات، أولئك الزملاء والأحباب الذين قدموا لي - كل في حدود وسعه وفي نطاق ظرفه - كلّ خدمة اقتضاها إنجاز هذا العمل من ترجمة، وكتابة، ومناقشات فكرية، ومعونات مرجعية، وطباعة، وتسهيلات إدارية وغيرها، فكل منهم حقيق بشكري وعرفاني، وجدير باعتباري وتقديري الخاص لشخصه الكريم. فما أكثر هؤلاء الناس، وما أسلم الإعراض عما يجرح تواضعهم، ويطعن في كرمهم وإخلاصهم بذكر أسمائهم فردًا . . . فردًا.

فإلى كل الإخوة والرفاق من طلبة الكلية سابقين ولاحقين ومعاصرين، تحية شكر وعرفان وتقدير، أجزلها لهم وافرًا؛ لما غمروني به من صدق المحبة وفُرُطِ الثقة والإعجاب، لقد وجدت نفسي في كل مراحل الدراسة والبحث مدعومًا بما يلزم من تشجيعهم الدافئ، والذي سيظل بدفعه القوي يلازمني بعون الله تعالى في كل مراحل، ومواقف، ومشاريع حياتي في حاضرها ومستقبلها.

وللأستاذ: سعيد حديدان مسجل الدراسات العليا تحية تليق بدوره وإخلاصه، ومني كذلك للأستاذ: عمر الشائبي من الثناء والشكر ما يفي بحقّ وفضل طباعته الجيدة والدقيقة لهذه الرسالة العلمية، وغيرها من الرسائل التي يرجى أن يكون لها ما بعدها علمًا وعملاً وإصلاحًا ودعوة إلى الله تعالى على بصيرة: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: 33].



الفصل الأول

الإسلام والمسلمون في جمهورية جنوب أفريقيا

المبحث الأول: جمهورية جنوب أفريقيا بين الموقع الجغرافي والواقع التاريخي .

المبحث الثاني : تاريخ دخول الإسلام إليها انتشاره فيها .

المبحث الثالث : الوضع المعاصر للمسلمين والعمل الإسلامي فيها .

المبحث الرابع : من شخصيات وتنظيمات العمل الإسلامي فيها .

المبحث الأول

جمهورية أفريقيا بين الموقع الجغرافي والواقع التاريخي

أولاً: الموقع الجغرافي:

1 ـ الموقع الجغرافي : في أقصى الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية تقع جمهورية جنوب أفريقيا مطلة على المحيطين الهندي والأطلسي غربًا، ويتاخمها أربعة بلدان تحدّها شمالاً من الشرق إلى الغرب، وهي كلّ من: موزامبيق، وزيمبابوي وبوتسوانا وناميبيا[1].

وتبلغ مساحتها حوالي: 1.221.037كم ويقدّر عدد سكانها لعام 1997ف بـ43.715.000 نسمة، فيما تصل توقعات النمو السكاني في جنوب أفريقيا عام 2001ف إلى 48.904.000 نسمة، وقد كانت حتى عام 1994ف تتكون من أربع مقاطعات تتمثل؛ في الكاب «رأس الرجاء الصالح، ومقاطعة ناتال، وتراسفال، وولاية الأورايخ الحرّة»، وفي عام 1994ف استبدل بهذه المقاطعات الأربعة تسع مقاطعات حلّت محلّها .

وتبعًا للتقسيم الثلاثي لأجهزة الحكم، ونظام الفصل بين السلطات توجد في جمهورية جنوب أفريقيا ثلاث عواصم هي: مدينة كيب تاون وهي العاصمة التشريعية، وتعتبر بريتوريا العاصمة الإدارية وبها تتمركز الوزارات والإدارات الحكومية، وتتمثل العاصمة القضائية في بلومفونتين إذ توجد بها كافة الهيئات القضائية وما يتصل بها.

ومن الناحية الحضرية تأتي كل من: مدينة كيب تاون[2]، ودربان[3]،

---

(1) ينظر: موسوعة السياسة، ج2/ 102 ط1/ 1981، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

(2) كيب تاون هي العاصمة الدستورية لجنوب أفريقيا، حيث تعقد بها جلسات البرلمان وتقع في أقصى طرف القارة الجنوبي الغربي، وقد جعل منها موقعها في مجمع المحيطين الهندي والأطلسي جنوب أفريقيا بعد ديربان، من الموسوعة العربية العالمية ج30/ ص: 303 - 355 ط3/ 1419هـ 1999ف، الرّياض.

(3) ديربان: ثالثة كبريات مدن جنوب أفريقيا، وهي الميناء الرئيسيّ في المنطقة الشرقية في جنوب أفريقيا، وتقع على المحيط الهندي، ويوجد بها مركز سياحي هامّ ينتمي ما يقرب من نصف سكانها إلى أصول آسيوية، معظمهم من الهند ومن المسلمين والنّصارى، فهي تعدّ أكثر المصايف الساحلية شعبية وشهرة في جنوب أفريقيا، ينظر الموسوعة العربية العالمية ج10/ 558، 559، مرجع سابق.

وجوهانسبرج[1]، في مقدمة كبريات المدن الحضرية على أن الأخيرة تشكل أكبر مدينة سكانية في جنوب أفريقيا.

2 ـ **التضاريس والمناخ**: ومن حيث سطح الأرض في جنوب أفريقيا فإنه موزع مابين هضبات عالية ممتدة، وجبال شاهقة شامخة، وأودية عميقة مقعرة، إلى جانب سهول خصبة تمتد على ضفات الشواطئ الجميلة على امتداد الساحل، إضافة إلى عدد من الأنهار المتفاوتة الأبعاد والأهمية، والتي من أطولها الأورانج الذي ينبع من ليسوتو ويصب في المحيط الأطلسي ويبلغ طوله 2.100كم، يليه نهر ليبوبووطوله 1.500كم، وينطلق من مدينة جوهانسبرج ماراً في جنوب أفريقيا وموزامبيق، لينتهي عند مصبه في المحيط الهندي.

أمّا المناخ فإنه معتدل في عمومه وفي معظم أنحاء البلاد، تنعم الأجواء بمناخ معتدل مشمس له دوره الفائق في جذب السّواح من شتى الأماكن، وفي مختلف فصول السنة الطبيعية؛ كما أن من شأن مناخ كهذا أن يشجع على الهجرة والاستقرار باعتباره عامل جذب اجتماعي، طبقًا لمقررات علم الاجتماع.

ومن اللافت للنظر بشأن تضاريس جنوب أفريقيا أنها متنوعة ومتنافرة، إذ تتباين فيها الأوضاع الطبيعية على نحو متناقض، ولا شك أن هذا التناقض الطبيعي ذو طبيعة انسحابية على العلاقات الاجتماعية التي تنشأ في ظلاله، وتنمو جنباته والتي تعكس إلى حدّ كبير صورة الواقع الطبيعي للبلاد؛ إذ البقاع توثر في الطباع، وفقًا لما ذهب إلى ذلك سلفًا مؤرخنا المسلم المقدسي. وهذا الواقع الطبيعي المثير يفرض على الدارس ملاحظة أهميته، وتسجيلاً ذهنيًا لما يترتب عليه من آثار، لأخذها بمحمل الاعتبار، وهو ينطلق من معطيات الواقع الجغرافي كخلفية للوقوف على حقائق الاجتماع الظاهرة، واستكناه الكامنة منها.

---

(1) جوهانسبرج: أكبر منطقة حضرية من حيث السكان في جنوب أفريقيا، واحدة من أحدث وأكثر المدن ازدهاراً هناك، وهي تعتبر محور المشروعات التجارية المالية، والصناعية والتعدينية هناك، وتقع شمال شرقي جنوب أفريقيا، ينظر الموسوعة العربية العالمية ج8 ص: 635 – 637، مرجع سابق.

3 ـ **الأهمية الاقتصادية لجنوب أفريقيا** : تجمع المعلومات الواقعية والمصدرية على أن دولة جنوب أفريقيا تعتبر الأغنى والأكثر تنمية بين دول أفريقيا ، إذ تنتج نحو 40% من البضائع الصناعية في أفريقيا وحوالي 50% من المنتجات التعدينية ، و20% من الانتاج الزراعي ، وتشكل الطاقة الكهربائية المستغلة نحو 50% من طاقة أفريقيا ، وتمتلك حوالي 40% من عدد السيارات[1] . وإن إطلالة سريعة على القطاعات الاقتصادية للبلاد تكفي لتقديم صورة مجملة من الإمكانية والمكانة الاقتصاديتين اللتين تتمتع بهما دولة جنوب أفريقيا وذلك من خلال الآتي :

أ ـ **الموارد الطبيعية** : تتوفر البلاد على ثروات معدنية هائلة من الماس والذهب ، والفحم الحجري ، وخام الحديد ، والنحاس ، واليورانيوم ، والفوسفات ، ومختلف الأصناف المعدنيّة الأخرى ما عدا النفط ، وهذه المعادن تشكل مصدر قوة اقتصادية وسياسية لجنوب أفريقيا في مبادلاتها التجارية مع العالم الخارجي ، فضلاً عن أساسيّتها في تشكيل مستلزمات القاعدة الصناعية المتقدمة نسبيًا لهذه البلاد ، والتي لها شأن لا ينكر في عالم الصناعات المعاصر .

ب ـ **القدرة الصناعية** : تحتل الصّناعة في اقتصاديات جنوب أفريقيا موقعًا متقدمًا وذا قدر كبير من الأهمية ، حيث تنتج مصانعها ما تحتاج إليها البلاد من بضائع ومعدات كالنسيج والملابس والصناعات الحديدية والمعدنية من سيارات ، وطائرات ، وأحواض بحرية[2] ، وقد بلغت حصة الصناعة في الناتج الوطني الإجمالي نسبة 37% ، وقد أكد أحد الباحثين على تطور وتنوع الصناعة في هذه البلاد فسجّل قائلاً : «... فهذا الإقليم لم تتطور موارده الزراعية والمعدنية فحسب ، بل قطع خطوات لابأس بها في سبيل الاقتصاد الصناعي المتنوع»[3] .

والملاحظ أن معظم المصانع الهامة تتمركز في مدينة كيب تاون ، وجوهانسبرج ،

---

(1) ينظر : الموسوعة العربية ج3/ 504 ، ط2 عام 1419هـ 1999ف الرّياض – السعودية .

(2) ينظر : الموسوعة مج2/ 352 354 ، ط الشركة الشرقية للمطبوعات 1993ف جنيف – سويسرا .

(3) د . حسن أحمد محمود ، السلام وانتشار الثقافة العربية في أفريقيا ، ص : 7 ، ط دار الفكر 1420هـ 1999ف .

ودربان، وغيرها من المدن الصناعية، وهذا التمركز الصناعي فيها أدّى بدوره إلى اكتظاظها بالسكّان الذين وفدوا إليها في ظروف متباينة ومتباعدة باختلاف أجناسهم من داخل البلاد وخارجها، ولأسباب متعددة تتعلق في جملتها بالبحث عن فرص ملائمة للحياة، والاستثمار، فأصبحت بذلك من أشهر المراكز الحضرية في البلاد.

ج ـ الثروة الزراعية والحيوانية : ومن حيث الزراعة تعتبر جنوب أفريقيا من الدول التي تحقق لنفسها اكتفاء ذاتيًا من المنتجات الزراعية، إذ تتنوّع فيها المحاصيل الزراعية، والتي تشمل الغلاّت الرئيسة من القُونيّات التي يقتات بها، إلى جانب الفواكه والخضروات المتنوعة. ولوفرة الانتاج يجرى التزاوج بين كل من الزراعة التجارية المعتمدة على الوسائل الحديثة لتلبية حاجات السوق، ويتميز هذا النوع بكبر وسعة مزارعها، والزراعة العائليّة الخاصة وتستخدم فيها الوسائل التقليدية في مزارع صغيرة مقارنه بسابقتها[1].

هذا وتلعب الثروة الحيوانية دورًا مكمّلاً للإنتاج الزراعي، ومن خلالها تصنّف جمهورية جنوب أفريقيا في قائمة الدول المعبّرة في تربية الأغنام والأبقار والدواجن ووفرة ما ينتج عنها من لحوم، وبيض، وألبان ومشتقاتها، بالإضافة إلى الصوف وهو أحد الصادرات.

د ـ التجارة الخارجية : ففي مجال التجارة الخارجية، يشكل أحد صادراتها كلٌّ من الذهب والماس والمعادن، والصوف، والذرة السامية والسكر، والفواكه، مقابل واردات تشمل الآلات، ومعدات النقل، والمواد الكيميائية والنفط.

وتتم معظم المبادلات التجارية مع دول أوروبا الغربية إلى جانب كلّ من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان، والكيان الصهيوني .

وتسهيلاً لعمليّات نقل السلع، والتنقلات البشرية عملت الدولة على توفير شبكة مواصلات برية وبحريّة، إذ تتوفر في البلاد طرق معبّدة وسكك حديدية، وعدد من

---

(1) ينظر: مادة جنوب أفريقيا من الموسوعة العربية السعودية ج3/ 513 مرجع سابق.

الموانئ الكبيرة بتجهيزاتها الجيّدة، إلى جانب عدّة مطارات لتأمين الرحلات الداخلية والخارجية، وقد نشطت حركة التجارة، وتوسّعت فرص الاستثمار، مع تطوير الصناعة في البلاد منذ اكتشاف الذهب في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، الأمر الذي جلب عدداً كبيراً من الأجانب إليها من رجال الأعمال وذوي المشاريع الاستثمارية الضخمة. وقد تعزّز هذا الإقبال الواسع وانتظمت معه حركة التنمية في البلاد بفضل ما توفر فيها.

هـ ـ **القوى العاملة**: تعتمد عملية التنمية في جنوب أفريقيا على توفر العنصر البشري المحلي والوافد، والذي من مميزاته تقديم خدمات رخيصة وبأجور متدنية وخاصة بالنسبة لمن يقومون بأعمال عضلية لا تتطلب مهارة عالية من أعمال يدويّة، وصناعة، ولا شك أن هذا العنصر يشكل عامل تشجيع وجذب للمستثمرين، وهو ما يدفع بدوره إلى تنشيط حركة العملية التنموية، ويسرع دورات عجلة النمو الاقتصادي بالمقاييس الرأسمالية على الأقل.

4 ـ **التركيبة السكانية**: تتكون البنية السكانية لمجتمع جنوب أفريقيا من عدة عناصر، جرت العادة بتصنيفها إلى بيض وغير بيض[1]، ويتفرع هذا الأخير إلى ثلاث مجموعات مركبة من السود، والآسيويين، والملوّنين، وهم نتاج العلاقات الاجتماعية بين مختلف العناصر الأخرى، على أن كلّ مجموعة من السابقتين تحتوي فروعًامتعددة، حيث يمكن تقسيم السود إلى أربع جماعات قبليّة كالآتي:

أ ـ **البوشمان**: وهم رحل ينتقلون من مكان لآخر حسب فصول العام، وقد تباعدوا منسحبين إلى الداخل أمام الزحف الأوروبي الاستعماري للمنطقة.

ب ـ **الهوتنتوت**: وهم أقرب إلى البيض بحكم التجاور والتزاوج معهم، لدرجة أن نشأ نسل جديد حلّ محلّ قبائل الهوتنتوت، التي يمكن القول بذوبانها وزوالها الآن.

ج ـ **الكوزا**: وهي من الجماعات المستقرة ومن القبائل المحاربة وقد تصدّت للغزو

---

(1) ينظر: الدكتور عبدالجليل شلبي، معركة التبشير والإسلام، ص: 170-171، ط1/ 1409هـ 1989ف، مؤسسة الخليج العربي، د.م.

الاستعماري ببسالة صامدة، وهم في أغلبهم وثنيون، وأقرب القبائل في الوقت ذاته إلى الاستجابة لدعوة الإسلام طالما توافر لها دعاة مؤهلون.

د ـ **قبائل الزولو**: وتمتاز من بين القبائل الزنجية في منطقة جنوب أفريقيا بكبر عددها، وشدة تماسكها، وتوافرها على النظام، وقد حاربت هذه القبائل المستعمرين الإنجليز بشجاعة نادرة، وفي مواقع مشهودة مما دفع بالمستعمرين إلى اللجوء والاستعانة بالأساليب والوسائل التنصيرية الماكرة لاستمالتهم، وإخضاعهم، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير بدخول الكثيرين منهم في مسيحية المصالح، وهي مسيحية باهتة، إذ يظل بقاؤها أو فناؤها مرهونًا بأسبابها المادية.

ومن جانب آخر ينقسم الآسيويون بالنظر إلى الأصول الأولى لانتماءاتهم العرقية والجغرافية إلى هنود، وأندونيسيين، وماليزيين وفلبينيين، وباكستانيين، وإيرانيين، مع وجود قلّة من العناصر الآسيوية ذات الأصول العربية(1).

وفي المقابل يتكون صنف البيض من فئتين هما: الأفريكانيون، وهم سلالات المستوطنين الذين قدموا من كل من هولندا، وفرنسا، وألمانيا، في القرن السابع عشر الميلادي ولهم لغة خاصة بهم تعرف بالأفريكانية. والإنجليز وينحدرون ممن قدموا من بريطانيا في أوائل القرن التاسع عشر، ولغتهم هي الإنجليزية، وهم أقل عددًا وتعصبًا من الأفريكانيين الذين تبلغ نسبتهم 70% من مجموع البيض، ويعرفون بشدة التعصب، والسيطرة قديمًا على شؤون السياسة والحكم في البلاد، وإليهم تنتهي سياسة التفرقة العنصرية، بينما الإنجليز يتّسمون بنوع من المرونة والتسامح، والاهتمام بمزاولة شؤون الاقتصاد، ويلاحظ البعض أن العلاقات بين الطرفين الأبيض مطبوعة بشيء من التوتر، وقيام حالة تعكس شبه صراع بين الطائفتين(2). ومن المنظور الكمي يردُ ترتيب هذه

---

(1) ينظر: عبدالرحمن عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، 97، د.ر، د.ت، من منشورات كلية الدعوة الإسلامية.

(2) ينظر: ويصا صالح "أرضية التفرقة العنصرية في الجنوب الأفريقي" من مجلة الفكر المعاصر، ع،40/ 34، 35، يونيو 1968ف، القاهرة، مصر.

المجموعات على النحو الآتي: السود، والبيض، والملوّنين، والآسيويين.

هذا وسيتعرض هذا البحث في حدود ما يسمح به موضوعه لدراسة العلاقات السائدة بين مختلف هذه الفئات والجماعات، ذات الأجناس والأصول المتباينة لمعرفة كيف نشأت تلك العلاقات وتطورت عبر التاريخ، وما هي الأسس الفكرية التي استندت عليها، مع محاولة الوقوف لتسجيل أبرز تجلياتها، وأهمّ صورها وأشكالها.

وتتويجًا لما تقدّم بشأن تعدّد أهمية الموقع الجغرافي لجنوب أفريقيا؛ كتب أحد الباحثين يقول: «في سنة 1935م، كانت أفريقيا الجنوبية بالفعل - من منظور عالمي - أهم أجزاء أفريقيا من وجهة النظر الاقتصادية، وفي الثلث الأخير من القرن العشرين أصبحت أفريقيا الجنوبية أيضًا، وعلى نحو متزايد، أهم المناطق الفرعية لأفريقيا من وجهة النظر الإستراتيجية في الوقت نفسه. ويرجع سبب أهميتها الاقتصادية في المقام الأول إلى ما بها من ثروة معدنية تتسم بأهمية حيوية بالنسبة إلى حضارة الغرب الصناعية، وكانت هناك أيضًا الزراعة على نطاق واسع، والتصنيع المحلي، أما الأهمية الإستراتيجية فكانت حصيلة ثراء المنطقة، والأهمية المتزايدة لرأس الرجاء الصالح بالنسبة إلى حركة المرور البحرية بين آسيا والعالم الغربي، بما في ذلك ناقلات البترول القادمة من الخليج»[(1)].

وقد ازدادت أهميتها على الصعيد العالمي في العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين الإفرنجي بفعل تركيبتها السكانية، وما ترتبت عليها من إفرازات متشعّبة، تولدت عما عرفت بقضية التميز العنصري في هذا الجزء الحسّاس من العالم، وهي قضية تشكل مفتاحًا ضروريًا لتاريخ جنوب أفريقيا برمته في قرونه الأربعة الأخيرة، ومدخلاً رئيسًا وشرعيًا للدخول إلى هذا التاريخ.

ثانيًا: الواقع التاريخي لجنوب أفريقيا:

ثمة غيوم كثيفة ما زالت تخيّم على تاريخ جنوب أفريقيا في عصور ما قبل الاستعمار الغربي، وإن كومة عريضة من الظلام تحجب حقائق هذا التاريخ ودقائقه،

---

(1) ديفيد تشانيوا "أفريقيا الجنوبية عام 1945" من تاريخ أفريقيا العام مج 8/ 78م، ط اليونسكو عام 1998ف.

الأمر الذي يثير الكثير من التحديات الدافعة للباحثين إلى بذل المزيد من الجهود لإزالة هذه الحواجز الزمنية، وتسليط الضوء على هذه الرقعة المعرفية المجهولة من تاريخ الإنسان الجنوب إفريقي.

وإزاء هذا الجهل العلمي، يظل من المجمع عليه أنّ جذور تاريخ أفريقيا الجنوبية تمتد إلى استيطان الإنسان القديم فيها منذ آلاف السنين، ثم تلتها عهود الاحتلال والاستدمار، وعقبتها مرحلة الكفاح في سبيل بناء وطن حديث.

وبقدر ما يتصل الأمر بموضوعنا فإن التاريخ المدوّن لهذه البلاد لا يعود لأكثر من 500 سنة، وهو بذلك لا يغطي معرفيًا أكثر من القرون الخمسة الأخيرة، فضلاً عن كونه تاريخًا استعماريًا، إنتاجًا وموضوعًا.

ومن هذا المنطلق تنطلق المصادر التاريخية في تحديدها لبداية الاهتمام الغربي الاستعماري لمنطقة جنوب أفريقيا من القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك بوصول الرحالة البرتغالي بارتلوموزديار عام 1488ف إلى أقصى جنوب القارة وجورانه حولها، وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ أبحر برتغالي آخر وهو فاسكوداجاما حول المنطقة، ونزل بمنطقة ناتال الساحلية، ومن هناك أكمل إبحاره إلى الهند من غير أن يستقر فيها طويلاً، ودون أن يعيرها هو ولا قومه اهتمامًا يذكر، وذلك لعدم عثورهم على معادن ثمينة، أو بضائع للاتجار بها، علاوة على ما قوبلوا به من استقبال فاترٍ وغير ودّي من قبل سكان المنطقة[1].

وفي القرن السادس عشر أخذ الإنجليز في تسيير رحلات تجارية نحو الشرق مرورًا بمنطقة الكاب، بحلول عام 1652م قرّر الهولنديون بدورهم إنشاء مستوطنة في الكاب، فقامت شركة الهند الشرقية الهولندية بإرسال نحو مائة رجل لأداء مهمة محددة، تتمثل في العمل على إقامة قاعدة تعنى بتقديم الخدمات الفنية للسفن

(1) ينظر: جديون س. وير، تاريخ جنوب أفريقيا ص: 35، ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ ط1/ 1407هـ 1986ف الرياض، السعودية.

الهولندية العابرة في رحلتها الشرقية نحو الجزر الهندية[1]، وتقوم بدور محطة تزويد السفن بالطعام، والماء الصالح للشرب، واللحوم التي يتم تحصيلها عن طريق المقايضة بالبضائع الأوروبية مع السكان الأصليين.

والظاهر من خلال هذه المهمة التي انتدب لها هؤلاء المغامرون أنها لم تكن في الأصل لمآرب استعمارية، بل كان مجرّد الاختلاط بالسكان الأصليين أو الاعتداء عليهم من الأمور المحظورة بالنسبة لهذه البعثة الفنية، غير أن المقام قد استطاب لها في هذه الأراضي الخصبة والتي نعمت بخيراتها الزراعية، فتحولت بمرور الزمن إلى فئة من التجار، شهدت نمواً متزايداً بل متضاعفًا مع الأيام، فانقسمت أخيراً إلى مجموعتين تمارس إحداها التجارة، بينما تقوم الأخرى بمزاولة الأعمال الزراعية، وتربية المواشي مستعينة في ذلك باستخدام الأيدي العاملة الأفريقية الرخيصة. وبحكم هذا التطور الجديد في حياة البعثة الهولندية أخذت تتعمق وتتوسع في أرجاء البلاد بعد أن قطعت صلتها بالمهمة التي أوفدت من أجلها في بداية عهدها ووصولها إلى المنطقة، فتحولت الإقامة الموسمية المؤقتة إلى استيطان فعليّ ومستديم، فتح الطريق أمام موجات هائلة ومتتالية من الهجرة الأوروبية ومن مختلف أقطارها للاستيطان في الأراضي الجديدة، وتصويراً لبوادر التحولات التي طرأت على البلاد من الناحية العمرانية بفعل تزايد موجات الهجرة إليها ورد في الموسوعة العربية ما نصه: «كانت المستوطنات في الشرق صغيرة، ويستوعب كل منها حوالي 60 شخصًا، بينما وصل عدد سكان المستوطنات الغربية إلى 10 آلاف شخص.

وقد استخدم هؤلاء كميات كبيرة من الحجارة في بناء منازلهم بينما كانت المباني الحجرية في الشرق نادرة»[2]، ولعلّ ملاحظة هذا الإجراء الاستيطاني هي ما استند عليها من قال: «كان المستوطنون الأوروبيون في أفريقيا الجنوبية على عكس أقرانهم في

---

(1) ينظر: حامد عثمان، المسلمون في العالم، ص: 232، ط1/ 1399 من وفاة الرسول ﷺ من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.

(2) الموسوعة العربية العالمية، ص: 520 مرجع سابق.

سائر أفريقيا ، راغبين منذ البداية في الاستقرار في بيئتهم الجديدة التي جذبهم إليها ما تتميز به من مناخ معتدل ، وأرض زراعية خصبة ، وعمل إفريقي رخيص وخامات معدنية وفيرة»[1] ، ومع معقولية هذه التعليلات وموضوعيتها يميل فيها البعض إلى اعتماد العامل« الديني ، بعزو سبب الهجرة الاستيطانية إلى الاضطهاد الديني الذي تعرض له البروتستانت على أيدي الكاثوليك في أوروبا ، ولا شك أن تزامن الأحداث عاملٌ مشجّعٌ على طرح تعليل من هذا القبيل ، وهو برأيي غير مستبعد ، بل يعتمد كعلة مكمّلة لغيرها من العلل المتقدمة .

هذا ، وقد حظيت المنطقة باهتمام متزايد بعد العثور على المعادن الثمينة ، حيث تم اكتشاف الماس عام 1868ف ، وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ عثر أيضًا على كميات تجارية هائلة من الذهب ، وقد أدّت هذه الاكتشافات الثمينة إلى زيادة تدفّق سيول الهجرة ، وتفجّر فيضانات استجلاب العمالة الأجنبية من خارج البلاد وخاصة من المستعمرات الآسيوية في أندونيسيا ، وماليزيا ، والهند ، ومن القارة الأفريقية كذلك ، وبوصول هؤلاء المستقدمين الجدد تكون المنطقة قد شهدت عنصرًا ثقافيًا جديدًا ساهم هو الآخر إلى جانب الفئات الأخرى في تشكيل نسيج مجتمع جنوب أفريقيا المتعدد الألوان والانتماءات ، إذ لم تعد العمالة المحلّية وافية بإشباع حاجات سوق العمل المتزايد في مواكبتها لحركة التحولات الجارية ، أوالإيفاء بمتطلبات فرص الاستثمار الجديدة المتدفقة[2] .

وطوال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين «كانت الأقلية البيضاء تكبر أكثر ، وتكبر معها مساحات واسعة من الأراضي الخاصة بها ، إلاّ أن نشاطها لم ينحصر في الجانب الاقتصادي ، بل راحت تتصرّف كطليعة قادمة لنشر الحضارة الأوروبية ، والديانة المسيحية»[3] ، وهذه إشارة قوية إلى ارتباط الاستعمار بالتنصير ، الذي غلب عليه دومًا دورُ

(1) د شابايو "المبادرات والمقاومة الأفريقية في أفريقيا الجنوبية" من تاريخ أفريقيا العام مج7/ 203 ، اليونسكو 1990م .

(2) ينظر : ...... "الأبيض والأسود بين القهر والفقر" ص : 11 من مجلة العربي الكويتية ع325/ 11 .

(3) حامد عثمان ، المسلمون في العالم ، ص : 233 ، مرجع سابق .

التمهيد والتمكين للمشروع الاستعماريّ، في مختلف فتراته، وفي شتى صوره، وأشكاله.

على أن من الطبيعي في أجواء يفور فيها غليان مطاردة المصالح الاستعمارية أن تنشب حروب دامية، ومعارك ضارية بين تلك القوى الاستعمارية بسبب تعارض المصالح المادية، وتصادم الإرادات التسلّطية، ومن أشهر تلك الحروب ما عرفتْ بحرب البوير التي اندلعت بين القوات البريطانية وجماعة البوير، وهم المنتمون إلى الأصول الأوروبية الأخرى بغلبة العنصر الهولندي، ورغم أن كلا الطرفين قد دفع ثمنًا باهظًا في مواجهته للطرف الآخر، إلاّ أن المحصلة النهائية لتلك النزاعات التي استمرت لما لا يقل عن ثلاث سنوات انحسمت لصالح الإنجليز، فعملت على عقد اتفاقيات مع الأقلية الأوروبية في البلاد وعلى أثرها امتد زحفهم، واستقر نفوذهم على مناطق شاسعة من البلاد، أمام انسحاب الطرف المهزوم وتوغّله إلى أعماق البلاد[1]، في هجرة داخلية عبر مسافات طويلة، مصحوبًا بالأسر والخدم، والممتلكات، وقد أطلقت عليهم لفظ البوير لاستخدامهم الواسع في تلك الفترة لعربات الخيول في رحلاتهم الانسحابية وتنقلاتهم العادية إلى أن كادت تصبح سكنًا مستقرًا لهم[2].

كما أن من الطبيعي جدًا أن تكون حركات الاستيطان والتوسع لاحقًا قد جوبهت منذ بواكير عهدها بأعتى المقاومات وأبسلها، من قبل الأهالي الأصليين الذين قاوموا باستماتة كل محاولات السيطرة التي كانت ترمي إليها الطلائع الأولى لمشروع الاستيطان الأوروبي في المنطقة؛ حيث لم تكن السيطرة الأوروبية على جنوب أفريقيا خالية من مقاومة أبناء المنطقة الأصليين، بل فمنذ بدء نزول البعثات الأوروبية إلى تلك الأراضي بدأ الأفارقة بالتصدي لهم، وشهد عام 1510ف أول صدام مسلح بين البرتغاليين والسكان الأفارقة، وتلته سلسلة من العمليات الحربية «كما ظهرت تنظيمات سياسية محلية من أجل مقاومة المستعمرين»[3].

---

(1) ينظر: د. شوقي الجمل وآخر، تاريخ أفريقيا الحديث المعاصر، ص: 86، ط1/ 1407هـ 1978م، دار الثقافة، الدوحة.

(2) ينظر: .... "رأس الرجاء هل أصبح صالحًا" من مجلة العربي الكويتية، ع397/ 142.

(3) "المقاومة الأفريقية، ص: 7، ع735، من صحيفة الدعوة الإسلامية، 31/ 1/ 1369و.ر.

ولإبطال مفعول المقاومة، وتلهيتها عن نبيل أهدافها عمد المستعمر إلى خلق صراعات أهلية، وإثارة نعرات قبلية في صفوف القبائل المقاومة والتي لم يكن شعثها ملمومًا في جبهة كفاح موحدة، إذ لم يكن يجمع بينها رابط ولا ضابط. فلجأ المستعمر من خلال سياسة فرق تسُد إلى الإغراء بالمصالح التجارية، وخلق أجواء المنافسة بين الجماعات المقاومة حيث: «ساعدت المنافسة على التجارة والموارد على إذكاء نار الحرب بين القبائل. ونتيجة لهذه الحروب هاجر كثير من السكان إلى الأحراش الداخلية وأدت الهجرة إلى انتشار الصراعات بين السوتو والبتسوانا المقيمين في المنطقة. في هذه الأثناء ظهر ملك الزولو ساكا الذي أسس حكمًا عسكريًا مركزيًا، وقضى على عدد من قبائل السوتو والتسوانا الصغيرة»[1] وهذا ليس بمفاجئ فهو معهود عن الاستعمار والامبريالية قديمًا وحديثًا. ومع تواصل حلقات مسلسل المقاومة في أكثر من زمان ومكان، يصرّ المستعمر على تزييف حقائق التاريخ والتعتيم عليها بإيهام الآخرين بدعوى «أن جنوب أفريقية كانت خالية من السكان قبل مجيئهم، والحقيقة أن جماعات من الخوسيين والبوشمن والهوتنوت كانت تسكن البلاد منذ أزمان سحيقة ثم وفدت عليها جماعات أخرى من شعب البانتوالزنجي»[2].

ولا شك أن جملة من العوامل أسهمت في إلحاق الهزيمة بالأهالي، وترجيح كفة الانتصار لصالح المستعمرين الوافدين، ومن أهمها تشتت صف الأهالي، وضعف مستواهم التنظيمي، وجهلهم بالأساليب والفنون الحربية الحديثة، إلى جانب صراعاتهم الداخلية، وتناحراتهم البينيّة لأسباب قبلية، وماديّة، غير أن أهم عامل على الإطلاق يتمثل في اعتماد المستعمر على الأسلحة الناريّة الحديثة، والتي لم يكن للمقاومين سابق عهد بها فضلاً عن اقتنائها، ولا سيما القدرة على استخدامها، وبخطورة وأهمية ما قد يترتب على اقتناء المقاومين لتلك الأسلحة، ودورها في توازن ميزان القوة بين الطرفين حال المستعمرون دون حصولهم عليها، وأبرموا في سبيل ذلك

(1) الموسوعة العربية العالمية ج3/ 522.

(2) عبد الله نجيب محمد "حصاد الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا" 2/ 134 من مجلة الأزهر لسنة 62، 1411هـ 1989م.

اتفاقيات قاضية بحظر بيع الأسلحة الحديثة من الأطراف الأوروبية للقوى الأفريقية المقاومة، وهذا ما عناه أحد الباحثين بقوله: «أدركت العناصر الأوروبية التي سكنت جنوب أفريقيا حاجتها للأسلحة النارية من أجل التوسع والاستيلاء على الأراضي الخصبة، وتأمين المراعي والدفاع عن النفس، وصيد الحيوانات، وعلى هذا أتاحت بريطانيا دخول السلاح إلى هذه المنطقة، وكانت التجارة فيها مشروعة، غير أن الأوروبيين حاولوا حظر حيازة الأفريقيين لهذه الأسلحة خشية استخدامها ضدّهم، وطبقت هذه السياسة على جميع مستعمرات الجنوب»[1].

وهكذا تم احتكار السلاح، ومنع تصديرها إلى من لا ينتمي إلى عالم القيم الغربية، شأن ما يجري في عالمنا المعاصر من احتكار التقنية، وأسبابها، وكافة مقومات التقدّم المادّي التكنولوجي وما يتصل به.

وقد ترتب على هذه العمليات التوسعية من جانب، والاجراءات الاحتكارية من جانب آخر فقدان المواطنين الأصليين للمزيد من أراضيهم وثرواتهم، واستقلالهم، وقتل منهم خلق كثير أثناء تصديهم لزحف وتقدم جحافل المستوطنين البيض[2]، وقد ساء وضع الأهالي كثيراً من العقود التي عقبت الزحف الأوروبي، وذلك بسبب ما كانوا يسامونه على أيدي البيض من معاملات تعسفية عنيفة لا إنسانية، وقد برّر أحدهم هذه السياسة القائمة في العقد الثاني من القرن العشرين بقوله: «ولا يستطيع أحد أن يقول إنه من الواجب أن نترك السكان الأصليين في المناطق التي يعيشون بها لأن ذلك القول ينكر حق حضارتنا في الوجود والسيادة على العالم، بل أنه ينكر منطق وعدالة القوة التي ساهمت في جعل العالم كما نراه، وينكر أيضًا على أن للجنس الآري مسؤولية ملقاة على عاتقه»[3].

---

(1) د. محي الدين محمد مصيلحي: "تجارة الأسلحة النارية في جنوب أفريقيا"، ص: 158، 138 من المجلة التاريخية المصرية، مج32/ 1985م.

(2) ينظر: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 98 مرجع سابق.

(3) هـ. ا. أ. غيبون، خريطة أفريقيا الجديدة، ص: 49، ترجمة منصور عمر الشيتوي ط2/ 1975م دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا.

ومن الواضح أن هذا الخطاب يمثل أصدق تعبير عن الخطاب والموقف الاستعماريين، وهو نتاج عقلية استعلائية، من أبرز سماتها قلب المفاهيم، وتعكيس سُلّم القيم، وتغليب المصالح المادية الآنية الفانية، على الاعتبارات الإنسانية الساميّة والدائمة.

ووفقًا لما تمليه هذه العقلية المنحطة، وبعد أن ترسخت أقدام المستعمرين في البلاد، واطمأنوا على استتباب الوضع لهم وسيطرتهم على زمام الموقف أخذوا يمارسون مختلف ألوان وأشكال التميز العنصري البغيض، ولم يألوا جهدًا في تبرير واقع التمييز بمبررات واهية، وحجج واهنة، بادعاء حضارية رسالتهم، وتفوق العنصر الأوروبي على سائر الأجناس الأخرى بالطبيعة البيولوجية، ولا شك أن واقع الاستمرار في الاستقرار بعد عقود الاحتلال ومتاعبه قد لعب دورًا في جلب نظريات وسلوكيات من هذا القبيل إلى ساحة المستعمرات قديمًا، والتي وقعت في أسر القوات الأجنبية، وشهدت الحياة فيها تطورّا يقوم على تعدّد واختلاف الأجناس المتعايشة في أجوائها، بكلّ مميزاتها العرقية، والثقافية والجغرافية، ومن المتوقع بطبيعة الحال في مناخ إنساني يضم هذا الخليط المتنافر أن تطهر علاقات اجتماعية مختلفة تدين وتعتمد في وجودها على منطق القوة وحدها دون غيرها، وهذه الحقيقة النظرية هي التي عبرت عنها سياسات التميز العنصري، وترجمتها إلى واقع عملي معاش وملموس على امتداد القرن العشرين في تاريخ جنوب أفريقيا المنكوبة. ولأهمية الحدث التاريخية محليًا وعالميًا فإنه يحتّم على الباحث التعريج عليه في وقفة قصيرة وعابرة.

ثالثاً: التفرقة العنصرية ومظاهرها في جنوب أفريقيا:

إن فكرة التميز العنصري هي أول ما يتبادر إلى الذهن حين يتناهى إلى السمع أو يقع البصر على اسم جنوب أفريقيا وذلك بالنسبة لمن له أدنى إلمام بتاريخ العالم الحديث، أو أبسط اهتمام بمتابعة أحداثه وقضاياه الجارية، حتى وكأن مفهوم التمييز العنصري فكرة ملازمة للتسمية إن لم تكن مرادفة لها، حيث أصبحت قضية التفرقة العنصرية في تلك البلاد القضية الشاغلة للرأي العام العالمي، والتي ملأت الدّنيا وشغلت الناس، في فترة ممتدة من الفترات، وذلك من خمسينيّات إلى تسعينيات القرن

العشرين، وهو ما دفع بأحد الباحثين إلى القول بالحرف: «أصبحت قضية جنوب أفريقيا والصراع العنصري فيها من القضايا التي تشغل الرأي العام العالمي، ومن المسائل التي تحتل مساحة كبيرة من الاهتمامات على جميع المستويات»[1].

ومن الناحية التاريخية فإن التفرقة العنصرية قديمة قدم الاستعمار في هذه البلاد ولكنها، تطورت، وبلغت ذروتها حين اتخذتها حكومة جنوب أفريقيا دستوراً ضدّ غير البيض وهم السود، والآسيويون، والملوّنون، وقد سنّت تشريعات، لإقرارها، وحمايتها، حيث ظهر قانون التسجيل السكاني منذ عام 1950م والذي بموجبه تم منح السكان مدارس، وجامعات، ومناطق سكنية وخدمات عامة لكل مجموعة عنصرية على حدةٍ، واستقلال عن المجموعات الأخرى[2]، وظهر إلى الوجود ليدخل القاموس السياسي إلى الأبد مصطلح الأبارتايد APARTHEID والذي يدور حول معاني الانفصال، والإبعاد، والعزل، في اللغة الأفريكانية وهي لغة البوير.

ومن الناحية العملية فقد كانت الحياة اليومية تفوح برائحة التفرقة العنصرية في مختلف تجلّياتها، وفي مختلف مرافق المجتمع ووحداته الأساسية والسياسية، وقد ذهب أحد الملاحظين إلى تصوير تجلّيات التفرقة العنصرية، وتحديد أبرز مجالاتها على نحو يُغري باقتباسه حرفيّاً وذلك في قوله: «إنه من المستحيل أن تقضي في جنوب أفريقيا حتى بضعة أيام بل بضع ساعات دون أن تتحقق من الفواصل الموضوعة بين الأوروبيين وغير الأوروبيين في محطات السكك الحديديّة، وفي القطار والحافلات، وفي المطارات، ومكاتب البريد، وكل المؤسسات العامة، وفي البنوك، والملاعب والبرامج التعليمية وعلى الشواطىء، وفي المقابر، ففي كل الحالات هناك خدمات وتسهيلات منفصلة لكل من الأوروبيين وغير الأوروبيين على حدة، وتقرأ دائمًا لافتات مثل «للبيض فقط» ولغير البيض، وفي المطاعم والفنادق والمقاهي ودور السينما

(1) محمد جلال عباس: "الصراع ضد العنصرية في الجنوب الأفريقي" 36 من مجلة الموقف العربي، ع78، من 10/ 1407هـ 1986م.

(2) ينظر: الموسوعة السعودية ج3/ 527، الرياض.

والمسارح وضعت أيضًا نفس العوازل»[1].

هذا وشملت سياسة التفرقة العنصرية العزل المكاني والاجتماعي بمنع الزواج المختلط، وامتدت إلى الملكيات الزراعية، وإلى الأجور والمرتبات، واستُصدرت بشأن تنظيمها شهادات التسجيل العرقي، وتصاريح المرور من منطقة عرقية لأخرى، كما عمت سيارات الأجرة، والمستشفيات، والحدائق. وقد أكّد الدكتور محمد الرميحي حقيقة قيام هذا الواقع الهزلي بقوله: «... كما شرع الحزب بين عامي 1948 و1960م قوانين الفصل العنصري في استخدام الأماكن العامة مثل الحدائق والسّكك الحديدية، وفي السكن، والمدارس، ودورات المياه العامة وفي أماكن العمل حتى أصبح لكل شركة أو مصنع أربعة أبواب للدخول مخصصة للأجناس المختلفة، فهناك باب للبيض، وباب للسود، وباب للهنود، وباب للملوّنين، وبالتالي أربعة مصاعد وأربع دورات مياه، وأربعة مطاعم، وأربعة أماكن لخلع الملابس... الخ»[2].

وليس بكثير على دولة تتركز فيها السلطة والثروة في أيدي أقليّة صغيرة، في مواجهة أغلبية محرومة أن تكون من بين أغنى الدول وأفقرها في العالم، وقديمًا قيل: إذا عرف السبب بطل العجب.

التفرقة في الكنائس: ولعل الأدهى من كل ما تقدم والأمرّ هي أن التفرقة العنصرية استطاعت أن تتسرّب إلى دور العبادة، وتخترق الكنائس المسيحية، الأمر الذي يؤكد تبعيتها للاستعمار، ورسالتها التغريبية، وقد أدّى الوضع إلى إفراز «ما يسمى بمسيحية الأسياد، ومسيحية العبيد، وبإله أسود، ومسيح أسود، وما يسمى بالكنائس متعدّد الجنسيات، والكنائس السوداء»[3].

وهذا من منطلق ردّ الفعل، والمبادلة بالمثل، حيث إنّ الكنيسة الهولندية المصلحة

(1) جديون من. وير: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 236 مرجع سابق.

(2) الدكتور: محمد الرميحي، مجلة العربي ع325/ 13 مرجع سابق. وينظر: كي زربو: تاريخ أفريقيا السمراء، 2/ 1016.

(3) د. حامد عثمان: المسلمون في العالم، ص: 235 مرجع سابق.

كانت تبارك هذا النظام وتسوّغه معتمدة على التوراة[1]. وقد سجل دبلوماسي ألماني كان يعمل في جنوب أفريقيا انطباعاته عن موضوع التفرقة في الكنائس بقوله: «ووقف أبنائي أمام إحدى الكنائس الرائعة البنيان، في فترة الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، وارتاحت عقولهم الحائرة عندما قرأوا دعوة مكتوبة بحروف واضحة على باب الكنيسة تقول «مرحبًا بالجميع، وفجأة لاحظوا مرة أخرى اللافتة القبيحة مكتوبة ولكن بحروف صغيرة تقول: «للبيض فقط»[2].

وهكذا أمضى البيض ردحًا من الزمن في جنوب أفريقيا على غيّهم سائرين، وبما حولهم لا يعبأون، مصرين على الظلم وسياسة الاضطهاد عنادًا ومكابرة ولأتفه الأسباب، إذْ «كان البوير يعتبرون أنفسهم قد اختارهم الله... كان البوير يرون أن الأفريقيين جنس اختاره الله للقيام بالأعمال الدّنيا ولإنجاز ما شقّ وصعب من الأعمال... وهذا الانحراف في التفكير خلق مشكلة جوهرية، هي المشكلة العنصرية صاغت الحياة، والتاريخ في جنوب أفريقيا»[3] وبذلك يصحّ القول بأن مواطني جنوب أفريقيا الأصليين أصابهم من العناء والقسوة اقتصاديًا واجتماعيًا مالا يقارن بما تعرّض له غيرهم في أي جزء من أجزاء القارة الأفريقية.

والحديث عن التفرقة العنصرية ومظاهرها في جنوب أفريقيا يفتح الباب واسعًا لعقد مقارنة موضوعية تفرض نفسها، إذ يشكّل كلّ من النظام العنصري سابقًا في جنوب أفريقيا، ونظام الكيان الصهيوني في فلسطين طرفي المعادلة فيها، وذلك لقيام أوجه شبه ومتماثلات كثيرة يشترك فيه النظامان؛ حيث إنّ كليهما من مخلّفات الاستعمار الغربي الأمبريالي، كما يقوم كلٌّ منهما على أساس الاستيطان بالقوة الغاصبة والقهر الرهيب على حساب أصحاب الأراضي الحقيقيين من السكان

(1) ينظر: كي زربو، ج2/ 1022 مرجع سابق.

(2) الحل الإسلامي للمشكلة العنصرية، ص: 91 من سلسلة مكتبة ديدات، دار المختار.

(3) جديون، س. وير: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 75، ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ، ط المريخ 1406هـ 1986م.

الأصليين والشرعيين، وفضلاً عن ذلك فإنهما يستمدّان سبب بقائهما من الدعم الغربي اللاّ محدود لهما، ويؤصّلان سياستهما على جملة من الأوهام والأساطير تستند على الاعتقاد بتفوّق عنصر بشري على آخر، مهدّدين بذلك أمن المنطقة المحيطة بهما، وأكثر من ذلك، فإنهما يعملان على زعزعة السلام في العالم كلّه، وهدّ أركان الاستقرار، وخلق التوتر الدائم في العلاقات الدولية.

وتأسيسًا على ما تقدّم، فإن ثمّة علاقات وطيدة كانت تربط بين الطرفين شملت كافة المجالات من سياسيّة واقتصادية، وأمنية، وتعاون عسكري، وثقافية، ودبلوماسية، وغيرها من المجالات الحيويّة التي ضمنت للنظامين الشقيين أسباب البقاء، وسبل المواجهة لتحديات الكفاح المحلي والدولي المهدّدة لوجودهما. ولعل أدلّ دليل على ذلك «أن جنوب أفريقيا كانت الدولة الوحيدة التي لها علاقات قويّة مع الكيان الصهيوني حتى قبل قيام دولة إسرائيل، وحيث وافقت سلطات جنوب أفريقيا العنصرية على المشروع الصهيوني وأيّدته، وكان رئيس جنوب أفريقيا كرستيان سماتس، والذي ظلّ يحكم حتى عام 1948 مؤيداً للصهيونية»[1] وشدّد خَلَفُه من بعده في السير على نهجه المتعصب الممقوت.

وتأكيداً على حقيقة هذا الارتباط العدواني الآثم بين النظامين ورد في خطاب الشيخ جابر الأحمد أمير دولة الكويت في المؤتمر الإسلامي الخامس قوله: «الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا هي إسرائيل، وإسرائيل هي جنوب أفريقيا العنصرية المغروسة في الوطن العربي والعالم الإسلامي»[2].

ويأتي ما كتبه الدكتور الرميحي تعميقًا وتوضيحًا لصورة التلاحم الجبان بين الدولتين، وذلك في قوله: «ولقد أسهمت جنوب أفريقيا في إقامة سلاح الطيران الإسرائيلي، كما أن شركة العال الحالية هي وليدة لشركة «يونفرسال آيرويز» التي أسّسها يهود من جنوب أفريقيا، أما المساعدات المالية الاستثنائية إلى إسرائيل من

(1) شوقي الجمل وآخر: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص: 340، مرجع سابق.

(2) مجلة العربي الكويتية ع، 341/ 17، عام 1987م.

جنوب أفريقيا، والعلاقة الخاصة في البحث العلمي فقد أفردت لها مؤلفات كثيرة ولا يرقى إلى الشك اليوم حقيقة هذا التعاون في تجارة الماس والتعاون العسكري والعلمي»[1].

وهذه صورة مختصرة لكونها من لقطات وقفة عابرة تعكس مدى التماثل والتواصل اللذين كانا قائمين بين النظامين في كلّ من جنوب أفريقيا «سابقًا» والكيان الصهيوني الإسرائيلي قديمًا وواقعًا.

وحيث إن الاستمرار في السير على هذا النهج المعكوس هو في واقعه أمر يتنافى مع طبيعة مبادئ ومقومات الحياة الإنسانية الحرة الكريمة، فقد عزّز المضطهدون في جنوب أفريقيا من قدراتهم النضالية، وطوّروا كذلك من أساليب الكفاح وآلياته، وسعوا في الوقت ذاته إلى توسيع نطاق الكفاح والمواجهة، وتدويل دائرته ليكتسب كفاحهم بذلك بعدًا وعمقًا إنسانيًا عالميًا، بعد أن كان ولوقت طويل محليًّا وشأنًا خاصًا، وقد تزامن هذا الإجراء مع ظهور عدد من المتغيرات الدولية على الساحة العالمية كان لها أثر ودور يذكر في نجاح عمليّة التدويل، وللوقوف على جزء ولو يسير من مسيرة حركة التغيير في جنوب أفريقيا فإن ذلك يقودنا حتمًا إلى استعراض بعض من صور النضال ومواقفه، وتحديد ساحاته المحلية، وميادينه العالمية، وذلك في الفقرات الآتية:

أ ـ النضال المحلّي في جنوب أفريقيا ضد نظام التفرقة العنصرية:

يُعتبر تأسيس حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الحاكم حاليًّا في جنوب أفريقيا عام 1912م حدثًا بالغ الأهمية في تاريخ الحياة السياسية بعامة في هذه البلاد، وفي مسيرة النضال من أجل التحرر والانعتاق خاصة، وهو الحزب الذي ينتمي إليه المنعوت برمز الكفاح والنضال، والثبات على المبدأ: السيد نلسون مانديلا[2]، وقد جاء تأسيس الحزب إيذانًا ببدء فصل جديد ومهمّ من سفر النضال الكبير في تاريخ جنوب أفريقيا، حيث أمضى

---

(1) مجلة العربي ع325/ 16 عام 1985م.

(2) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 256، مرجع سابق.

الحزب عقوداً من الزمن ملتزمًا منهج المقاومة السليمة، وربما بتأثير من الزعيم الهندي المهاتماغاندي، الذي سبق أن أقام في هذه البلاد وأمضى جزءاً مهمًا من حياته في أرجائها يتفاعل مع أحداثها ويكتوي مع غيره بلهيب العنصريّة، متجرعًا مرارتها، وحين لم تُجْدِ المقاومة السلميّة اضطر الحزب إلى المقاومة السياسية عن طريق المظاهرات الاحتجاجية، وتوزيع المنشورات، وتدرّج منها إلى استخدام أسلوب الكفاح المسلّح والمتّسم بالعنف، ومنذ عام 1962م أصبح العنف شعار الحياة اليومية في جنوب أفريقيا.

وهذا الحزب موضوع الحديث من أكبر الحركات القومية في جنوب أفريقيا وأوسعها شهرة، وإليه يعود الفضل في توعية الأفارقة، وتعبئتهم بإذكاء روح النضال فيهم، وحشد وتأطير طاقات المقاومة لديهم، وتدريبهم على ممارسة أساليب النضال المنظم من أجل التحرير، وذلك من أهدافه النبيلة والتي رسمها الحزب لنفسه لتحقيق قضية الشعب العادلة، وتتمثل تلك الأهداف في:

1 - إيجاد وتشجيع التفاهم المتبادل في المنطقة.

2 - إيجاد التواؤم، وجمع شعب المنطقة على صعيد واحد.

3 - الدفاع عن الحرية وحقوق وامتيازات الشعب على قدم المساواة بين كل الفئات المشكلة للكيان السياسي الاجتماعي لجنوب أفريقيا[1].

هذا، ولعلّ من أشهر المواقف النضالية التي يسجلها التاريخ للمناضلين هناك تلك المجزرة التي تعرف بمجزرة شاربفيل وهي بلدة بإحدى ضواحي جوهانسبرج، ثار فيها المتظاهرون، وتمرّدوا على نظام حمل البطاقات العنصرية وتصاريح المرور من منطقة لأخرى، فأصدر فيرفورد رئيس الحكومة آنذاك أوامر بإطلاق الرصاص لقمع الثورة، والقضاء على الثوار فسقط في شباك عنيف التحم فيه الثوار مع قوات الأمن ما يزيد على 250 شخصًا ما بين قتيل وجريح، وخلفه على رئاسة الحكومة جون فورستر وزير عدله سابقًا والذي ترسم خطاه لإكمال حلقات السياسة العنصرية، متحديًا

---

(1) ينظر: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 255 مرجع سابق.

المشاعر المحليّة والعالمية، فاندلعت ثورة الوطنيين للمرة الثانية على مسرح آخر في مدينة سوتيومن ضواحي جوهانسبرج، وقد «بدأت الثورة بخلاف على البرامج الدراسيّة في المدارس بدأها التلاميذ الصغار وانضمّ إليهم آباؤهم وانطلقت الجموع تدمّر وتحرق كل شئ يمثل جبروت الرجل الأبيض وطغيانه فأطلق عليهم الرصاص فسقط أكثر من 1100 قتيل وجريح، وسط بركة من الدماء، وتوالت الثورات وتوالت المذابح ويمضي الرجل الأسود في ثورته»[1] وهكذا سرت الشرارة، واندلع الحريق في كل أجزاء البلاد، ولم يعد بإمكان النظام إطفاؤه، وشهد النضال سوقًا رائجة، دفع المناضلون فيها ثمنًا باهظًا للتحرر والانعتاق وكان لابدّ منه إذ لم يكن أمامهم ثمة خيار آخر بعد استنفاد كل الوسائل السلمية والحوارية، وكان الشعب في حينه على استعدام دائم لخوض معركة المصير، وكان يعيش دومًا في حالة تأهب قصوى للنضال من أجل الحياة، وهو ما يفسّره فيضان تدفّق الجماهير إلى شوارع النضال وساحاته، وهي تتدفق حماسًا، وتلتهب إيمانًا بقضيتها التي لا بديل عنها، ولا تخاذل، فضلاً عن النكوص في سبيل الوصول إليها، وبذلك يمكن أن نتصور أن كلّ خروج كان يضمر قرار الشعب بعدم العودة إلا منتصراً. وقد صدق الشاعر العربي أبو القاسم الشابي حين قال:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلابدّ أن يستجيب القدر

وكان النظام من جانبه يواجه المواقف بمختلف صنوف القمع، وألوان التعذيب، معتمدًا نظام التجنيد الإلزامي لجميع الرجال البيض لمدة سنتين في قوات الدفاع، مع استدعاءات دورية لأداء الخدمة العسكرية تدوم لثمان سنوات لاحقة[2]. كما أنه حاول اختراق الكفاح الوطني عن طريق الخداع والاستقطاب تارة وبالسعي لتفتيت الحركة وخلق صراعات داخلية على الزعامات تارة أخرى، إلاّ أنه لم يتم شيء مما أراد على الوجه الذي أراد، ورغم كل «الإجراءات القمعية المتمثلة «في الموت والضرب

(1) "قلاع الرجل الأبيض تهتزم في أفريقيا السوداء" مجلة العربي، ع 216، وينظر: 117 118، عام 1976/ 1396.

(2) ينظر: محمد اللافي، جنوب أفريقيا وأيديولوجية التمييز العنصري وقرارات الأمم المتحدة بشأن ناميبيا" ص: 178. مجلة الفكر الإستراتيجي العربي، ع (23 24) يناير أبريل 1988م.

والتخويف ومقاومة الإضرابات ونشاط الثوار، وكثرة الأسلحة، وانتشار قوات الأمن والحجز والاعتقال، والتهجير والنفي بالقوة، وأوامر المنع والتقييد وسنّ المزيد من القوانين وأنظمة القمع[1] واستخدام غازات مسيلة للدموع، وكلاب بوليسية، ورغم كل ذلك فإنّ موجات النضال كانت تشهد تصاعداً مستمراً، وكانت حركة الكفاح تتزوّد مع كل إجراء قمعي بوقود الإقدام، وتزداد كثافة وشدّة، وقد استمرّ الغرب في مدّ النظام العنصري بآليات القمع المتطورة، علماً بأنه هو الآخر كان قد خصص خمس الميزانية للنفقات العسكرية والأمنية. ولأسباب اقتصادية فإن الدول الغربية المتشدّقة بشعار الحرية والديمقراطية لم تتجرأ على قطع صلاتها السياسية والاقتصادية بجمهورية أفريقيا الجنوبية»[2]، جراء ما تقدم عليه وبه من أسس وعمليات تتناقض مع المبادئ التي يدّعي العالم الغربي أنه يسهر على رعايتها تضليلاً، وإمعانًا في الهيمنة.

ومع ما بذله النظام من جهود مضنية في التعتيم الإعلامي على الأحداث الجارية بكبح أبواق الإعلام والتكتم على حقيقة الوضع الداخلي، ومنع تسرّب المعلومات الصحيحة إلى العالم كلّه؛ إذ كان القانون ينص على: «أن وسائل الإعلام الصحفية التي تشمل المراسلين الأجانب ليست مخوّلة بنشر التقارير والتعليمات على حوادث الشغب والاحتجاجات على سياسات التمييز العنصري، كما أنه يعدّ من الجرائم أن تنتقد كيفية معالجة الحكومة للأزمة السياسية. وجميع التقارير حول العنف والإضرابات والمقاطعة، وتجمعات الاحتجاج عدا التقارير الحكومية، لابدّ من تقديمها إلى مكتب المعلومات للتصفية قبل وصولها إلى الرقابة، كما أن الأفراد الذين يدلون ببيانات هدّامة حتى ضمن الاتصالات الخاصة، معرّضون للمتابعة القضائية»[3]. مع كل ما في هذه الذرائع من شذوذ واستبداد، فلم يكن يمرّ يوم دون أن تنقل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة الأحداث العنصرية المروعة، والمواجهات الداميّة بين الظالم

---

(1) كينيت وغبراندي: "جنوب أفريقيا: القسر والمطالبة بالتغيير" ترجمة مصطفى اللحام، من مجلة الثقافة العالمية ع 37مج 7 س7/ 1408هـ 1987م، الكويت.

(2) ينظر: تاريخ أفريقيا السمراء 2/ 1022، 1024، مرجع سابق.

(3) "جنوب أفريقيا: القسر والمطالبة" ص: 55 56 من مجلة الثقافة العالمية، مرجع سابق.

والمظلوم في جنوب أفريقيا ذات الأغلبية المحرومة من كافة حقوقها، والمسلوبة منها آدميتها وكرامتها. ولِمَا بلغته الأزمة من تفاقم واستفحال فقد بادر كينيث كوندا رئيس زامبيا سابقًا بدق ناقوس الخطر منذرًا بما يمكن أن يؤول إليه الوضع في جنوب أفريقيا ما لم يتم تداركه قبل فوات الأوان، وقد ورد ذلك في مقولة له بنصّها: «إذا لم ينتبه الغرب إلى ضرورة تدارك الموقف في جنوب أفريقيا، فستشهد تلك البلاد حريقًا هائلاً، ستبدو معه أحداث الثورة الفرنسية كما لو كانت مجرّد نزهة»[(1)].

على أن مما هو خليق بالإشارة إليه من مميزات حركة الكفاح في جنوب أفريقيا هو أنها كانت حركة شعبية بمفهومها المحيط، ولم تكن بحال من الأحوال قاصرة على الأفريقيين السود، فحسب دون غيرهم، بل كانت عامة وشاملة لكل الفئات الأخرى التي تنضوي تحت لواء مصطلح غير البيض من سود، وآسيويين، وملونين صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساء لأن الظلم كان يقع عليهم جميعًا دونما استثناء، فضلاً عن أن العاطفة الإنسانية الكريمة تدفع إلى المشاركة الإيجابية في مثل هذه النضالات الشريفة، والانضمام الفاعل إلى الصّفوف الأمامية لحركة المكافحين من أجل الحرية، والعدل والمساواة، وللاعتبارات السالفة فإن: «معارضة النظام الاستعماري لم تقم على الأفريقيين وحدهم وإنما قامت أيضًا على العدد الكبير من السكان غير الأفريقيين: الملونين، والهنود، وبعض الأشخاص التقدميين من البيض، فكان الأفارقة القوة الرئيسة المناهضة للاستعمار دون أن يكونوا القوة الوحيدة، وكان لهذا أثره على طابع الكفاح بأسره»[(2)]. وإلى جانب هؤلاء جميعًا كان يقف فريق قليل من البيض ناظرًا إليهم بعين التعاطف، يخالجه في قرارة نفسه شعور قويّ، كلّه يقين وإقرار بعدالة ومصداقية القضية التي من أجلها يكافحون. وعمّن ينتمي إلى هذا التيار يقول المؤرخ كي زربو، هناك أوروبيون مقتنعون فكريًا بقضية (الأفريقيين، ولكن بما أنهم

---

(1) مجلة العربي ع276/ 19، عام 1981م.

(2) باريل دافيدسون وآخرون "السياسة والكفاح الوطني في وسط أفريقيا وجنوبها" مج7/ 677، تاريخ أفريقيا العام، مرجع سابق.

يستفيدون ماديًا من الوضع القائم فإنهم لا يستطيعون أن يندمجوا بكيانهم كلّه مع هذه القضية)[1] . غير أن فئة من الشباب الجامعي المثقف من هذه المجموعة استطاعت أن تنتصر على نفسها، وتتغلّب على أهوائها وشهواتها، فتجاوزت بذلك موقف الاقتناع الفكري لتترجم قناعتها إلى واقع عملي ملموس، وتحويلها إلى سلوك كفاحي مشهود؛ وذلك حين وجدت المعاني الإنسانية العظيمة سبيلها إلى أعماقهم، فخالطت شغاف قلوبهم فأنارتها حقًا، وعدلاً، وإيثاراً، وتضحية وإحسانًا، وهم من قيل بشأنهم: «ظهر شبان مثاليون، وبخاصة بين البيض الذين يدرسون الحقوق والاقتصاد أو العلوم الاجتماعية، ومن غير أن تكون لهم هويّة سياسية معينة، فقد رأوا في تجمعهم وسيلة لعمل شيء إيجابي، تركوا الجامعة ليلحقوا بالنقابات العمالية، وذلك لمساعدة السود على إيجاد تنظيم لهم»[2]، ولكن تم القضاء عليهم عن آخرهم من قبل أجهزة النظام التي سامتهم سوء العذاب تقتيلاً، وتشريداً، واعتقالاً، جزاء لتمرّدهم وخروجهم على العرف القائم آنذاك، إذ كان موقفهم هذا بمثابة سباحة مغامرة ضد تيار حاد وعنيف لا يمهل، ولا يهمل؛ حيث كان النظام يرى في كل حركة أو موقف نضالي ويْلاً مؤكدًا للبيض من شرٍ قد اقترب!

وفي هذا الجوّ الخانق كان الإحساس بالظلم والقهر يملأ المستضعفين صغاراً وكباراً، وحتى الأطفال مع ما طبعوا عليه من براءة، وبعدٍ عن الإحساس بهموم الحياة، أو الاهتمام بمشاكلها؛ حيث عبرت مجموعة منهم عن انطباعاتهم بشأن تقييم الوضع، فكانت في مجملها تعكس مرارة الإحساس بالإهانة والمعاناة، وعدم الارتياح، وقد تبين ذلك من تصريح أدلى به أحدهم وهو من أصل هندي بقوله: «إذا اندلعت حرب، فسوف نحارب إلى جانب السود حسب رأيي، فهناك حرب وسوف تساعد البلاد السوداء المجاورة السود هنا، أريد أن يترك البيض جنوب أفريقيا. وآنذاك

(1) تاريخ أفريقيا السوداء ج2/ 1008، مرجع سابق.

(2) مقابلة مع نادين عورديمر؛ "صوتان أبيضان من جنوب أفريقيا ضد التمييز العنصري" ترجمة كمال فوزي، ص: 201، ع254 22 مجلة المعرفة، عام 1983م.

سنعيش جميعًا سعداء، ولست على وفاق مع البيض»[1].

وبالنظر إلى وسائل الاحتجاج ومنابره؛ نلمس أن حركة الأدب والفنّ في جنوب أفريقيا نالت قدراً وافراً من فضل المشاركة في النضال، وقد تراوح موقفها بين تصوير دقيق لحقائق الواقع المرير، وتعبير عميق عن إرادة التغيير، حيث كان: «في بدايته أدب احتجاج واستنكار، يحمل في طياته في الوقت نفسه المعاناة اليومية واللحظة المعاشة... ثم أصبح هذا الأدب على مرّ الأيام أدب الرفض والتصدي، وتحول إلى أداةٍ لجمع القوى وحشد الطاقات وسلاحًا لمعركة المصير. لقد كانت الأفكار التي يبثها والكلمات الصارخة التي يطلقها، تدعو إلى ضرورة توحيد الصفوف والعمل وخوض المعركة دون تردّد»[2].

وأما الفنّ فقد استخدم هو الآخر وبكل فروعه للتعبير عن الاستياء تجاه سياسة التفرقة العنصرية، وسخّر الفنانون لوحاتهم ومنحوتاتهم لتصوير مظاهر التعذيب، ومظاهرات الاحتجاج الشعبية. وبعد انفراج الأزمة انتقل الفن إلى لعب دور جديد والاضطلاع بمهمة وطنية نبيلة يمكن تسميتها برسالة الفنّ، ودعوته لإرساء قواعد التسامح من أجل التعايش في جنوب أفريقيا المتحررة.

وخلاصة ما يمكن أن يقال بشأن الكفاح الداخلي المحلي هو: أن جنوب أفريقيا شهدت أكثر أشكال النضال تقدمًا في القارة الأفريقية، وأسهمت إسهامًا واسعًا وفعالاً في تنمية روح الكفاح من أجل التحرر لدى كافة الشعوب المغلوبة على أمرها، وتفتّق النضال المحلي في جنوب أفريقيا عن رموز عالمية صادقة صامدة، شكلت نماذج تظل قدوة للشعوب والأفراد على مرّ الأزمان وهي تشق طريقها الطويل الشاق نحو الحرية والمساواة. على أن من الطبيعي بالنسبة لكفاح حظي بهذا الزخم الإعلامي الهائل أن تكون له تأثيراته الخارجية، وصداه الواسع في الآفاق العالمية، والمحافل الدولية. وهذا ما سنحاول أن نتبينهُ على مستويين، دولي وإسلامي من خلال الآتي:

---

(1) آناجايل "في جنوب أفريقيا أربعة أطفال يحاكمون نظام الفصل العنصري"، ترجمة محمود قاسم، مجلة الثقافة العالمية، ع22/ 115، س/ 1405هـ 1985م.

(2) الدكتور عبدالقادر ياسين: "الأدب في أفريقيا الجنوبية" ع324/ ص: 131 مجلة العربي عام 1985م.

ب ـ الموقف الدولي المساند لحركة التحرر في جنوب أفريقيا :

لعوامل متعددة تجاوبت الدول الأفريقية مع أصداء حركة التحرر في جنوب أفريقيا، فعملت على إيواء اللاجئين، وإعانتهم، وتدريب عدد لا بأس به منهم، وحظر تحليق طائرات جنوب أفريقيا فوق أقاليمها الجوية، كما عمدت إلى قطع العلاقات التجارية والدبلوماسية معها، والعمل على تعريتها في المحافل الدولية، ورشقها بوابل الإدانات، والتنديدات، وبيانات شجب، واستنكار لما هي عليه، إمعانًا في الإضرار بها، ودفعًا لها إلى الإنثناء والعدول عن نهجها السياسي المذموم.

وعندما أقدمت حكومة جنوب أفريقيا وفق ما تمليه سياسة التفرقة العنصرية على إنشاء كيانات قبلية لتشريد وتشتيت العنصر الأفريقي، بتهجير الملايين منهم قسراً من المدن للاستيطان في تلك المستوطنات خالصة لهم دون غيرهم، فيما عرف بسياسة البانتوستات، فقد رفض المجتمع الدولي بأسره هذا السلوك الشاذ منذ إعلان المشروع بإقامة المستوطنة الأولى عام 1976م[1]، والتي بررت من قبل النظام العنصري بالعمل على تحقيق فرص التنمية المحلية والذاتية لكل مجموعة عنصرية على حدة، وفي حدود المنطقة الجغرافية التي تعرف بها، بأن تعهد إليها مهمة تنميتها وتطويرها.

هذا، وقد أخذت منظمة الأمم المتحدة من جهتها تتابع باهتمام فائق، وتعالج مشكلة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا منذ عام 1946ف؛ أي بعد أشهر من تأسيسها، وقد وجهت إدانات قاسية ولأكثر من مرة وعبر مختلف أجهزتها ووكالاتها إلى حكومة جنوب أفريقيا، في نظامها السياسي العنصري المنافي لمبادئ ميثاق المنظمة العالمية، ومع ذلك فإنّ حكومة جنوب أفريقيا «قد تجاهلت ما يزيد على 75 قراراً للجمعية العامة للأمم ومجلس الأمن بمطالبتها إنهاء سياستها العنصرية[2] ...». وقد عللت الدكتورة سعاد الشرقاوي سر إصرار حكومة جنوب أفريقيا على سياستها

(1) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 236، مرجع سابق.

(2) أحمد إبراهيم الجبير: العلاقات العربية الأفريقية، ص: 95.

بعماية ومغالاة فقالت في ذلك: «إن سرّ هذا التحدي يكمن في أن جنوب أفريقيا تحتل مكانة فريدة وتتحكم في ثروات نادرة وهائلة»[1] وكان يقف وراء التحدي السافر والمعلن، لإرادة العالم السوي كلّه عدد من الدول الغربية ذات الروابط المصلحيّة العملاقة، والصلات التاريخية العميقة مع نظام جنوب أفريقيا الأبيض على اختلاف أحزابه المتعاقبة، وكانت الدول الغربية تلوح من حين لآخر بفرض عقوبات اقتصادية على حكومة جنوب أفريقيا ما لم ترضخ للقرارات الدولية، وللإرادة المحلية، ولم تكن هذه الإيهامات الإعلامية الماكرة في حقيقتها سوى سراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه وجده بلاء وفناء. والعياذ بالله.

ويأتي معزّزًا ومكملاً للموقف الدولي من النظام العنصري في جنوب أفريقيا، دور كلٍّ من الإسلام والمسلمين في معالجة مشكلة العنصرية ومساندة حركات التحرر في جنوب أفريقيا.

ج ـ موقف الإسلام من العنصرية ودعم المسلمين لحركة النضال في جنوب أفريقيا:

من الأمور البيّنة اليوم لعامة الناس والتي لم تعد محلّ جهل أو إنكار حتى لدى خصوم الإسلام والمسلمين، موقف الإسلام الجليّ من التفرقة العنصرية، إذ تتعدد النصوص القرآنية والنبوية، والتراثية، وتتنوع التطبيقات والمواقف العملية سواء في حياة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، أو في سيرة صحابته الكرام من بعده، وعلى امتداد تاريخ الأمة وواقع حياتها المعاصر، لتتساوق وتتآزر مجتمعة على تشكيل صورة جامعة وجليّة تجمع بين النظر والتطبيق، للتعبير عن الموقف الرافض الذي تبنّاه الإسلام في حملته المبيدة للتفرقة العنصرية، والقضاء عليها قضاء مبرمًا. ولتأصيل هذا الموقف الخالد فقد ورد في القرآن الكريم: أن اختلاف الألوان والألسنة من آيات الله العلي القدير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ

---

(1) الدكتورة سعاد الشرقاوي: "حكومة جنوب أفريقيا وتحدّي المواثيق الدولية" مجلّة العربي ع370/ ص: 59 عام 1989م.

أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: 22].

وقد وجه القرآن الكريم خطابًا حضاريًا ساميًا للناس، كل الناس، مفيدًا إياهم أن تعدّد الشعوب وتنوع القبائل ليس من قبيل العبث، أو ضربًا من التمايز العنصري البغيض، وإنما هو للتعارف من أجل التعاون، والتفاعل، وصولاً إلى حسن التكامل لضمان سعادة الحياة لبني الإنسان جميعًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الروم: 13] فبالتقوى وحدها دون غيرها يتفاضل الناس في ميزان الكرامة الإلهية، وتتفاوت مراتبهم قربًا وبعدًا من ولاء الله ورضاه، مع بقاء الكرامة الأصلية المشتركة بين بني آدم جميعًا، إذ هي منوطة بآدميتهم. وقد أفصحت الآية عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 70].

وفي هذه الآيات وغيرها مما لا يتسع المقام لعرضها، عالج الإسلام مشكلة العنصرية من خلال القرآن الكريم علاجًا أبديًا ونهائيًا بأبدية رسالة الإسلام ونهائيتها. تلك الرسالة التي جاءت لتقول للناس «إن هنالك إنسانية واحدة ترجع إلى أصل واحد وإلى إله واحد، وإن اختلاف الأجناس والألوان والرقعة والمكان واختلاف الشعائر والآباء ليس ليفرق الناس فيختصموا، ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا، وتتوزّع بينهم وظائف الخلافة في الأرض وليرجعوا بعد ذلك إلى بارئهم الله تعالى الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها»[1].

وجاء الموقف النبوي الكريم في سياق التأكيد على الوارد في القرآن الكريم تطبيقًا حيًّا، وتعليمًا مجسّدًا، لأمة القرآن، وقد حصل ذلك في جملة من مواقف سيرته

---

(1) صلاح الدين الأيوبي: الإسلام والتفرقة العنصرية، ص: 216، ط2/ 1401، دار الأندلس، لبنان.

العطرة عليه السلام مدعومة بأحاديث صحيحة، الأمر الذي لا يدع مقالاً لقائل، ولا يفسح منالاً لنائل. وسارت الأمة المسلمة على نهج رسولها الكريم إزاء قضية التفرقة العنصرية إلى يوم الناس هذا.

ولمّا كان مسلمو جنوب أفريقيا مع قلّتهم العددية المباركة جزءاً من هذه الأمة المجيدة فقد كان لهم دور مشرّف في مواجهة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، عكس إلى حد كبير الموقف الحضاري الذي أسسته مدرسة القرآن الكريم ودعت إليه، ومما يروى من تلك المواقف النضالية التي سجّلها المسلمون هناك: أن مدينة جوهانسبرج شهدت أكبر مظاهرةٍ إسلامية عرفتها جنوب أفريقيا استنكاراً لسياسة التفرقة العنصرية التي كانت تقوم عليها حكومة الأقلية البيضاء ضدّ المواطنين الأصليين للبلاد، وقد اشترك في المظاهرة المعنيّة نحو 20 ألف مسلم، كما كان لمساجد المسلمين دور فاعل ومؤثر في إذكاء روح النضال، وتسيير المظاهرات والتي كانت تنطلق غالبًا من المساجد عقب صلاة الجمعة، وهذا يعني أن للأئمة يداً طولى في تدبير ذلك، وكم ألقى عدد منهم أمام جموع غفيرة من المسلمين خطابات تحرض على التصدي وضرورة المواجهة[1]. ويأتي لتسجيل الموقف الرسمي لمسلمي البلاد في هذا الشأن ما أصدره مجلس القضاء الإسلامي الأعلى في منطقة الكاب من فتوى تنص على تحريم العمل في الشرطة، أو في الجيش التابعين للحكومة العنصرية، وذلك «حتى لا يكون المسلم عونًا للظالم على المظلوم»[2] ولهذه المواقف المذكورة وغيرها يجهر الشيخ أحمد ديدات بالحقيقة معلنًا بقوله: «...فمن ناحية النضال السياسي لا يستطيع أحد أن يتهمنا بالتقصير»[3]. والمقصود من كلامه هو الإشارة والإشادة بدور مسلمي جنوب أفريقيا في النضال السياسي لتحرير البلاد.

---

(1) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 242، مرجع سابق.

(2) "المسلمون في جنوب أفريقيا وتحريم الانخراط في القوات النظامية العنصرية" مجلة الأمة ع69/ 90 س6، 1406هـ - 1986م.

(3) أحمد ديدات: هذه حياتي سيرتي ومسيرتي، ص: 103، إعداد، أشرف محمد الوحش، ط، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت، د. ر.

وعلى صعيد الدول العربية المسلمة، فإن جمهورية مصر العربية كانت في طليعة الدول التي دعت إلى مقاطعة حكومة جنوب أفريقيا سياسيًا ودبلوماسيًا واقتصاديًا، وشنت حملة شعواء ضدّها بتشكيل جبهة آسيوية أفريقية من خلال منظمة دول عدم الانحياز، للضغط على حكومة جنوب أفريقيا، في المحافل الدولية، وإرهاقها بالمطاردة في عدد من المنظمات الدولية، والحيلولة دون مشاركتها في مؤتمرات دولية هامة، ومن جانب آخر سمحت مصر للمؤتمر الوطني الأفريقي بفتح مكتب له في القاهرة[1].

هـ : موقف الجماهيرية العظمى وقائدها العالمي الكبير في التحريض والدعم :

وعن دور الجماهيرية العظمى، فإن مسؤولي المؤتمر الوطني الأفريقي ممتنون غاية الامتنان لتلك المساعدات السخية التي قدمتها الجماهيرية العظمى لحركة نضالهم من مادية ومعنوية، والتي «كان لها أكبر الأثر في الاستمرار ومواصلة النضال ضدّ نظام جنوب أفريقيا العنصرية»[2]. وتصعيدًا لروح النضال من أجل التحرر في جنوب أفريقيا قامت اللجنة الدولية لجائزة القذافي بمنح الزعيم مانديلا شعلة النضال العالمي جائزة القذافي الدولية لحقوق الإنسان بتاريخ: 10/ 6/ 1989م.

وهذا لعمري معلم بارز ومؤشر قوي، يوحي بتكريم وتوسيم رمزيين ليس لشعب جنوب أفريقيا المناضل فحسب، وإنما لكل الشعوب والشخصيات المناضلة في هذا العالم من أجل حقوق الإنسان، والتي تجد لنفسها متسعًا فسيحًا في شخص مانديلا المتواضع، وبذلك يتجاوز هذا الرّمز الجوهري مدلوله الظاهري البسيط ليلامس أبعاده العالمية، ومقاصده التاريخية. وقد أصدرت لجنة الجائزة بيانًا بمناسبة إطلاق سراح مانديلا بعد 27 عامًا وراء قضبان السجون، وكان مما جاء فيه: أن الجائزة التي منحتها له: «كانت فاتحة خير إيذانًا بالتحرير لهذا البطل الإفريقي الكبير»[3]، وعلاوة على ذلك فقد عمدت الجماهيرية العظمى إلى تنظيم واستضافة مؤتمر عالمي لمساندة الشعوب الرازحة تحت نير التمييز العنصري، وذلك في طرابلس من الفترة مابين

---

(1) ينظر: العلاقات العربية الأفريقية، ص: 99، مرجع سابق.
(2) المسلمون في العالم، ص: 244، مرجع سابق.
(3) المسلمون في العالم، ص: 244، مرجع سابق.

23 – 27 نوفمبر 1985م، وقد تقدم أحد الباحثين من الجماهيرية إلى المؤتمر ببحث تضمّن معالجة وافية لمختلف الأوضاع السياسية والعسكرية، والصحية والاقتصادية والأمنية وغيرها في جنوب أفريقيا(1).

هذا وإن خطابات القائد الأممي الثائر العقيد معمر القذافي وبياناته المساندة لحركة النضال الوطني في جنوب أفريقيا، والتي يكاد لا تخلو منها حلقة من سلسلة السجل القومي الليبي وفي أكثر من مورد أحيانًا، تقطع كل ريب عن دور الجماهيرية الكريمة، وتحسم كل نقاش بهذا الشأن، إذ تغني المرء وتعفيه من مهمة الاسترسال في الاستشهاد والبرهنة على جهود الجماهيرية العظمى قيادة، وشعبًا في دعم ومساندة حركات التحرر ليس في جنوب أفريقيا فحسب، بل وإنما في العالم بأسره، وهذا واقع غير قابل للنكران، كما لا يطاله النسيان، بحال من الأحوال.

وفضلاً عمّا تقدّم، فإن عددًا من الأعلام البارزة من الجمعيات والمنظمات الإسلامية ذات الشهرة والانتشار العالميين، تصدّت من جانبها لسياسة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، وشدّت على أزر المناضلين من أجل العدالة والمساواة، داعية العالم الإسلامي، وكل القوى المحبّة للسلام والانعتاق في العالم إلى مقاطعة حكومة جنوب أفريقيا، وعزلها عن واقع الحياة الدولية؛ حيث كان مما أوصى بها الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب شرق آسيا في بيانه الختامي، والذي انعقد في مدينة كولومبو عاصمة سريلانكا تحت شعار: «الدعوة ودورها في مواجهة التحديات» وذلك في الفترة من 26– 28/ 10/ 1399 من وفاته – عليه السلام – الموافق: 21– 23/ 5/ 1990ف مطالبة جميع المسلمين والشعوب المحبة للسلام، «بتقديم الدعم للكفاح البطولي الذي يقوم به شعب جنوب أفريقيا، ومقاطعة النظام العنصري سياسيًا واقتصاديًا حتى ينال الشعب حقوقه المشروعة كاملة»(2). وإن ورود هذه التوصية الكريمة في مؤتمر آسيوي، وحرص

(1) هو بحث الدكتور محمد اللافي المنشور في مجلّة الفكر الإستراتيجي العربي ع 23 24، 1988م بعنوان سبق ذكره.

(2) أعمال الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب شرق آسيا، ص: 278، من منشورات الجمعية، طرابلس.

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في التأكيد على هذه القضية في كل المواقف والملتقيات لهو أكبر دليل على ما تحمله الجمعية من همٍّ إسلامي ساهر، وشعور إنساني نبيل تجاه كل شعوب العالم قاطبة، ونحو كل إنسان عامة، دون إعارة اهتمام متحيز لفوارق الدين والعرق، وغيرها من الاعتبارات التي يحسب لها المغرضون المرجفون حسابًا كبيرًا، وهو كذلك يعبر أيضًا عن حضارية الخطاب الإسلامي الذي تبنته الجمعية فكرًا ومنهجًا في مجال الدعوة إلى الله، ومناصرة المستضعفين والسعي من أجل انتصار قيم الحق، والخير، والحرية، والعدالة، والمحبة بين الناس جميعًا شعوبًا وأفرادًا، فوق كوكبنا الأرضي.

وقد درجت رابطة العالم الإسلامي أيضًا على هذا النهج الإسلامي البناء، وذلك حين: «ناشدت رابطة العالم الإسلامي الحكومات المسلمة الاحتجاج على سياسة التمييز العنصري التي تمارسها حكومتا جنوب أفريقيا وروديسيا العنصريتان، ضدّ سكان البلاد الأصليين في كافة المؤتمرات والمحافل الدولية ومساعدتهم لنيل حقوقهم في تقرير المصير، ودعا المجلس التأسيسي للرابطة تلك الحكومتين إلى منح السكان الأصليين حقوقهم المشروعة كمواطنين في هذه البلاد»(1).

ويلاحظ أن الفرق بين الخطابين يتجلّى في مستوى المخاطب الذي يتوجه إليه الخطاب، إذ هو في الخطاب الأول أعمّ وأوسع منه في الثاني.

وإلحاقًا بما سبق فإنه ليس بوسعنا أن نغفل دور منظمة المؤتمر الإسلامي التي أعربت عن عمق سعادتها بالإفراج عن نيلسون مانديلا، واصفة إياه في بيانها الصادر بهذا الخصوص بأنه: «رمز الحرية والمدافع عنها وأنه وقف حياته على التمسك بالقيم النبيلة التي تتطلع إليها الشعوب المحبة للحرية والعدالة لتحقيقها... إن العالم الإسلامي يؤكد من جديد في هذه المرحلة الدقيقة تضامنه مع شعب جنوب أفريقيا ومساندته لكفاحه العادل»(2).

---

(1) رابطة العالم الإسلامي تحتج على التفرقة العنصرية، ص: 128، من مجلة الوعي الإسلامي ع181، س16، 1400هـ 1979م.

(2) المسلمون في العالم، ص: 257، مرجع سابق.

وبفضل هذه الجهود النبيلة من الكفاح الداخلي، والخارجي ضد نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، انبسط الأمل في نفوس السود، وكانوا مع تعاستهم ومعاناتهم متفائلين بأن الزمن سوف يصدر حكمًا إيجابيًا ومنصفًا في موضوع كفاحهم، وكان يملؤهم الاعتقاد رغم الجهل الإنساني بحقيقة وطبيعة ما تحمله الأيام في طياتها بأنه مهما يكن من أمر فإن هذا الحكم لن يكون سوى في صالحهم، ولم يكن متوقعًا بحال من الأحوال أن يتنكر لجانبهم وأن يكون غير ما كان بمشيئة الله وتوفيقه.

وفيما كان النظام العنصري يلفظ أنفاسه الأخيرة فقد أخذ التشاؤم يدبّ ويستبد بضعاف النفوس من أعوانه وأتباعه وكلّ أولئك الذين نعموا بعهده، وتمتعوا بامتيازاته التالفة، ومن ثم عرف اليأس طريقه إلى حياتهم المترفة، وبات يرتعهم القلق، وتخيم على أجوائهم الكآبة، وكلّ معاني الحزن، والتي قلّصت قدراتهم الاجتماعية إلى حدّ كبير وامتصّت كل طعم لسعادة الحياة لديهم؛ والحال أنّهم أدركوا أن شمس عهدهم أخذت في الأفول لتتولى من غير رجعة، وأن التاريخ مقبل على تحوّل إلى عصر جديد لا مكان فيه لنظام فاشل عن مواكبته، وفعلاً فقد باتت أيامهم آنذاك قليلة ومعدودة، وكانوا في حالة انتظار حقيقي لما تسفر عنه الأحداث والأيام، ولهذا السبب «فإن الكثيرين من البيض كانوا في حالة تجمد ينتظرون أن يمضوا حاضرهم في التفكير بماضيهم ليتجنبوا التفكير في مستقبلهم»[1].

ولفضل هذه الجهود النضالية الممتدة المتضافرة، وهذا الكفاح الطويل العريض لشعب جنوب أفريقيا، فقد بارك الله كفاحه المرير، وكلّل نضاله بالانتصار؛ إذ رست سفينة التحرير والإنقاذ في محطة الأماني الغالية، ليهبط الشعب بآلامه، وتضحياته، وآماله على برّ الأمان والحريّة، وفوق ساحل العدالة والسعادة. وقد تحقق تتويج الكفاح بالنجاح عبر سلسلة من المفاضات، والإجراءات السياسية من تعديلات دستورية، وانتخابات رئاسية، وغيرها من الأمور التي ليس الخوض في تفاصيلها مما يتّصل بموضوعنا هذا.

---

(1) فنست كربنزانو: "الانتظار: البيض في جنوب أفريقيا" ترجمة جودت أحمد، مجلة الثقافة العالمية، ع26/ 198 س: 5، 1406هـ 1986م.

وهكذا في جوّ حافل بالبهجة والتصفيق، وغارق بدمعات الفرح والنشوة انتخب نلسون مانديلا[1] أوّل رئيس أسود لجنوب أفريقيا وذلك يوم 9/ 5/ 1994م، وقد حضر حفل تنصيبه الرسمي ضيوف رسميون وشعبيون من شتى أنحاء العالم. وفي أوّل كلمة رسمية له ألقاها يوم تنصيبه، أبان هذا الرّجل العظيم ذو القلب الكبير عن مكنون المعاني العظيمة التي يحملها بين جنباته، عائشًا من أجلها وفي هديها. ومما قاله والتأثر بادٍ على ملامح الحاضرين بأجمعهم: «ها هو اليوم الذي ناضلنا من أجله وانتظره شعبنا طويلاً، فلننس الماضي... نحن بلد ... نحن شعب»[2] وقد شدّد في خطابه على المصالحة الوطنية مؤكدًا على أهمية التسامح، وضبط النفس، والترفع عن عمليات الانتقام، والمبادلة بالمثل، داعيًا إلى التحلّي بالصبر، والتغاضي عمّا فات، صحيح أن مسألة التصالح بين الأجناس التي طال تنافرها ومن ثم عراكها ليست أمرًا ميسورًا كما أنها ليست قضية يوم وليلة، وهي مع صعوبتها تظلّ ممكنة وليست مستحيلة طالما ضرب كُلّ من الفرق المتنافرة أمثلة أخلاقية كريمة لتأسيس أصول حياة مشتركة ومتوازنة بإشاعة روح المودة والتسامح، وخلق أجواء التعاون والإخاء، فلذا «ليس من الحكمة أن نقول إن هذا أمر غير ممكن، بل علينا أن نتمسك بالإيمان الذي باستطاعته أن ينقل الجبال من أماكنها»[3]. وعن طبيعة المرحلة التي تمرّ بها البلاد يقول مانديلا: «إن هذا ليس زمن الانتقام ولكنه زمن مداواة الجراح من أجل بناء جنوب أفريقيا جديدة لنا وللعالم»[4] وبهذه الكلمات والمواقف السامية انطفأت نيران الغضب، وثابت النفوس إلى سكينتها، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان ذلك الموقف التاريخي الخالد الذي سجّله الرسول الأعظم ﷺ، يوم فتح مكة بقوله: «... اذهبوا فأنتم الطلقاء»، تسامح أيّ تسامح لازال صداه يتردّد ويتجدّد في أعماق التاريخ على

(1) من مواليد 18 "يوليو" ناصر عام 1918م، في قرية صغيرة تدعي كونيو وأمضى ريعان شبابه في السجن حيث ظلّ محبوسًا لمدى 27 عامًا من حياته، ينظر: مجلة العربي ع136.

(2) صحيفة العرب العالمية، ع4324/ ص: 5، بتاريخ 10/ 5/ 1994م، لندن، الصادرة في لندن.

(3) هربرت كادفمان: "أفريقيا" قراءة وتقديم لطيف دوس، مجلة الثقافة ع51/ ص: 53، مج5، س: 1.

(4) مجلة العربي، ع497/ ص: 136 مرجع سابق.

مرّ العصور، وما موقف مانديلا إلاّ شاهداً ودليلاً على ذلك، باعتباره ترديداً قويّاً لصداه الإنساني الواسع العميق، وبهذا يتأكد القول بأنه كلما تباعد الناس عن عصور الرسالة الإسلامية زمنيًا، وأخذت القيم العظيمة تتلاشى من حياة الأمم والشعوب، جاءت الرموز الإنسانية السامية لتشكل نبراساً ينير للإنسانية الحائرة دربها الحالك، مذكرًا بميراث النبوة المتجدّد، ينبوع الجمال، وملهم الأبطال.

وهكذا سجل وعزف شعب جنوب أفريقيا ملحمته التاريخية الرائعة، ملحمة التضحية والكفاح، لينتقل إلى فصل تاريخي جديد من سِفْرٍ، كلّه صراع وصدام، ونضال وتحد، مواجهة ومقاومة بين الخير والشر، بين الدخيل والأصيل، بين الحق والباطل، بين المستعمِر الظالم والمستعمر المظلوم، وأخيراً بين الإنسان وأخيه الإنسان.

ولا يزال هذا الصراع يشهد امتداده على أشدّه، وإن كان قد اتخذ بعداً دينيًا حضاريًا، بعد أن كان سياسيّاً اقتصاديّاً ويتمثل ذلك في الصراع بين حركة الدعوة الإسلامية، والنشاط التنصيري الكنسي في هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم. وسيردُ بيان ذلك في حينه من خلال هذا البحث، إن شاء الله.

وإذا كان ما تعرّضنا له من خلال الصفحات المتقدمة عن جنوب أفريقيا جغرافيّاً وتاريخيّاً من قبيل المعلومات التي هي مُشاعٌ بين عامة الناس على تفاوتهم في معرفتها، فإن مما لا يعرفه الكثيرون هو تاريخ الإسلام ووضع المسلمين قديماً حديثاً في جنوب أفريقيا ومختلف أوجه نشاطهم الإسلامي في هذه المنطقة الحسّاسة من أفريقيا، قارة الإسلام؛ وذلك لكونها ظلت مبتورة الصلة بديار المسلمين حينًا من الدهر، وحتى إلى عهد قريب من هذا التاريخ، ولم تنعم بالانفتاح إلاّ في هذا العقد الأخير أو ما يزيد قليلاً.

وعليه، فإن من المهم أن تُتناول في الآتي القضية المثارة آنفًا، بالحديث عن تاريخ الإسلام ووضع المسلمين في جنوب أفريقيا في حدود ما يتيسّر، والله المستعان . . .

المبحث الثاني:

تاريخ دخول الإسلام

إليها وانتشاره فيها

أولاً: مقاربة أولية لتاريخ دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا ومراحل انتشاره فيها:

فيما يتصل بتاريخ دخول الإسلام إلى هذه البلاد، فإن المعلومات المتوافرة مع ضآلتها تختلف بشأن تحديده اختلافاً يستعصي على الرأب، مما يجعل مهمة من يتصدى لتحديد علمي دقيق لهذا الأمر أمراً عسيراً، وربما وصفت بأنها لا تخلو من مجازفة علمية.

وفي ضوء هذا الاختلاف، والذي أدّى إليه فيما أظن سكوت المراجع التاريخية الإسلامية عن تناول الموضوع في وقت مبكّر، وإهمال متابعة حركة الإسلام في هذه البقعة الدعوية الخصبة يلمح المرء بصيصًا من الإجماع عن دور دعوي مشكور في جنوب أفريقيا، للجالية المسلمة الوافدة من القارة الآسيوية من منفيين، ونازحين، ومهاجرين، ممن جرت المراجع التاريخية على نسبة فضل دخول الإسلام وانتشاره في جنوب أفريقيا إلى جهودهم السابغة وتضحياتهم الكبيرة.

ولئن كان هذا الإجماع واردًا وهو من الغرابة بمكان، فإن مما يثير التساؤل، ويدفع إلى التأمل، هو كيف أن المسلمين الأوائل لم يهتدوا إلى هذه المنطقة المعروفة اليوم بجنوب أفريقيا إبّان الفتوح، وانتشار الإسلام في العالم، وخاصة في سني دخول الإسلام إلى القارة، وهم من عُرفوا بغيرتهم وشدة تحمسهم لدعوة الإسلام العالمية؟ فضلاً عمّا تفيض به المصادر التاريخية من قدم العلاقات والاتصالات العربية المبكّرة بسواحل القارة الأفريقية حيث «كانت معرفة العرب بساحل أفريقيا الشرقية قديمة تعود إلى ما قبل الدعوة الإسلامية بكثير ولا زال الشاطئ الأفريقي يحمل أسماءً من الجنوب العربي في مناطق مصوع وعصب وما وراءها في الداخل»[1]، وقد تعزّزت العلاقات التجارية القديمة بين الطرفين بظهور الإسلام وانتشاره في العالم القديم، فخلّفت تلك الصلات التجارية القديمة وراءها على السواحل الأفريقية مجتمعات إسلامية ومؤثرات

---

(1) الدكتور: جميل المصري: حاضر العالم الإسلامي، ص: 649.

حضارية ترسّخت أصولها، وتبدّت معالمها بمرور الأيام، فكانت قد تجذّرت تلك العلاقات الحضارية في أعماق التاريخ عندما حطّ الرحالة المسلم ابن بطوطة رحاله على سواحل شرق أفريقيا في نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ليدرك أن معظم مناطقها كانت تنتمي إلى العرب ذات الثقافة والحضارة الإسلاميتين(1). وذلك لقربها من المنابت العربية، ولتفاعلات التجارة والهجرة المتبادلة بين الطرفين، إزاء هذا التساؤل الملحّ، ربّما عنّ لبعض من يحاول التبرير القول: بأن الإسلام ظل محصوراً في الساحل دون أن يتوغلّ إلى الداخل، وأيضًا دون أن تتوسع حركة الدعوة في انسيابها نحو الجنوب، وخاصة في الفترات التي مني فيها المسلمون ببعضٍ من فتور الهمّة، وتغلّب عليهم داء القعود والتقاعس عن نشر رسالة الإسلام على الوجه الأتم والأعم. ولعل هذا ما تكشف عنه الرؤية التي كانت سائدة لدى المسلمين عن هذه المنطقة، كما تصوره أدبيات بعض الجغرافيين والمؤرخين منذ عصر ياقوت الحموي ت626هـ الذي وصف المنطقة الجنوبية في معرض حديثه عن صفة الأرض بقوله: «...إنه خراب يباب ليس فيه ملك ولا مدينة ولا عمار، وهذا الربع يسمّى المحترق، ويسمى أيضًا الربع الخراب... والربع الجنوبي خراب، والنصف الذي تحتها لا ساكن فيه»(2)، هذا، ولم تكن المعرفة المتوافرة لدى المسلمين عن هذه المنطقة بأمثل حالاً عمّا كانت عليه في أيام الحموي حتى في عهد القلقشندي ت821هـ = 1418م الذي استقى مادته العلمية عمن سبقه من المصنفين، وتكمن قيمته العلمية عند البعض في «أنه جمع في كتابه الكثير من نصوص المؤلفات التي لم تصل إلينا»(3)، ورغم موسوعية القلقشندي الواسعة، وسعة أفق المناخ الثقافي الذي عاش في رياضه، فإنه لم يسلم من الوقوع في قيد الرؤية الموروثة عن أسلافه، إذ كتب هو الآخر قائلاً: «... ثم النصف الجنوبي من الأرض لا عمارة فيه إلا فيما قارب خط الاستواء في بعض بلاد الزنج

---

(1) ينظر: د. جمال زكرياء قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص: 51، دار الفكر العربي، 1416هـ 1996م.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان: مج1/ 19، دار صادر 1397هـ 1977، بيروت، لبنان.

(3) الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص: 55، مرجع سابق.

والحبشة...»[1]، وفي موضع آخر يصف ما بَعُدَ عن خط الاستواء جنوبًا بأنه «أرض خراب غير مسكونة ولا مسلوكة»[2]، وعمومًا كانت هذه الرؤية الخاطئة عن منطقة الجنوب، هي السائدة في المصنفات الجغرافية حتى النصف الأول من القرن الخامس عشر الافرنجي، وقد توصل إلى هذا الاستنتاج من قام بدراسة وتقييم الأدب الجغرافي عند العرب، وهو المستشرق كراتشكوفسكي، فلخصه في قوله: «قد توافرت للعرب معلومات هامة عن ساحل شرق أفريقيا الشرقي إلى ما يقرب من خط العرض 20 جنوبًا أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرة العرب عنها بصفة عامة تستند على الحدس والتخمين»[3].

إذن؛ وفي ضوء ما تقدّم فليس من عجب أن يتأخر وصول الإسلام إلى هذه البلاد، وتظل الدعوة الإسلامية تتحيّنُ ستينيات القرن السابع عشر الإفرنجي لتتسنى لها الفرصة بأن تشق طريقها متسرّبة إلى أعماق المنطقة، وعلى يد المستعمرين من حيث لا يشعرون.

والواقع أن تقييمًا معرفيًّا من هذا القبيل، من شأنه أن يثير استياء بعض الباحثين، ويدفع بهم إلى محاولة التغطية والمفاجأة بآراء متحمسة يعوزها التوثيق العلمي الصحيح، ويمكن أن نجد مثالاً لذلك في رأي الأستاذ محمود شاكر القائل نصًّا: «يقل عدد المسلمين كلما اتجهنا نحو الجنوب في أفريقية... حيث لم تتجاوز سفنهم؛ أي المسلمين مدينة سفالة في موزامبيق إلا قليلاً، وذلك بسبب قلة السكان آنذاك في المناطق الجنوبية، والسفن الإسلامية كانت تحمل الدعوة مع التجارة، ولم تكن من مجال كبير للتجارة جنوب سفالة، وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا ذلك الجزء من القارة؛ لقد عرفوه في رحلات قليلة، ولكنّهم لم يمكثوا هناك طويلاً لقلة ما به من سكان»[4] وهو

---

(1) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 3/ 231، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(2) المرجع نفسه، ص: 237، وينظر: أيضًا ج5/ 263.

(3) نقلاً عن كتاب الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص: 40 مرجع سابق.

(4) العالم الإسلامي، ص: 278، ط3/ 1408هـ 1988، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.

بذلك يفند رأي القلقشندي ـ الذي وصفه بأنه أرض غير مسكونة ولا مسلوكة ليوقع نفسه في فخ تهمة المسلمين بأنهم لم يكونوا يهتمون بالدعوة قدر اهتمامهم بالتجارة، وأنّ الدعوة عندهم شأن عارض، متفرع ومرتبط بالمصالح التجارية وجوداً وعدماً باعتبارها الهدف الأساسي والأصيل، لحركة سيرهم في الأرض!!.

على أن من الغريب حقًا، وقد أجمعت المصادر على تأخر دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا أن تكون جمهورية موزامبيق المتاخمة لها شمالاً من الجهة الساحلية قد شهدت الموجات الأولى لحركة الدعوة الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري، على حدّ ما ذهب إليه أحد المعنيين بأمر الدعوة في القارة الأفريقية قائلاً: «وللمسلمين في موزامبيق تاريخ عريق منذ وصول الدعاة والتجار والنازحين المسلمين من مناطق أفريقية أخرى منذ القرن الرابع الهجري، فأسسوا مدينة سفالة التي ذكرها ابن بطوطة، وكثيراً من المساجد والمدارس، وكانت المناطق الإسلامية من موزامبيق تابعة ذلك الحين لمملكة الزنج التي كانت عاصمتها كلوة، وكان لها جهاد طويل في نشر الإسلام في ذلك القطاع من أفريقيا»[1]. ويقال إن موزامبيق مدينة باسمها الحالي لحاكم مسلم اكتسبت اسمها منه، ويدعى موسى بن أمبيق، ذلك أنه كان قيّمًا على إمارتها، ولما حاربه الغزاة البرتغاليون واستولوا على البلاد، كان من الصعب عليهم نطق الاسم فحرّفوه إلى موزامبيق.

ولا يزال المسلمون فيها حتى اليوم بعد خمسة قرون من الحكم المسيحي يشكّلون نسبة 60% من مجموع سكانها[2]. ولهذا الاعتبار قيل عنها: «تعتبر موزامبيق من المعاقل المهمة للإسلام في الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية، ولا زالت حتى اليوم تضمّ أكبر عدد من السكان المسلمين»[3].

ويجوار موزامبيق غربًا تقع جمهورية زمبابوي شمال جنوب أفريقيا، يعود تاريخ

---

(1) محمد عبده يماني: أفريقيا لماذا؟ ص: 131.

(2) ينظر: أحمد ديدات: الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، ص: 83، من سلسلة مكتبة ديدات، ط دار المختار الإسلامي، القاهرة د. ت، د. ر.

(3) "الإسلام في موزامبيق" مجلة حضارة الإسلام، ص: 102/ع4، س7، 1386 1966م.

دخول الإسلام إليها كما يقال إلى القرن الرابع الهجري، وربّما أبعد من ذلك كله وأقدم، في رأي من يقول: «وهناك أدلة تشير إلى أن الإسلام دخل هناك قبل ذلك، فقد عثر الدكتور (ستانلي تيمبور) في إحدى مناطق زمبابوي، وبالقرب من نهر زمبيزي، على قبر نقشت عليه العبارة التالية: بسم الله الرحمن الرحيم... لا إله إلاّ الله محمد رسول الله... هذا قبر سلامة بن صالح الذي انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة في السنة الخامسة والتسعين من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام»[1]. وفي ضوء ما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات، فإني أعتقد غير جازم أن الدكتور زغلول النجار، ربما وجد لنفسه فيها متكأً علميّاً فاستند عليه في قوله: «وقد دخل الإسلام إلى جنوب القارة سنة 605هـ الموافق 1208م عن طريق بعض التجار المسلمين القادمين من شبه الجزيرة العربية، والذين يعيش أحفادهم اليوم في مدينة الكاب»[2]. على أنّ وجود الأحفاد، لا يدل في حدّ ذاته على دقة ما حدّد من تاريخ لوصول الأجداد، ولا يستلزم القول بذلك إذ لا تلازم بين الأمرين.

وبذلك يظل مستنده العلمي مجهولاً لنا، إلاّ إذا عوّلنا على الظن بأن رأيه مستنتج مما قيل بشأن دخول الإسلام إلى كل من موزامبيق، وزيمبابوي، وإن كنّا لا نجد في مقاله ما يحمل ولو أدنى إشارة إلى اطلاعه على تلك المعلومات، فضلاً عن تأثره بها.

هذا، ويجنح الأستاذ أحمد يوسف القرعي أيضاً إلى قريب من الرأي المتقدم على نحو يوحي بالمشاركة فيه، إذ يقول في شيء من التعميم، ومن غير تحديد وضبط تاريخي: «وبدأت حركة الإسلام في الانتشار جنوباً منذ أوائل القرن السادس الهجري، الـ13 الميلادي عن طريق بعض التجار المسلمين من شبه الجزيرة العربية»[3].

وصفوة القول عندي في هذا الأمر، أن الرأيين السابقين مما يصلح للاستئناس به، إذ يفتحان الباب على مصراعيه للنقاش العلمي في موضوع كاد يُحسم بالاجماع من

---

(1) "الإسلام في موزامبيق" "المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 211، مرجع سابق

(2) "مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال" مجلة العربي ع239/ 48، أكتوبر 1978م.

(3) "واقع ومستقبل الجالية الإسلامية في جنوب أفريقيا" مجلة الفيصل ع59/ 40، س5/ 1402هـ 1982م.

غير اجتماع، مما يدفع أولي الشأن من الباحثين والمؤرخين إلى المزيد من التقصي، والتحقيق في هذا الموضوع.

وللخروج بنتيجة علميّة ولو مؤقتة في رسالة علمية عن قضية دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا، فإنه حتى الآن لا مندوحة لنا أكثر من اعتماد الرأي المجمع عليه بخصوصه، وذلك على فرض صحته، والذي تتفق الروايات مع تعددها على ما مفاده: أن أوّل ما ظهر الإسلام في هذه البلاد كان عام 1667م عندما جلب إليها الاستعمار الهولندي من مستعمراته في الشرق في كل من أندونيسيا، وماليزيا، والفلبين عددًا من المعتقلين السياسيين ممن يُعد من أبرز المقاومين للحكم الهولندي المستعمر في مواطنهم الأصلية، وكان بينهم الشيخ يوسف، داعية الإسلام الأول في جنوب أفريقيا، والمؤسس التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية في مهجرهم الجديد بهذه المناطق، انطلاقًا من مدينة الكاب محط رحالهم، وقد عمل الشيخ فور وصوله من أندونيسيا على نشر الدعوة في أرجاء البلاد حتى وفاته عليه الرحمة عام 1699[1].

وكان بصحبة الشيخ عدد مختلف فيه من الآل والأتباع، ومن الدعاة، والمناضلين السياسيين، وكانوا جميعًا من المسلمين، ومما يقال عن المكانة السياسية والاجتماعية للشيخ يوسف أنه كان شقيقًا لأحد ملوك جاوه الأندونيسية، فكان هو ومن معه ممن قدّر عددهم في أقصى تقدير له بتسعة وأربعين شخصًا، الرواد الأوائل لحركة الدعوة، ونشر الإسلام في جنوب أفريقيا[2]. إذ كان من بينهم مالا يقل عن اثني عشر داعية إسلاميًا[3] إن صح هذا التخصيص! على اعتبار أن المسلمين بعامتهم دعاة إلى الله ولو بالسلوك الفاضل من غير احتراف وتفرغ.

وبمناسبة الحديث عن الشيخ يوسف فإنّ توماس أرنولد يخطئ في تحديد تاريخ وصوله إلى منفاه، إذ يقول في حاشية كتابه: «وكان من بين هؤلاء الشيخ يوسف،

---

(1) Abdul-Kader Tayob, Islam in South AFRICA- P:22.

(2) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 208 209، مرجع سابق.

(3) ينظر: أفريقيا لماذا؟ ص: 147، مرجع سابق.

وهو معلّم دين ذو نفوذ عظيم في جاوه وآخر أبطال استقلال بنتام، وفي سنة 1694 ساقه الهولنديون سجين دولة إلى مستعمرة الكاب، هو وعائلته، وكثير من أتباعه، ولا يزال ضريحه يعدّ مكانًا مقدسًا»[1]. وعن أسباب اعتقال الشيخ يوسف ونفيه، فضلاً عن جهوده في الدعوة، وما آلت إليه الأمور من بعده يقول الدكتور عبد الرحمن الماحي: «وكان من بين هذه الجماعة مصلح كبير يدعى الشيخ يوسف، كان يطالب بالحرية وتطبيق الشريعة الإسلامية في بلاده، وهو في الواقع نقل منفيًا ونقل معه جمع من آله وأتباعه ولكنه تابع نشاطه في الدعوة إلى الإسلام، وأشاع روحًا إسلاميًا فيما حوله من الأفريقيين في جنوب أفريقيا، وليس هناك عناية كبيرة من المسلمين بعد ذلك بتاريخ الإسلام في هذه البلاد»[2]. فإذا كان قصد الدكتور هو القول: بأنّ مرافقيه من المهاجرين لم يولوا اهتمامًا يذكر بأمر الدعوة من بعده فإني مع وافر احترامي له أرى أنّ الصّواب قد جانب سيادته في ذلك إلى حدّ ما، لما عرف عن هذا الرّعيل الأول من تفانٍ، وبذل تضحيات غالية، وجهود مشكورة في سبيل تعميم دعوة الإسلام في محيطهم الجديد، والذي كان ولا شك مباينًا ثقافيًا لما هم عليه، فكان الإسلام وحده والدعوة إليه يشكل طوق النجاة من الذوبان في هذا الخضم الغارق، فلذا اعتصموا بحبل الدعوة الإسلامية شعوراً بالواجب، وأيضًا حماية لأنفسهم من الضياع، بخلق جوّ مجانس ومماثل لما عرفو في بلادهم من حياة إسلامية سعيدة، وبذلك يبعد كل مظنة تقوم على احتمال قصورهم وقعودهم عن نشر الإسلام؛ إذ كان وسطهم الجديد يحتم عليهم ذلك أيّما تحتيم. وقد شهد لهم الدكتور شلبي بالجدية، والتحمس في نشر الإسلام بقوله: «... ولكن هؤلاء وأولئك لم ينسوا الإسلام في مقرهم الجديد، وكأنهم كانوا دعاة رحلوا ليحملوا للناس دعوة الله، فما إن حطت رحالهم في جنوب أفريقيا حتى انطلقوا يدعون للإسلام، واستجاب لهم الكثيرون، وتألف من المهاجرين

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، الحاشية الـ2، ص: 388، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، ط3/ 1970م مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(2) د. عبدالرحمن عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، ص: 95 96، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، د. ر، د. ت.

ومن الذين استجابوا لهم بـالجنوب وحـدة إسـلامية واحـدة متناسـية الوطـن الأصلـي ، والجنس واللون ، وهي الآن جالية يحسب حسابها في هذه البقاع»[1] .

وبذلك يمكن أن نتصور أن الإســلام أخـذ ينتشـر انتشـارًا بطيئًـا ومحـدودًا في هـذه البيئة الجديدة بإرادة الله تعالى ، ثمّ بفعل ما بذله الدعاة الأوائل إليـه ، والذيـن لا تسـلم طبيعة دعوتهم عادة ، من مضايقات المستعمرين بحكـم وضعهـم السياسـي ، وصفتهـم التي حملوها معهم إلـى هـذه البـلاد ، باعتبـارهم منفيـين يخضعـون للمراقبـة السـاهرة والمتابعة الدقيقة .

ولئن كنا نفتقر إلى معلومات علمية تقدم مؤشرات بيانية لأثر دورهم الدعـوي في مثـل هـذه الأجـواء والملابسـات ، فإنـه ليـس ممـا يقنعنـا بحـال مـن الأحــوال أن تكـون جهودهم المخلصة التي بذروهـا ، وتعهّدوهـا بالرعايـة الفائقـة قـد ضـاعـت مـن غـير أن تثمر ، ودون أن تسفر عما كان يتوخى من ورائها ، فيما يشـبه عمليـة بـذر البـذور علـى الصخور لالتقاط الطيور .

وعمومًا : والجهل بكيـف وكـم أثرهـم قـائم ، يكفيهـم شـرفًا أنهـم حملـوا النـواة التاريخية الأولى لحصـاد الدعـوة الإسـلامية في جنـوب أفريقيـا ، وحسـبهم فخـرًا أنّهـم دشنوا للمرحلة التأسيسية ، وهي – بحسب المصادر المتاحة – الأولى من تاريخ الوجود الإسلامي في هذه البلاد لتعقبها مراحل لاحقـة بتطوراتهـا وانتصاراتهـا ، كمـا سـيتضح ذلك في الصفحات التالية ، فأعظم بهم شأنًا وأكرم بهم مقامًا ! .

المرحلة الثانية لانتشار الإسلام في جنوب أفريقيا / 1850 - 1912 :

تتسم هذه المرحلة كسابقتها بتسجيل دور مميز لعامل الهجرة ، وتأثير أكبر وأوسـع للمهاجرين المسلمين الذين وصلوا إلى جنوب أفريقيا ، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر الإفرنجي ، فتوالت وفودهم عليها بأعداد لا حصر لها على امتداد النصف الأخير

(1) الدكتور أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج6/ 191 .

من القرن التاسع عشر إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وبالنظر إلى دواعي الهجرة ودوافعها يمكن تصنيف هؤلاء المهاجرين إلى مجموعتين اثنتين :ـ

أ ـ مجموعة الهجرة التعاقدية :

وهم الذين استقدمتهم إنجلترا إبان احتلالها لجنوب أفريقيا من العمال المسلمين القادمين من جنوب الهند وباكستان، للعمل في مناطق زراعة قصب السكر، واستصلاح الأراضي كحل موضوعي، تبنته السلطات لوضع حدّ لمشكلة العمالة في البلاد، وذلك منذ عام 1860، وقد أدى حضور هؤلاء المهاجرين إلى نموّ وكبر الجالية الإسلامية في البلاد، وعلى الرّغم من عودة بعضهم بموجب انتهاء عقودهم، إلاّ أنّ عدداً كبيراً منهم استقروا في موطنهم الجديد[1]، حيث إنّ ظروفهم المادية بدأت تتحسن فيها على نحو يشجع بالإقامة الدائمة، فغدا كثير منهم أغنياء، لديهم الكثير من المقتنيات، والعقارات، والضياع؛ نتيجة اشتغالهم الأول في المجال الزراعي، وتوارثها عن آبائهم وأجدادهم .

ب ـ مجموعة الهجرة الاختيارية :

وبعد ما عرفت الهجرات الآسيوية سبيلها إليها، قدمت مجموعات متزايدة من مسلمي الهند للعمل في البلاد كتجار، ومستثمرين، في مختلف المجالات الاقتصادية من تجارة، وزراعة، وصناعة وتعدين، وكان ذلك عام 1869م[2]. وإلى جانب هؤلاء وصلت أعداد يصعب تحديدها من مختلف المناطق المجاورة لجنوب أفريقيا من القارة الأفريقية، وكان أغلبهم من موزامبيق، ومدغشقر، وزنجبار وغيرها من المناطق التي كان وجود المسلمين فيها منتعشًا، وكانت تشهد حركة إسلامية حيّة ومؤثرة .

وقد انتشر أفراد هذه المجموعة وفئاتها في مختلف مناطق البلاد، وجهاتها الأربعة مع غلبة الوجود على السواحل الشرقية الجنوبية، لأسباب عملية واقتصادية معروفة .

---

(1) ينظر: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 198، مرجع سابق.

(2) ينظر: أفريقيا لماذا، ص: 148، مرجع سابق.

ولرسم سمات هذه المرحلة نورد الملاحظات الآتية :

أ)- بناء أول مسجد في مدينة الكاب عام 1850[1] ، وهذا لا يعني أن البلاد كانت تفتقر إلى ذلك ، وإنما كان هذا التأسيس على مستوى مدينة الكاب فحسب ، إذ يرجع تاريخ إنشاء أوّل مسجد في البلاد إلى المرحلة التأسيسية الأولى ، وذلك في أشكاله البسيطة[2] . وكان بناة هذا المسجد ينتمون إلى المذهب الشافعي ، ثم شفع هذا الإجراء بتأسيس مسجد آخر للأحناف ، تمّ ذلك بجهود أفراد الجالية الأفغانية عام 1881ف ، وقد اضطلعت المساجد في هذه المرحلة بدور دعوي تعليمي كانت وما تزال الحاجة تمس إليه .

ب)- ظاهرة تنظيم رحلات جماعية إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج : بقيام أعداد من المسلمين بتأدية فريضة الحجّ خلال سبعينيات القرن التاسع عشر الإفرنجي ، وكان هؤلاء الحجاج غالبًا ما يطمحون إلى تعلم اللغة العربية إثر أدائهم لفريضة الحج ، مما يجعل المقام ببعضهم يطول بعد أداء الفريضة الدينية وإتمام شعائر الإسلام . وبعد عودتهم إلى بلادهم يكونون قد تزودوا على الأقل بمبادئ اللغة العربية من الناحية الوظيفية وكسبوا فهمًا أفضل للإسلام وتعاليمه ، مما يجعل بعضهم يتحول فور عودته إلى دعاة متفرغين للدعوة والتعليم . وعن مخلفات هذا الاتصال الروحي الثقافي ومؤثراته الحضارية في لغتهم يقول الأستاذ أحمد القرعي : «وقد انعكس هذا الاتصال الحضاري على لغتهم فأصبحت عبارة عن لهجة مُحرّفة من لغة البوير مع خليط من اللغة العربية وبعض كلمات الإنجليزية وكلمات الملايو»[3] .

جـ)- انتشار الإسلام في أرجاء البلاد بتوزّع المسلمين وتفرقهم في الأقاليم : شهدت المرحلة توزع المسلمين في مختلف أنحاء البلاد ، كأقليات اجتماعية ودينية ، ومخالطتهم للأهالي الذين جدّوا في مزاولة عملية نشر الإسلام في أوساطهم ، وأصبح انتشار الإسلام ينمو في البلاد ويزحف إلى مختلف مناطقها ، كما سجلت هذه المرحلة

---

(1) ينظر : المرجع السابق ، ص : 147 .

(2) ينظر : Islam in south Africa p:33-37 .

(3) "واقع ومستقبل الجالية الإسلامية في جنوب أفريقيا" ص : 40 ، ع/ 59 من مجلة الفيصل ، مرجع سابق .

للجالية المسلمة من الناحية الكمية نمواً مضطرداً عن طريق الهجرة والتناسل واعتناق المهتدين الجدد للإسلام، وهكذا «راحت هذه الطائفة الإسلامية تنمو وتكبر وتحاول أن تتأقلم مع الجوّ الأفريقي الجديد والتربة الجديدة التي أقاموا عليها»[1] وهو مالا يتم عادة دون مشقة ومعاناة، الأمر الذي يقتضي ضرورة التسلح بزادٍ يومي هائل من الصبر الجميل والمجاهدة الروحية الزكية.

د)ـ تمتع المسلمون نسبياً بحرية التدين : وقد تحقق ذلك للجالية المسلمة هناك حين أرادت بريطانيا أن تغتصب البلاد من صولة الاستعمار الهولندي، فكانت بحاجة إلى مساعدة المسلمين لتمام ذلك تخلّصًا من الهولنديين، فاضطرت إلى الاستنجاد بالمسلمين الذين وافقوا على ذلك «شريطة أن تعطي لهم الحرية في مزاولة شعائرهم الدينية، وبناء المساجد، وتخصيص مقبرة للمسلمين، وتعليم أبنائهم وفق المنهج الإسلامي»[2] ولما انتصر الطرف المتحالف مع المسلمين، بادر بموجبه إلى منحهم وثيقة مؤداها: أنهم أحرار في ممارسة شعائرهم بما في ذلك بناء المساجد وأداء الصلوات الجماعية.

مرحلة الانتشار الثالثة: 1912 - 1970م:

تبدأ هذه المرحلة بتأسيس حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وتصاعد موجة الكفاح السلمي والمسلح ضد النظام العنصري، وقد أفرزت هذه المرحلة وعيًا تنظيميًا لمواجهة متطلباتها بروح جماعية وثابة، أفاد منها المسلمون في تنظيم أنفسهم، وتبني موقف إسلامي موحد من خلال جبهات متعددة تعنى بقضايا المسلمين الخاصة، وبالمسائل الوطنية الأخرى في عمومها، وتتمثل خصائص هذه المرحلة فيما يلي:ـ

أ ـ المجابهة مع النظام العنصري : حيث وقفت الجالية موقفًا مشرّفًا، مدافعة عن حقوقها الدينية والوطنية. وقدم المسلمون بسببها عدداً كبيراً من الشهداء الخالدين، الأمر

(1) المسلمون في العالم، ص: 237، مرجع سابق.

(2) المسلمون في العالم ص: 238، مرجع سابق.

الذي وسّع من فاعلية المسلمين في الأوساط السياسية، والاجتماعية وأصبح الآخرون يكنون لهم كل ودّ وتقدير، يتناسب مع دورهم الفعال والمؤثر في الكفاح من أجل العدالة والمساواة، وقد أثر هذا الموقف الجهادي الرائع في الكثير من غير المسلمين مما جرّهم إلى اعتناق الإسلام، فأخذ ينتشر بسرعة عجيبة بينهم «لأنهم يعتقدون – وهو كذلك – أن الإسلام قرّر المساواة بين البشر في أكمل صوره وأمثل أوضاعه، وأنه الحل الوحيد لجميع مشاكل جنوب أفريقيا بصفة خاصة»[1] وهو كذلك حقيقة وفعلاً. وقد عبّر الجنرال سمتس أحد رؤساء الحكومة في جنوب أفريقيا عن هذا الانتشار السريع للإسلام مقارنًا بنجاح الحركة التنصيرية، في محاضرة ألقاها في أكسفورد جاء فيها قوله: «الإرساليات المسيحية بعد مجهود متواصل في قرن كامل لم تنجح في إيجاد أي شعور عميق بالإنصات لدعوتها في جنوب أفريقيا، بل إن الدّين الإسلامي ينتشر بسرعة أكثر من المسيحية»[2].

ب ـ تنامي مد الهجوم الكنسي التنصيري على الإسلام ورسوله ﷺ: اتخذت الحركة التنصيرية المحلية في هذه المرحلة من الإسلام ورسوله ﷺ موقفًا عدائيًّا مكشوفًا، بالنيل من الإسلام والمسلمين، وكيل التهم والادعاءات الباطلة ضد رسول الله ﷺ، من خلال المواقف الخطابية، وفي عدد من المنشورات الحاقدة[3]، ومن أبرز أمثلته كتاب بعنوان: «الصليب والهلال» نشرته الكنيسة الإنجليكانية مهاجمة الإسلام والمسلمين، فكان من الطبيعي إزاء هذا الموقف الهجومي أن يتخذ المسلمون موقفًا مضادًا للدفاع عن دينهم وأنفسهم أمام سيول الافتراءات الجارفة، فأدّى ذلك إلى ظهور:

جـ ـ شخصيات، ومؤسسات بارزة: أنجبت المرحلة شخصيات بارزة من أمثال الشيخ ديدات، والشيخ عبد الله هارون، وإسماعيل عبد الرزاق وغيرهم ممن سنأتي على التعريف ببعضهم إلى جانب منظمات ومؤسسات إسلامية عامة، ومتخصصة،

---

(1) السيد إسماعيل عبدالرزاق من جنوب أفريقيا في لقاء صحفي في مجلة الأزهر مج4، ص: 397 س38، 1386هـ 1966م.

(2) مجلة الهداية الإسلامية، ج1 مج2 ص: 58، عام: 1348هـ القاهرة.

(3) ينظر: أفريقيا لماذا؟ 138، مرجع سابق.

لعبت دوراً مشكوراً في مضمار العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا وفي كافة المجالات، ومن هذه المؤسسات مركز الشيخ ديدات العالمي للدعوة الإسلامية، حركة الشباب المسلم، دائرة الدراسات العربية، جمعية الأطباء المسلمين وغيرهم.

د ـ تطوّر اهتمام العالم الإسلامي بمسلمي جنوب أفريقيا: ظهرت اهتمامات العالم الإسلامي جلية بمسلمي جنوب أفريقيا، وقد عبّرت عن نفسها من خلال مواقف الدّعم المادي والمعنوي، والمساندة السياسية لقضية الحرية، والمساواة في جنوب أفريقيا كما أسلفنا، وفضلاً عن ذلك فإن فرص اللقاءات بين الطرفين تعددت من خلال مواسم الحجّ، والمؤتمرات الإسلامية، وزيارات تفقد أحوال المسلمين، وظهور المؤسسات الإسلامية ذات الانتشار العالمي، وغيرها، وقد أثمرت تلك الاهتمامات الأولية، ومن ثم اللقاءات والزيارات المتبادلة تعاونًا واسعًا في مختلف مجالات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، على نحو يقتضيه واقع العمل الإسلامي الغني في هذه الساحة الدعوية الخصبة، والتي يبدو أنها أفادت من هذا التعاون أيما إفادة.

هـ ـ تنفر طائفة من المسلمين للتفقه في الدين والعودة للإنذار: أتيحت لعدد قليل نسبيًا من مسلمي جنوب أفريقيا فرص الخروج للتعلم والتفقه في الدين، للنهوض بمهمة الدعوة الإسلامية في بلادهم بعد العودة. وقد أمّ معظمهم بلاد الحرمين الشريفين، والتحق عدد منهم بالأزهر الزاهر، كما توجه بعض منهم إلى شبه القارة الهندية لينهلوا من مؤسسات الهند وباكستان الإسلامية، والانضمام إلى حلقاتها العلمية، وبالأخص ما يتصل منها بعلوم اللغة العربية، والدراسات الإسلامية، وقد عاد بعض هؤلاء إلى البلاد ليتصدّروا مهام الدعوة والإمامة، والتعليم، والإفتاء، وغيرها من مجالات العمل الإسلامي، ومما يؤكد ذلك ما جاء في مذكرات رحلة الأمير محمد علي إلى جنوب أفريقيا في الربع الأول من القرن العشرين، حيث «ذكر مجيء رئيس الجمعية الإسلامية في جوهانسبرج لزيارته مع خطيب الجامع، واثنين من تجار الهنود، والظاهر أنهم في نعمة من العيش لأنهم عرضوا عليه سياراتهم مدّة إقامته في تلك المدينة، وقال: إن الخطيب من

أهالي جاوه ويحسن العربية»[1]، وفي هذه المرحلة أخذ العنصر الأفريقي المحلي يبرز في ممارسة دوره الدعوي، وعلى شاكلة إخوانهم من الدعاة المستوطنين والوافدين.

المرحلة الرابعة لانتشار الإسلام في جنوب أفريقيا من 1970- 1994م:

تشكل فترة السبعينيات تحديداً في تاريخ العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا فترة حيّة ومتميزة، إذ تضع حداً فاصلاً بين ما بعد هذه المرحلة وسابقتها حيث تحققت خلالها إنجازات عظيمة، واستطاع المسلمون تقديم مشاريع وبرامج دعوية كثيرة وجادة، وكان للمسلمين فيها حضور فاعل وتأثير ملموس[2]. فهي بذلك تمثل فترة حصاد لنتاج المراحل السابقة كلها. وقد عبر المسلمون علميّاً عن دورهم الإيجابي في بناء مجتمع كريم تسوده العدالة والمساواة، والقيم الإنسانية الخيرة، وذلك من خلال نشرهم لرسالة الإسلام الحضارية، التي تحمل مشروع الأمل والإنقاذ لكل الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة، فصادفت قيم الإسلام السامية بيئة إنسانية هي أكثر ما تكون تعطشاً إليها فتلقفتها بلهفة بالغة، واحتضنتها بسعادة غامرة، ورغم عويل الأعداء النابحين وعراقيل التحديات، وعقبات المشاكل، فإنّ القافلة وفقت في مواصلة مسيرتها بسلام ونجاح كبير.

وقد تميّزت هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أ)ـ نمو منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا: باعتبارها أولى منظمة إسلامية وطنية في جنوب أفريقيا، وقد أسهمت إسهامًا كبيراً في بعث العمل الإسلامي، وتجديد أساليب حركة الدعوة في جنوب أفريقيا؛ بأن طرحت أفكاراً وموضوعات جديدة تتصل بدور الإسلام في النهوض بالأمة، ودور المرأة المسلمة، وأعطت أبعاداً

---

(1) مجلة المقتطف ج4 مج66، ص: 400 عام 1925م.

(2) من مذكرة أعدتها حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا عن الشيخ أحمد ديدات وبعثت بها عبر البريد الالكتروني بتاريخ: 13/ 9/ 2000م بناء على طلب الموقر أمين مكتب الدعوة والمراكز الإسلامية بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية الدكتور محمد فتح الله الزيادي حفظه الله، المشرف الأول على هذه الرسالة قيد الاعداد.

جديدة للتربية الإسلامية في البلاد كما أثارت الوعي العام، ونبهت الرأي المحلي إلى أهمية الدعوة الإسلامية، ومدى الحاجة إلى الإسلام[1]. في هذا المجتمع وغيره.

ب)- **فتح قسم الدراسات الإسلامية في جامعة دربان**: وهذا الحدث المهم يمثل فتحًا علميًّا للإسلام في هذه البلاد، وقد تم بالفعل الشروع في إلقاء محاضرات ودروس إسلامية بهذا القسم الجامعي الجديد، الذي رآه البعض بمثابة حجر الأساس في بناء صرح العمل الإسلامي الكبير في جنوب أفريقيا، وعلى الأقل في جناحه العلمي، وقد تبعته عملية إدخال برنامج تدريس اللغة العربية في المناهج التعليمية، لبعض المدارس الثانوية، وذلك عام 1976[2]، وهو عمل حضاري يسجّل فضله لدائرة الدراسات العربية في جنوب أفريقيا.

ج)- **إنشاء المجلس الإسلامي الوطني**: تم إنشاء هذا المجلس عام 1975م كمظلة وطنية عامة تضم في جنباتها كل المنظمات والطوائف المسلمة في البلاد بقصد تشكيل منبر عام وموحّد يسمع من خلاله صوت المسلمين، ويعبر عن مواقفهم الإسلامية حيال القضايا الوطنية، وأيضًا كان من مرامه توفير التعليم الإسلامي للمسلمين[3]، والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية، والمساواة السياسية في البلاد.

د)- **نشطت وعمت حركة انتشار الإسلام كل البلاد**: ضمنت التطورات الحاصلة تنشيطًا، وتعميمًا لانتشار الإسلام في مختلف أنحاء جنوب أفريقيا. وتتميز المرحلة بتوجه شبابي عام نحو الإسلام، بفعل كثافة الجهود التي بذلها المسلمون في هذه الفترة، وبفضل ما أبدوه من روح التضحية، والحياة من أجل الله، وفي سبيل الإسلام، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162- 163]. وعن رواج

(1) ينظر: المرجع السابق. . د. ر.

(2) المرجع السابق، د. ر.

(3) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 240، مرجع سابق.

سوق الدعوة الإسلامية في البلاد من هذه الفترة فصاعداً يقول الدكتور محمد عبده يماني: «ومنذ عام 1976م على وجه التحديد، من الواضح أن الإسلام يحقق نجاحًا بين الشباب السود، فالناس يتمسكون بالإسلام على اعتبار أنه سلاحهم في جهادهم المقدس ضد التفرقة العنصرية»[1].

المرحلة الخامسة والمعاصرة: 1994 إلى ماشاء الله:

تبدأ هذه المرحلة بانهيار النظام العنصري، وانقلاب الأوضاع السياسية في البلاد رأسًا على عقب، بوصول المناضلين الوطنيين إلى سدة الحكم. وفي ظل ما تحققت للبلاد من إنجازات سياسية عززتها الحقوق الدستورية الجديدة؛ في إشاعتها لمناخ الحرية والمساواة، والتعددية السياسية العادلة، وما ترتب على كل ذلك من انفتاح فكري وحرية إعلامية معقولة، فقد وجد المسلمون أنفسهم أمام واقع جديد، كل شيء فيه يدعو ويشجع إلى بذل المزيد من التعاون والتنسيق بين الأطراف العاملة على الساحة الإسلامية، مع تعددها، وتباين انتماءاتها الاجتماعية والفكرية. ومن ثم فقد تنسّم العمل الإسلامي في البلاد عبير الحرية، وانفسح له مجال حركته، لتتسع دائرة فاعليته وتأثيره، بالتنسيق المثمر، والاستخدام الإعلامي الأمثل للوسائل الإعلامية المتاحة.

وفي محاولة رصد المعالم الأولية البارزة لمرحلةٍ ما زالت جارية، إذ لما تكتمل صورتها بعد، فضلاً عن تكامل حلقاتها، يمكن تسجيل العناصر التالية:-

أ ـ التعاون الفعال بين المؤسسات العاملة في حقل العمل الإسلامية: من الجهود المحمودة في هذه المرحلة ظاهرة التعاون الواسع، والتنسيق المتكامل بين مختلف الأطراف المحلية العاملة في حقل العمل الإسلامي، وذلك في مختلف الأنشطة والبرامج التي تصب في محيط العمل الإسلامي الممتدّ، حتى لا تذهب الجهود هدراً، ولكي تستثمر الإمكانيات القليلة المتاحة على أحسن وجه مطلوب، إذ يؤدي غياب التنسيق إلى تكرار

(1) أفريقيا لماذا؟ ص: 149، مرجع سابق.

أعمال سابقة، والقيام بنشاطات لا ضرورة لها على حساب الأولويات الأوّلية الهامة.

وليس فحسب، وإنما امتدّ هذا التعاون للتنسيق مع الجمعيات والمؤسسات الإسلامية خارج البلاد، وهو ما تدلّ عليه مشاركة وفد من مسلمي جنوب أفريقيا بدعوة كريمة من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في ندوتي: «نحو إعلام إسلامي فاعل ومؤثر» و«التأريخ الإسلامي وأزمة الهوية» اللتين أقيمتا في طرابلس في عامين مختلفين، كما تعاونت الجمعية على الصعيد المحلي مع منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا لتنظيم مخيّم، ومؤتمر للشباب المسلم كل على حدة في عامين متتاليين[1].

وهذا النوع من التعاون مع المؤسسات الخارجية تتحدّد ملامحه في مسألتي التمويل والدعم الفني أكثر من غيرهما من المسائل التعاونية الأخرى، وقد تمخّضت ظاهرة التعاون هذه عما يمكن أن نسميه بـ:

ب ـ فيضان النشاط الإسلامي إلى ما وراء البلاد: فكان أن شهدت البلاد بفضل ما تقدّم من تعاون وتنسيق، نشاطًا إسلاميًا مكثفًا لم تقدر على استيعابه كله، فجادت به على الدول والمناطق المجاورة لها في الإقليم الجنوبي، وهذا ما نلحظه من فيضان وتدفق العمل الإسلامي من جنوب أفريقيا نحو المناطق المجاورة لها، وأكثر ما يتمثل ذلك في أنشطة منظمة حركة الشباب المسلم، وشبكة الدعوة في منطقة الجنوب الأفريقي، ومركز الشيخ ديدات العالمي بفروعها وأنشطتها في المحيط الإقليمي، مع عدم استبعاد جهات محلية أخرى تشترك معها في هذه الصفة مما لا علم لنا بها. وكان هذا البعد الإقليمي في منطلقه يرمي إلى تعميم العمل الإسلامي على دول الجوار من ناحية، وملاحقة النشاط التنصيري من ناحية أخرى.

---

(1) وقد استضافت الجمعية مؤخراً وفداً إسلاميًا هامًا منوّعًا ومتكاملاً، ضمّنت فعاليات من مختلف التشكيلات الإسلامية المعتبرة في البلاد، وذلك في الفترة من 18.25/ 2/ 2003ف، كما قامت الجمعية قبل ذلك، ممثلة في وفود رفيعة المستوى بزيارات ميدانية، لتفقد أحوال المسلمين في جنوب أفريقيا، ودعمهم بما أمكن، من مساعدات مالية، ومنح دراسية، وأخرى معنوية، تتمثل في محاضرات وتوجيهات دعوية قيّمة.

جـ ـ تضييق الخناق على المراكز والأجهزة التنصيرية : عملت المؤسسات الإسلامية على نحو دائم لمحاصرة النشاط التنصيري وتوعية المسلمين بمخاطره، فضلاً عن تبصير العامة بدوافعه الكيدية التغريبية، ولم تدخر الجهات المسلمة وسعًا في تعرية حقيقته، وكشف القناع المزيّف عن وجهه المتظاهر بالإنسانية، وهو أبعد ما يكون عن ذلك. وحتى يتم ذلك بنجاح حاسم لجأ القائمون على العمل الإسلامي إلى توظيف الوسائل الإعلامية، واعتماد أسلوب توزيع المنشورات المضادة للتنصير، والدخول مع المنصرين في حلبات المناظرات الساخنة حينًا، وعقد حوارات علمية هادئة حينًا آخر، لغرض إفحامهم وإلزامهم بحقيقة رسالة الإسلام التي لا يماري فيها إلا مكابر أو معاند.

ونعتقد أن هذا المنهج الحضاري الذي سلكه مسلمو جنوب أفريقيا في مدافعة الحركة التنصيرية كان له أثر طيّب بكل المقاييس الإسلامية، ومردود معتبر لا يستهان به، وإن كنا نفتقر إلى إمكانية تحديده نوعًا وكما. هذه إذن أهمّ المراحل التي اجتازتها حركة الدعوة والعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا منذ دخوله إليها مع مهاجري جنوب شرق آسيا إلى البلاد وقد مرّ بمراحل متباينة، وعرفتْ تطورات متقدمة ومبشرة بمستقبل واعدٍ، وغدٍ أفضل.

على أن من تمام المعرفة بهذه المراحل، التي لم نعثر على من سبقنا في محاولتنا هذه إلى معالجتنا بمالها من أهميّة، مع قلّة من كتبوا عما يتصل بالإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا من المسلمين، التعريج على أهم العوامل والوسائل التي استنصر بها العمل الإسلامي هناك، واستخدمها المسلمون قديمًا وحديثًا لنشر رسالتهم الحضارية المبشرة بالخلاص لكل الناس.

ثانياً : من أهم العوامل والوسائل التي ساعدت على نشر الإسلام :

عديدة هي العوامل والوسائل التي اعتمدتها حركة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وهي بقدر ما تصدق على العمل الإسلامي هناك تنسحب كذلك على عموم القارة الأفريقية، بل وربما تعدتها ـ في بعض منها ـ لتشكل قاسمًا مشتركًا لكل

الساحات الدعوية جملة وتفصيلاً.

على أنه ليس من شأننا هنا أن نستقصي ونقصّ كل تلك العوامل والوسائل بقديمها وحديثها، بل وإنما نكتفي بالإشارة إلى الأهم والأبرز منها، وهي في جملتها لا تخرج غالبًا عما تعارف الناس عليه في هذا المجال.

فمن حيث أهم العوامل التي أسعفت حركة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وساعدت على عمليّة الانتشار السريع للإسلام فيها، فهي تعود في أغلبها إلى العوامل التالية:

أ)ـ عامل قوة الإسلام الذاتية: ويتمثل في بساطة العقيدة ووضوحها، وحضارية تعاليم الإسلام التي تجمع بين الشمولية الدائمة، والواقعية المتجددة، والموازنة بين المصالح المادية والمطالب الروحية، على نحو ينسجم مع الفطرة البشرية السليمة، ويعمل على تنمية الشخصية الإنسانية المتكاملة، على المستويين الفردي والاجتماعي، وهذا العامل الفاعل جذب الكثير من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام، لأن «الإسلام، دين البساطة، والمحبة والسلام، منذ بعثة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ويدعو الإسلام لسلام العالم، وسلام الإنسان وأمنه، واستقراره على يومه وغده»[1].

ب)ـ العامل البيئيّ الخصب: وجد الإسلام في جنوب أفريقيا بيئة خصبة، لم تُجدّبها أو تمزقها الأهواء الدينية الفارغة، فكان أن صادفت بذرة الدعوة الإسلامية الصالحة تربة مهيأة، ومناخًا دينيًّا معتدلاً، وجاهزاً للتعاطي مع هذه القيم الإيمانية الجديدة، وتقبلها بمقتضى الفطرة البشرية، وبساطة العقيدة الإلهية القيمة، ومن ثم سارعت البذرة إلى النمو «وترعرعت وآتت أكلها، حيث أغلب الأفارقة يسارعون إلى الدخول في الإسلام رويدًا رويدًا، بعد أن تمكنوا من استيعاب تعاليمه وتفقهوا في القرآن والسنة أصبحوا هم أنفسهم من روّاد حركة انتشاره والداعين إليه[2]...». وعن

---

(1) أحمد حامد: هكذا دخل الإسلام 36 دولة، ص: 9، ط1، د، ت دار الهلال، بيروت، لبنان.

(2) د: عطية مخزوم: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص: 141، ط1/ 1998، بنغازي، ليبيا.

خصوبة بيئة جنوب أفريقيا للعمل الإسلامي يقول الدكتور زغلول النّجار: « . . . لا يوجد مكان على وجه الأرض مهيأ لتقبل الدعوة الإسلامية مثل تلك البلاد التي لا يكاد يدرك أبناؤها معنى الأخوة في الإسلام الذي لا يفرق بين أبيض وأسود حتى يُقبلوا على هذا الدين بعاطفة صادقة، وإيمان ثابت، وهذا مجال يتنافس فيه المتنافسون[1]»، ولا أظنه مبالغًا فيما قال وإن كان ظاهر كلامه يوهم بذلك.

جـ)ـ نموذجية دعاة الإسلام ورقيهم الحضاري : كان لما اتسمت به حياة دعاة الإسلام من سلوك نموذجي، وخلال فاضلة دور مكمل للعاملين السابقين؛ فقد امتثل المسلمون دور القدوة الحسنة للآخرين إلى جانب القدرة على النفاذ إلى قلوب الآخرين برسالة الإسلام السمحة، بكل صبر وإخلاص، وذلك لما كانوا يتحلّون به من خلق قرآني عظيم، فكانت دماثة أخلاقهم، ورقة شعورهم الإنساني، وجوارهم الكريم الأمين، واستقامتهم التامة في مسلك حياتهم العامة والخاصة، إلى جانب تفوقهم الحضاري ورقيّهم الفكري عوامل استقطبت من كانوا في أمسّ الحاجة إلى هذه الصورة الرائعة والجديدة للحياة الإنسانية الراقية، فقد فجروا في البلاد ينابيع تتدفق حضارة، ورقيا، وشكلوا معسكراً قويا للانتصار لكل ما هو إنساني، فقد كانوا حقّاً مثالاً للصدق في القول، والإخلاص في العمل. وكان يغلب عليهم التسامح والإيثار والتضحية بالفاني من أجل الباقي.

د)ـ عامل الضعف في حركتي التنصير والاستعمار المنافسين : إن تعقد مسيحية الكنيسة ودعوتها الهزلية إلى أخوة كاذبة، على الدفع بسكان جنوب أفريقيا نحو اعتناق الإسلام، حيث إن هذا العامل أعطى الإسلام في أفريقيا بوجه عام «موقعًا أكثر قوة، وتمكنًا وامتيازاً من الموقع الذي يحتلّه النشاط التبشيري هناك»[2].

ومن جهة أخرى فإنّ موقف الإسلام التحريري من الرّق، والمناهض للتميز

---

(1) "مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال" من مجلة العربي ع239، ص: 50، مرجع سابق.

(2) د: عماد الدين خليل، "الإسلام... والأفريقي المعاصر" مجلة الوعي الإسلامي، ع115، ص: 48 س1/ 1394هـ 1974م.

العنصري الاستعماريين، يعتبر من العوامل الأساسية التي يسرت عملية انتشاره في أفريقيا عامة [1]، وساقت إلى رحابه باستمرار أعداداً كبيرة من أهل جنوب أفريقيا خاصة. وذلك لما تميزت به هاتان القضيتان من حساسة فارطة فيها أكثر من غيرها.

وفي سياق أبرز الوسائل التي استعانت بها حركة الدعوة إلى الإسلام، لدفع عجلتها إلى الأمام، نورد عدداً منها من خلال العناصر اللاحقة :ـ

1 ـ **الالتزام بالشعائر الدينية** : إنّ جمال الالتزام بالشعائر التعبدية في الإسلام، وما تنطوي عليه هذه الشعائر من حكم عظيمة ومعان عميقة، من صلاة، وصيام، وزكاة، حجّ، أخذ لبّ الكثير من غير المسلمين، وسحرهم ما توحي به هذه العبادات من جمال وجلال، وتشترطها من طهارة، وانضباط صارم، فجذبهم ذلك إلى الإسلام جذبًا قويًا. حيث كانت لرحلة الحج التي من شأنها أن تعمل على ترتيب اللقاء بين المسلمين، وتوفير أسباب الاتصال بالعالم الخارجي، مما ساعد ليس في تقوية وتعميق الثقافة الإسلامية لدى المسلمين فحسب، وإنما في نشر الإسلام وقبول الآخرين له أيضًا؛ وما تشمل عليه من أناشيد في مدح النبي ﷺ وذكر فضائل الحج والحجاج باللغة العربية واللغات المحلية، وما يناله الحجاج عند العودة من التعظيم والتبجيل، الأثر العميق في نفوس الأفريقيين، وعاملاً من عوامل ازدياد الحجاج الأفارقة إلى بيت الله الحرام في كل عام»[2].

2 ـ **إحياء المناسبات الدينية** : ويلتقي فيها جموع المسلمين مع غيرهم ممن يحضرون غالبًا بدافع الفضول والتسلي، في بيئات تقل فيها عوامل التسلية، وتتباعد فرص التجمّع. ويقوم على الوعظ والإرشاد إحياءُ هذه المناسبات والتي من أشهرها في أفريقيا: مناسبة العيدين، والمولد النبويّ الشريف، وليلة السابع والعشرين من رمضان وإلقاء أناشيد دينية، وتلاوة القرآن الكريم، والإكثار من الذكر والصلاة على النبي ﷺ، وأيضًا من الدّعاء، على أن إحياء المولد النبوي الشريف يظل أكثر بروزاً،

(1) ينظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص: 158 161، مرجع سابق.

(2) الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، ص: 102 مرجع سابق.

وأتمّها استعداداً. فلذا كان الشيخ أحمد ديدات يعنى فيه بإلقاء محاضرات عامة يُدعى لها من مختلف مناطق جنوب أفريقيا لإحياء هذه المناسبة الكريمة[1].

3 ـ **تبني الأطفال الشاردين والمهملين**: تحدث توماس أرنولد عن مسلمي الكاب في جنوب أفريقيا فكان مما ذكره من الوسائل المعتمدة عندهم في نشر الإسلام قوله: «ومن الوسائل التي تستغل الآن تبني الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على الإسلام»[2]، وهذه وسيلة ذكية، وذات ضمان مستقبلي لأنها تجمع بين الدعوة والتنشئة، في مهمة جليلة لخدمة الإنسان، وتأمين مالا تتم إنسانيته إلا به.

والملاحظ، أن المنصرين تقليداً للمسلمين قد لجأوا إلى هذه الوسيلة الكريمة، واستغلوها بخبث ودهاء، فأصبحت لهم وللأسف الصدارة فيها على حساب السابقين إليها.

4 ـ **الزيارات الأخوية**: لعبت الزيارات التي كان يقوم بها مسلمو العالم الإسلامي إلى جنوب أفريقيا دوراً نشطًا في تفعيل العمل الإسلامي، وسكبت في حياة مسلميها روحًا جديدة، ألهبت فيهم الحماس الدائم لنشر الإسلام والإقبال على التوسع في تعلّمه، ليتحقق لهم المزيد من التعرف عليه أولاً، والتعريف به لاحقًا، ولأهمية ما كانت تشي بها تلك الزيارات من روح أخوية، وتثيره من اهتمام تعليمي وبعدٍ دعوي في البلاد، سجل توماس أرنولد في كتابه قائلاً: «وفي خلال الخمسين سنة الأخيرة كان يزور المسلمين في مستعمرة الكاب جماعة من بلاد أخرى من إخوانهم في الدين المتحمسين، وقد أثاروا الآن اهتمامهم بالتعليم أكثر مما مضى، وبعثوا بينهم حياة دينية أعمق من تلك التي كانوا يحيونها، ويقال: إنّهم يقومون بدعوة حماسية، وخاصة بين الأهالي السود في الكاب، وإنّهم حصلوا على نجاح محقق»[3].

---

(1) ينظر: بشأن ذلك في كتابه: الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، ص: 24، 25، مرجع سابق.

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص: 389، مرجع سابق.

(3) المرجع السابق، ص: 389.

5 ـ **الحوارات والمحاضرات العامة** : إن الانتصارات الباهرة التي سجلتها العناصر المسلمة في جنوب أفريقيا من خلال حواراتها، ومناظراتها مع الأطراف الأخرى، كان يعقبها دومًا توجه جمع غفير، وعدد هائل من الناس لاعتناق الإسلام، عن قناعة واختيار. كما كانت المحاضرات العامة هي الأخرى على غرار الحوارات والمناظرات تمثل دوراً مماثلاً أو مقاربًا لها، ومن هذا النوع؛ تلك المحاضرات الإسلامية التي يروي لنا قصتها الدكتور زغلول النجار والتي ألقاها في برنامج زيارته لجنوب أفريقيا بدعوة من الجماعة المسلمة هناك، وذلك في قرية قريبة من بريتوريا تعرف باسم لانيشيا، وعلى إثرها مباشرة أشهر قسيس القرية ومدير مدرستها الثانوية، وعشرات الطلاب إسلامهم تأثراً بما ورد في المحاضرة من معلومات صحيحة عن الإسلام وجذابة إليه. وكان مما قاله القسيس في تعقيبه على المحاضرة تشهيراً بالمنصرين، وإشادة بالإسلام: «إني أرجوكم أيّها الإخوة المسلمون أن تعبروا الحواجز المقامة بيننا لتمنحونا نور الإسلام.. فإن أهل البلد الأصليين من الأفارقة قد سئموا دعوات الذين يتحدثون باسم السيد المسيح في نفس الوقت الذي يمارسون فيه التفرقة العنصرية البغيضة، وهذا في نظري يمثل قمّة النفاق... إنهم يقدمون لنا الإنجيل بيد ويصفّدوننا في الأغلال باليد الأخرى... إننا نريد الإسلام فهو الذي يناسب فطرتنا، الدين الذي يؤسس الأخوة الإنسانية... يحرم الخمر ليحفظ بها عقله...»(1)، وهذا الاعتراف الصريح ممن ترسم إلى درجة قسيس في سلّم العقيدة الكنسية يمثل شهادة قوية لمحاسن الإسلام ومزاياه، في الوقت الذي يشكل فيه ضربة قاصمة لظهر التنصير والمنصرين، وهو بذلك على قدر كبير من الأهمية العلمية والدعوية معًا.

6 ـ **الجهد الجماعي المنظم** : لاشك أن ظاهرة الجماعات الدعوية المنظمة، قد لعبت دوراً رئيسًا وهامًا في تسهيل حركة نشر الإسلام، وكانت من الوسائل المعينة عليها باعتبار أن قضية نشر الإسلام على نحو أوسع وأشمل، تتطلّب جهوداً جماعية منظمة، تتكامل عناصرها الفاعلة، ونشاطاتها الفرعية، لتشكيل دوحة فينانة لحركة

---

(1) مسلمو جنوب أفريقيا... مجلة العربي ع239 ص: 50، مرجع سابق.

دعوية سابغة ومحيطة .

وإن من الأمور الحميدة حقًا توفر هذه الوسيلة لمسلمي جنوب أفريقيا على نحو فيه قدر كبير من الكفاية والفاعلية . وتتمثل في عشرات الجمعيات والمؤسسات الإسلامية بمختلف أصنافها ، وهي تؤدي أدواراً متفاوتة الأهمية ، حسب إمكانياتها وتخصصاتها لتلتقي كلها أخيراً لصالح خدمة قضية الإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا .

والملاحظ ، أنه لا وجود لوسيلة الانتشار بالسيف المزعومة ، تلك الفرية التي يدّعيها ويروّج لها المغرضون المرجفون من أعداء الإسلام .

هذا... وإلى جانب هذه الوسائل التي أتينا على عرضها في الفقرات السابقة باعتبارها أهمها ، توجد جملة من الوسائل الإعلامية من أجهزة ومطبوعات ، وبرامج هي في غنى عن تناولنا لها في هذا المقام ؛ إذ هي أشهر من أن نعرّف بها ، وليست خاصة فقط بجنوب أفريقيا والتي حرصنا دومًا وبقدر الإمكان على التقيّد بنطاق العمل الإسلامي فيها ، تمهيداً كافيًا لدراسة منهج شيخنا الجليل في الحوار والدعوة .

ولما كان تحقق ذلك على نحوه المطلوب أمرًا متعذرًا في غياب الصورة العامة لواقع المسلمين في جنوب أفريقيا ، وبيان أوضاعهم ومشكلاتهم ، والوقوف على عدد من الشخصيات والمؤسسات الدعوية فيها ، فإن البحث سيحاول بشكل متواضع الإلمام بهذه القضايا ، وذلك لتأمين رؤية متكاملة عن البيئة التي ينتمي إليها العلم المراد دراسته بما لها من مؤثرات عليه ، بغية الوصول إلى نتائج علمية محققة بشأن القضايا المندرجة تحت موضوع الدراسة .

المبحث الثالث

الوضع المعاصر للمسلمين

والعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا

إن الحديث عن الوضع المعاصر لكل من المسلمين والعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا لذو شجون، حيث تتسع آفاقهُ، وتترامى أطرافه، وبذلك يصعب استيعابه ويتعذّر الإيفاء بما يستحقه من شمولية وعمق بحثيين. وبما أن الكمال لله وحده، ولا مطمع فيه على المستوى البشري، فإننا بهذا الاعتبار وفي حدوده، سنحاول رسم صورة مصغّرة عن الوضع المعاصر إسلاميًا في هذه البلاد، وفي مرحلة ما بعد التمييز العنصري بالذات. على أن من المعلومات الأولية أنّ مسلمي جنوب أفريقيا يشكلون نسبة 2% من مجموع سكان البلاد البالغ عددهم حوالي أربعين مليون نسمة، وهم ينحدرون من أصول عرقية متنوعة، ومن مناطق جغرافية متعددة، من كلتا القارتين، أفريقيا وآسيا.

وهم موزعون من حيث مناطق الانتشار في معظم أنحاء البلاد مختلطين مع غيرهم في مجتمع واحد، وفي وضع يوقظ شعورهم دائمًا بضرورة الحفاظ على الهوية، ويولد في نفوسهم الإحساس بمفهوم الانتماء إلى أمة الإسلام العظيمة، غير أنه يغلب عليهم التمركز في الأقاليم الحضرية، وفي المدن الرئيسة المتمثلة في كيب تاون، جوهانسبرج، بريتوريا، ديربان[1]، وما جاورها من المناطق، أو قاربها من حيث الأهمية، والملاحظ أن أغلب أبناء الملايو مقيمون في الكاب، كما أن حضور العنصر الهندي بارز جدًا في كل من ناتال وترانسفال[2].

ومن حيث الوظائف والمهن التي يزاولها المسلمون في جنوب أفريقيا فإن حوالي 30% منهم يعمل في التجارة، و30% يعمل في البناء، 30% شبه حرفيين، و1% في مجالات مختلفة مثل الطب والمحامات والمحاسبة ووظائف إدارية»[3].

ونظرًا إلى اعتماد هذه الإحصائية على عامل الوظيفة والمهنة فإنّها أغفلت الإشارة إلى الطلاب، والدعاة، ومجالات عمل المرأة المسلمة إلى حدٍّ ما.

---

(1) ينظر: "دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين بجنوب أفريقيا" ص: 1، تقرير أعدّه أحد دعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب أفريقيا، وهو محفوظات مكتب الدعوة والمراكز الإسلامية بالجمعية.

(2) ينظر: أحمد ديدات "هذه حياتي" ص: 108، مرجع سابق.

(3) ينظر: "دراسة مبدئية موجزة..." ص: 1، مرجع سابق.

وعلى الرغم من أن الأقليات - عادة - تظل محدودة القدرة على التأثير في محيطها، مهما بذلت من جهد، فإن وضع مسلمي جنوب أفريقيا يشكل استثناءً من هذه القاعدة؛ إذ لم يحل اعتبارهم أقلية دون تأثيرهم الفاعل في مختلف المجالات، والمناشط الحيوية من سياسية واقتصادية، واجتماعية، ودينية، وغيرها، وإن كنا لا ننكر أن هذا التأثير الشامل هو أمر ناشئ وليس ملازمًا لوجودهم في كل فترات تاريخهم في البلاد.

وعن تأثيرهم في القرار السياسي ورد في صحيفة الدعوة الإسلامية ما نصّه «رغم أن عدد المسلمين في جنوب أفريقيا لا يتجاوز مليوني نسمة بين شعب قوامه 40 مليون نسمة فإنهم أصحاب نفوذ وتأثير في القرار السياسي للدولة»[1]. وإن مبعث هذا التأثير يكمن في تلك المواقف الشجاعة التي تصدّى بها المسلمون لسياسة التمييز العنصري في البلاد، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى تهافت النظام العنصري وسقوطه أخيراً. مما أكسب المسلمين شعبية واسعة، إذ أثار ثناء مواطنيهم وإعجابهم بهم، فاندفعوا متعاطفين مع المسلمين، والتصويت لصالحهم في الانتخابات البلدية والبرلمانية، فضلاً عما للجالية المسلمة هناك من دور إيجابي عظيم في دفع عجلة التنمية في مجتمعات إقامتها، ومساهمتها في مختلف المشروعات الإنسانية التي دأبت على تمويلها من خلال الزكاة، وجمع الصدقات، والتبرعات.

وكان من نتيجة ذلك كلّه أن «اكتسب المسلمون نفوذًا سياسيًا حتّى صار لهم في الحكومة ستة وزراء هم: عثمان قارو، وزير التعليم، دوالا عمر، وزير النقل، يوسف باهات، للمعلومات والاتصالات، ولي موسى، للسياحة، شكوت فيكي، لوزارة الثقافة، وعزيز باهات، وزير الدولة للشؤون الخارجية»[2]، ورغم أن أهمية هذه المناصب الوزارية بمكان من الوضوح يغنينا عن كل تعليق عليها، فلا أقل من القول بأنها مواقع حساسة جدًا، فمن حيث التأثير الداخلي والخارجي فإنها أكثر أهمية

(1) صحيفة الدعوة الإسلامية ع747/ 1، بتاريخ 2 صفر عام 1369 من و. ر، طرابلس.

(2) نفس المرجع والصفحة كذلك، وعنوان المقال "المسلمون قوة سياسية".

من غيرها، وهي من شأنها أن تقدّم الكثير الكثير للعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا وتسهم إلى حدّ كبير في تحسين أوضاع المسلمين في البلاد، وإيلائهم ما يستحقونه من صدارة واعتبار؛ هذا إن كان ثمة وعي بذلك وإحساس به، ولعل الله الحكيم الخبير، لهذه الأسباب وغيرها ملّكها إخواننا القائمين عليها، واستأمنهم إياها لنشر رسالته، وإظهار الإسلام على الدين كلّه هناك وفي غيره.

ومما هو جدير بالتذكير به أنّ هذا التأثير ليس فقط محصوراً في النشاط السياسي مع أهميّته التي لا تنكر، وإنما يتعدى هذا النطاق ليطال مختلف جوانب الحياة الهامة، ومن ثم فإن الإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا اليوم مرشّحان أكثر من أي ظرف سابق لدور حضاري أكبر وأفعل في صميم واقع ومستقبل البلاد. وقد ذهب إلى تأكيد هذا الدور من قال: «والإسلام؛ بفضل المشاركة الفعالة في الصراع الاجتماعي والسياسي، وتبعًا للدعوة الواسعة إلى الإصلاح، فإن هذا الدين يلعب دوراً أكبر مما ينتظر في مثل هذا العدد الصغير من المسلمين»[1].

إنّ الوضع اليوم في جنوب أفريقيا المتحررة وهي تمرّ بظروف دقيقة في تاريخها بعد مخاض عسير، وقرون من الكفاح الطويل يلقي على مسلميها خاصة، وإخوانهم عامة عبئًا ثقيلاً ومسؤولية تاريخية جسيمة، في الأخذ بيدها نحو دعوة الحق والخير بما تنطوي عليه من قيم السلام، والتعاون، والتسامح، ومبادئ العدالة، والمساواة، والمحبة بين البشر.

ويبقى على المسلمين النهوض لمقابلة هذا الواقع الجديد؛ بإثبات وجودهم ودورهم الحضاري واستثمار إنجازاتهم الغالية ومكاسبهم الجديدة التي تحققت لهم عبر مسيرة شاقة شائكة، استثماراً يتناسب مع قيمة تضحياتهم الجمة، ليجعلوا بذلك من جنوب أفريقيا قلعة من قلاع الإسلام ومركز إشعاع حضاري إسلامي في محيطها الإقليمي على الأقل، وهو ما لا يتم دون سلوك واع، ونشاط هادف منظم، ومشاركة

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص: 151، مرجع سابق.

إيجابية في الحياة اليومية، والمقصود هنا بالاشعاع الحضاري هو ذلك النور «الذي يسري في الحياة اليومية ويتخلل الدقائق والثواني منها ويتجلى في المظهر والجوهر على السواء، والزمرة المباركة الناشرة لهذا الاشعاع هي تلك الفئة المهاجرة الشاعرة بالواجب الملقى على عاتقها العازمة على تأدية الأمانة وتبليغ الرسالة»[1].

وإن الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا من موقع تمثيلها عن الأمة كلها، وواقع تصويرها وتجسيدها لتعاليم الإسلام وقيمه، يتعيّن عليها أن تأخذ بعين الاعتبار وبحذر ساهر «أن الأقلية المسلمة إذا صلحت كانت نعمة وسببًا في انتشار الإسلام، وإذا فسدت كانت نقمة وأساءت إلى الإسلام»[2]، ومن ثم فإن طبيعة دعوتها وكونها أقلية يحتمان عليها اللجوء إلى أساليب الحوار، والتمسك بأخلاقيات حسن الجوار، والتحلي بالحكمة والسماحة بعيدًا عن العنف، والتزمت، وكل ما يتصل بهما من معاني الشدة والغلظة المثيرة للقلاقل، وسوء التفاهم بين الجماعات المتعايشة في عربة واحدة من قطار الحياة العابرة.

ولعل من عوامل سعادة الإنسانية الحائرة في هذا الجزء من العالم، أن يظهر مسلمو جنوب أفريقيا أشدّ الناس تمسكًا بدينهم، وأحرص من غيرهم في الحفاظ على هويتهم الإسلامية، وتبتدي مظاهر هذا التمسك بالدين، والحفاظ على الهوية في عدد من النشاطات، يمكن تقصي بعضها في النماذج التالية :-

أ)- **كثرة المساجد والمؤسسات التعليمية** : يوجد في جنوب أفريقيا ما يربو على ألفٍ وثلاثمائة مسجد قامت الأقلية المسلمة بإنشائها في فترات مختلفة، وإنّ ما يقرب من ثلث العدد المذكور من المساجد شيّدت في السنوات الأخيرة الماضية، وهذه المساجد كما وصفها الأستاذ حامد عثمان «كلها تمتاز بالإتساع والفنّ المعماري الإسلامي

---

(1) مهدي بن عبود "كيف تكون الأقليات المسلمة مصدر إشعاع حضاري" مجلة الفكر الإسلامي، ع3، ص: 38 س16/ 987، لبنان.

(2) محمود مهدي: "الأقليات المسلمة في العالم، طريقة توعيتها وأساليب الافادة منها" من مجلة الوعي الإسلامي ع162، ص: 53، س14/ 1398هـ 1978م.

الحديث»[1]، ويتسارع معظم المسلمين إليها بانتظام، لتأدية صلواتهم في مواعيدها، وأشد ما تكون هذه المساجد اكتظاظًا بالمسلمين في أيام الجمعة، والأعياد والمناسبات الدينية، ويتميز شهر رمضان بكثافة الحضور أكثر من غيره من الشهور.

وأكبر المساجد في البلاد، جامع دربان الذي يتسع لآلاف المصلين، ويُعتبر من المعالم الإسلامية البارزة في البلاد، يؤمها الزوّار يوميًا من كل مكان. كما أن مسجد برهان الدين في مدينة كيب تاون من أكبر المساجد في جنوب أفريقيا، وهذا المسجد على قول الأستاذ حامد عثمان: «يمتاز بالسجاد الفاخر الذي لا مثيل له في مساجد أفريقيا، ويوجد في ركن من المسجد ملابس نظيفة معلّقة أعدت للعمال الذين يريدون الصلاة وعليهم ملابس العمل غير النظيفة، فيخلعونها ويرتدون الملابس النظيفة الطاهرة ويصلّون بها، وهذه الظاهرة موجودة في كل المساجد بجنوب أفريقيا»[2].

ولعل هذه الظاهرة إلى جانب ما فيها من إبراز لقيمة النظافة في الإسلام هو تطبيق حرفي لقوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: 31] وعلى أية حال فهي ظاهرة حضارية استثنائية، يكاد ينفرد بها مسلمو جنوب أفريقيا عن غيرهم من مسلمي الأقطار الأخرى.

ومساجد جنوب أفريقيا في سبيل تأكيد الهوية الإسلامية، وتجذير أصول الانتماء الإسلامي في نفوس الأجيال الشابة الناشئة بتربيتها تربية إسلامية ملتزمة، تضطلع بدور كبير ومتعدد يجمع فيه المسجد بين كونه مركز تحفيظ للقرآن الكريم، وتدريس للعلوم الإسلامية، ومعقد حلقات الوعظ والإرشاد، وبين صفته منتدى لمناقشة المشاكل، والاحتفال بمختلف المناسبات[3]، إلى جانب أنه يمثل مقراً للكتاب الإسلامي، وهذا الدور الفاعل الشامل للمساجد في جنوب أفريقيا هو أقرب ما يكون إلى ذلك الدور الذي أراده الإسلام للمساجد من خلال

(1) المسلمون في العالم، ص: 240، مرجع سابق.

(2) المسلمون في العالم، ص: 238، مرجع سابق.

(3) ينظر: "مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال" العربي، ع239، ص: 49، مرجع سابق.

سيرة الرسول ﷺ، وممارسات أصحابه الكرام، وتابعيهم بإحسان في مختلف العصور الزاهرة من تاريخ الأمة المجيد، حيث إن المساجد كانت تشكل ولا تزال في بعض المناطق، وفي بعض الأحيان مراكز ثقافية، وإشعاع حضاري، وملتقى تكوين رأي عام إسلامي صحيح، إلى جانب كونها قنوات اتصال بين أفراد الجماعة المسلمة لتمتين أواصر الأخوة، وإشاعة روح المودّة والتعاون فيما بينهما، وهذا ما يعني أن المسجد «هو الذي يضم شتات المسلمين، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورون لتحقيق أهدافهم، ويتعاونون لمجابهة المشكلات، ويتضامنون في الفكر والعمل والدفاع عن عقيدتهم، ويعبئون نفوسهم بالطاقة الروحية والأمل المتجدد مع كل صلاة، فقد كان المسجد دائماً منطلقاً للجيوش، وحركات التحرّر من العبودية للبشر والأوثان والطواغيت، كما أنه مركز للتربية الصحيحة والتعليم الديني والتثقيف الشرعي»[1]. ويقدر لا يستهان به فقد وقفت المساجد في جنوب أفريقيا للجمع بين مختلف هذه المهام من هذا وذاك[2]! بفضل ما قيض لها من أئمة لا ينحصر دورهم في إمامة الصلاة فحسب بل يتجاوزها ليمتدّ إلى الوعظ والإرشاد، وتصدر المناسبات الدينية والاجتماعية من عقيقة، وعقود زواج ومآتم وغيرها. وقد عبر عن هذا الدور الحي النشط لمساجد جنوب أفريقيا الدكتور زغلول النجار قائلاً: «... استطاعت تلك الجالية الصغيرة أن تبني قرابة الثلاثمائة مسجد من أجمل مساجد الدنيا مظهراً وأداء للرسالة»[3]، أقول: إنه لشيء رائع حقّاً أن يتاح للمسجد التوفيق بين الجمالين الفني والديني في مهمة حضارية متكاملة. هذا... وتقوم إلى جانب المساجد في مهمتي التأصيل، والتأهيل للهوية والثقافة الإسلامية مئات المدارس والمعاهد الإسلامية: «تقوم بتدريس الشباب مبادئ الدين الإسلامية، لكن أكبر مشكلة تواجهها هي ضعف تأهيل المدرسين وفقر محتويات مواد التدريس»[4]. وهذه إحدى المشكلات التي ستثار في حينها، إن شاء الله.

---

(1) الدكتور إبراهيم إمام، أصول الإعلام الإسلامي، ص: 290، وينظر أيضاً: Islam in south Africa p:24-27.

(2) ينظر: مقال الأستاذ عمر الصديق عبد الله: "أضواء على أوضاع المسلمين واللغة العربية في جنوب أفريقيا" مج2/ 952، من كتاب: الأقليات المسلمة في العالم، ظروفها المعاصرة، ط/ 1420هـ 1999م، دار الندوة العالمية للطباعة، السعودية.

(3) مجلة العربي ع239، ص: 49، مرجع سابق.

(4) دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 2، مرجع سابق.

إلاّ أنّ أشهر مؤسسات التعليم العربي الإسلامي وفقًا لأحد الدعاة يتمثل في المعهد الإسلامي في ودترفال، ومعهد السّلام في ناتال، ومعهد دراسات الشريعة الإسلامية، ومعهد دار العلوم في نيوكاسل، وفي ترانسفال(*)، وأزادفيل، ومدرسة أنصار السنة في منطقة نيوكاسل، إضافة إلى شعب وأقسام اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كل من جامعة ديربان، وجامعة غرب الكاب[1]، كما أن في جوهانسبرج جامعة مفتوحة تعتمد على المراسلة في دراستها، وتنظيم الامتحانات لطلابها، ودراسة اللغة العربية جزء من برامجها الدراسية، ويقال أن هذه الجامعة: «قد أسدت للمسلمين خدمة كبيرة، إذ أصبح المنتمون إليها قادرين على قراءة الكتب العربية وإن كان نطقهم غير جيد[2]، وعن الجهود الصادقة التي بذلتها الجالية المسلمة في هذا الصدد يقول الدكتور النجار: «استطاعت تلك الجالية أن تبني عشرات المدارس والمعاهد الإسلامية، وأن تنشئ قسمًا للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة دربان وستفيل، وأن تنتزع من الحكومة الطاغية حق تدريس الدين الإسلامي لأبنائها الذين يتعلمون في المدارس الحكومية، وأن تحتضن من لا تتاح لهم تلك الفرص في مدارس مسائية لتعليم الإسلام واللغة العربية»[3].

والظاهر أن العادة قد جرت في جنوب أفريقيا بإلحاق مدرسة بكل مسجد لغرض تعليم الناشئين اللغة العربية وشيئًا من القرآن الكريم.

وقد سجل لنا الدكتور النجار في زيارته لجنوب أفريقيا ما يعكس اهتمام مسلميها بحفظ القرآن الكريم والحرص على تحفيظه لأبنائهم، حيث أقيمت مدرسة إسلامية

(1) ينظر: التقرير الوارد بعنوان "دراسة مبدئية عن المسلمين في جنوب أفريقيا" ص: 2، مرجع سابق.

(2) الدكتور عبدالجليل شلبي: "الإسلام في جنوب أفريقيا" مجلة الأزهر ج10/ 1116، س: 61، 1409هـ 1989م.

(3) العربي... ع: 239، ص: 49، مرجع سابق.

(*) ناتال، من أصغر المقاطعات في جنوب أفريقيا تقع على الساحل الشرقي بمحاذاة المحيط الهندي. يقيم فيها كلّ من المجموعات السكانية لجنوب أفريقيا بنسب عددية متفاوتة، يشكل للسود منهم نسبة 83٪ معظمهم من الزولو، وهي منطقة زراعية خصبة ذات أمطار كافية، ومناخ دافئ، ج35، ص: 10 16. ط3 من الموسوعة العربية العالمية. وأما ترانسفال: تقع في أقصى الشمال الشرقي للبلاد، وللمقاطعة حدود سياسية مع بوتسوانا وزمبابوي وموزامبيق، تعد هذه المقاطعة مركزًا للأنشطة الصناعية في جنوب أفريقيا، معظم سكانها من الأفارقة الأصليين، وهي مقاطعة غنية ومتنوعة النشاط الزراعي وتحتوي هذه المقاطعة على معظم ثروة جنوب أفريقيا من الذهب والألماس واليورانيوم والنحاس والفحم الحجري، ينظر: ج6/ 191 193، ط3. المرجع نفسه.

على مقربة من بريتوريا ينتظم فيها أكثر من مائة طالب بين الحادية عشر والتاسعة عشرة «يحفظون القرآن حفظًا كاملاً، ويتلونه تلاوة جيدة. والمدرسة مقامة على مزرعة كبيرة أوقفها أحد المسلمين على العمل الإسلامي، وهي مدرسة يقيم فيها الطلاب والمدرسون والإداريون، ويحيون فيها حياة إسلامية كاملة، والمدرسة مهيأة بجدارة لأن تكون نواة لجامعة إسلامية تضم آلاف المجلدات، ولها من الإمكانيات ما يجعلها مركز إشعاع إسلامي بالمنطقة»(1).

هذا، ولدفع المؤسسات التعليمية وتنظيمها جيّدًا تم تأسيس المنظمة الإسلامية التعليمية بجنوب أفريقيا التي أنشئت عام 1985م، وكانت تسعى لفتح مدرسة ثانوية خاصة للبنات في مدينة دربان، وأرى أنّ تأسيس هذه المنظمة التعليمية قد جاء في وقته المناسب، حيث ستعمل على تزويد حركة التعليم الإسلامي في جنوب أفريقيا بروح جديدة، وتعميم فرص التعليم على الجنسين رجالاً ونساءً من غير احتكار؛ إذ المعرفة في الإسلام حق طبيعي لكل إنسان وهو ما لا يتأتى لها القيام به على أكمل وأحسن وجه دون أن يتوفر لها وفيها شرط الكفاءة اللازمة، وفي القائمين عليها عامل الإخلاص، ودافع حب العمل الإسلامي.

وبفضل ما تبذله المساجد والمؤسسات التعليمية من جهود وخدمات فإن مظهراً آخر من مظاهر التمسك بالدين والحفاظ عليه يتمثل في:

ب)- **الإقبال الجماعي على أداء فريضة الحج**: سنويًا تصل مئات من أفراد هذه الأقلية المسلمة إلى الأراضي الإسلامية المقدّسة لأداء فريضة الحج جنبًا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين القادمين من شتى أصقاع العالم، ومن كل فج عميق، في موسم تلتقي فيه الأمة الإسلامية للعبادة، ربّما في مشهد عالمي رائع، وتجمع إنساني بديع. ومسلمو جنوب أفريقيا في معظمهم يتطلّعون بأمل فائق إلى نيل شرف أداء هذه الفريضة المكملة لأركان الإسلام، وإن كان قليل منهم هم الذين يوفقون لذلك، بسبب التكاليف المادية

---

(1) مجلة العربي، ع / 239 / ص: 49 سبق ذكره.

الباهظة التي لا تتوفر لعدد كبير منهم، ومن سائر المسلمين كذلك ممن يقيم في ديار بعيدة عن الحرمين الشريفين. ومع ذلك فقد بلغ الحجاج القادمين من جنوب أفريقيا في يوم عرفة من عام 1368هـ الموافق 1978م حوالي (596) خمسمائة وستة وتسعين شخصًا[1]، على الرغم من المشقة وطول المسافة، وضيق الباع[2].

ج ـ السعي الاجتماعي والسياسي لتقنين التشريع الإسلامي في قضايا الأحوال الشخصية: يبذل مسلمو جنوب أفريقيا اجتماعيًا وسياسيًّا قصارى جهدهم في اعتماد وتطبيق تعاليم الشرع الإسلامي بشأن قضايا الأحوال الشخصية، من زواج وطلاق، وعدة وإرث وغيرها، إذ يصرون من الناحية الاجتماعية على ضرورة التزاوج داخل النطاق الإسلامي، ويتفادون قدر الإمكان الزواج مع المخالفين لهم في الدين، كما يجري العمل على توثيق عقود الزواج باستيفاء أركانه طبقًا لشريعة القرآن[3]، وفرض عدتي الطلاق والوفاة على المطلقات والأرامل كما هو منصوص عليه في الإسلام.

ومن جهة أخرى، ينشط بعض المسلمين سياسيًا في محاولة «تأسيس رأي إسلامي موحد في المسائل القومية، وفيما يخص التشريع في قضايا المسلمين بشأن الزواج والميراث وغيرها من القضايا الإسلامية لوضعها في عملية صياغة دستور جنوب أفريقيا»[4].

وفي ظل التعددية السياسية القائمة ف البلاد فإن الأمل معقود على تحقق الكثير من المطالب التشريعية التي يحملها جزء من النشاط الإسلامي لمسلمي جنوب أفريقيا اجتماعيًا وسياسيًا.

د)ـ التطلع الدائم إلى التواصل مع مسلمي العالم الخارجي: انطلاقًا من الكتابات القليلة عن مسلمي جنوب أفريقيا يلمس المرء فيهم رغبة عارمة في التواصل

---

(1) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 210، مرجع سابق.

(2) ينظر: مجلة التربية الإسلامية ع6، ص: 64/ س 21/ 1399هـ 1978، بغداد العراق.

(3) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 239، مرجع سابق.

(4) من تقرير: دراسة مبدئية عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 5، مرجع سابق.

مع إخوانهم المسلمين في كل مكان، وذلك شعوراً بالانتماء الديني المشترك، وتوثيقاً لروابط الأخوة التي تجمع بين كافة المسلمين تحت مظلة الأمة الإسلامية الواحدة.

ويندرج تحت هذا الدافع ما تقدم من حديث عن فيضان العمل الإسلامي من جنوب أفريقيا نحو المحيط الاقليمي. وقد جاء في حوار مع الدكتور غلام محمد حسين الرئيس السابق للجمعية الطبية الإسلامية ما يؤكد ذلك بقوله: «لدينا علاقات طيبة بمسلمي موزامبيق... وقد عقد مؤخراً مؤتمر يضم ممثلي المسلمين في تسع دول أفريقية منها جنوب أفريقيا وموزامبيق، وسوازيلاند وسويتو وناميبيا لتدارس مشاكل المسلمين، هذا المؤتمر يعقد كل عامين»[1].

وفي سياق التأكيد على هذا التعطش إلى التواصل، يحكى أن كبار التجار من مسلمي جوهانسبرج من الهنود يؤدون زكاة أموالهم إلى الجمهورية الإسلامية في إيران، وربما كان ذلك لتشيعهم، كما أنهم يبعثون منها إلى محاربي أفغانستان[2] تعاطفًا خالصًا معهم فيما أرى.

إن مسلمي جنوب أفريقيا مشبعون بروح التحمس لقضايا الأمة، وتحدوهم الرغبة الجامحة إلى المشاركة الفعلية والوجدانية لأمة الإسلام في قضاياها المصيرية، ومواقفها النضالية، وتعبيراً عن ذلك فقد خرجت جموع غفيرة في مظاهرة احتجاج ضد القصف الأمريكي لأفغانستان فيما بثته قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ 11/ 10/ 2001ف، وقد علت أوساط هذه الجموع هتافات التوحيد والتكبير منبعثة من قلوب صادقة، لعدد كبير من الرجال والنساء، ومن مختلف الأعمار والفئات الاجتماعية، وحتى العجائز كان لهنّ حضور ملحوظ، وكانت هتافاتهم مصحوبة بإطلاقات قوية للأيدي رامزين بذلك إلى الاستمرار في الكفاح والمقاومة، وشدّ الأزر، كما كان تأييدهم للموقف الإسلامي بشأن قضية فلسطين المحتلة في مؤتمر دربان التاريخي من المحلّ الذي لا ينكر. ومن أمثلة تحمسهم لها أنه عقب ندوة مشتركة كان

---

(1) المسلمون في طليعة النضال ضد التفرقة العنصرية، مجلة لواء الإسلام، ع2، ص: 31، س42، عام 1407هـ 197م.

(2) د: عبد الجليل شلبي: "من حديث الإسلام في جنوب أفريقيا" ج7، ص: 798، عام 1409هـ 1989م.

الشيخ ديدات أحد طرفيها عن قضية الصراع القائم بين المسلمين واليهود في فلسطين تقدم أحد المسلمين في جنوب أفريقيا سائلاً: «هل يتعين علينا كمسلمين بجنوب أفريقيا أن نذهب إلى فلسطين ونقاتل مع إخواننا وأخواتنا العرب المسلمين في فلسطين؟ أخبرنا ما يحسن أن نفعله وقد فاضت نفوسنا انفعالاً وتأثراً بما عرفنا عن القضية»(1)، وهذا مثال من كثيرة يعبّر عن روح جماعي أكثر من أي موقف فردي، ومع كلّ ذلك فإنّ العالم الإسلامي ظلّ وإلى وقت قريب مبتور الصلة الفاعلة، وفاقد الاهتمام الرسمي بمسلمي جنوب أفريقيا إلا ما ندر من اهتمامات فردية وطائفية تسجل لأصحابها، وعن أعزّ أمانيهم في التواصل فإنهم حريصون على أن تكون حبالهم دائمًا موصولة مع العالم العربي، وهو ما لمسه أحد الزائرين فسجّله بقوله: «وعما يتمناه مسلمو جنوب أفريقيا من العالم العربي فهو الإحساس بهم والتواصل معهم روحيًا، فهم في غنى عن المساعدات المادية»(2).

إنّ مسلمي جنوب أفريقيا يرقبون عن كثب تطورات الحياة في المجتمعات الإسلامية، ويتابعون بدقة وعناية معظم أحداث العالم الإسلامي في شتى المجالات وبتفاصيلها، وإن كان يغلب عليهم التفاعل مع ليبيا ومصر والسودان والسعودية ودول الخليج في عمومها.

والملاحظ أنهم قد وجدوا في الجماهيرية من خلال جمعية الدعوة الإسلامية العالمية إشباعًا لهذه الرغبة في التواصل والمساندة القوية، امتداداً لموقف الجماهيرية التاريخي في دعمه اللامحدود لحركة التحرير في بلادهم. حيث إن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية قد قامت بتنظيم مؤتمرات وملتقيات متعددة في جنوب أفريقيا، من أبرزها تنظيم المؤتمر العام الأول للشباب الأفريقي المسلم في مدينة دربان بالتعاون مع

(1) أحمد ديدات؛ العرب وإسرائيل شقاق.. أم وفاق"، ص: 70، تعريب علي الجوهري، ط دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.

(2) الدكتور: محمد المخزنجي: "جنوب أفريقيا ماذا يدور في رأس العواطف، مجلة العربي، ع: 412، ص: 46، عام 1993م.

حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا تحت شعار «دور الشباب الأفريقي المسلم في التنمية» شارك فيه 120 مندوبًا من رؤساء الاتحادات والمنظمات الشبابية المسلمة في أكثر من 27 دولة من مختلف أنحاء أفريقيا، وقد استمر لأربعة أيام متواصلة، ناقش فيه المشاركون جملة من الموضوعات الهامة، وعددًا من القضايا المركزية تتصل بحقوق الإنسان، والديمقراطية والهوية، ومستقبل الشباب المسلم، وواقع المسلمين دوليًا، والإسلام في أفريقيا بين التاريخ والواقع المعاصر، ومكانة المرأة في المجتمع الأفريقي المسلم، وقد كان للمرأة المسلمة حضور إيجابي فاعل في أعمال هذا المؤتمر التاريخي الذي له أهميته البارزة وله ما بعده.

على أنه مسبوق بملتقى عام للشباب المسلم في جنوب أفريقيا، ساهمت الجمعية في إقامته قبل وقت وجيز من المؤتمر الذي مر ذكره، وكان الهدف الذي من أجله انعقد الملتقى يتمثل في الاهتمام بالشباب المسلم، ومواجهة الحملات التنصيرية، والغزو الثقافي، التي يتعرض لها الشباب، خاصة في أفريقيا، إيمانًا بأهمية الشباب ودوره المصيري[1].

إضافة إلى هذا، قامت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية مشكورة بتعيين عدد من الدعاة المحليين في جنوب أفريقيا، وابتعثت بعض الأفراد من خريجي كلية الدعوة الإسلامية التابعة للجمعية للعمل الإسلامي في تلك البلاد، كما أنها لم تدخر وسعًا في تقديم ما يحتاج إليه المسلمون والعمل الإسلامي من مساعدات كريمة.

وإلى جانب هذا الاهتمام الدقيق من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية تقوم لجنة مسلمي أفريقيا الكويتية بدورها كذلك في العمل الإسلامي هناك، وقد قامت هي الأخرى بإنشاء مسجد ومركز من أجل تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم[2].

ولئن كان مسلمو جنوب أفريقيا قد تطلعوا بأمل فائق ولسنوات عديدة مديدة إلى المزيد من التواصل والارتباط الأخوي الروحي بالعالم الإسلامي، من جانب، وخلق

(1) ينظر: صحيفة الدعوة الإسلامية كلاً من العدد 714 بتاريخ 7 جمادى الآخرة لعام 1430 من ميلاد الرسول ﷺ، والعدد 724 بتاريخ 19 شعبان من العام نفسه.

(2) ينظر: مجلة العربي ع 497، ص: 49، مرجع سابق.

الشعور بالإحساس بهم في المسلمين من جانب آخر فإن رياح التغيير السياسي التي هبت في البلاد وعصفت بأوضاعها البالية، قد عملت لصالح قضيتهم، ولبّت طموح الأجيال السالفة والصاعدة في ذلك إلى حد بعيد، حيث إن الرئيس مانديلا نفسه رغم مسيحيته قد أبدى تشجيعه لهذا النوع من التواصل، ولم يتوان قطّ في التعبير عن حق مسلمي جنوب أفريقيا في ذلك كلّما اقتضى موقفه الخطابي شيئًا من هذا القبيل. وكان مما قاله في نقل مرئي مباشر حين حضر احتفال مسلمي البلاد بعيد الفطر المبارك: «...الآن جنوب أفريقيا حرة، فإنّ تلك الروابط التي للجماعة الإسلامية مع بقية أجزاء قارتنا تستطيع أن تنعش وتنمي أمتنا بدون قيد أو تشويه»[1].

إذن؛ من خلال ما تقدم، حُقّ لنا أن نؤكد أن الجالية المسلمة في جنوب أفريقيا مشدودة شدًا متينًا إلى العالم الإسلامي، مهتمة بقضاياه، متطلعة إلى تضامنه وتفاعله، متابعة عن كثب أحداثه وتطوراته، وكل ذلك من منطلق تمسكها بدينها وحرصها على هويتها، وهي «تبذل أقصى ما تستطيع في سبيل العيش بالإسلام في دقائق حياتهم أفرادًا وجماعات، وتربية أبنائهم على هذا الدين القيم وحمل نوره إلى الملايين الضالة من البشر حواليهم، ومقاومة الظلم الذي يتعرضون له»[2].

وقد شهد لهذه الجالية بالدعوة والحفاظ على الهوية من قال في حقها: «تقوم بدور بارز وملموس في نشر الإسلام والحفاظ على الهوية الإسلامية في تلك المناطق»[3]، وهذه الأقلية النشطة من أمّة الإسلام في جنوب أفريقيا تعدّ دعمًا قويًا ومهمًا لقضايا المسلمين في بلادها، ولو بالمقاييس السياسية على الأقل.

ومما لا يتطرق إليه الشك أن لصوت الإسلام اليوم في جنوب أفريقيا دويًا هائلاً، وحسابًا كبيرًا، وقد انتزع الإسلام لنفسه هذا الوزن والاعتبار بفضل الله أولاً، ثم

---

(1) من خطاب مانديلا في صحيفة الدعوة الإسلامية، ع 579، بتاريخ 7 شوال، 1428 و. ر. طرابلس.

(2) مجلة العربي ع: 239، ص: 50، مرجع سابق.

(3) د. عبدالعزيز راشد العبيدي: "وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا" ص: 46، من مجلة دراسات أفريقية، ع: 6؛ لعام 1420هـ 1990م الخرطوم.

بفعل قلة قليلة من دعاته المخلصين ممن توفّر لديهم أمل كبير في العمل، فشكلوا بذلك قوة دافعة للعمل الإسلامي في تلك البلاد التي يبشر وضعها الحالي بخير كثير من منظوره الدّعوي. وذلك انطلاقًا من أهمية اغتنام الفرص السانحة في هذا الظرف الجديد الذي تشهد فيه حركة انتشار الإسلام نموًا متصاعدًا، وهذا لا ينفي قيام تحدّ حقيقي وتنافسٍ محموم بين الدعوة والتنصير في كسب من قيل عنهم: «وليس بين الزولو مسلمون إلاّ أن يكون أفرادًا عرفوا الإسلام، وليسوا أيضًا نصارى جميعًا»[1].

وما من ريب في أن مجتمع جنوب أفريقيا وبخاصة الوثنيين منهم في شوق ولهفة لتلقف الإسلام بعد سنوات الكفاح الطويل، والمعاناة المضنية، فهم أحوج ما يكونون إلى من يعمل بجدٍ وإخلاصٍ لانتشالهم من وهدة الضلال التنصيري، وتحريرهم من براثن الوثنية، وهذا يعني شيئًا مهمًا جدًا بالنسبة لمن صدقوا ما عاهدوا الله عليه من دعاة الإسلام.

ومن حسن الحظّ وسعادته أن الله مهد لهذا الأمر، فهيأهم لقبول الإسلام، بأن «توفّرت لهم قلوب رقيقة تبحث عن يقين روحي لها لا يحمله الرجل الأبيض، والإسلام هو الدين المؤهل للعب هذا الدور، وقد لمسنا بعضًا من هذا الشغف في مدينة السود، بالقرب من كاب تاون»[2].

هذا ومع قيام هذه الفرص الثمينة المغرية، فإن هناك حقيقة جملة من التحديات التي تهدد وجود المسلمين وتعمل على تعويق العمل الإسلامي، إلى جانب طائفة من المشاكل التاريخية والواقعية يعيشها مسلمو جنوب أفريقيا بمالها من تأثيرات جدّ سلبية على حياتهم، ونشاطهم الإسلامي.

ولخطورة تلك التحديات والمشاكل؛ فلابد من الوقوف عندها طويلاً لدراستها وعرضها على ذوي الشأن والمسؤولية، كي تعرف طريقها عاجلاً إلى الحل والزوال،

---

(1) د. عبدالجليل شلبي، من حديث الإسلام في جنوب أفريقيا، مجلة الأزهر ج: 8، ص: 896 من 61، مرجع سابق.

(2) رأس الرجاء الصالح هل أصبح صالحًا، العربي ع: 497، ص: 149.

فنكون بذلك قد بلّغنا الرسالة، وأدّينا الأمانة، والله من وراء القصد.

2 ـ تحديات تهدد العمل الإسلامي ومشكلات تعكّر صفو حياة المسلمين في جنوب أفريقيا:

ليس مما نطمع فيه الإحاطة هنا بجميع تلك التحديات والمشكلات، فهي أوسع من أن يستوعبها جزء من مباحث رسالة لها قضيتها وموضوعها الرئيس، فكل ما نرمي إليه في هذا الشأن هو الوقوف على أبرز تلك القضايا الخطرة من تحديات ومشكلات متعددة، ويأتي في صدارتها ما يلي من تحديات مثيرة:ـ

أ)ـ تحديات المحيط الثقافي: من المعلوم أن مسلمي جنوب أفريقيا يعيشون في محيط اجتماعي حافل بالمعتقدات والانتماءات، يمثل هذا المحيط خليطًا من الأجناس والعناصر المختلفة في ثقافتها وتصوراّتها، مما أوجد مضطربًا فسيحًا من الأفكار، والفلسفات، يحاول أتباع كل منها جذب الآخرين إلى معسكرهم الذي ينتمون إليه، ولكن مع هذا التنوّع الفكري الثقافي، يصدق القول: بأن الطابع الغالب على الحياة في هذه البيئة هو طابع المدنية الغربية بروحها المادّية، والتي تفرض كيانها بشتى الأساليب والوسائل المادّية بصرف النظر عن شرعيتها أو إنسانيتها.

وتكريسًا لهذا الطابع التغريبي تعمل جملة من المؤسسات الثقافية والتربوية، باستخدام الوسائل العلمية والإعلامية للتمهيد والترويج لتلك القيم الغربية الغريبة، ونشر الأنماط السلوكية والعادات الاستعمارية الوافدة[1].

وبذلك تعيش الأقلية المسلمة في واقع قلق، مُستهدفةً ممن حولها من القوى المضادة والتيارات النشطة المدعومة، والتي تتربص بها الدوائر وتحاول أن تفرض عليها نمطًا من التصوّر للحياة، يقوم على الانسلاخ عن الدين، وعزله عن واقع الحياة الفاعلة، للعيش وفق الطريقة العلمانية التي هي نتاج ظروف خاصة بالغرب، ولها أسباب تاريخية معروفة.

(1) ينظر: أحمد ديدات، حياتي، ص: 159، مرجع سابق.

وفي مواجهة ثقافية غير متكافئة بين الأقلية المسلمة، ومحيطها الثقافي تظل عمليات التوعية الدائمة والمكثفة، وتعميق الانتماء الديني، والحفاظ على الهوية الإسلامية في وسط يعاني من أزمة الهوية، حتميات لابدّ منها ضرورة لا اختياراً؛ لمواجهة ما تتقاذفه تيارات هذا المحيط المتلاطم من تحدّيات ثقافية تلاحق الأقلية المسلمة في مختلف الدوائر، وفي كافة مجالات الحياة اليومية.

لئن كان الدكتور محمد عمارة قد أثار من خلال عنوان أحد كتبه سؤالاً كان مهما في حينه، مفاده: «الغزو الفكري حقيقة أم وهم؟» فقد بات جليا لعامة المسلمين اليوم أنه حقيقة لا مراء فيها، وأنه واقع مؤكد مشهود تتعرض له الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا، والتي ترى في مجابهتها لموجات الغزو الفكري، أن المسألة تندرج في عداد الصراع من أجل الوجود، والدفاع عن الهويّة والحياة المسلمتين.

وعلى الرغم من مخاطر هذا التحدي الثقافي على الشخصية المسلمة في جنوب أفريقيا وفي غيرها، فإنه يشكل من جانب آخر مبعث تفاؤل للعمل الإسلامي والقائمين عليه، إذ يعكس فراغًا روحيا عميقًا وفقراً مدقعًا إلى القيم القرآنية النبيلة الأصيلة، الأمر الذي يضع المسلمين أمام مسؤولية تاريخية كبيرة وخطيرة، وقد ظهر وتأكد لكافة العقلاء وذوي الضمائر الحية ترشح الإسلام أكثر من غيره لتعمير هذا الفراغ الروحي القاحل القاتل.

ب ـ **النشاط التنصيري المحموم**: تعصف أجواء جنوب أفريقيا بأعاصير حركة تنصيرية حاقدة على العمل الإسلامي، ومعادية للمسلمين. وتعود الجذور التاريخية للحركات التنصيرية، في الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية إلى فترات التوسع الاستعماري في بداياته الأولى، وذلك عندما قام البرتغاليون بإنشاء مراكز للتبشير في كل من ساحل الذهب، ومصب نهر الكونغو إثر عملية اكتشافهم للسواحل الأفريقية[1]، وقد وجدوا في اعتناق ملك الكونغو للدين الكنسي عام 1491م حافزاً قويا ليس للاستمرار في نشاطهم فحسب، وإنما في توسيع نطاقه كذلك ليشمل كافة الدول

(1) ينظر: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص: 30، مرجع سابق.

والشعوب الأفريقية، وإن كان جنوب أفريقيا أسوأ حظّـًا من غيره في هذا الشأن، إذ تم التركيز عليه بشكل لا يتصور، ولا وجه لمقارنته بغيره من مناطق القارة، وإلى هذا الثقل التنصيري الذي تنوء به البلاد، وترزح تحت وطأته، أشار الشيخ ديدات بقوله: «إن جنوب أفريقيا بحر من المسيحية، وإن كانت ليبيا تفخر أن بها أعلى نسبة من المسلمين في قارة أفريقيا؛ فإن جمهورية جنوب أفريقيا بها أعلى نسبة من المسيحيين»[1].

وإن مما يميز هذه النسبة العامة من المسيحيين تفجرهم حقداً وغيظًا على الإسلام والمسلمين لشدة تعصبهم البغيض وهو ما يؤكده قول الشيخ: «أنتم تعرفون الجانب الآخر لجنوب أفريقيا من العنصرية هناك. ولكن فيما يتعلق بالدين؛... هم مسيحيون متشددون جداً»[2].

هذا.. وتزخر البلاد بكم هائل من الإرساليات التنصيرية ذات مرجعيات متباينة دينيًا وسياسيًا، ولكن يجمع بينها التعاون والتنسيق تحت غطاء مجلس كنائس جنوبي أفريقيا[3]، وهذا الجزء من أفريقيا لما به من إرساليات لا حصر لها يشكل المحور الأساسي ومركز الثقل للنشاط التنصيري في القارة الأفريقية برمتها. لأنه مدعوم ماديا ومعنويا من الدول الغربية من أجل مزيد من التوسع والتمكن، تحقيقـًا للمصالح الغربية في توسلها بكافة الطرق الملتوية لإبقاء القارة وشعوبها تحت هيمنتها، ولما كان المسلمون ممن يصعب مراسهم ولا يسهل انقيادهم لغيرهم، فالبعثات التنصيرية دائبة على تخصيص أكبر جزء من نشاطها وإمكانياتها لتنصيرهم، باذلة في سبيل ذلك الأموال الطائلة، مستخدمة شتى الوسائل الإعلامية، توصلاً إلى الهدف الاستعماري المغرض، والواقع أن جهودها الجبارة قد أسفرت في القارة الأفريقية عن نتائج مؤسفة ومقلقة لكل مسلم غيور على دينه، يجد المرء مرارة بالغة في الاعتراف بها؛ إذ «أدى نشاطها هذا إلى إعاقة سير الإسلام وانتشاره وذلك بسبب الهجمات الضارية التي تشنها على الإسلام، أضف إلى

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: المسيح في الإسلام، ص: 10.

(2) د. أحمد حجازي السقا: "المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان" ص: 147، مكتبة زهران، القاهرة، 1409هـ 198م.

(3) عبدالقادر سيلا: المسلمون في السنغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل، ص: 15، ط1/ 1406هـ ع12، ينظر: من سلسلة كتاب الأمة، قطر.

ذلك سكوت المسلمين وتقاعسهم عن مواجهة هذا الخطر الداهم»[1] .

إن الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وفي أفريقيا عامة تخوض معركة مصيرية ضد الحركات التنصيرية التي دخلت حلبة هذا الصراع المرير بكلّ طاقاتها المادية والمعنوية والأساليب الدعائية، وقد عبر قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية العقيد معمر القذافي عن هذه الحقيقة المؤلمة في إحدى مقولاته بـ«أن الإسلام في أفريقيا في خطر، ويواجه حربًا صليبية، وكذلك الإسلام في المشرق العربي».

وفيما يخصّ مسلمي جنوب أفريقيا من هذا التحدي الذي يستهدف وجودهم، ويسعى لانتزاعهم من سياقهم الإسلامي انتزاعًا مشوهًا، واجتثاثهم عن دينهم وهو غاية وجودهم، وأكرم هدف لحياتهم، ما يلاحظ على سبيل المثال في مدينة الكاب من «تعاون وثيق بين الكنيسة الهولندية التبشيرية وكنيسة التحدي مدى الحياة التي أنشئت في عام 1976م على يد جير هارد نهيس بغية العمل التبشيري بين المسلمين، والتحدي مدى الحياة حريصة على تزويد الكنائس بالمعلومات المتوفرة والمطبوعات التي تحثها على مزيد من التبشير بين المسلمين»[2] .

ولعل الوقوف على العدد التقريبي للجماعات والإرساليات التنصيرية في جنوب أفريقيا وعن حملاتها الحامية، كفيل بتزويدنا بصورة واقعية عن حقيقة هذا التحدي التنصيري الذي يتهدّد المسلمين والنشاط الإسلامي في هذه البلاد، ومن ذلك ما ورد في قول الشيخ ديدات: «إن أعمال الإرساليات التبشيرية في هذا البلد تجري على قدم وساق بكل الوسائل المتوفرة لديها، . . أما مراكز التبشير فإن البلد كله مركز التبشير ومع أن هناك أكثر من ألف طائفة وفرقة من البيض، وأكثر من ثلاثة آلاف طائفة وفرقة من السود، فإنّ الإرساليات قد نجحت في إيصال كتبها إليهم جميعًا»[3]، ومن

(1) معوقات انتشار الإسلام في أفريقيا، ص: 92، مجلة حضارة الإسلام 64، س: 8، 1387هـ 1967م، دمشق.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 160 161، مرجع سابق.

(3) الشيخ ديدات: "المسلمون والتحديات التي يواجهونها في جنوب أفريقيا"، ص: 31، مجلة الأمة ع1، س: 1، 1401هـ 1980م.

الأساليب الدعائية المضللة التي لا يستنكفون عن اللجوء إليها في محاولاتهم العملية توزيع نشرات خادعة توهم عناوينُها بأنها إسلامية، ونسبة تأليف بعض أدبياتهم الدعائية إلى عناصر مسلمة إيحاءً لضعاف العقول بأنهم ارتدوا عن الإسلام وتنصروا، فكتبوا عن روائع ومزايا النصرانية منتقدين الإسلام، ومن الأمثلة على ذلك كتاب منتحل بعنوان لماذا تنصرت؟ وينسب لمسلم متنصر يحمل اسم محمد!! وهو منه بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وتتوفر لدى الإرساليات عدد من المنشورات الدينية في شكل كراسات وكتيبات موجهة إلى المسلمين في جنوب أفريقيا مثل: سلسلة التوجيه الصحيح، وهي من تسع كراسات منشورة بواسطة مطبعة الإرساليات الإنجليزية في جنوب أفريقيا، تضاف إليها سلسلة «من إرسالية المسيح إلى المسلمين في جنوب أفريقيا»، وتتكون من ست عشرة كراسة وعدد من الكتيبات، وكتاب الرب في الإسلام والنصرانية المنسوب إلى مسلم صوفي متنصر كما يزعم[1].

وقد بلغ بهم التحدي في جنوب أفريقيا أشده إلى أن طبعوا كتاباً تنصيريا على نسق المصحف، يبدأ كل قسم منه بالبسملة وينتهي بأرقام على غرار الآيات القرآنية، وهذا الكتاب في مضمونه ينتقد الإسلام ويفتري عليه، ساعيًا إلى تضليل العامة من المسلمين بدعوى دعوتهم إلى نور الإنجيل، وبالأخص منهم من لا يفقهون جيّداً الفرق بين القرآن الكريم وغيره، وعن هذه المحاولة الماكرة الفاشلة يقول ديدات: «ولقد حاول البعض تقليد القرآن الكريم، فاستعاروا الجمل والكلمات وحاولوا تقليد الأسلوب، حتى بسم الله الرحمن الرحيم أخذوها محاولين أن يخرجوا كتاباً مقدساً على طريقة القرآن، ولكن هيهات. إن هذه المحاولة برهان آخر على أن القرآن لا يمكن مضاهاته، حاول ما شئت لكن التحدي يظل قائماً»[2].

هذا.. وتأتي زيارات بابا الفاتيكان المتكررة لجنوب أفريقيا والتي لا تقل عن أربع

---

(1) ينظر: التنصير خطة الغزو والعالم الإسلامي، ص: 523، 529، 578، المتضمن مجموعة أعمال كلورادو التنصيري.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص: 112، ت: علي عثمان، من منشورات دار المختار الإسلامي، القاهرة، مصر.

مرات دعمًا وتتويجًا لهذه الجهود التنصيرية الواسعة في نطاقها وإمكانياتها. وعن البعد التنصيري لهذه الزيارات، وأثرها يقول أحد المسلمين من جنوب أفريقيا: «... لقد زار البابا جنوب أفريقيا أربع مرات، وهذه الزيارات يحدث منها تموجات إيجابية في نشاط التبشير، أفما كان ينبغي أن يزورنا شيخ الأزهر مرة واحدة، فزيارته تبث في حياتنا الدينية نشاطًا، وقد توجه إليه أسئلة تقضي إجاباتها على الخلافات الكثيرة بين الأئمة، ثم تكون مقابلة لزيارة البابا»[1].

وبهذا الاعتبار تستوفي زيارة القائد معمر القذافي التاريخية لجنوب أفريقيا في الفترة ما بين 12 إلى 15 / 06 / 1999ف كامل مغزاها، وتلامس أعمق معانيها، وقد سجّلت في ذاكرة الأقلية المسلمة هناك تاريخًا لا ينسى، حيث روت في نفوسهم ظمأً قاتلاً طالما عانوا من وطأته، وبذلك شفى غليلهم، وارتفعت معنوياتهم، بأن كانت الزيارة بردًا وسلامًا في نفوسهم؛ لمسوا فيها صدق توجهات القائد وإخلاصه، فتفاعلوا معه ورحبّوا به أيما ترحيب، وإنّ ما أولاه القائد من عناية للمسلمين في تلك الزيارة، وما أعاره من اهتمام وحرص، للإطمئنان عليهم في مواقع ولقاءات متعددة، يجسد بحق ما يميز القائد القذافي عن غيره من اهتمام ساهر، ومتابعة دقيقة لكافة أبناء الأمة الإسلامية، وهو أمر ليس بكثير ولا مفاجيء ممن هو قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، والسباق إلى كل ما من شأنه أن يمكن للإسلام ويعزز مكانة المسلمين ووجودهم الفاعل في هذا العالم المتأزم.

ومن المعلوم في مخططات الحركة التنصيرية أن القارة الأفريقية، ولا سيما المناطق الإسلامية منها تحظى إلى جانب أندونيسيا المسلمة، منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين بالأولوية في برامج الهيئات التنصيرية، باعتبار أن أفريقيا تمثل في نظرهم قلب العالم ومركزه الجغرافي. وهو ما تشهد به كثافة الحملة على هذه القارة[2]، حيث تنفق

---

(1) معركة التبشير والإسلام، ص: 189، مرجع سابق.

(2) ينظر: حمزة مايقا: المجتمع الإسلامي بين ماضيه وحاضره ومستقبله، ص: 133. بحث مخطوط للفقير إلى الله، صاحب هذه الرسالة أعد عام 1996، طرابلس.

الولايات المتحدة الأمريكية سنويًا على الإرساليات التنصيرية حوالي 600 مليون دولار على الأقل، «ولقد ترتب على رصد هذه الأموال إعداد 104ألف من المنصرين بأفريقيا وافتتاح 489 مدرسة لاهوتية و2594 مدرسة ثانوية و83,900 مدرسة ابتدائية كما تملك الكنيسة في أفريقيا حوالي ستمائة مستشفى و93 جمعية للمرضى ذوي العاهات و265 ملجأ للأرامل وكلّها تعمل لخدمة التنصير وأهدافه، وهناك ست ملايين طالب مسلم يتعلمون في مدارس تابعة للكنسية بأفريقيا، هذا بالإضافة إلى التنصير عن طريق البث الإذاعي للأماكن الرّعوية التي لا يصلها المبشرون»[1] ومن غير مبالغة فإني أرى أن هذه الأعداد تمثل إحصائيات قديمة تجاوزها الواقع بالزيادة والمضاعفة، وذلك بحكم اطلاعي المتواضع على واقع الحركة التنصيرية في أفريقيا من خلال المعايشة والمتابعة الهادفة بكل اهتمام، وتمعّن.

ومن أغرب الأمور وأعجبها أن الإرساليات المسيحية المعاصرة، وهي تعوم في خضم حملاتها الجارفة لتنصير مسلمي القارة الأفريقية وسائر شعوبها، تسترخص كل غال ونفيس، للتحرر من أثقال ماضيها الملوث بالعمالة الاستعمارية، وممارسة التفرقة العنصرية، وتسعى بكل ما أبدعت من مكر وكيد لطمس تاريخها الخسيس الجالب للعار والنفور. فمن حيث العمالة الاستعمارية؛ من الواضح جداً أن هذه البعثات التنصيرية: «لم ترسل من أجل مصلحة الأفريقيين، لأنها لو كانت مهتمة حقـًا بالمسيحية لكان حريًا بها أن تبشر بها في بلادها ذاتها، في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول التي ينتشر الإلحاد العلني فيها انتشاراً واسعًا، والتي تتعرض فيها الكنيسة ورجالها إلى كثير من الإهمال واللامبالاة»[2]. وتأكيداً لارتباط التنصير بالاستعمار وخدمته للأخير تقول الدكتورة زينب عبدالعزيز: «وإذا ما كانت الصلة بين الاستعمار والتبشير ثابتة لا يمكن إنكارها وإغفالها، بل إن بعض المراجع تطلق على الكنيسة عبارة «الشريك الكامل للإمبريالية الغربية» فإن أخطر ما يواكبها

(1) المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 15، مرجع سابق.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 403، مرجع سابق.

فعلاً، هو عملية اقتلاع الهوية الحضارية»[1].

ومن هذا الجانب أيضًا فقد اتهمت مؤخرًا وزارة الشؤون الدينية الجزائرية جهات أمنية وعسكرية وسياسية غربية بالوقوف وراء حملة تنصير الجزائريين، والتي هي من صنع أجهزة استخبارات غربية ترمي إلى إطباق الهيمنة الدينية والسياسية على البلاد والمنطقة بعامة، وأكدت الوزارة الجزائرية أن هذه الحملة يتصدرها رهبان أجانب من دول أوروبية من ذوي خلفيات عسكرية واستخبارية، حيث عمل معظمهم في أجهزة أمن رسمية، كما حاز بعضهم رتبًا عسكرية عُليا، ويتضافر جهد هؤلاء جميعًا لتهديد وحدة الجزائر واستقرارها، تمهيدًا لعودة الاستعمار[2]، وفي أية صورة كانت.

وبسبب المهمة الاستعمارية، والأدوار السياسية للحركات التنصيرية، كانت اليابان لعهود طويلة متحفظة جدًا تجاهها، الأمر الذي قادها إلى غلق الجزر اليابانية لما لا يقل عن ثلاثة قرون في وجه البعثات التنصيرية، وذلك «لأن اليابان قد علمت آنذاك أن المسيحيين يخفون غرضًا آخر هو الانقلابات السياسية»[3].

وأما ممارسة الكنائس وإرسالياتها للتفرقة العنصرية في القارة الأفريقية فحدّث ولا حرج، عما ثبت تاريخيا في جنوب أفريقيا عن إرسالية الكنيسة الإصلاحية الهولندية التي كانت تبشر من خلال العهد القديم مركزة على فكرة الشعب المختار، قاصدة بها من يعرفون بالبوير، في البلاد، «وكان أتباع هذه الكنيسة يعتقدون أنهم هم الجنس المتفوّق بالبلاد، وأن غير البيض هم جنس من الخدم، وكانوا يعتقدون أن رسالتهم هي الحفاظ على الحضارة الغربية، الحضارة البيضاء»[4]. إلا أن من الإنصاف الإقرار بما ذهب إليه صاحب كتاب تاريخ جنوب أفريقيا في وجود إرساليات وشخصيات كانت مناهضة

(1) تنصير العالم مناقشة لخطاب البابا. . ص: 97 ط1/ 1415هـ 1995م، دار الوفاء للطباعة، المنصورة، مصر.

(2) ينظر: صحيفة الدعوة الإسلامية ع747، ص: 1 بتاريخ 2صفر 1369 من وفاته صلى الله عليه وسلم، طرابلس.

(3) عبدالكريم سايتو: "وضع الأقليات والجاليات عمومًا والإسلامية خصوصًا. ." مجلة الأصالة، ع: 20، ص: 29، ص: 2، 1394هـ 1974م، الجزائر.

(4) تاريخ جنوب أفريقيا؛ ص: 76.

لسياسة التفرقة العنصرية مما أدى إلى نزاع بينها وبين البوير، وأرى أنه وإن وجد شيء من هذا القبيل فإنه يمثل عنصراً غريبًا وشاذًا في الجسم التنصيري مما يحفظ ولا يقاس عليه، إذ لا يشكل قاعدة مبدئية، ناهيك عن تبلورها في تيار مؤثر ومعتبر.

لذلك حين أقدم نظام الحكم العنصري في جنوب أفريقيا على سياسية العزل السكاني، فقد باركت الكنيسة وأتباعها هذه الخطوة المدانة «وقد بررت الكنيسة والجامعيون التابعون لمكتب جنوب أفريقيا للشؤون العنصرية هذه السياسة إما باسم تعاليم العهد القديم، وإما باسم مبادئ غيرية غير حقيقية»[1].

ومن الأمثلة الشاهدة على روح التفرقة والتعبير العنصري عند المنصرين ما حكاه الدكتور أحمد شلبي بقوله: «وقد حدث أن تزوج مبشر مسيحي كان يباشر عمله في أفريقية من إحدى الأفريقيات، ولكن هذا الزواج جعل المسيحيين البيض يضطهدونه ولا يتعاونون معه، فاضطر إلى مغادرة أفريقية... وخوفًا من أن يتكرر عمل هذا القسيس لجأ البيض إلى اختيار القساوسة الذين يعملون بأفريقية من أتباع المذاهب المسيحية التي لا تبيح الزواج للقساوسة»[2].

ولهذه المواقف وغيرها درجت الكنائس الشرقية القديمة على النظر إلى الكنائس التنصيرية نظرة قلقة ومريبة؛ إذ تعتبرها في أغلب الأحيان وكالات للمصالح الغربية تسعى لتنصير المسلمين من جانب؛ ولاستقطاب أتباع الكنائس الشرقية المحلية من جانب آخر[3]، وبالطبع فإن لهذه النظرة الموضوعية غير المستريحة ما يبررها غالبًا، وبهذا فقد شهد شاهد من أهلها وكفى الله المؤمنين القتال.

وبالمناسبة فإنّ من المهم بالنسبة للمسلمين استثمار هذا الموقف الشرقي الكنسي وتوظيفه في عملية تحالف مضادٍ ومواجهٍ للغارة التنصيرية، والتي ليس مما ينكر أنها قد

---

(1) شارل أندريه جوليان: تاريخ أفريقيا، ص: 137، ترجمة عوض أباظة.

(2) موسوعة التاريخ الإسلامي ج6/ 160، مرجع سابق.

(3) ينظر: التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، ص: 555 556، مرجع سابق.

حققت – وللأسف – بعض النجاحات في عدد من الساحات المسلمة، وإن كانت محدودة وبنسبة ضئيلة، ولكنها خطيرة في كل الحالات.

وربما وجدنا في حالة موزامبيق التي ارتفعت نسبة النصارى في إحدى قبائلها المسلمة من 6% إلى 30% بسبب ما تعرضت لها من مجاعات وكوارث[1]، أحد النماذج البارزة الشاهدة على ذلك.

والإرساليات التنصيرية في أفريقية اليوم تبذل قصارى جهدها للتغاضي عن هذا التاريخ القاتم، وتعمل جاهدة لإسدال ستار النسيان عليه، بشتى الوسائل المغرية، وبكل ما أتيت من قوة وبراعة.

وإن مما يثلج الصدور، ويواسي مصابنا الجلل بشأن استسلام بعض البسطاء من المسلمين للعواصف التنصيرية العنيفة، أن نخبة قيادية واعية، تنسحب من صف الجبهة التنصيرية يومًا بعد يوم، لتلتحق بالمعسكر المسلم بإشهار إسلامها، وإعلان انتمائها للأمة المسلمة، وهذا الإجراء يشكل ظاهرة متواصلة الحلقات تقع من حين لآخر على مستوى القارة الأفريقية ككل. وهو ما دفع فيما أظن بالدكتور عبد الرحمن الماحي إلى التعبير عن رؤيته المتفائلة لواقع العمل الدعوي بقوله: «وعلى الرغم من تعدّد المعوقات للدعوة الإسلامية وتوافر وسائل الإغراء في يد أعدائها. فإن الإسلام يشق طريقه بخطى ثابتة، ولم تفلح النصرانية في اللحاق به، حيث لم تكتف باكتساب الأحيائيين، بل نجح في جذب بعض من ارتموا في أحضان الكنيسة، فمن الواضح أن الإسلام اليوم ينتشر بشكل مطرد في أفريقية»[2].

نعم... يصح هذا القول إلى حدٍ ما في بعض أجزاء القارة الأفريقية، وقد سبق أن أصدرت جامعة أكسفورد موسوعة علمية أسهم في إعدادها أكثر من خمسمائة خبير في الأديان تتضمن دراسة إحصائية حول الأديان، استمر العمل فيها حوالي أربع عشر

---

(1) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر: ص: 18، مرجع سابق.

(2) الدعوة الإسلامية في أفريقيا "الواقع والمستقبل، ص: 268، مرجع سابق.

سنة متواصلة، توصلوا إلى نتيجة مؤداها «أن الدوائر الكنسية قلقة جداً من ظاهرة المد الإسلامي في القارة الأفريقية، إذ أن الإسلام ينتشر فيها بسرعة مذهلة، ولقد بلغ معدل نمو الدين الإسلامي 235% وينبع التخوف الكنسي من ظاهرة المد الإسلامي في أفريقيا من إدراك الأعداء أن الإسلام يلقى قبولاً سريعًا لدى الإنسان الأفريقي؛ لأنه دين الفطرة الذي جاء بالمساواة وإلحاق الرحمة بالناس»[1].

ولئن كانت المعطيات الواردة في هذه الدراسة على درجة كبيرة من الصحة في حينها، فإن مختلف الأوضاع التي عصفت بالقارة الأفريقية من كوارث طبيعية وبشرية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين استأثرت بجزء كبير من مصداقية هذه الدراسة، الأمر الذي يجعلنا نؤكد مرة أخرى بأن الأمة المسلمة في أفريقيا بما فيها جنوب أفريقيا مستهدفة، ويراد بها شرّ مستطير، وإن هناك اهتمامًا بالغًا وشاملاً بكل ما يتصل بقضية تنصير المسلمين؛ إذ توجد دراسات متعددة الأبعاد، عن المناهج والأساليب، والنجاحات والاخفاقات، ونوعية المشكلات والتحديات القائمة، مع اهتمام خاص بالمصادر والمراجع العلمية المعينة في ذلك لكل من المنصّر والمراد تنصيره، وهذه المهمة يضطلع بها عدد كبير من المراكز والإرساليات المحلية، والعالمية، وترصد لها إمكانيات مادية ضخمة، ومساندات معنوية عالية، من جهات متعددة، وكل ذلك يتم وصولاً إلى تنصير المسلمين في المقام الأول دون غيرهم؛ لسبب بسيط جداً يتمثل في استئصال الإسلام من حياتهم باعتباره يشكل أقوى عوامل الصّمود والمقاومة الحضارية في أوسع مفهومها، وهو ما تفتقده العناصر غير المسلمة في مواجهتها لقوى التغريب، إذ ينساقون وراء الرجل الأبيض إعجابًا به لما يملكه من سلطان وثروة، وصناعة. قابلين بذلك كلاً من الدونية الثقافية المنسوبة إليهم، والاستعمار الاستيطاني لبلادهم من غير مقاومة، بل «يتخذون حينًا موقف المتفرجين، أو يلوذون حينًا آخر بمقار بعثات التبشير، بدلاً من الاشتراك في المقاومة المسلحة ضد الغزو والاحتلال

---

(1) المسلمون في السنغال، ص: 9، 10، مرجع سابق.

الاستعماري»(1)، وهذا ما لا يرتضونه لأنفسهم مطلقاً من يحملون عقيدة الإسلام، وينعمون بضمائر حيّة، وقلوب واعية.

جـ ـ **التحدي الصهيوني الزهوق**: تقيم في جنوب أفريقيا جالية من الصهاينة، يرجع تاريخ وصول المهاجرين الأقدمين منهم إلى هذه البلاد إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، تم ذلك بقدوم عدد من اليهود لأسباب اقتصادية، للإسهام في استغلال ثروات البلاد، فشهدت هذه الجالية مع الأيام نموا مطّرداً، أسهم فيه عاملا الهجرة والتكاثر الطبيعي بالإنجاب، إلى أن زاد عددهم وفق إحصائية قديمة عن 150 ألفاً(2)، يعملون في تجارة الذهب والماس متمركزين بأغلبهم في جوهانسبرج. وتكمن خطورة هذه الجالية اليهودية التي تتمتع بنفوذٍ اقتصادي كبير في بلاد اكتسبت جنسيتها، في شدة وعمق انتمائها إلى الكيان الصهيوني، مما جعلها في مقدمة الجاليات اليهودية في العالم والتي قدّمت تبرعات سخية لرفد الهجرة اليهودية منذ ما قبل قيام الكيان الصهيوني، كما هاجر ما يقدّر بقرابة ستة آلاف شخص من أفرادها إلى فلسطين لتكريس واقع الاحتلال الصهيوني، ومن أبرزهم أبا أيبان الذي وصل إلى منصب وزير خارجية الكيان الصهيوني في فترة من الفترات(3). وقد استمرت هجراتهم السنوية إلى الأراضي المحتلة بواقع ألفي مهاجر سنوياً(4). والملاحظ فيما يتعلق بهجراتهم إلى فلسطين أن الدكتوْر الرميحي يميل إلى التقليل من نسبتها وأهميتها، مركّزاً على المساعدات الاقتصادية، والدعم السياسي، وفي ذلك يقول: «وفي عام 1948 كانت مساهمتها المالية هي الثانية من حيث الحجم بعد مساهمة اليهود الأمريكيين، ولكنها لو قيست بحجم السكان اليهود لتبيّن أنها تفوق بثلاثة أضعاف جهد الأمريكيين في جمع المال، ومن المعروف أن هجرة اليهود من جنوب أفريقيا إلى إسرائيل قليلة نسبيّاً... إلا

---

(1) تاريخ أفريقيا العام، ج7/ 206 207، مرجع سابق.

(2) ينظر: العلاقات العربية الأفريقية، ص: 103، مرجع سابق.

(3) ينظر: د. بديع حقي "العلاقات ما بين إسرائيل وجنوب أفريقيا" ص: 45، مجلة المعرفة ع290، س: 25، 1986م دمشق.

(4) ينظر: أفريقيا لماذا؟ ص: 233، مرجع سابق.

أن المساهمة الاقتصادية والسياسية من جنوب أفريقيا ومن اليهود الصهاينة فيها كثيفة ومتعددة»[1] ، وبهذا ندرك السر في مفاخرة أحد زعماء الحركة الصهيونية في جنوب أفريقيا بأن ما يرسلونه من جنوب أفريقيا إلى الكيان المغتصب من مساعدات يفوق حجمها وقيمتها تلك التي ترسله الحركة من أمريكا»[2] .

والظاهر أن الجالية اليهودية في جنوب أفريقيا ، استطاعت أن تنتزع وتكسب ودّ مسيحيي البلاد وولاءهم ؛ لتوجههم الصهيوني الحاقد الغاصب ، والداعم بلا حدود ولا قيود ، لمختلف أنشطة الكيان الصهيوني الاحتلالية ، ويتضح هذا من خلال الوقوف على ما ورد في محاضرة بتاريخ 17/ 7/ 1930م ألقاها الجنرال سمطس رئيس وزراء سابق لجنوب أفريقية ضمن سلسلة محاضراته في أمريكا إثر جولةٍ خصصها لأداء هذه المهمة الإعلامية . وكان مما قاله في محاضرته تلك : «إنني من بلد صغير ، ولكن الحركة الصهيونية تجد أكبر متفسح لها فيه ، وقد يتفق أن تجد الشكوك ووجهات نظر مختلفة في مختلف أنحاء العالم ، ولكن في جنوبي أفريقيا لن تجد مثل ذلك ، إطلاقًا ، فإن جميع اليهود في بلدنا صهاينة ، وجميع المسيحيين موالون للصهيونية ، وبالتالي فأنا أتحدّث إليكم ، لا بوصفي مواطنًا عاديا بل كشعب بأسره برهن قولاً وفعلاً ، على دعمه للصهيونية»[3] . وربما تعمّد قول ما ليس بصحيح راميًا من ورائه إلى إيهام وتضليل الحضور بشعبية عارمة للصهيونية في بلاده ، والحال أن لا وجود لها إلا في مخيلته .

ومن الناحية التنظيمية يوجد للجالية اليهودية في جنوب أفريقيا تنظيمان سياسيان فاعلان وهما : مكتب النواب اليهود في برلمان جنوب أفريقيا ، والاتحاد الصهيوني الجنوب أفريقي ، على أن أكثر ما تظهر خطورة هذه الجالية على العمل الإسلامي والمسلمين بجنوب أفريقيا ، في الجانبين الثقافي والإعلامي حيث : «تقوم المنظمات الصهيونية في جنوب أفريقيا ، بالتأثير على الحياة الثقافية فيها ، عن طريق تمويل

---

(1) مجلة العربي ع325 ، ص : 12 مرجع سابق .

(2) ينظر : أفريقيا لماذا؟ ص : 233 ، مرجع سابق .

(3) "العلاقات ما بين إسرائيل وجنوب أفريقيا" ، ص : 41 ، مرجع سابق .

المدارس اليهودية، والنفوذ في الصحافة التي يسيطر عليها اليهود بطريق مباشر «الملكية والتحرير» أو بطريق غير مباشر «بالإعلانات» ولذا فإن ميولها الصهيونية تقليدية متطرفة. ويملك اليهود هناك معظم أسهم الشركة المعروفة باسم الوكالة المركزية وهي أكبر دار للطباعة والنشر»[1]، والجالية الصهيونية ومن شايعها في جنوب أفريقيا وفي عموم أفريقيا يبذلون جهودًا كبيرة ومضنية لاستثمار الثقافة الدينية، بما يخدم أهدافهم، ويؤيد قضاياهم في القارة وغيرها، ولذلك تتخذ الصهيونية الآن من منطقة شرق أفريقيا مركز نشاط هام ومكثف بالتعاون مع المسيحية لتقليص المدّ الإسلامي على أطرافه، وهي في سبيل ذلك تفتعل صراعات دولية، وتقدّم مساعدات سخية لحركات التمرّد في القارة[2]، كما تعمل على تهجير أعداد كبيرة من رعايا بعض دول شرق أفريقيا إلى الكيان المحتل بدعوى الانتماء إلى العرق اليهودي تاريخًا وثقافة.

إنّ تحدي النشاط الصهيوني للإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا واقع لا محالة فيه، ولكنه باطل زهوق، يندفع بالحق، وبالأساليب والخطط الحكيمة المضادّة له، وتوظيف مختلف وسائله لمناوأته، وهي وسائل أشار الدكتور عماد الدين خليل في معرض حديثه عن هذا الخطر وغيره إلى بعض منها في قوله: «إن المتتبع لتاريخ العقود الأخيرة في القارة الأفريقية، يجد بوضوح أن قوى الاستعمار والتبشير والصهيونية بذلت كل محاولة ممكنة لوضع يدها هناك وتقدمت إلى القارة من كل مكان، من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب، جاءت إليها بالسفن والطائرات والقطارات السريعة، ... ونفخت في عقول أبنائها وقلوبهم بكل نشرة أو كتاب أو مساعدة اقتصادية، أو بعثة متبادلة، أو نشرة إخبارية، وكان الخطر يزداد يومًا بعد يوم بسبب ما هنالك من تعايش وتعاون متبادل بين هذه القوى الثلاث، رغم ما بين بعضها من عداء تقليدي وتاريخي»[3]. وإلى جانب هذه التحديات يوجد تحد من نوع آخر، ينطلق في

(1) العلاقات العربية الأفريقية، ص: 107، 108، مرجع سابق، نقله هو الآخر عن نعيم قداح من مقال له بعنوان: "العلاقات بين الكيان الصهيوني وجنوب أفريقيا".

(2) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 19، مرجع سابق.

(3) د: عماد الدين خليل: "الإسلام... والأفريقي المعاصر" ص: 42 من مجلة الوعي الإسلامي، ع115

نشاطه المذموم متظاهراً بالإسلام نحو غاية وأهداف تخريبية، وهي من أكبر وأخطر الأمور ضرراً بالإسلام والمسلمين، ويتمثل هذا النوع في:

د ـ **الفرق المارقة من الإسلام الخارجة على المسلمين**: وفي مقدمتها حركتا القاديانية والبهائية، وتعرف الأولى بأنها «حركة تبليغ عالمية، ذات قناع إسلامي ولكن حقيقتها غير ذلك، أسست عام 1900 بقاديان زمن الاستعمار الإنجليزي للهند في ظروف مشبوهة على يد المدعو ميرزا غلام أحمد الذي زعم أنه نبيّ تابع لرسول الإسلام وأنه المهدي والمسيح الموعود، وتلتقي الجماعة في أهم أفكارها مع مصالح الاستعمار، لاسيما قضية الجهاد»[1]، وهذه الحركة تعرف بالأحمدية أيضًا، وهي من أحبّ الأسماء إليها مع استنكار المسلمين لهذه التسمية تحوطًا من الالتباس الذي قد ينتج عنه بفهم نسبته إلى أحمد رسول الله ﷺ.

وهذه الحركة ذات طابع عالمي في تبليغها وتنظيمها، وتحظى باعتراف ورعاية بعض الدول الغربية ذات المصلحة في نشاطاتها الكيدية، ولها مراكز عالمية في كل من بريطانيا، وألمانيا، والكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وتشتمل هذه المراكز على معابد كبيرة ومكتبات، وقاعات للمحاضرات، ومحطات البث الفضائي المرئي والمسموع، ودور لإيواء الضيوف، ومطابع ضخمة لنشر دورياتها اليومية والأسبوعية والشهرية إضافة إلى مواقعها على شبكة المعلومات الدولية الإنترنت.

وقد تسللت في إطار حركتها التضليلية إلى القارة الأفريقية، فأنشأت عدداً من المراكز التبليغية وأقامت مستشفيات كثيرة، كما أسست مدارس عديدة لتقديم الخدمات الصحية والتعليمية مجانًا وللجميع دونما استثناء، ومن باب تقريب الصورة، فقد وصل عدد المدارس القاديانية في أفريقيا منذ عام 1984 إلى 349 مدرسة، تتوفر في بعضها أقسام داخلية للمنتمين إليها، تأمينًا للحاجة إلى المأوى والغذاء، إضافة إلى

س10، 1394هـ 1974م، القاهرة.

(1) عبدالرحيم برمو: القاديانية دراسة فكرية تحليلية نقدية، ص: 16، هي رسالة ماجستير أعدت ونوقشت بكلية الدعوة الإسلامية عام 1998م بطرابلس.

منح شهرية لتغطية المصاريف الشخصية الخاصة[1]، وتسعى من وراء كل ذلك إلى تشويه العقيدة في عقول البسطاء.

وعن انتشار هذه الجماعة في كينيا وخطورتها على العمل الإسلامي فيها، وفي غيرها كتب الدكتور يماني قائلاً: «توجد في كينيا أعداد من القاديانيين والبهائيين الذين يتلقون الدعم من الصليبيين واليهود على السواء، لدرجة أنهم أنشأوا ما يسمى «الجمعية الأفريقية الإسلامية اليهودية، في مدينة ممباسا والاسم وحده يوحي بمضمون وأهداف هذه الجمعية العجيبة»[2]، إن هذا لشيء عجاب، وعلى أي حال فإن هذه الجمعية الشاذة متهمة بالعداء للإسلام ممن ليس عندنا بمتهم، وحسبنا عقيدتها دليلاً على هذا العداء السافر.

والحديث عن هذه الحركة ونشاطاتها في منطقة شرق أفريقيا وما انحدر منها إلى الجنوب كثير وفائض، وإن كان يحظى بنصيب الأسد من تلك النشاطات كل من كينيا وتانزانيا، وجنوب أفريقيا[3]، فهذه الأخيرة بلغتها الدعوة القاديانية، وقامت فيها بترجمة معاني آيات مختارة من القرآن الكريم إلى اللغة الأفريكانية[4].

وتتمثل الخطورة البالغة في القاديانية المعادية في تمسحها الظاهري بلباس الإسلام وهو منها بريء، وتتذرع إلى هذا الانتماء المبتور بموافقتها لعامة المسلمين في الاعتقاد بأركان الإيمان الستة والإقرار بأركان الإسلام الخمسة، ويبقى الفارق الجوهري بين الطرفين في ادّعاء القاديانية استمرار بعثة الأنبياء بعد كمال الدين، وختم النبوة، وفي تعطيلها وإلغائها مبدأ الجهاد في الإسلام، إلى جانب قضايا أخرى هامشية أقل خطورة من السابقتين اللتين أدتا إلى تكفير القاديانية لأنهما من المعلوم من الدين بالضرورة.

والقاديانية في نشاطها الملحوظ لنشر عقيدتها الاستعمارية، تستخدم ضمن

---

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص: 223.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 128، مرجع سابق.

(3) ينظر: حاضر العالم الإسلامي، ص: 655، مرجع سابق.

(4) القاديانية دراسة تحليلية نقدية ص: 212، 221، والأفريكانية من أوسع اللغات انتشاراً في جنوب أفريقيا.

أساليبها المتنوعة، أسلوب الجدل والمناظرة، وتُعِدُّ كفاءات قادرة على الحوار والإفحام بالباطل لدحض الحق، وهذا عامل مشجّع للدعاة المخلصين بإعداد أنفسهم للدخول معها في حوارات جادة وملزمة، قضاء عليها ودرءًا للفتنة، ويتحتم هذا الإجراء حين نعلم حقيقة خطورة القاديانية طبقًا للصورة التي قدّمها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه: «القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام»، وفي قوله: «إن القاديانية تنشر في العالم الإسلامي الفوضى الفكرية، وعدم الثقة بمصادر الإسلام الصحيحة ومراجعه، وسلفه، وتقطع صلة هذه الأمة عن ماضيها وعن أعز أيامها وأفضل رجالها، وتفتح باب الأدعياء، والمتطفلين على مصراعيه وتسيء الظن بقوة الإسلام وحيويته وإنتاجه وتيئيس المسلمين من مستقبلهم»[1].

وإن مما يتعين على المسلمين والدعاة منهم خاصة، الوقوف بحكمة شاملة في وجه القاديانية التي يعتبر قبولها لمبدأ الحوار والمناظرة أعزّ ما فيها على الإطلاق وذلك فيما أرى، وإن سمة قابلية الحوار في القاديانية يشكل مدخلاً استثنائيًا لأداء واجب دعوي يفرض نفسه بشدة وإلحاح، ويتأكد هذا الدور حين نعلم: «أن بعض إخوتنا المسلمين في أفريقيا قد خدعوا حقًّا بهذه الفئة الضالة فاعتقدوا بذلك أنهم قد دخلوا في الإسلام، ولكن ما أن اكتشفوا حقيقة التضليل القادياني حتى قطعوا كل صلة لهم بالقاديانية، وتابوا إلى الله، وكان ذلك يحدث عادة كلما عمد أحد الدعاة الإسلاميين إلى تبصيرهم بحقيقة القاديانية وبراءة الإسلام منها، ومما تعتقده وتفعل»[2].

وأما البهائية فهي كذلك من صنائع أعداء الإسلام وحُلفائهم للعب دور مماثل ومكمّل لدور القاديانية، وكان أول ما ظهر في طهران عام 1260هـ بادعاء شخص اسمه محمد الشيرازي أنه الباب إلى المهدي المنتظر، وانتهى مصيره بالإعدام عام 1266هـ، وخلفه ميرزا حسين علي المازنداري الذي تدرّج في مقاماته إلى أن ادّعى

(1) نقلاً عن: د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص: 41، ط11، 1405هـ 1985م، مكتبة القاهرة.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 409، مرجع سابق.

الربوبية لنفسه، وراح يهذي بأفكار سخيفة، وعبارات ركيكة يريد بها بديلاً عن القرآن الكريم وشريعته الغرّاء[1].

ومما يدلّ على عداء البهائية للإسلام وكيدها له، وأنها حركة صهيونية، حملها لواء الدعوة إلى وحدة الأديان بصرف النظر عن صحتها وبطلانها، وطبيعة مصدرها، وتعاليمها، وقد تبلورت هذه الفكرة على يد ثالث أكبر دعاتها وهو عبّاس عبد البهاء الذي تولى أمر هذه الدعوة عام 1892م[2].

والبهائية باعتبارها انبثاقًا من الصهيونية، ووليدة من أولادها، فإنها قد ورثت من أمها معظم سماتها، ومعتقداتها، وأهدافها الرامية إلى إثارة القلاقل والخلافات، وإطفاء جذوة الحمية الدينية من نفوس المسلمين بإشاعة روح التحلل الديني والأخلاقي في الأوساط والمجتمعات المسلمة. وهي أمور تشترك فيها البهائية مع أمها الصهيونية وشقيقتها الماسونية، إذ تتفق جميعًا على مواجهة المسلمين بسيل من الأفكار المناقضة لتعاليم دينهم كإباحة الزواج بالمحارم، واشتراك رجلين في العقد على زوجة واحدة، والدعوة إلى إبطال الجهاد، وبدعوى أن الإسلام يستمد اسمه من السلام وهو ما يتنافى في زعمهم مع الجهاد، ولو بمفهومه الإسلامي الصحيح، إضافة إلى السعي لإلغاء القبلة، ووحدة التوجّه إليها، وتتحدد القبلة عندهم فقط بمقام البهاء ومقره، ولو كان في تل أبيب، كما أنهم يدعون إلى إبطال صلاة الجماعة، وكل ما يقوم على التجمع والاجتماع من العبادات في الإسلام، والتي ترمز إلى معاني القوة والوحدة بين المسلمين. وأيضًا يسعون جهدهم لترويج ما مفاده أن الالتزام بالدين والغيرة عليه مما يثير التعصب، ويخلق العداوة والشحناء بين الناس[3]، وليس لنا بعد هذا أن نستغرب وجود المركز الثقافي للحركة البهائية في تل أبيب عاصمة الصهاينة المحتلة.

---

(1) نفس المرجع والصفحة.

(2) ينظر: البهائية أداة الصهيونية لتحطيم قوة الإسلام، ص: 5، من صحيفة الدعوة الإسلامية ع: 690 بتاريخ 16 من ذي الحجة عام 1430 من ميلاده عليه الصلاة والسلام، طرابلس.

(3) ينظر: المرجع السابق والصفحة نفسها.

وبهذا لا يبقى مجال للشك في أن القاديانية والبهائية صنيعتان استعماريتان صممتا لضرب وحدة المسلمين على الصعيدين السني والشيعي، وزُودتا بشتى الوسائل والإمكانيات لتحقيق هذا الغرض الخبيث، وبما لهما من إمكانيات الإغراء والإغواء تنشطان في القارة الأفريقية نشاطًا ملحوظًا، ولاسيما في مجتمعاتها المسلمة، وبالأخص في أوساط الأقليات المسلمة، وفي مناطق حديثة العهد بالإسلام.

وللإخطار بما يتعرض له العمل الإسلامي في القارة الأفريقية من تحد صارخ من قبل هذه الجبهات المتآمرة في حملتها المسعورة والمشهورة يقول الدكتور: عبدالرحمن الماحي: «وإلى جانب النشاط التنصيري المكثف في أفريقية فإنه يوجد نشاط خطير للشيوعية والصهيونية، والبهائية والقاديانية، وغيرها من الحركات الناهضة للإسلام التي ما أنزل الله بها من سلطان»[1].

إنها حقًا لقضية هامة تستدعي من المسلمين تخصيص اهتمام أكبر وأوسع للمواجهة الواعية في سياق الدفاع عن الإسلام، وحماية وحدة المسلمين. على أن أيّ جهد في هذا الإطار يظل ناقصًا ما لم يجمع على نحو متكامل بين مهمتي مواجهة هذه التحديات، ومعالجة ما يعانيه مسلمو جنوب أفريقيا كغيرهم من مشكلات متعددة مما سنعرض لها في الآتي.

أهم مشكلات الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا:

عديدة هي المشكلات التي تعترض سبيل فاعلية ووحدة الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا، وهي من الكثرة بمكان يصعب معه تناولها جميعًا على نحو مفصّل، غير أنه بالإمكان إجمالها بتصنيفها إلى ثلاث مجموعات رئيسة، تندرج تحت كل منها تلك التي تنتمي إلى صنف واحد من هذه المشكلات. والتي تنحصر في مجموعة مشكلات تتصل ببعض أركان العمل الإسلامي وآلياته، وأخرى ناتجة عن ضيق وعاء الفهم الديني، وأخيرة، تتمثل في الخلط بين المأثور الديني والموروث الثقافي، وفي تفصيل غير ممل نوردها على النحو التالي:

---

(1) الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، ص: 259، مرجع سابق.

أ)- ما يتصل منها ببعض أركان العمل الإسلامي وآلياته : تتصدّر هذه المجموعة مشكلة تعليم اللغة العربية، والمعارف الإسلامية، إذ يلاحظ في مجال تعليم اللغة العربية في جنوب أفريقيا، مع قيام عدد لا يستهان به من المعاهد، والمؤسسات، والأقسام الجامعية أن الحاجة تدعو إلى المزيد من الأساتذة المتخصصين في مجال تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، ممن يحملون بإخلاص رسالة نشر اللغة العربية في البلاد، وترقية مستوى من توفّرت لهم فيها مبادئ أولية، وإقامة حلقات تربوية متصلة لتأهيل المعلمين والأساتذة المحليين، وتطوير أساليب تدريس اللغة العربية، وتغذية المناهج المقررة بشأنه، وذلك لكون اللغة العربية تأتي في مقدمة العوامل التي تسهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية، ولا سبيل بحال من الأحوال إلى فهم صحيح للإسلام إلا عن طريقها، ومن قواعد الأصول أن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» كما أنها هي الواسطة التي تربط بين المسلمين وعقيدتهم وتراثهم وتاريخهم وأيضًا بين بعضهم البعض أينما كانوا في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا الدور الأهم والأساسي للغة العربية يحاول المتآمرون شن حملات القضاء عليها لفك ما بينها وبين الدين من ارتباط متلازم وثيق.

ولشدة حاجة مسلمي جنوب أفريقيا إلى اللغة العربية فقد فرضت نفسها على الدكتور عبدالجليل شلبي مما قاده إلى اعتبارها المشكلة الكبرى في جنوب أفريقيا على الصعيد الإسلامي وذلك في قوله: «والمشكلة الكبرى هي اللغة، والمدارس القائمة لا تكفي، لأن التلاميذ يذهبون إليها بعد خروجهم من مدارسهم الحكومية، فيقضون ساعتين أو نحوهما، وقصارى ما ينالون منها أن يستطيعوا قراءة الحروف العربية، وأن يحفظوا شيئًا من القرآن»[1].

وفيما يخص مواجهة هذه الحاجة الملحّة وحل مشكلة اللغة العربية في جنوب أفريقيا فإنه ليس محلّ إنكار أن جهودًا طيبة ومشكورة قد بذلت للتغلب على هذه المشكلة من قبل جهات محلية وخارجية، ومن خلال أعمال علمية لشخصيات مسلمة، من أمثال

(1) معركة التبشير والإسلام، ص: 185، مرجع سابق.

الدكتور أيـوب جـدوت أحـد خريجي جامعـة قـاريونس الليبيـة الـذي أهـدى إلى مكتبة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية نسخة من كتابه المصنف باللغة الإنجليزية، والمنشورة من قسم اللغة العربية بجامعة دربان عام 1998م، بعنوان «تعليم اللغة العربيـة كلغـة أجنبيـة» والكتاب كمـا هـو بيِّـن من العنـوان: محاولـة علميـة لتسـهيل دراسـة اللغـة العربيـة لغير الناطقين بها، يهتم بـالقواعد والأسـاليب، ويعنى بالجـانب التطبيقـي مُكثِّفًا مـن الأمثلة المُعِينة على ذلك مزوداً بمصادر إضافية في هذا الشأن، مع اهتمام خاص بقضية الترجمة، مسعفًا من يهمهم الأمر بمقارنات أسلوبية، تضمن جودة الترجمة ودقتهـا، منبهًـا القـارئ إلى مالا يستغني عنه من يتصدى للترجمة من شروط تؤمِّن للمترجم الدقة والتوفيق فيمـا يرنو إليه، وينطلق المؤلف في عمله هذا من أهمية اللغـة العربيـة في عالمنـا المعـاصر، حيـث تطورت النظرة العالمية إليهـا باعتبارهـا لغـة حيـة إلى جـانب غيرهـا مـن اللغـات الأجنبيـة المشهورة والمتداولة عالميًا، فخرجت العربية بذلك من دائرة الإهمال، والنظرة المجحفـة في حقّها، لتكتسي أهمية عالمية على مختلف الأصعدة والمجالات[1].

واللافت للنظر؛ أن المؤلف في عمله هذا ذو توجّه إسلامي صادق، ينصب جهده في محيط خدمة العمل الإسلامي الواسـع، وهـو مـا ينكشـف للـدارس، لأول وهلـة، وبمجرد النظر إلى غلاف الكتاب الخارجي الذي تضمن الآيات الأولى من سورة العلق باعتبارها أولى ما نزلت من القرآن الكريـم في أول لقـاء للرسـول الأكـرم بملـك الوحـي عليهما السلام، وهذا الإيحاء الذي أراده المؤلف مثير جداً وله ما يعبر عنه.

وأظنّ أن أي مشكلة تثار في مجال تدريس اللغة العربيـة بجنـوب أفريقيـا هـي مـن جهة أخرى بمثابة الإشارة إلى مشكلة عامة تشمل التعليم الإسلامي برمّته حـين توضـع القضية في إطارها العام.

ولعلي بذلك في غنى عن الاسترسال في التنبيه إلى هذا الجانب، وحسبي فيه تلـك الرسالة التي بعث بها حديثًا مسلمو منطقة نيوكاسل بجنوب أفريقيا إلى جمعية الدعـوة

---

(1) ينظر: Ayoob Jadwat: Teaching of Arabic is a Fereign Langage University of Durban – Weatville.

الإسلامية العالمية معبرين فيها عن رغبتهم في الاستفادة من الخبرات التعليمية لكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، في إطار إرساء وتطوير أسس التعاون بين الكلية وبين مدرسة الأنصار في جنوب أفريقيا، طالبين من الجمعية كذلك تزويدهم بالكتب والمناهج المعتمدة في الكلية، للاستفادة منها في عملية الارتقاء بمستوى التعليم العربي الإسلامي في بلادهم[1]. وبالأخص في مدرسة الأنصار التي تضطلع بدور تعليمي ودعوي متكامل، وتعتبر بذلك صورة مصغّرة لكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس.

ولمواجهة هذه المشكلة التعليمية بنجاح، فإنه من الضروري جداً تخصيص منح دراسية لأبناء المسلمين هناك سنويًا للالتحاق بالجامعات والكليات الإسلامية خارج بلادهم. ومسلمو جنوب أفريقيا في أشد الشوق إلى أي مساعدة من هذا القبيل والتي طالما تطلعوا إليها وعبروا عنها في مختلف المناسبات، وبشهادة من الدكتور شلبي في قوله: «وقابلت الكثيرين الذين يتشوقون إلى الحضور إلى مصر، ليتعلموا في الأزهر على حسابهم الخاص، ولا يحمّلون الأزهر أي نفقة»[2]. ومن المؤسف أن تكون الجهات المعنية قد تجاهلت هذه الرغبة الدينية الشريفة، فلم تصادف استجابة تذكر من قبل من بيدهم الأمر، إذ لم تعرها تلك الجهات مع مسيس الحاجة إلا أقل القليل من اهتمامها، وهذا ما يشهد به واقع مؤسساتنا الإسلامية التي تكاد تخلو من طلاب من جنوب أفريقيا إلا فيما ندر، كما أن الاطلاع على قائمة الطلاب الممنوحين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، يعزز هذا القول إلى حد كبير. حيث إن نصيب جنوب أفريقيا من منح الجامعة الدراسية لعام 1395هـ 1975م، لم يتجاوز ثلاثًا من ستمائة وخمسين منحة دراسية موزعة على أبناء المسلمين في العالم[3]، وللعام المذكور وحده.

وبعد ثمان سنوات من التاريخ المتقدم نجد أن عددهم لم يتجاوز اثني عشر طالبًا بمنح أزهريّة، في قائمة تضمنت عدد الطلاب المقيمين بمدينة البعوث الإسلامية عام

---

(1) ينظر: صحيفة الدعوة الإسلامية ع717، ص: 1/ بتاريخ 28 جمادى الآخرة لعام 1430 من ميلاد الرسول ﷺ.

(2) معركة التبشير والإسلام، ص: 186، مرجع سابق.

(3) ينظر: مجلة الجامعة الإسلامية، ع1 ص: 173 س8، عام 1395هـ 1975م المدينة المنورة.

82/ 1983م حسب جنسياتهم[1]، وإذا كان هذا شأن الأزهر فما بال غيرها من المؤسسات الفتية الناهضة!!

وأيضًا إلى جانب مشكلة التعليم في مجال اللغة العربية والدراسات الإسلامية، تواجه مسلمي جنوب أفريقيا مشكلة قلة الكفاءات الدعوية المؤهلة للقيام بمهمة الدعوة الإسلامية في بيئة لها خصوصياتها، مما يحصر الحاجة في نوع خاص من الدعاة، تتوفر فيهم إلى جانب القدر اللازم من ثقافة الداعية، سعة الأفق، والقدرة على الحوار والمناظرة، والإلمام الشامل بالوسط الدعوي تاريخًا وواقعًا بمختلف تياراته، واتجاهاته، مع جديّة لا تفتر وإخلاص لا يقهر، وصبر لا ينفد؛ لسدّ ما نبه إليه الدكتور عبدالجليل شلبي من فراغ رهيب حين قال: «بوجه عام لمست في محيط المسلمين هناك فقرًا مدقعًا في التعريف بالإسلام وفي تعليم المسلمين، وهناك تعطش بالغ لسماع أي شيء عن الإسلام، وشوق بالغ لسماع القرآن»[2].

وإلى هذه المشكلات فيما أعتقد أشار الشيخ ديدات، في دعوته التي أطلقها إلى الدول الإسلامية، في صدد حديثه عن مشكلات المسلمين في جنوب أفريقيا، فقال مستنجدًا: «إننا بحاجة ماسة إلى مساعدة ثقافية تعليمية وعلى الدول الإسلامية، أن تساعدنا في هذا الصدد، بتزويدنا بعدد من المعلمين والعلماء والدعاة، وبكل ما من شأنه أن يعيننا على نشر الإسلام»[3].

ولعل أبرز ما يحتاج إليه المسلمون هناك في التغلب على هذا الصنف الأول من المشكلات هو مطبوعات اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، مع منح دراسية سنوية، وعدد كاف من خبراء التعليم والتربية الإسلاميين، ومن الأساتذة، والدعاة المؤهلين، وقد كان الدكتور النجار محقًا حين لخص المشكلة في عنوان مقاله فقال: مسلمو

---

(1) ينظر: مجلة منبر الإسلام، العددان جمادى الآخرة ص: 196 سنة 1403هـ مارس 1983، القاهرة.

(2) الإسلام في جنوب أفريقية، من مجلة الأزهر ج10، ص: 1117، س: 61، مرجع سابق.

(3) مجلة الأمة ع1، ص: 33، مرجع سابق.

جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال[1] .

ب)ـ **ضيق وعاء الفهم الديني** : في مجتمع من الأقليات لم تتوفر له أسباب القدر الكافي من التعليم الإسلامي كما هو عليه الحال في جنوب أفريقيا ، تثور عادة روح الخلافات ، وتظهر انشقاقات مذهبية بسبب ضيق وعاء الفهم الديني لدى الأغلبية الغالبة من هذه الأقلية التي التقت على هذه البقعة من غير ميعاد سابق ، لظروف مختلفة ، وأسباب كثيرة .

ومن القضايا التي تورِّث عادة خلافات فيما بينهم : تحديد المناسبات الدينية المرتبطة بحركة القمر وشهوده ؛ كتحديد بداية شهر رمضان ونهايته ، وغيره من المناسبات ، التي ينقسم المسلمون إزاءها إلى فريقين أو أكثر ، وقد اتفق في ستينات القرن العشرين أن اختلف مسلمو جنوب أفريقيا في شيء منها ، فأرسل أحدهم رسالة إلى مشيخة الأزهر يستفتيهم في إلزامية موافقة المجلس الشرعي المحلي في مثل هذه القضايا من عدمها ، حيث إن هناك من يعارض المجلس مقابل من يوافقه ، ويتذرع المخالفون للمجلس بأنه ليس مَنصَّبًا من حاكم ، أو حكومة مسلمة[2] .

وقضية ترجمة الخطب الدينية من العربية إلى اللغات المحلية هي كذلك إحدى الأمور التي تثير جدلاً واسعًا ، واختلافًا بيّنًا بين بعض الجماعة المسلمة في جنوب أفريقيا ، إذ يميل فريق منهم إلى اعتماد نظام اللغة المزدوجة في الخطب المنبرية ، بينما يكتفي معارضو هذا الفريق باللغة العربية وحدها . ولا يرون بالنسبة لمن يجهل العربية مانعًا من الانشغال بتلاوة القرآن أو بغيرها من جنس العبادة أثناء الخطبة ، ولكن بشرط الحفاظ على الهدوء ، وعدم إثارة الضوضاء ، وليس الخلاف بشأن شروط الإمامة أقل شأنًا من الخلاف في لغة الخطبة ، حيث يتشدد البعض إلى حد اشتراط حفظ القرآن الكريم كاملاً في الأئمة ، بينما لا يرى آخرون ضرورة ذلك ، ويكمن بعض خطورة

---

(1) ينظر : مجلة العربي : ع / 239 ، ص : 48 ، سبق ذكره .

(2) ينظر : فتاوى مجلة الأزهر ، ج7 ، ص : 887 ، س : 34 ، عام 1382هـ 1963 ، القاهرة .

هذه الخلافات الشكلية في أنها قد تقود أحياناً الأطراف المتنازعة فيها إلى مرافعات قضائية، والمثول أمام المحاكم للتقاضي بشأن قضايا مسجدية[1]، مما يمكن التوصل إلى حلها مسجديًا طالما سادت روح الوحدة، والأخوة والتسامح، والحوار.

ومن الهامشيات التي يختلف فيها أيضًا قضية جواز التصوير من عدمه، مسألة إعفاء اللحى بمقاييس معينة. وقد سجّل لنا الدكتور عبدالجليل شلبي في زيارته لجنوب أفريقيا موقفًا طريفًا ومضحكًا حصل له أثناء زيارته لجامع دربان الكبير وكان مما قاله: «استقبلني الإمام والمؤذن - وهما هنديان - استقبلاني شاكرين، وعند وقت الآذان لصلاة المغرب لم أجدهما، وفي اليوم الثاني علمت أن الإمام أفتى ببطلان صلاتي، وأمر الذين اقتدوا بي أن يقضوا صلاتهم، وسببُ ذلك أنني لا أصل لحيتي بقدر قبضة اليد»[2]. وبأتفه الأسباب كهذا يتفكك المسلمون ويتنازعون في أماكن مثل جنوب أفريقيا.

على أن مما يزكي الخلاف في الشكليات ضعف التوعية الدينية، وما يشيعه الأعداء في صفوف المسلمين من هامشيات تضعف شوكتهم، وتلهيهم عن معالي الأمور بسفسافها، كما أن من الأمور الصارفة لمسلمي جنوب أفريقيا عن قضاياهم المركزية والمصيرية التقيد بالتفسيرات المذهبية الضيقة، والتقوقع على عتبة الحواشي والقشور، دون الولوج إلى المتون، والجواهر، بعقلية حضارية ناقدة ووعي نافذ بحقيقة الدين وجوهره.

ولا شك في أن الخلاف أيًا كان نوعه؛ سواء في الفروع أم الأصول، هو في غياب روح الوحدة، وحسن النية أمر سلبي جدا وضار بالمسلمين، وجنوب أفريقيا من الأوساط التي تنشط فيها المذاهب والفرق بين الجماعة المسلمة، والتي يوجد من بينها من ينتمي إلى كل من المذاهب السنيّة المشهورة[3].

ومما لا ريب فيه أن للشيعة في جنوب أفريقيا حضوراً نشطًا، حيث إن إيران كانت قد دأبت على توجيه الدعوة لبعض الزعماء المسلمين، للاحتفال بذكرى الجمهورية الإسلامية

(1) Islam in South Africa P.P:104-1L4 Ibid.

(2) معركة التبشير والإسلام، والحاشية رقم 1 ص: 173، مرجع سابق.

(3) ينظر: التقرير المعنون بـ"دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا" ص: 5، 6، مرجع سابق.

على نفقتها، ومن خلالها تمارس التأثير الشيعي عليهم[1]، ومن الممكن أن نتصور مدى ما يمكن أن تحظى به الدعوة الشيعية من رعاية وتشجيع، خاصة، إذا علمنا أن ثمة علاقات ثنائية، رسمية متينة، تربط بين إيران وجنوب أفريقيا في المجالين الاقتصادي والثقافي، من خلال لجنة تعاون مشتركة تعنى بمتابعة تلك العلاقات وتطويرها[2].

ومن المعلوم أن مذهب الشيعة الإمامية الذي تتبناه إيران هو من أنشط الحركات في مجال الدعوة، وعلى اهتمام كبير بتوفير الكتب الدينية، ومنح الفرص الدراسية لتلقي المذهب الشيعي، وقد نجحت دعوته في استقطاب عدد كبير من الأتباع، وإقامة مراكز وبرامج متعددة، وهي الآن تنتشر انتشاراً واسعًا وسريعًا في كل من أفريقيا الشرقية والغربية، مع حضور ملموس في جنوب أفريقيا كذلك، بما يرافق هذا الانتشار من توسيع هوّة الخلاف بين المسلمين، وإثارة المزيد من الشقاق والتفكك فيما بينهم.

وللعوامل السابقة وغيرها تكثر الخلافات المذهبية بين مسلمي جنوب أفريقيا، ومع وجود رابطة وطنية عامة لجمع شتات المسلمين في البلاد، إلاّ أن شيئًا من هذا لم يحل دون انتصار ثقافة الاختلاف والتفرق بين من يجمعهم من الأمور أكثر مما يفرقهم.

وإن هذه الشكليات التي نراها هيّنة جدًا، أخذت تتعدّى حجمها الطبيعي لتلعب دوراً خطيراً هو أكبر مما يتوقع منها؛ حيث بدأت ظاهرة التكفير تلوح في الأفق المذهبي بين مسلمي جنوب أفريقيا، وقد قادت المذهبية إلى ما عبّر عنه أحد مسلمي البلاد قائلاً: «نحن معاشر المسلمين ينقصنا المعلمون الفاقهون، فبيننا أئمة هنود، وأئمة من أفريقيا، وأئمة يمنيون، وسعوديون، وكل له مذهب يدعو إليه، ويكفر الآخرين»[3].

وهذا من أوضح الاعترافات، وأكثرها شحذاً للاهتمام بمتابعة الوضع قبل أن يستفحل ويستشريَ إلى ما لا يحمد عقباه، والعياذ بالله.

---

(1) ينظر: أفريقيا لماذا؟ ص: 149، مرجع سابق.

(2) ينظر: صحيفة الفجر الجديد، ع: 9643، ص: 8 بتاريخ 23 جمادى الأولى، عام 1430 من ميلاد الرسول ﷺ، طرابلس.

(3) "الإسلام في جنوب أفريقيا، مجلة الأزهر، ج: 10/ 1117، س: 61، مرجع سابق.

ج)- مشكلات الخلط بين المأثور الديني والموروث الثقافي : لئن كنّا قد سجّلنا للمهاجرين من مسلمي شبه القارة الهندية إلى جنوب أفريقيا، بأنهم هاجروا مع عقيدتهم التي كانوا حريصين عليها، ممّا أدّى إلى إسهامهم في نشر الإسلام في موطنهم الجديد، فإن من تمام الحقيقة في حقهم، الاعتراف بأنهم قد حملوا معهم أيضاً عاداتهم، وأعرافهم التي اكتسبوها من بيئتهم الهندية ذات الثقافة البرهيمية، وغيرها من الثقافات الدينية والاجتماعية.

فكان من شأن ذلك أن يحدث خلطًا عندهم بين ما هو ديني، وما هو عرفي، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار أن معظم هؤلاء المهاجرين كانوا من العمال ممن يقل عادة إلمامهم بالدين، إلى جانب افتقار بيئتهم الجديدة إلى مؤسسات تعليمية ودعوية، تأخذ بأيديهم نحو الفهم الصحيح للإسلام، بعيداً عن شوائب العادات، ولوثات التقاليد الموروثة.

وقد تبدّت مظاهر هذا الخلط الذي انعكس على ممارستهم للعمل الإسلامي في جملة أمور، يمكن تحديد بعضها من خلال سلوكهم وموقفهم من القضايا التالية:

1 ـ قضية تغييب المرأة المسلمة عن أداء دورها الإسلامي : تتعرض المرأة المسلمة في أوساط المنحدرين من أصول هندية إلى تغييب شبه كامل، وهي في أحسن الأحوال لا يتعدى دورها في العمل الإسلامي كونه هامشيًا ودون أي تأثير كبير.

ولعلّ أصدق ما يؤكد هذا الطرح هو ما يلاحظ عند البعض من تغييب ومنع تام للنساء حتى من ارتياد المساجد والمشاركة في الصلاة، مع وجود أماكن مخصصة لهذا الغرض، وفي هذا يقول الأستاذ ديدات: «فبسبب عاداتنا، أو لسبب آخر لست أعرفه، فإننا قد جعلنا المساجد في هذا البلد قاصرة على الرجال، وفي معظم الأحوال لا يسمح للنسوة بدخول المسجد»[1]. وحتى لا يكون قوله مطلقًا على عواهنه، فإنه يعمل على توثيقه بضرب أمثلة واقعية لما ذهب إليه بقوله: «وفي مكان يدعى (إذا دويل) خصّص

---

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 106، مرجع سابق.

للنساء مدخل خاصٌّ، ومكان للوضوء، وحمامات منفصلة، ومصلّى خاصّ بهنّ، على نحو لا يسمح للرجال برؤيتهنّ، ولكن حتّى اليوم لم تدخل امرأة إلى المسجد، لأنّ أحد العلماء وقف ضدّ هذا بشدّة وقال: «إن هذا لن يحدث وسأتصدى له حتى الموت، ... والسبب هو التراث الثقافي الوافد معهم من قرى الهند»[1].

ومن جهته، فقد زودنا أحد زوار جنوب أفريقيا بشهادة مماثلة مع اختلاف المكان، حين كتب يقول: «... مدينة بريتوريا فيها مسجد كبير جميل وبمقربة منه المدرسة الإسلامية ومقر الجمعية، ومن عجيب أمره أن الإمام يمنع دخول النساء إليه، كما يمنع التصوير بالكاميرا أو الفيديو، وقد اضطرّني هذا أن اختصر محاضرتي به، لأنّ النساء كنّ في المدرسة ينتظرن سماع المحاضرة»[2].

واتفق ذات مرة أن استُقدمت داعية مسلمة من جامعة فرجينا الأمريكية عام 1994م واسمها «آمنة ودود محسن» لإلقاء درس في أحد المساجد قبيل خطبة الجمعة، وقد أثار هذا الإجراء والذي يبدو لي الأول من نوعه هناك ضجّة عارمة، وصيحة من قبل المنتقدين، فراحوا يستفتون العلماء من مصر والسعودية بشأن هذه الواقعة التي لقيت اهتمامًا واسعًا، وتغطية إعلامية مكثفة، عكست في عمومها ارتياح الرأي العام وتأييده لما رآه في هذا الحادث اللامسبوق من تطوّر مهمّ، في الفهم الديني عند مسلمي جنوب أفريقيا[3].

إنّ هذه الممارسات الخاطئة الناتجة عن سوء فهم الدين تعتبر من أضرّ الأمور بالعمل الإسلامي في هذه البلاد، التي هي أحوج ما تكون إلى حسن استغلال كل عُنصر مسلم لأداء واجب الرسالة الإسلامية، ومما لاشك فيه أن للمرأة المسلمة دوراً أساسيًا وحاسمًا في الأسرة وغيرها من المجالات الاجتماعية، حين يفسح لها المجال وتمكّن من بعض وسائل التبليغ، وتتوفر لها إمكانياته العلمية، وهذا كل ما يعوق المرأة المسلمة في جنوب

---

(1) المرجع السابق، ص: 107.

(2) ينظر: مجلة الأزهر ج8/ 1019 1120، مج 33 عام 1381هـ = 1962م القاهرة.

(3) Islam in south Africa pp: 40 – 42 Ibid.

أفريقيا عن النهوض بدورها الكبير، إذ هي على استعداد تام للتضحية في سبيل العمل الإسلامي، وهو ما نلمحه بوضوح ونلمسه بصدق منذ ستينيات القرن المنصرم في رسالة موجّهة إلى وكيل جامعة الأزهر من فتاة مسلمة من جنوب أفريقيا، وكان مما جاء فيها: «إنني إذ أكملت دراستي إلى مستوى الجامعة اضطررت إلى ترك منزلي طلبًا للمعرفة الإسلامية، نظرًا لأنّ النساء في بلدي جنوب أفريقيا جاهلات بأبسط مبادئ الإسلام إلى درجة فاحشة، والحق أنّ الإسلام كان ينتشر وما يزال ينتشر بدرجة هائلة، ولكن لا توجد امرأة واحدة تستطيع أن تطفئ الظمأ في قلوب آلاف من رفيقاتي إلى المعرفة الدينية... إنني على استعداد لأمنح حياتي كلّها للعمل على إنهاض الإسلام، ولكنني أريد فرصة لتهيئة نفسي»[1]. وهذه الأخت تمثل أنموذجًا لكلّ النساء المسلمات في جنوب أفريقيا في إحساسهنّ بأهميّة دور المرأة المسلمة في العمل الإسلامي، وخصوصًا في تنشئة من هم أبناء اليوم ورجال الغد. ومن سوء الحظ مع إخلاصها لدينها وإجادتها لعدد من اللغات ذات الأهمية الدعوية، أنها كانت قد زارت باكستان للالتحاق بمعهد وصفت مستواه بأنه كان بسيطًا جدًا، مما دفع بها إلى التنقل طوال ستة أشهر ما بين الأروقة والأعمدة على حد قولها؛ ترجو من علماء الهند تلقينها - على الأقل - القرآن الكريم وشيئًا من الأحاديث النبوية، ولكن كلّ الذين التقت بهم - مع الأسف - لم يحفلوا بها وإنما أعاروها آذانًا صمًّا، لسبب بسيط هو أنهم لا يرغبون في تعليم أمثالها من الفتيات.

وإزاء ما تعانيه المرأة المسلمة في جنوب أفريقيا من إغفال وإهمال لدورها مع خطورته كما وكيفًا، قال أحد من أسلم من المنصرين « فعندما كنت قسيسًا كنت أنا وزوجتي وأولادي كُلُّنا نعمل بانهماك في الدعوة المسيحية، وفي الإسلام نرى فقط الرجل... فقد حان الأوان لأن تصبح الأخوات داعيات إلى الإسلام حتى يكون النصف الآخر من المجتمع مشاركًا في هذا العمل»[2].

---

(1) ينظر: مجلة الأزهر ج8 ص: 1019 1120، مج 33 عام 1381هـ 1962م، القاهرة.

(2) من مداخلة الأخ موسى شلونكي في المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية في طرابلس ص: 138 في الفترة مابين 16.11 محرّم 1396 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

إنّ هذا التغييب ينسب إلى المسلمين لا إلى الإسلام، حيث تذكر المصادر التاريخية القديمة والحديثة عدداً غير قليل من النساء المسلمات البارزات في كافة أصعدة العمل الإسلامي: «وكان الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، يولي المرأة المسلمة عناية كبيرة، ويهتم بتثقيفها ورعايتها، لوعيه عليه السلام بمدى أهمية دورها وخطورته، وبهذا الدفع النبوي الكريم استطاعت أن تأخذ حقها كاملاً في المشاركة في الحياة العامة مع أخيها المسلم في مجالات العبادة، والعلم، والتعليم، والجهاد، والدعوة، والشورى وغيرها»[1]. وما يسجله تاريخ الدعوة المعاصر من دور رائد خالد لبعض النساء المهتديات إلى الإسلام من تحمّس وتفرغ للدعوة في مجتمعاتهن كتابة، وتبليغاً، لدليلُ صدق على موقف الإسلام من هذا الأمر، وما مثال الأخت الداعية مريم جميلة التي لفتت الانتباه في سعيها لإعادة التوازن والاعتبار لدور المرأة المسلمة، سوى أنموذج لفاعلية هذا الدور في العمل الإسلامي، وأهميته.

ومن هنا يدعو الدكتور أحمد شلبي إلى العناية بإنعاش هذا الدور، ولاسيما على الصعيد الأفريقي، وفي ذلك يقول: «ويتحتم على المسلمين وهم يضعون الأسس السليمة لرفع شأن الإسلام بأفريقية أن يوجهوا عناية كبيرة إلى المرأة الأفريقية، فالمرأة عمادُ الأسرة، ويوم تعرف المرأة الأفريقية الإسلام وحضارته وآدابه، ستنشئ أبناءها عليه، وممّا يذكر في هذا المجال أن الكنيسة عنيت بالمرأة الأفريقية في كثير من الأحوال، ودفعتها لشغل مكان بارز في المجتمع، وعملت لتُسند لها بعض الوظائف الهامة، ولتصبح عضواً واسع النشاط في بعض الأندية»[2].

2 ـ **تأثير الانتماء العرقي، والتعامل على أساس طبقي قبلي**: من مشكلات ذوي الأصول الهندية من الجالية المسلمة في جنوب أفريقيا، غلبة تأثير الانتماء العرقي على كثير منهم، وهذا الانتماء المتعصب يلوّث جوّ الأخوّة الإسلامية، ويعمل على

---

(1) الطالب: حمزة مايقا "نحو خطة شاملة للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر، ص: 70، بحث مخطوط لمعدّ هذه الرسالة.

(2) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6/ 724، مرجع سابق.

خلق الكثير من التوترات، والحساسيات النفسية والاجتماعية بين أبناء الأمة الواحدة، في بيئة هم فيها أقليّة مستضعفة. فعلى نحوٍ من الانتماء البغيض المتنافي مع الإسلام أصبح «المسلمون الهنود لا يحتكمون أو يضعون وزناً للمسلمين الملوّنين أو السود، ونفس الشيء بالنسبة للمسلمين الذين ينحدرون من أصول ماليزية لا يعتبرون علماء الدّين الهنود مرجعًا لهم»[1].

وأيضًا، مما يعكّر صفو علاقات الأخوة الإسلامية بين هذه الأقلية، تعامل بعض جماعاتها، وفق نظام طبقي قبلي، إذ يفرقون بين المسلمين في الزواج، ويتبعون النظام الطبقي المعتمد برهميًا واجتماعيًا في الهند.

وهذا من غير شك من الأمور المتناقضة مع الإسلام. وطبقًا لهذه الروح الموروثة فإنهم مع وجود أئمة أكفاء من الأفارقة والملاويين يستوردون الأئمة من الهند، ممّن لا يجيدون سوى لغة الأردو الهنديّة[2]، مما يقلل من أهميتهم وتأثيرهم الدعوي في جنوب أفريقيا.

ولعل هؤلاء القوم لم يفقهوا جيدًا تعاليم الإسلام في حسم هذه المسائل، ولم يفطنوا إلى ما قاله أحد الباحثين عن الأخوة الإسلامية إذ قال: «الأخوة الإسلامية ليست انفعالاً مبهمًا أو رابطة عصبية أو دعاية سياسية أو ديماغوجية إقليمية أو خيال شاعر أو حلم فيلسوف، ولكنّها روح الحياة الإسلامية في شمولها الإنساني ورسالتها الإصلاحية وصياغتها السويّة للمجتمع البشري، مبرأة من رياح التعصّب وظلم العنصرية وجفافها»[3].

3 ـ **الوصاية على المساجد**: يعتقد بعض من لا يتمتع بأيّ قسط من التعليم الإسلامي ممن لآبائهم دور كبير في بناء بعض المساجد، أن لهم حقّ التلاعب والتحكم في تسيير شؤون المساجد، إما بتعيين الأئمة وعزلهم، أو فرض إرادتهم على من

---

(1) دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 6، تقرير مرجعي سابق.

(2) ينظر: المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، ص: 136 137، طرابلس، مرجع سابق.

(3) الأستاذ: صلاح الدين الأيوبي: الإسلام والتمييز العنصري، ص: 162، مرجع سابق.

عينوهم من الأئمة، والذين غالبًا ما ينقادون لهم، ويرضخون لأوامرهم، التي ليس لهم أن يتجاوزوها، أو يخرجوا عنها قيد أنملة، وبذلك يبقون مقيّدين ومحصورين في نطاق ما تُملي به إرادة الجهلة من الأوصياء، وهو ما يفجّر خلافات ومشكلات تقود في أغلب الأحياء إلى المحاكم القضائية، للاحتكام في تلك المسائل.

وهذه في الحقيقة مشكلة من مشكلات الخلط بين ما هو دينيٌّ بما لا ينسجم معه من أعراف ثقافية واجتماعية موروثة.

تلكم كانت أهمّ التحديات والمشكلات التي تواجه العمل الإسلامي ويعاني منها المسلمون في جنوب أفريقيا، وقد حاولنا قدر الإمكان عرضها بإيجاز، ولكن الإطالة أبت إلا أن تفرض نفسها لأمرين اثنين:

1. الحرص على دقة تصوير الواقع بمشكلاته وتحدّياته، استنفاراً لكل من يعنيهم الأمر من أجل إسعاف العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، حتى يشق طريقه نحو النجاح وهو أشد ما يكون صلابة على مواجهة التحدّيات، وأكثر قوة وقدرة على تحقيق انتصارات متلاحقة.
2. إتاحة فرصة الاطلاع على هذه الساحة الدعوية بخصوبتها ومشكلاتها، ووصولاً إلى تقدير صحيح لما يضطلع به في رحابها قديمًا وحديثًا عدد كبير من الشخصيات والتنظيمات من دور عظيم؛ في سبيل النهوض بالعمل الإسلامي، والقضاء على كلّ ما من شأنه أن يعرقل حركة سيره من تحديات ومشكلات. ويتمثل عدد من تِلْكَ الشخصيات والتنظيمات فيما يتضمنه المبحث الآتي:

المبحث الرابع

من شخصيات وتنظيمات

العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا

تقديراً للدور التاريخي الكبير في تعاقب الأجيال على النهوض بواجب العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا قديمًا وحديثًا، وإشادة بكلّ من الإنجازات التي تحققت حتى الآن، إلى جانب الاعتراف بما هو قائم من تحدّيات ومشكلات، آثرنا تخصيص هذا المبحث لعرض ما تيسّر من شخصيات وتنظيمات، كنماذج نتبيّن من خلالها ضمنيًا ما طرأ على العمل من تطوّرات هيّأت للشيخ ديدات الذي أسهم في بعضها فُرَصًا للانطلاق، ولتحقيق ما عرف به من انتصارات.

وبالنسبة للشخصيات التاريخية فإن أوّل من يتصدّر اسمه قائمة الشرف هو - فيما علم - الداعية الأول إلى الإسلام في جنوب أفريقيا :-

1 ـ **الشيخ يوسف الجاوي الأندونيسي** : قدم من جاوة إلى مدينة الكاب بجنوب أفريقيا مع وفدٍ مرافق له من الأهل والأتباع عام 1667م على يد الاستعمار الهولندي، إذ كان قيد نفي المستعمرين هو ومن معه، ولمّا كان من أبرز الناشطين المقاومين ممن تصدّوا للاستعمار الهولندي لأندونيسيا، فقد عمل المستعمر على إجلائه بعيدًا عن مسقط رأسه، الأمر الذي كان خيراً للدعوة الإسلامية، وللشيخ كذلك، إذْ أتاح له الانتظام في سجلّ الخالدين بسبب ما بذله من جهود دعوية فور وصوله إلى منفاه بجنوب أفريقيا، وربما أسهم في تكوين وتعزيز هذا التوجّه الدعوي في نفس الشيخ يوسف ما وصف به من نفوذ عظيم، وأنه كان معلّم دين. وقد جاهد الشيخ في سبيل نشر الإسلام في البلاد حتى وفاته رحمه الله عام 1699م، وله ضريح يزار، ويعدّ مكانًا مقدسًا على حدّ قول توماس أرنولد(1).

وعلى الرّغم من قلّة المعلومات المتوفّرة عن الشيخ ودعوته، فإنّه يظل من غير شك في تاريخ انتشار الإسلام في جنوب أفريقيا، أحد أبرز عظماء الرّجال على مدى العصور.

2 ـ **الشيخ عبد اللّه هارون المناضل الشهيد** : كان رحمه الله زعيم مسلمي جنوب أفريقيا، ومن كبار الدعاة المناضلين فيها، وكان على حظّ من العلم،

(1) ينظر: ص: 56 73، عن تاريخ دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا من هذا البحث.

والإخلاص للعمل الإسلامي. قامت السلطات العنصرية باعتقاله، والزجّ به في السجن، بتهمة أنه نشر أفكاراً معادية للتفرقة العنصرية في صحيفة أنباء المسلمين التي كان يرأس تحريرها، إلى جانب استشهاده في المسجد بآيات من القرآن الكريم تنصّ على المساواة، والعدالة. وقد استشهد الشيخ داخل السجن في 27/ 9/ 1969م، وكان استشهاده حادثًا مهمًا ومؤسفًا في تاريخ جنوب أفريقيا. أثار امتعاض الكثير ضد النظام العنصري، ونال من التعاطف منتهاه من قبل أفراد المجتمع وفئاته على اختلاف الأديان والانتماءات السياسيّة؛ حيث قدّره الجميع وأثنوا على شجاعته، واستقامته، وتضحيته من أجل الحقّ، وقد تأثر أحد القسيسين بالحادث أيّما تأثر، فلجأ إلى الإضراب عن الطعام لمدة 67 يومًا في العراء على سفوح تل في كيب تاون، مطالبًا حكومة جنوب أفريقيا بإجراء تحقيق قضائي عادل ونزيه في استشهاد الشيخ عبد الله هارون.

وقد بادرت إحدى الكنائس في لندن إلى إقامة حفل تأبين للشيخ الشهيد، قال فيه أحد كبار الضيوف في رثائه للشيخ: «إن الرجال من أمثال الشيخ هارون سوف ينقذون عالمنا المعاصر من الشرور»[1].

وقد فات هذا المتحدث أن الشيخ كان يناضل بوحي من دينه القيم، وعلى هدي رسوله العظيم، في كلّ ما دعا إليه من حريّة، وطالب به من عدالة ومساواة وغيرها من المبادئ والقيم التي أثارت إعجاب وتقدير الجميع للشيخ الشهيد، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون.

والشيخ هارون بهذه التضحية النبيلة يعتبر مثالاً بارزًا لمشاركة الجالية المسلمة في المقاومة ضدّ نظام الميز العنصري البغيض في جنوب أفريقيا، وفي السنوات التي شهدت غليانًا سياسيًا صاهرًا، ولعله من أبرز من كان الرئيس مانديلا يستحضرهم في ذاكرته حين قال تقديرًا لنضال المسلمين: «تستطيع بلادنا أن تعلن وبفخر أن المسلمين إخوة وأخوات رفقاء مقاتلون من أجل الحرية، وزعماء جاهزون هنا في بلادنا. . لقد كتبوا

---

(1) ينظر: واقع ومستقبل الجالية الإسلامية في جنوب أفريقيا، ص: 41، مرجع سابق.

أسماءهم بالدّم والعرق على قائمة الشرف»[1].

ومن الأمور ذات الدلالة أن أجهزة الإعلام الغربي رغم ما كانت تقوم به من تغطية واسعة لأحداث وتطوّرات جنوب أفريقيا في مرحلة انفجار النضال التحرّري؛ إلاّ أنها سحبت الستار على دور المسلمين في التعبئة والمقاومة، وبذلك يتهيأ القول: «بأن الإعلام الغربي تعمد تغييب الدور الإسلامي وغضّ الطرف عن عشرات الشهداء المسلمين الذين سقطوا برصاص الشّرطة العنصرية ولم يَرَ من الأحداث سوى وجهها الصليبي الذي يمثله القس دزموند توتو[2]».

وقد أشاد الدكتور عبدالجليل شلبي بعظيم دور الشيخ عبدالله هارون، وما خلفه استشهاده من فراغ شاغر فقال: «... وأحدث سجنه ثم موته فراغًا واسعًا في ميدان الدعوة الإسلامية، ثم خلّفه ابنه محمد هارون، وهو دون أبيه نشاطـًا وعلمـًا وحماساً[3]». عوّض الله عنه الأمة خيرًا، وأسكنه فسيح جناته.

3 ـ **الإمام أبوبكر النجار**: وهو من أبرز دعاة وأئمة جنوب أفريقيا المعاصرين، وكان والده قد نزح من السعودية إلى هذه البلاد، وتزوّج من أهلها، ويعدّ الشيخ أبوبكر من مشاهير علماء المسلمين، وله مؤلف يقع في جزأين بعنوان: «أنا مسلم»[4] وقد ترأس المجلس الوطني الإسلامي لجنوب أفريقيا، وهو على جانب كبير من العلم والنشاط الدّعويّ. الأمر الذي نال إعجاب أحد الزوّار فقال في وصفه: «نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية موفور، ويتمتع بحريّة لم يتمتع بها أسلافه الدعاة»[5].

---

(1) من كلمة الرئيس مانديلا في الاحتفال بعيد الفطر في صحيفة الدعوة الإسلامية ع579، ص: 1 مرجع سابق، طرابلس.

(2) المسلمون في جنوب أفريقيا يحاربون التمييز العنصري، مجلة الأمة ع62، ص: 86، س: 6، عام 1406هـ 1985، قطر.

(3) معركة التبشير والإسلام، ص: 183، مرجع سابق.

(4) ينظر: د. عبدالله نجيب محمد: "حصاد الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا" ص: 136 من مجلة الأزهر، س62، 1410هـ 1989م القاهرة.

(5) معركة التبشير والإسلام ص: 183، مرجع سابق.

4 ـ **الأستاذ إسماعيل عبدالرزاق :** كان مقيمًا بالقاهرة عام 1966م، يحاضر في اللغة الإنجليزية بالدراسات العليا بجامعة الأزهر، وفي الوقت ذاته كان يعمل على إعداد أطروحته للدكتوراه من كلية أصول الدّين عن التفرقة العنصرية، وهو من العناصر الفاعلة على ساحة العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، حيث كان رئيسًا لحركة الصدق العالمية المتخصصة في ترجمة معاني القرآن الكريم[1].

5 ـ **الشيخ يوسف هيشم، داعية السجون :** عضو جمعية الدعوة الإسلامية بجنوب أفريقيا، وهي إحدى الجمعيات المحلية النشطة في البلاد؛ حيث استطاعت أن تسجّل لنفسها سمعة طيبة في الأعمال الخيرية، والشيخ من أبرز دعاتها، وقد اختار لنفسه القيام بواجب العمل الإسلامي في السجون، فوهب حياته لخدمة السجناء ومساعدتهم، وأنشأ لهذا الغرض في كل مدينة جماعات من المتطوعين للإسهام معه في هذا المجال الهامّ، يقوم عملهم على إعطاء حق الرعاية الدينية للسجناء داخل السجن، وتمكينهم من الحصول على أعمال يزاولونها بعد الإفراج عنهم، مع تقديم العون والدّعم الكافي لأهلهم طيلة فترة سجنهم، وكان تعرض الشيخ للحبس عام 1979م وقضائه شهرًا كاملاً، مما مكّنه من الاطلاع على التعاسة والمعاناة التي يعيشها السجناء في جنوب أفريقيا، فقاده إلى اتخاذ هذا المنهج، والتفرغ للعمل في هذا المجال[2] الذي يفتقر إلى ما يستحقه من اهتمام في السياق العام لمنظومة الخطاب الدعوي المعاصر.

6 ـ **الإمام عبدالرشيد عمر 1959م :** داعية موهوب، تلقّى جزءاً من دراسته بالمركز الإسلامي الأفريقي في السودان، وهو حامل لكتاب الله الكريم عن ظهر قلب، وحائز على درجة الليسانس في التاريخ الأفريقي، والاقتصاد، وعلى الماجستير في مقارنة الأديان من جامعة كيب تاون، فهو رجل قد جمع بين الإمامة، ومهمّة البحث العلمي، وله اهتمامات ومشاركات في تنمية حوار العقائد المختلفة، وبالتربية والتعليم الديني في جنوب أفريقيا، وكان لنشاطه المتعدّد، إلى جانب سعة أفقه وعصريته دور

---

(1) ينظر: مجلة الأزهر، ج554، 496 س38، مرجع سابق.

(2) ينظر: مجلة العربي ع497، ص: 147 148، مرجع سابق.

رئيس في محاولة تفعيل دور المسجد والمسلمين سياسيًا وأكاديميًا، الأمر الذي لم يسلم معه من انتقادات المعارضين ممن وجدوا في توجهاته، ونشاطاته مثار الاتهام بالتبديع، والخروج عن المألوف الديني[1]، وذلك في فهمهم القاصر، وضيق أفقهم الديني.

هذا . . ومن أبرز الشخصيات المسلمة في البلاد البروفسور سليمان الندوي رجل المؤلفات العديدة، والدور الفعّال في نشر رسالة الإسلام، وهو حاصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو، ويعمل رئيسًا لقسم الدراسات الإسلامية في جامعة دربان[2]. إضافة إلى عدد من البارزين أيضًا من أمثال الأستاذ عبدالقادر طيوب، مؤلّف كتاب: «الإسلام في جنوب أفريقيا: المساجد، الأئمة والخطب»، والأستاذ أيوب جدوت صاحب كتاب: «تعليم اللغة العربية» وكلاهما بالإنجليزية.

وغير هؤلاء كثير ممّن لا يدخلون تحت حصر، وهم على قدر كبير من النشاط والأهمية؛ إذ لم يدخروا وسعًا في تنمية وتطوير العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، ولكن ضخامة التحدّيات التي يواجهها العمل الإسلامي هناك وفي غيره، هي أكبر وأقوى من أن يتصدى لها أفراد مهما كانت درجة نشاطهم وإخلاصهم، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى التنظيمات والمؤسسات، مع بقاء أهمية دور الأفراد قائمًا، وإن كان قاصرًا بمفرده عن إشباع متطلبات العمل الإسلامي في هذه البلاد.

وبظهور المؤسسات في طور جديد من أطوار العمل الإسلامي؛ أخذت تسهم إسهامًا فعّالاً في نشر دعوة الإسلام، وترسيخه من جانب، وفي مواجهة التحديات والمشكلات من جانب آخر، حيث إنها تسخّر أموالها وجهودها في سبيل العمل الإسلامي في مختلف مجالاته من دعوة، وتعليم، وإعلام، وخدمات اجتماعية، وإصدار كتب ومنشورات إسلامية، وعقد ندوات علمية وحوارات دينية وملتقيات عامة، وحضور سياسي فاعل وغيرها من المجالات الهامة.

---

(1) See: Islam in sou the Africa P.P- 110 – 112 Ibid.

(2) ينظر: مجلة الأزهر ج2، ص: 136، س62، مرجع سابق.

ومن الجدير بالإشارة إليه، في فاتحة الحديث عن التنظيمات والمؤسسات الإسلامية في جنوب أفريقيا أنها بلغت من الكثرة مبلغًا جاوزت به مائة وثلاثين جمعية إسلامية ما بين عامة ومتخصصة[1]، ترتبط فيما بينها بعلاقات تعاون وتكامل، كما أن عدداً كبيراً منها ينتظم تحت إشراف وتوجيه المجلس الإسلامي الوطني. وقد أورد أحد الدعاة قائمة باثنتي عشرة مؤسسة اعتبرها التشكيلات الرئيسة التي تتكون منها الحركة الإسلامية في جنوب أفريقيا، حشر فيها جمعيّات عامة، ومتخصصة، شبابية، وطلابية، إلى جانب مؤسسة صحفية وتعليمية تكوينية، إضافة إلى صندوق الزكاة الوطني بجنوب أفريقيا[2]، والملاحظ على مجموعته التي أوردها أنها خالية من المجلس الإسلامي الوطني الذي يشكل إطاراً جامعًا لمعظم هيئات وفعاليات العمل الإسلامي في البلاد، ولا ندري مسوّغ هذا الإغفال، فضلاً عن مستنده في هذا الحصر الكمي، إذ لا يبرر شيئًا من هذا أو ذاك.

ونظراً لأهمية هذه المؤسسات من جانب، وكثرتها من جانب آخر، مما يجعل احتمال عرضنا الجامع لها غير واردٍ، فإننا سنكتفي بانتقاء ثلاث من أبرزها وأفعلها، تاركين لغيرنا مهمّة التأمل في تبرير هذا العرض الانتقائي، والذي قد يبدو للبعض تحيّزًا بلا مبرر.

تتمثل تلك المؤسسات في الآتي:

1 ـ **الجمعية الطبية الإسلامية**: أنشأها عدد من الأطباء المسلمين في جنوب أفريقيا في مطلع سبعينيات القرن العشرين الإفرنجي بعد أن ائتمروا، وعقدوا العزم على الاهتمام بصحة المسلمين وتقديم الخدمات اللازمة للمعوزين، والمعدمين، وكان قصدهم يتمثل في تقديم خدمات تطوعيّة من غير مقابل ودون اعتبارٍ لفوارق الدين أو اللون. وقد تسمّوا في بداية أمرهم بـ«لجنة الأطباء».

وبعد عشر سنوات من تأسيسها تسمّت باسمها الحالي «الجمعية الطبيّة الإسلامية».

---

(1) ينظر: مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال، العربي ع ص: 49 مرجع سابق.

(2) ينظر: التقرير الوارد بعنوان: دراسة مبدئية عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 3-4، مرجع سابق.

وقد توسعت مع الزمن، وانضم إليها ما يبلغ 1500 عضو من الأطباء، فأنشأت بذلك مالا يقل عن 25 فرعًا في مختلف أرجاء البلاد، بعد نجاح باهر في ميادين كثيرة.

فهي تقدّم خدمات في مجال البحث الطبي والصحة العامة والتعليم، وتتواصل مع منظمات طبية خارجية في كل من أفريقيا، وآسيا، وأمريكا، وترتبط بصلات متميّزة مع معاهد صحيّة، وكلّيات طبيّة، ومستشفيات في كل من أندونيسيا، والأردن وباكستان، والسودان، كما أن لها صلات وطيدة بلجنة مسلمي أفريقيا الكويتية.

ويتمثل بعض أنشطتها العامة طبقًا لمنشوراتها في العناصر التالية :-

1 - إصدار ونشر كتب ومذكرات حول قضايا طبيّة من وجهة نظر الإسلام إليها، ومذكرات تتناول مرض فقدان المناعة، والصحة الرمضانية.

2 - إجراء بحوث طبية حول العسل، وفائدته لجسم الإنسان، وما يحتويه من منافع.

3 - عقد ندوات علمية لدراسة موضوع: الأطفال في الإسلام، والمخدرات، والإجهاض، وغيرها.

4 - المشاركة في الملتقيات الدولية والمؤتمرات، والقيام بتوزيع منشورات طبيّة خلالها على المشاركين تتصل بالموقف الإسلامي من القضايا الطبيّة.

5 - تنظيم حلقات مناقشة لعدد من الظواهر الاجتماعية المؤثرة على المجتمعات المسلمة والإنسانية عامة مما يدخل في نطاق الصحة العامة، ومجالات الطب.

6 - إقامة مؤتمرات سنوية، يدعى إليها ضيوف من الخارج للمشاركة، إلى جانب أطباء محليين وعالميين مع مجموعة من خبراء الطبّ والباحثين في مختلف تخصصاته.

7 - القيام بأعمال الإغاثة، ونجدة المنكوبين بتقديم مساعدات طبية، وماديّة إن لزم الأمر، وقد حظي كل من الصومال وموزامبيق بشيء من ذلك.

8 - التنسيق والتعاون مع قسم الصحة الوطنية في جنوب أفريقيا في مجال التوعية الصحية ببيان خطورة مرض فقدان المناعة، وما يترتب على تعاطي الكحول والمخدرات من آثار وأضرار.

9 ـ الاهتمام بتطعيم الحجاج والمعتمرين القادمين من مختلف مناطق البلاد، وبالأخص من مدينتي دربان والكاب الغربية.

10 ـ تغطية برامج إذاعية عن التوعية الصحية من خلال حوارات ومناقشات مفتوحة.

11 ـ تنفيذ مشروع عيادات متنقلة في المدن والقرى المحتاجة، وذلك منذ عام 1974م، وقبل قيام الدولة بتبني هذا النوع من المشاريع، كما عملت الجمعية على تأسيس عيادات أخرى ثابتة في عدد من المناطق تُعنى بطب الأسنان، والصحة العائلية(1).

ومن الطموحات التي تراود الجمعية وتشغلها كثيراً، مشروع إنشاء مستشفى إسلامي مركزي وكبير في جنوب أفريقيا بكافة التخصصات الطبّية، والتجهيزات اللازمة، وهو مشروع دعوي عظيم يستحق تضافر الجهود المسلمة، فرديًا وجماعيًا، محليًا ودوليًا، في سبيل إنجازه.

2 ـ **شبكة الدعوة لمنطقة الجنوب الأفريقي**: وهي من المؤسسات الفاعلة محليًا وإقليميًا، إذ لا تنحصر جهودها وأنشطتها في الإطار الوطني لجنوب أفريقيا فحسب، بل وإنما تشملها، وغيرها من دول المنطقة والتي تسعى هذه المؤسسة جاهدة لتستوعبها بنشاطها الإسلامي المكثف، ومما يميّز هذه المؤسسة عن كثيرة من المؤسسات المحليّة هو شمولية كل من الدائرة الجغرافية بنشاطها، وتنوع مجالات اهتمامها العملي الجامع، وذلك على نحو يوحي بأنها تحرص على ترسّم خطى المؤسسات الإسلامية البارزة ذات الشهرة العالمية، والتجربة الواسعة وربما أمكن القول بأنها تأثرت في منهجها العملي الجامع بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الجامعة بين كافة المجالات التي تخدم العمل الإسلامي، وتنفع المسلمين، وهو ما يتضح من خلال الإطلاع على أبرز أنشطة هذه الشبكة الإقليمية في مجال الدعوة الإسلامية والتي يتمثل أهمها في الآتي:

---

(1) معلومات صادرة من إحدى المطويات الإعلامية المنشورة من الجمعية الطبية الإسلامية، دون بيانات توثيقية يعوّل عليها للمراجعة.

1 ـ تعيين الدعاة إلى الإسلام، بتخصيص رواتب شهرية لهم، مقابل تفرغهم لما عُيّنوا له.

2 ـ بناء المدارس، وإنشاء مراكز إسلامية، مرفقة بأقسام داخلية للطلاب المنتظمين بها.

3 ـ إعانة الطلاب المحتاجين من أبناء المسلمين بدفع الرسوم الدراسية عنهم في الجامعات والمعاهد، إلى جانب عقد حلقات دراسية لهم في أوقات فراغهم، لتزويدهم بالثقافة الإسلامية وتعميق فهمهم للإسلام.

4 ـ بناء المساجد وترميمها، وحفر الآبار الارتوازية في المناطق الفقيرة.

5 ـ طباعة وترجمة ونشر الكتاب الإسلامي بالإنجليزية واللغات المحلّية.

6 ـ كفالة الأيتام والفقراء، وتوزيع المواد الغذائية، والملابس، والأضاحي على المحتاجين، وتوفير الخدمات الصحية لهم بتوظيف أطباء مسلمين لهذا الغرض.

7 ـ إقامة دورات تدريبية، وملتقيات تثقيفية، لتزويد الدعاة بالجديد المفيد رفعاً لمستواهم الفكري، وضماناً لتأثيرهم العملي.

8 ـ إغاثة اللاجئين المتدفقين على جنوب أفريقيا من مختلف أنحاء القارة لظروف وأسباب كثيرة، وتوفير ما يلزم، ويحول دون اختطافهم من قبل الإرساليات التنصيرية المغرية.

9 ـ تنسيق العمل الإسلامي بين مختلف الهيئات الإسلامية المحلية والعالمية، وتبادل الزيارات مع مختلف الهيئات الإسلامية[1].

وفي ضوء هذه الأنشطة فإن الشبكة قد اشتهرت بخوض عدد من التجارب الناجحة، من خلال برامجها الآتية:

آ ـ أقامت الشبكة عدداً من الدورات التربوية للمعلمين بداية من 1994م، هادفة من ورائها إلى خلق أجواء اللقاء لتبادل الخبرات، والنظر المشترك في إمكانيات التجانس والمواءمة بين المنهج الإسلامي، والوطني في مدارس جنوب أفريقيا.

---

(1) ينظر: إحدى المطبوعات الإعلامية التي تنشرها الشبكة باللغة العربية في عدد قليل من الصفحات للتعريف بنفسها، وبأبرز أنشطتها.

ب ـ عقدت الشبكة عدّة مخيمات ونـدوات تثقيفية في مجـال الدراسـات القرآنيـة والسنة، والفقه الإسلامي، وكلّ ما يتصل بالثقافة الإسلامية عمومًا.

ج ـ تكفّلت الشبكة برعاية وكفالة ما يقـدّر بمائة طـالب بمنحهـم مِنحًا دراسية مجزية، ودفع رسومات الدراسة عنهم، وتكاليف السكن، ومصـاريف المواصلات، والمقررات الدراسية، وتوزيـع هـؤلاء الطـلاب في مختلـف الجامعـات المحليـة، وفي الجامعتين الإسلامية بالسودان، ويوغاندا. وإلى جانب هذا الدّعم تقوم الشبكة بتنظيم حلقات دراسية للأخوات المسلمات، ولمن يتمتّعون برعايتها من الطلاب الممنوحين. إلى جانب إقامتها بين الفينة والأخرى دورات في العلـوم الشرعية يشارك فيها طلاب موفدون من مختلف مؤسسات التعليم الإسلامي في البلاد، كما يحضرها عـادة ضيوف أجانب من الشخصيات والمنظمات العاملة في حقل العمل الإسلامي على الصعيد العالمي، ويضاف إلـى مـا ذكر مـن أعمـال الشبكة عنايتها بالعمـال والحرفيـين والإداريين، بتزويدهم بمعلومات مفيدة ومساعدة لهم على مواجهة أعباء الحياة، وظروف المجتمع، وتعميق صلتهم بدينهم وثقافتهم فيصبحوا بذلك دعاة غير محترفين يمارسون العمل الإسلامي من خلال مهنهم ووظائفهم التي تتيح لهم فرص اللقاء والتفاعل مع شريحة عريضة من مجتمع جنوب أفريقيا.

د ـ وُفّقت الشبكة في إقامة عدد من المراكز الإسلامية المتواضعة، وتتكون عادة من مسجد صغير مرفقٍ بمدرسةٍ لا تتعدى غالبًا ثلاثة فصول دراسية، لتدريس القـرآن الكريم، والحديث، والعقيدة، والفقه، والتفسير، والسيرة، وغيرها، مع سكن للمدرسين، والضيوف الزائرين.

وينتظم في عداد هذه المراكز مركز «فيرولام» للفتيات المسلمات، والدراسة فيه لمدة ثلاث سنوات، يتعلّمن فيه العلوم الإسلامية، ويتدرّبن على مهارات وفنون الخدمات المنزلية، والاجتماعية، على أن أنشط هذه المراكز التابعة للشبكة هو فيما أظن مركز الفرقان الإسلامي الذي ينشط في مجال العمل الإسلامي في السجون على شاكلة

ما يقوم به داعية السجون: الشيخ يوسف هيثم ومن معه من دعاة تابعين لجمعية الدعوة الإسلامية في جوهانسبرج، كما يُعنى المركز بإلقاء محاضرات في المعاهد العليا، وتوزيع كتيبات إسلامية، ومزاولة العمل الإسلامي في زيارة المنازل، ومن خلال الدعوات العائلية على غرار ما يفعله المنصرون في أوساط بعض المجتمعات المسلمة.

هـ ـ تُولِي الشبكة اهتمامًا فائقًا للزيارات الميدانية، وتتجشّم في سبيل ذلك مشاق السّفر عبر آلاف الأميال إلى المناطق الواقعة في نطاق عمل الشبكة لتفقد أحوال المسلمين، والوقوف على واقع العمل الإسلامي، في إطار السعي الدائم لتوطيد العلاقة مع المدرّسين، والدعاة، والمراكز والمؤسسات القائمة في تلك المناطق، وتقديم ما تدعو الحاجة إليه من مساعدات في مجال الدعوة والإرشاد، ولإصلاح ذات البين، في المناطق التي تثور فيها أحيانًا نزاعات بين المسلمين.

وللأخوات المسلمات أيضًا مشاركة في برنامج الزيارات الميدانية المحدودة في الأوساط النسائية، وذلك للوقوف على مشكلاتهن والمساعدة في الوصول إلى حلول مناسبة لها.

و – للشبكة عناية بالغة باستخدام الجانب الإعلامي في عملها الإسلامي، سواء عن طريق الصحف الدورية التي تنشط في توزيعها مجانًا بواسطة محطّات تابعة للشبكة، أم من خلال برامج الدراسة بالمراسلة في تخصّصٍ يجمع بين المواد الإسلامية، وموضوعات الإسلام وأساليبه[1].

وبهذا يتأكد ما أومأنا إليه من تميّزٍ لهذه الشبكة في توسعها الإقليمي، وتنوّع مجالاتها العمليّة.

3 ـ منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا: هي إحدى المنظمات المحلية التي تتمتع بنفوذ داخلي كبير، وشهرة خارجية واسعة من خلال علاقات

(1) ينظر: بشأن المعلومات السابقة، حولية شبكة الدعوة لمنطقة الجنوبي الأفريقي لعام 1997م 1996م بالإنجليزية.

التعاون التي تربط بينها وبين عدد من المؤسسات القيادية في حقل العمل الإسلامي، وقد اعتبر فيما سبق تأسيس هذه المنظمة من أبرز تطورات المرحلة الرابعة من تاريخ العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، وذلك في سبعينات القرن العشرين، حيث غطّت بنشاطها الفاعل مختلف مناطق البلاد بشبكة من الفروع، بلغت خمسة وعشرين فرعًا، وقفزت من جانب آخر بعلاقاتها الوثيقة خارج حدود البلاد لتتحالف مع مراكز شبابية في عدد من الدول المجاورة، وخاصة في موريشيوس، وبتسوانا، وناميبيا طبقًا لما يمليه عليها شعارها من مبدأ «كل المسلمين إخوة»، وتنفيذًا لسياستها في الصداقة مع الجميع دون تفريط في المبادئ، وبفضل جهدها وتعاونها استطاعت أن تحرز قدرًا كبيرًا من النجاح، وتحقق عددًا من الإنجازات المحلّية، مثل إنشاء مؤسسة الزكاة، ومعسكر الشباب، ومؤسسة علاجيّة[1]، وإليها يعود الفضل بتوفيق من الله تعالى في إنشاء أوّل مركز إسلامي للشباب المسلم، وأولى مكتبة إسلامية في جنوب أفريقيا[2].

ومن مميزات منظمة حركة الشباب تركيزها على الأشخاص الأكثر وعْيًا، وخاصة من شباب المدن. وتستخدم لتحقيق أهدافها الإسلامية عدة وسائل إعلامية، وبرامج عملية، الأمر الذي أتاح لها شرف إحداث نقلة نوعية في مسيرة الدعوة الإسلامية في البلاد، حيث كانت الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا مركزة لأكثر من قرن من الزمان على إنشاء المساجد وفتح المدارس في أوساط المسلمين، دون اهتمام ملحوظ بجانب الدعوة بين غير المسلمين، وما أن ظهرت حركة الشباب المسلم في السبعينات حتى هبّت مع غيرها من المؤسسات لتنظيم برامج وعمليات نشر الإسلام بين مختلف من تستوعبهم صفة غير المسلمين[3].

ولعلّ في الحواجز العرقية المقنّنة، ما يكفي لتبرير ما شهده العمل الإسلامي من فتور، قبل ظهور منظمة حركة الشباب بسبب القصور والعجز عن تجاوز العقبات،

---

(1) ينظر: "حصاد الدعوة في جنوب أفريقيا" مجلة الأزهر ج2/ 136 س62، مرجع سابق.

(2) ينظر: "شؤون العالم الإسلامي" مجلة حضارة الإسلام، ع9، ص: 107، س: 4، 1383هـ 1964م دمشق.

(3) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، 210، مرجع سابق.

وبذلك ينتفي كل مظنّة للإهمال أو التقصير.

ومهما يكن من شيء فإن مما يصحّ، القول بأن ظهور حركة الشباب المسلم وما وفقت له من مجهودات وإنجازات، يمثل ثورة نشطة في تفعيل العمل الإسلامي في منطقة الجنوب الأفريقي بما تحويها من دول، وأقاليم، حيث تتزايد أعداد المهتدين الجدد إلى الإسلام مع انعقاد كل مؤتمر يقيمه الشباب المسلم في المنطقة. وقد «دخل في الإسلام أعداد كبيرة بعد انعقاد المؤتمر الأول للشباب المسلم في جنوب أفريقيا عام 1397هـ واشترك فيه 11 دولة من جنوب أفريقيا، لتدارس أحوال المسلمين، ومستقبل الدعوة الإسلامية هناك»[1].

ومن حيث القضايا والبرامج فإنها تستقطب اهتمام هذه المنظمة أكثر من غيرها ومن أهمها:

أ ـ **مواجهة التحديات القائمة بأساليب حضارية معاصرة**: ففي ظل الأوضاع السياسية للبلاد، وما يمكن أن تتولد عنها من تحدّيات سياسية، فإن حركة الشباب تعمل على احتواء الأحزاب السياسية واختراقها من الداخل، للوصول إلى مواقع التأثير فيها لما يخدم القضايا الإسلامية، ويؤمّن الحفاظ على هويّة المسلمين، كما أنها تواجه الحركات العلمانية، والتيارات الإباحية، وجحافل المجرمين، والمنحرفين، بتقديم ثقافة إسلامية بديلة، لا تنحصر في توجيه الشباب نحو القرآن الكريم والسنة فحسب؛ وإنما تدفع بهم أيضًا لخدمة الإسلام[2]، ولو من خلال القدوة الصالحة المتمثلة بتعاليم القرآن الكريم، لاستهواء الآخرين، وشدّهم إلى جمال منهج القرآن الكريم في تنظيم الحياة.

ب ـ **العناية القصوى بالتعلم والتربية القيادية**: تصْرف المنظمة جزءًا كبيرًا من مجهوداتها في مهمة تكوين شباب قياديين في المستقبل، وهو إلى جانب أهميته لإنسان عصرنا، يضمن للأمة المسلمة قيادة مستمرة عبر الأجيال، تتصف بقدر عال من

---

(1) المرجع نفسه، ص: 215.

(2) اقتباس بالمعنى من إحدى صحف منظمة حركة الشباب المسلم باللغة الإنجليزية خالية من موثقات الإحالة.

الخبرة، والالتزام، والحكمة، والتبصر، والتضحية من أجل حياة الأمة، وتقدّمها. وفي سبيل هذا البعد التكويني باعتباره تخطيطًا للمستقبل على المدى القريب والبعيد، تقوم منظمة الشباب بتنظيم مخيمات شبابية، وحلقات تكوينية ومحاضرات عامة تعالج أساسًا مواضيع تتعلّق بدور الشباب المسلم في مختلف الدوائر الاجتماعية والوطنية والأممية، وتتناول مختلف القضايا التي تمتُّ إلى موضوع القيادة بصلة معرفية. وفي إطار تعاون منظمة الشباب مع غيرها من الجهات الداخلية والخارجية العاملة على ساحة العمل الإسلامي، قامت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بدعم منظمة الشباب، والتنسيق معها في تنظيم عدد من البرامج الناجحة في مجال تأهيل الشباب وتنمية المهارات القيادية لديهم، وتبصيرهم بدورهم الحيوي في خدمة قضايا الدين والوطن. وهذا التعاون في مختلف مظاهره وأطرافه، يعكس الوعي لدى كل طرف بأن قدراته وجهوده وحدها - مهما كانت - لا تفي بتلبية مطالب العمل الإسلامي المتعدّدة، وأنه لا يتحقق ثمة تقدم لهذا العمل حين تستقل كل مؤسسة بجهدها الخاص، دون أن تتضامن مع شقيقاتها من مئات المؤسسات والمنظمات الإسلامية في العالم، وقد وجدت منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا، في قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: 2] عاملاً دافعًا نحو المزيد من الاهتمام بالبرامج والنشاطات التعاونية.

ج ـ **الاستعانة الواعية والواسعة بالإعلام ووسائله**: تستعين منظمة حركة الشباب المسلم بمختلف الوسائل الإعلامية المتاحة لها بملكية أو إجارة، لنشر معلومات صحيحة عن الإسلام في ظل سعي هادف بناء، يقودها أحيانًا إلى إصدار وترجمة ونشر الكتب الإسلامية التي ترى لها المنظمة أهمية بالنسبة لواقع عملها، من مؤلفات في العبادات، وأخرى فكرية، أو اجتماعية.

وفي سياق الاستعانة بالوسائل الإعلامية، تنشر المنظمة صحيفة تصدر من مدينة دربان باللغة الإنجليزية تعدّ من أشهر الصحف الإسلامية في جنوب أفريقيا، وأوسعها

انتشاراً، وهي صحيفة القلم الشهرية، التي تحتم علينا شهرتها وأهميتها تقديم صورة سريعة وعامة عنها من خلال الأسطر الآتية:

4 ـ نظرة مجملة في محتوى صحيفة القلم الشهرية من خلال بعض أعدادها الهامة:

في اطلاع سريع على بعض أعدادها الرمضانية والتي تعتبر أهمّ وأغنى من غيرها نرصد في تصويرنا لمحتوى الصحيفة وتوجهاتها، جملة القضايا الآتية:

1 ـ تعنى الصحيفة بتوثيق مختلف النشاطات الإسلامية البارزة في جنوب أفريقيا، مع التركيز على اللقاءات الدولية التي يشارك فيها ضيوف من الخارج ممثلة عن جهات مشاركة في التنظيم أو مدعوّة. واحتفاءً بالضيوف، يظهر التركيز عليهم واضحاً تقديراً لمشاركتهم، وإبرازاً للبعد العالمي للعمل الإسلامي المشترك.

2 ـ تخصّص الصحيفة حيزاً كافياً لتغطية المناسبات الدينية من رحلات الحج والعمرة، والأعياد والأشهر الكريمة في حياة المسلمين كرمضان، وغيرها، مع اهتمام خاصٍ بشهر رمضان الكريم، وإبراز فائدة الصيام، ومنافعه الدينية والصحية. ولما تحظى به الأعداد الرمضانية من تغطية واسعة، فإنها تتميز بجودتها، وسعتها واستيعابها لقضايا أوسع وأشمل.

3 ـ تتابع الصحيفة تطورات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، وتطلع القراء على مختلف الإنجازات التي تحققها كافة المؤسسات والمنظمات الإسلامية في البلاد، كما تحرص على التعريف بالمنظمات الإسلامية والهيئات الجديدة هناك.

4 ـ تعمل الصحيفة على تثقيف القراء بتقديم ملخّص كتب، وبحوث إسلامية مفيدة لتعميق الفهم بالإسلام وترسيخ الانتماء الإسلامي.

5 ـ تهتم بقضايا الأمة المسلمة في مختلف مواطنها، حيث تعمل على نشر إعلانات طلب تبرّعات للأخوة الفلسطينيين، بواسطة مؤسسة الأقصى في جنوب أفريقيا. ولها اهتمام كذلك بأحداث العالم الإسلامي في المجالات الدينية؛ كمسابقات

القرآن الكريم العالمية، وفي القضايا السياسية؛ كالوضع السياسي في السودان وأندونيسيا ونيجيريا.

6 ـ ترشيد مسلمي جنوب أفريقيا، وتوجيههم في حياتهم العامة والخاصة، وتنتقد الصحيفة في هذا الشأن انتماء بعض المسلمين إلى الأحزاب التي تُصادق إسرائيل، وترتبط معها بعلاقات صداقة وتعاون، مع إشارة مبشرة إلى اختراق المسلمين للأحزاب السياسية في البلاد، وارتقاء بعضهم إلى مواقع قيادية متميزة في الهرم التنظيمي لبعض الأحزاب البارزة في جنوب أفريقيا، وتنشر – ضمن اهتمامها بالتوعية والترشيد – مقالاتٍ عن موقف القرآن الكريم من فرقة المسلمين، وانشقاق صفهم، مركزة على نصوص الوحدة والأخوة الإسلامية، وعلى مفهوم التعاليم الجماعية في الإسلام، وتنعى على الخلاف بشأن هامشيات وجزئيات لا تستحق أن يختلف بشأنها.

7 ـ التعريف بالخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، من خلال نشر نُتف من سيرهم ومنهج حياتهم دعوة إلى التأسي بهم في فضائلهم، وطاعتهم لله ورسوله.

8 ـ تعرض الصحيفة أهمية الشباب المسلم، ودورهم المستقبلي في البلاد، ولا سيما الطلبة المسلمين ممن يتوزعون رجالاً ونساء في مختلف الجامعات، ويتخللون معظم التخصصات، الأمر الذي يقدّم أهمية مستقبلية للعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا حين تتأتى لهم فرص المشاركة الإيجابية في تسيير شؤون البلاد وإدارة مقاليد الحكم فيها، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار حرصهم على شخصيتهم المسلمة وحفاظهم على هويتهم الثقافية، حيث يهتمون باقتناء الكتب الإسلامية، وأداء جماعي للصلوات المفروضة في أماكن مخصصة لذلك في مؤسساتهم الجامعية، بالرغم مما يتعرضون له أثناء الصلاة من استفزاز المشاكسين بتعلية أصوات الإذاعات الصارخة والأغنيات الصاخبة.

9 ـ تتضمن أعداد صحيفة القلم الشهرية إلى جانب ما سبق، إعلانات تجارية وتشهيرات

لمختلف البضائع المباحة، وللمناسبات، والمشاريع، والمؤسسات وغيرها[1]، وهي في هذا الجانب لا تقل أهمية عن أي صحيفة تجارية متخصصة في هذا المجال، والظاهر عليها أنها تلوّنت في هذا الشأن، بطابع البيئة، فطاوعتها في مؤثراتها الاقتصادية إلى حد ظاهرٍ، وفضلاً عن ذلك فإن صحيفة القلم تعكس واقع العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا وتشكل بذلك مرآة يمكن أن نطالع من خلالها وضع مسلمي جنوب أفريقيا، وحركة العمل الإسلامي في البلاد، وفيما جاورها من المناطق.

ومع وجود صُحفٍ إسلامية أخرى في البلاد كصحيفة أخبار المسلمين، ومجلة الخليل، واليقظة، وغيرها، إلا أن لصحيفة القلم اعتباراً وتميزاً يجعلها في عداد أهم الصحف الإسلامية في البلاد، وأكثرها تداولاً، ولا غروَ في ذلك فهي صحيفة منظمة شبابية فاعلةٍ طموحةٍ، شهد لها أحد الباحثين متحدثاً عن المنظمات الإسلامية في جنوب أفريقيا شهادة مطّلع خبير بقوله: «... ومن أكثر التطورات بروزاً هي ظهور حركة الشباب المسلم بجنوب أفريقيا»[2].

وإنّ أيّ تحوّل في قيادة العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا قد يتّجه - فيما أعتقد - لصالح منظمة حركة الشباب المسلم، التي يتوقع منها أن تلعب دوراً فاعلاً ومؤثراً في مستقبل العمل الإسلامي هناك، وفي تحسين أوضاع المسلمين، وتفعيل دورهم في مختلف المجالات الحيوية تفعيلاً جديراً بمقام دينهم وكفاحهم، ومعبّراً عن تطلّعات الأقلية المسلمة في الإسهام الحضاري في معركة البناء الوطني لجنوب أفريقيا المتحرّرة المتعثّرة.

ومن أطيب الأمور الباعثة على التفاؤل، والمبشرة بالخيّر في مستقبل هذه الحركة الشبابية، هو أنها تترجم إلى واقع عملي آمال جيلٍ صاعد يتطلع إلى التغيير الخيّر، ويعمل جاهداً من أجل تحقيقه، باذلاً قصارى جهده في سبيل الوصول إليه وبأي ثمنٍ شريف كان،

---

(1) للوقوف على صورة عامة مما ذكر، ينظر: مجموعة الأعداد التالية من صحيفة "القلم" الحلقة 25 ع 11 عام 1999ف، والأعداد 1، 2، 3، من الحلقة 26 عام 2000ف.

(2) دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 4، مرجع سابق.

تحت شعار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وفي سياق دراستنا إسلاميًا لهذه البيئة التي تسعى منظمة حركة الشباب المسلم حثيثًا بثقل لا يمكن معه تجاوز تسجيلها في النقاط الآتية:

1 ـ إن مجال العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا يمتاز بخصوبة مثمرة قلّ نظيرها، فهي مهيأة للغاية لتلقي المجهودات الإسلامية المخلصة، ولتتحوّل في ظرف وجيز إلى ثمار يانعة مباركة، وإنّ الحديث عن العمل الإسلامي والمسلمين في هذه البلاد فيه الكثير من الإيجابيات والمزايا، إلى جانب ما يقابلها من تحدّيات ومشكلات. وإنّ المجال مُتاح اليوم لبذل المزيد من التضحيات اللازمة بشأن العمل الإسلامي والمسلمين في البلاد. ولغلبة عوامل التفاؤل يمكن القول بأن رأس الرجاء الآن، قد أصبح صالحًا، على الأقل لنجاح العمل الإسلامي فيه، إجابة على سؤال علمي طرح عنوانًا لمقال سابق هو: رأس الرجاء هل أصبح صالحًا؟

2 ـ إنّ اهتمام مسلمي العالم الإسلامي بإخوانهم في جنوب أفريقيا، وإن كان قد أخذ في النشاط في الآونة الأخيرة، إلاّ أنه يصدق عليه القول بأنه أقل مما يلزم، ومن ثمّ فإن ملاحظة توماس أرنولد في مساق حديثه عن مسلمي الكاب ما تزال قائمة ليومنا هذا، وهي الملاحظة التي صاغها في قوله: «ولم يكتب عنهم الرحالة الأوروبيون، بل إخوانهم في الدين، حتى الأيام الأخيرة إلاّ مذكّرات قليلة»[1]، الأمر الذي يضفي على أي محاولة للكتاب في هذا الموضوع طابعًا من المغامرة العلمية، التي قد تؤدي في حالات النجاح إلى استحقاق وسام الجدّة والإبداع العلميين، إذ لم تتطوّر كثيرًا فيما أرى معرفة المسلمين بإخوانهم في جنوب أفريقيا عما كانت عليه منذ قرابة قرن من الزمان.

3 ـ من المحامد التي تسجّل لمسلمي جنوب أفريقيا تعلّقهم بدينهم، وتمسكهم بهويّتهم

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص: 388، مرجع سابق.

وتضحيتهم الغالية في سبيل إشاعة روح الإسلام ونوره فيمن وفيما حولهم، تضحية تعدُّ من النوادر التي تحكى من نوعها. ولعلّ ذلك ناتج من:

4 ـ أنّ الجالية المسلمة في البلاد لم تتجاوز كونها أقليّة، وهو ما يتضح من خلال الأعداد التقريبية لمن يترددون على المساجد، ولمن يشاركون في الندوات والدورات، والمنتظمين للدراسة في المدارس والمعاهد الإسلامية، وعليه فكلّ الأمارات تُوحي بأن المسلمين أقلية، ولكنها فاعلة[1]، الأمر الذي يلقي عبئًا ثقيلاً على عاتق المسلمين جميعًا، يتمثل في السعي الحثيث، والعمل المتواصل، لنقل المسلمين هناك من واقع الأقلية إلى وضع الأغلبية على المدى القصير، وفي أقرب وقت ممكن.

5 ـ من مزايا العمل الإسلامي في هذه البلاد غلبة الميل إلى التعاون بين المؤسسات، والتنظيمات في تنفيذ البرامج والمشاريع الإسلامية، كل في حدود اختصاصه، وقدر تعلق الأمر به.

ومن أمثلته: التعاون في إقامة الندوات والدورات، وفي تنظيم مخيمات الشباب، وملتقيات تنظيم وتنسيق العمل الإسلامي. ويحظى كل من السودان وليبيا والسعودية والكويت كجهات خارجية بالنصيب الأوفر من أسهُم الجهات التي يتعاون معها غالبًا.

6 ـ ومع إشادتنا بروح التعاون المتميزة، إلاّ أنها تطفو أحيانًا على السطح مشكلات الارتجال والعفوية، وعدم التخطيط السليم، كالإقدام على بعض المشاريع العملاقة من غير دراسة كافية لمختلف الحيثيات والملابسات، والنّظر في جملة الاعتبارات والظروف الموضوعية، ومن ذلك ما ورد في صحيفة القلم من أن السعودية كانت قد اعتزمت إنشاء مسجد كبير باسم الملك فهد بن عبدالعزيز يتسع لأكثر من ألفي مصلّ، مشفوعًا بمدرسة إسلامية، وغيرها من المرافق اللازمة؛ بقيمة 10 مليون دولار، فوقع اختيارها، على منطقةٍ ريفية يقيم فيها أقل من عشرين أسرة مسلمة، الأمر الذي قاد بعض المسلمين للوقوف في وجه هذا

---

(1) ينظر: كتاب الأقليات المسلمة في العالم.. ظروفها المعاصرة، مج2/ 949.

المشروع، مقترحين منطقة «سويتو» القريبة من جوهانسبرج، والتي تحظى بالأولوية، إذ يقيم فيها أكثر من 3000 مسلم فضلاً عن نموّ متزايد لعدد المسلمين يومًا بعد يوم[1].

إن هذه الواقعة تؤكد ما يعاني منه العمل الإسلامي من نقص فادح في التخطيط، رغم تعالي صيحات الدعوة إليه، وتعبّر من جانب آخر عن إهمال واضح في التعرف على أولوية الحاجات لمن نتوجّه إليهم بالخطاب الدعوي، مقابل اهتمام بقضايا وإن كانت مهمة إلاّ أنها تأتي على حساب ما هو أهمّ منها.

وربما عبّرت الواقعة عن أسلوب من الأساليب الانفعالية الساذجة التي تحاول الردّ على الخطاب التنصيري الدعائي، الذي يستفزّ المسلمين ويتحدّاهم في بناء المعابد الفاخرة في عقر ديارهم، وفي عمق أحيائهم، ويسابقهم إلى المساحات الخالية التي يقلّ فيها عادة أتباع كل من الديانتين. وإن صحّ هذا الافتراض فإنه ليس من الحكمة في شيء أن ننشغل بمجاراة الخصم على شاكلته، وعلى حساب أولوياتنا، وأهدافنا النبيلة، في ظرف تشتد فيه الحاجة إلى ترشيد التصرف في كل صغيرة وكبيرة من الإمكانيات المادية والإنسانية والفكرية المتاحة لنا.

7 ـ على الرغم من كل ما قلنا من تحديات نوعية، ومشكلات ثقافية معقدة فإن تلك التحديات والمشكلات لم تقف في يوم من الأيام في وجه انتشار الإسلام كليًّا. وأمام كل موقف مناوئ كان المسلمون يمتازون بالقدرة على المناورة، والاعتماد على المجهود الفردي غير المنظم في الدفع بحركة انتشار الإسلام نحو الأفضل، مع أن الكثيرين منهم كانوا يفتقرون إلى الوقت الكافي بحكم عدم تفرّغهم، وتعوزهم الدّربة على أساليب الدعوة، وقلّة ما يلزم من إمكانيات تضمن حسن النجاح في العمل الدعوي.

8 ـ لا نبالغ حين نقول استناداً إلى ما تشهده جنوب أفريقيا في هذه المرحلة من نشاط

---

(1) Al-Qalam: Volume 26. No3, P:2 March 2000.

إسلامي هائل، وانتشار سريع للإسلام في جنباته، بأن البلاد في تاريخها الإسلامي، تمرّ حقيقة بحالة صحوة إسلامية قوية وجادّة، وإنّ هذا الغليان الاجتماعي الذي يصهر هذه البلاد لصبغها قريبًا بصبغة إسلامية، يقف من ورائه جنود مجهولون أخلصوا النية، وأحسنوا العمل لله، إلى جانب من ذكرنا من شخصيات تاريخية ومعاصرة، ومؤسسات وتنظيمات إسلامية كثيرة، مثل اتحاد الطلبة المسلمين، منظمة الجهاد الإسلامي، صندوق الزكاة الوطني بجنوب أفريقيا، جمعية المحاسبين والمحامين المسلمين، خدمة الكتاب الإسلامي، وحركة قبلة، جمعية الدعوة الإسلامية، وغيرها كثير ممن يعملون واصلين الليل بالنهار لرفع راية الإسلام عاليةً خفاقة في آفاق جنوب أفريقيا، ومحيطها الإقليمي.

وفي خضمّ هذا النشاط العارم تشمخ منارة شخصية دعوية فريدة، ذات خطاب دعوي متميز؛ يشكل نسيجاً وحده في هذه البيئة، وربما في غيرها في عصرنا هذا، وقف صاحب هذا الخطاب الفذّ شامخًا بمفرده، ومن خلال مؤسسته يدعو إلى الإسلام محليًا وعالميًا، وهو يعدّ ثالث ثلاثة ممن برّزتهم هذه البلاد من الشخصيات التاريخية التي قدّر لها الخلود على صفحات تاريخ عالمنا المعاصر، من ذوي الشأن الكبير والقدر العظيم، ولئن كان أحدهم وهو الرئيس مانديلا غنيًا عن التعريف به بفضل نضاله السياسي الطويل المرير، فإن مما لا يعلمه الكثيرون عن الثاني وهو المهاتما غاندي الزعيم الروحي للهند الذي جمع بين الكفاحين السياسي والروحي، أنه انطلق من جنوب أفريقيا ليعانق ما اشتهر به من مجدٍ تاريخي مشهود، حيث كان قد وصل إلى بريتوريا عام 1893 بدعوة من بعض الجماعات المسلمة للمساعدة في المحاماة أمام محاكم جنوب أفريقيا، فشاء له القدر أن يقضي فيها نيفًا وعشرين سنة، «وهناك ألقى أعماله كلها ليعيش عيشة الفاقة والضنك مع أولئك البائسين، ويشاطرهم الظلم الذي يخضعون له ويريد أن ينقذهم منه»[1]. وفيها كذلك نذر وزوجه التنسك، والتبتل وهو في السادس والثلاثين من عمره ومن خلال ما لاقاه ووقف عليه في هذه البيئة من

(1) عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 25، ط/ 1408هـ 1988م المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

معاناة في حقه وفي حق غيره، تشرّبت روحه وهج النضال السياسي، والروحي، في رحلة حياةٍ شاقة ومضنية، شغلت صفحة بارزة من تاريخ النصف الأول من القرن العشرين.

أمّا ثالث شخصيات هذه البيئة التي تصنع الرجال والأحداث، وتخلق المفاجآت الكبيرة، فهو الداعية العظيم الشيخ أحمد ديدات موضوع هذه الدراسة، والذي ستتكفل الصفحات القادمة بالحديث عن منهجه الدعوي، وماكان له من شأن في ذلك، وعليه فإن الفصل الأول مع ما اتسم به من إفاضة ضرورية غير مقصودة، فهو في جملته محاولة للإجابة على مجموعة أسئلة عن جنوب أفريقيا واقعًا جغرافيًا وتاريخيًا. وعن الإسلام والمسلمين فيها بعامة، وعن تشخيص للبيئة التي نشأ فيها الشيخ ديدات متفاعلاً معها، مؤثرًا ومتأثرًا، تمهيداً للإجابة على مجموعة أسئلة مفادها: من هو الشيخ أحمد ديدات كيف بدأ وكيف توسط؟ وإلام انتهى؟ ماذا حقق؟، وفيم أخفق؟

هذه الأسئلة وغيرها هي التي يحاول الفصل اللاحق أن يتلمّس طريقه للإجابة عنها.

الفصل الثاني

الشيخ أحمد ديدات بيئته ونشأته

المبحث الأول : التعريف به وبعائلته في جنوب أفريقيا .

المبحث الثاني : بداية عهد الدّاعية أحمد ديدات بالعمل الإسلامي .

المبحث الثالث : أنشطته ومجالات عمله الإسلامي .

المبحث الأول

التعريف به وبعائلته في جنوب أفريقيا

هو الداعية أحمد حسين ديدات من مواليد 1/ 7/ 1918م في قرية من أعمال منطقة سوارت الهندية من أبوين مسلمين هما حسين ديدات، وفاطمة بنت حافظ.

التحق بعد تسع سنوات من ولادته بوالده الذي هاجر إلى جنوب أفريقيا في وقت مبكّر من طفولة نجله المبارك، واستقرّ به المقام في مدينة دربان لمزاولة عمله في مجالي الخياطة والعقارات، وفي العام الذي فارق فيه أحمد ديدات أمه وأخته في بلاد الهند للحاق بأبيه توفيت والدته عليها الرحمة عام 1927م.

وبعد مرور خمس سنوات، والشيخ حسين ديدات يعاني من وطأة ذكريات فقيدته الوفية، معزيًّا نفسه بجمال أيام العشرة وسعادتها، استطاع أن يُقاوم ما تعرّض له من هزّة نفسية في مصابه الجلل، وربما بمساعدة حركة الزمن التي عملت على التخفيف من حجم الصدمة وشدّتها فقرّر أخيراً في عام 1936م أن يتزوج وللمرة الثانية في مهجره، فارتبط بسيّدة مسلمة ارتباطًا شرعيًّا كان من ثماره الأبناء الآتية أسماؤهم مقرونة بتواريخ ميلادهم:

محمد 1933م، عبد الله 1935م، قاسم 1945م، عمر 1946. فشكل هؤلاء الإخوة بالإضافة إلى الأخ الكبير، والوالد نواة عائلة ديدات الجديدة في جنوب أفريقيا، انطلاقًا من مدينة دربان وما حولها من الضواحي التي عُرِفُوا بها واشتهروا فيها، وقد تعاونوا في فترة لاحقة على البرّ والتقوى بالدعوة إلى دين الله، والمرابطة على منافذ تسلل المهاجمين من أعداء الإسلام والمسلمين. وإن كان قد تميّز من بينهم أكثر من غيره إلى جانب أحمد ديدات أخوه عبد الله ديدات الذي ظل ملازمًا ومشاركًا له في أكثر المناسبات، والمواقف[1]. ويفيد تقصّي أحوال هذه الأسرة أنها في غالب أطوار وجودها المبكّر في جنوب أفريقيا لم تكن تنعم بتوفر المقوّمات الماديّة الضرورية لحياة أفرادها؛ حيث كان الوالد حسين ديدات قد بادر فور قدوم الابن أحمد ديدات إلى جنوب أفريقيا بتسجيله في إحدى المدارس التي درس فيها، وهو في العاشرة من

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: هذه حياتي ص: 9، 48 مرجع سابق.

عمره إلى أن بلغ الصف السادس الابتدائيّ بانتظام دائم واجتهاد فائق، الأمر الذي أثار اهتمام أساتذته ولفت عناية القائمين على المدرسة نحو هذا التلميذ المتميز بجديته واجتهاده، وهما سمتان ظلّتا مرافقتين له في مختلف أدوار حياته، على نحو يمكن أن نفسر على أساسه الكثير من فرص النجاح التي صادفها في مسيرة حياته المباركة، مما لم تكن لتخطر له ببال في يوم من الأيام.

وما أن أكمل دراسته بالمرحلة الابتدائية فسرعان ما وقفت الظروف المادية عائقة سبيله عن متابعة الدّراسة، رغم ما كان يميّزه من ذكاء واجتهاد وتوْق شديد إلى العلم وأهله؛ وذلك لضيق ذرع العائلة، وقصر باعها في القدرة على سداد الرسوم الدّراسية، ومصاريفها اللاّزمة.

وكان والده قد تقدم دون جدوى إلى بعض التجار المسلمين لطلب المساعدة، تمكينًا لابنه من الدّراسة في معهد رغب في الالتحاق به، وحين لم يتلقّ منهم أيّ ردّ ايجابي، اضطر الابن أحمد ديدات إلى التوقف عن مواظبة المتابعة، بعد أن سجّل اسمه وسمح له بالحضور مقدّمًا تحت مهلة ثلاثة أيام لدفع الرّسوم، اعتباراً من تاريخ التسجيل[1].

ولما توقف به قطار الدّراسة عن المسير، وسدّت في وجهه أبواب التعلّم، راح الفتى يبحث لنفسه عن عمل شاغل، يوفّر له ما فيه كفاية لتحقيق تلك الأمنية الغالية في نفسه، أمنية العودة إلى صفوف الدراسة، ومقاعد العلم، فوُفّق في الحصول على عمل في مقهى شركة من الشركات، ويبدو أن هذا العمل لم يعجبه كثيراً؛ إذ لم يلبث فيه طويلاً.

فشرع من جديد، وبعد فترة قصيرة يتعاطى أعمالاً مختلفة، متنقلاً بين المحلات التجارية، ومواقع العمل المختلفة في عدد من المناطق التي من أشهرها دريان، وناتال،

---

(1) ينظر: التقرير الوارد من جنوب أفريقيا عن الشيخ ديدات ومركزه في محفوظات مكتب الدعوة بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

ووس بنك. وقادته هذه التنقلات العمليّة عام 1936م إلى العمل في متجر لبيع المواد الغذائية في قرية تبعد عن مدينة دربان بما لا يقلّ عن خمسة وعشرين ميلاً، وذلك للمعاونة على البيع في هذا المتجر الذي كان صاحبه مسلمًا. وكان يقع قريبًا من محلّ عمله مركز بعثة آدم التنصيرية، وهي كبرى البعثات التنصيرية في جنوب أفريقيا، يتبعها عدد من المدارس والكليات[1]، وتحمل البعثة اسم مواطن أمريكي وهو من أسّسَها؛ لتكون قاعدة ومنطلقًا للحملات التنصيرية في منطقة الجنوب الإفريقي وفي غيرها من المناطق على امتداد القارة الأفريقية. ونتيجة لهذا التجاوز ما بين موقع البعثة ومقرّ عمل أحمد ديدات، تعرّض هذا الأخير لحملة استفزازات مكثّفة من قبل طلبة البعثة التنصيرية الذين كانوا في مرحلة التدرّب على كيفية وأساليب مواجهة المسلمين، وكانوا يختلفون يوميًا على المحلّ الذي كان يعمل فيه أحمد ديدات، ليواجهوه من خلال ما كان يجري بين الطرفين من حديث أثناء عمليّة البيع والشراء بسيل مما لقنوا به من دعايات كاذبة، وشبهات مغرضة، تدور حول مسألة تعدد زوجات النبي عليه الصلاة والسلام ودعوى انتشار الإسلام بالسيف، وأنّ الرسول ﷺ قد نقل ما جاء به من وحي ودين عن اليهود والنصارى[2].

ولفرط ما تعرّض له من كان يجهل تقريبًا كلّ شيء عن دينه ما عدا كلمة الشهادتين من مضايقات، وتحديات سافرة، كانت تعكس في مجملها سموّ الديانة الكنيسية على الدين الإسلامي، فقد وقع صاحبنا أسير الحيرة والاضطراب، مما جعله يفكر أحيانًا في التولي أمام الزحف بالاستقالة من العمل، ومغادرة المكان، فياله من موقف ضاغط ومقلقٍ! وقد عبّر لاحقًا عمّا ساوره من الحيرة والقلق بقوله: «كنا في حيرة من أمرنا.. ماذا نفعل في مواجهتهم؟ لقد أحال هؤلاء المبشرون حياتي وحياة بقية العاملين من المسلمين إلى بؤس وشقاء، أحسست حينئذ بالرغبة في ترك المحلّ

---

(1) ينظر: لقاء مع أحمد ديدات، مجلة الفيصل ع135، ص: 43 من 12، 1408هـ 1988 الرّياض.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي ص: 18.

والهرب بعيداً، وكان هذا مستبعداً، فالحصول على عمل حينئذ كان أمراً صعبًا»[1] إذن: لابدّ من تهيئة النفس لمواجهة لابدّ منها، وكان من حسن الحظّ أنّ الحرارة التي كانت تشتعل في نفس الرّجل نحو العلم ومتابعة الطلب لم تبردْ بعد، فكان على شغف كبير، وولع دائم بالقراءة كلفًا بالانقضاض على كل ما تصل إليه يده من مكتوب، ولو دعا ذلك إلى التقاط الأوراق المحبورة، فكان كلّما فصل الزمن بينه وبين ما يختلج في نفسه من حاجة إلى دراسة نظامية ازداد شوقًا إلى العلم، وتعلّقًا به، وتأججت رغبته في متابعة دارسته، فكان يعوّض هذا الحرمان المرير برتابة المطالعة في أوقات فراغه، وكلّما وجد إلى ذلك سبيلاً، محاولاً التغلّب على هذا الظرف القاهر الذي كان عائقًا بينه وبين أعزّ أمانيه، وهو ما زال يافعًا، وفي أشدّ الحاجة كغيره إلى ما هو حقّ طبيعي لكلّ إنسان. وفي رحلة البحث عن أسباب ووسائل مقاومة العدوان التنصيري الداهم، تأتي العناية الإلهية لتسعف أحمد ديدات الذي كان في يوم من أيام راحته منهمكًا في مخزن المحل الذي يعمل فيه في عملية التنقيب عن مادة للقراءة بين كومة من الصحف القديمة، والكتب المهجورة. وفجأة عثر على كتاب قديم متعفّن قضمته الحشرات، ونال منه الزمن مانال، وكان بعنوان إظهار الحق باللغة الإنجليزية، فنفض عنه الغبار، وأخذ يقلّب صفحاته باهتمام وتركيز كبيرين. منكبًا عليه لا يشغله عنه شاغل، فهضم الكتاب في فترة وجيزة باستيعاب عميق، ووقف على محتواه، بعدما أدرك ما وراءه من قصة طويلة، فأثار اهتمامه أكثر فأكثر؛ إذ وجد فيه ضالته النفيسة، ورأى فيما يتضمنه من معلومات وافية سلاحًا خطيراً لرد التحدي بما هو أشد وأنكى، واطمأن بعد قراءته إلى أنه ارتقى إلى وضع يهيئه للدفاع عن نفسه وعن عقيدته[2].

---

(1) ينظر: أحمد ديدات هذه حياتي ص: 19.

(2) وسنخصص بعون الله مساحة علمية ممتدة في الحديث عن الشيخ رحمة الله الهندي والتعريف بكتابه الإظهار، وبيان وقصة وظروف تأليفه، وذلك في معرض المقارنة المنهجية بينه وبين الشيخ ديدات الذي تتلمذ على كتابه، وتأثر بالشيخ كثيراً، في أمور شكلية وجوهرية، تبدو معها درجة الشبه بينهما بنسبة مدهشة.

وقد مثل هذا الكتاب نقطة تحوّل كبير في حياته، وشكّل لديه حافزًا للتصدي تارة وللمهاجمة تارة أخرى. وقد تحدث عن أهمية هذا الكتاب ومكانته في حياته فقال: «وبفضل هذا الكتاب تغيرت حياتي تمامًا ولو لم أصادف هذا الكتاب ما كنت لأقوم بما أقوم به الآن، وأعني بذلك التحدّث إلى الناس عن الأديان من منطلق المقارنة بينها»[1].

ومن هذه الأهمية البالغة لكتاب إظهار الحقّ في حياة ديدات لا نبالغ في القول بأن عثوره على الكتاب بمثابة نزول الوحي على الأنبياء والرسل إيذانًا ببداية مرحلة جديدة في حياتهم وحياة من حولهم، وفي تاريخ العالم؛ إذْ كان الكتاب بالنّسبة لحياته ثورة حقيقية، غيّرت مجراها لتنحو منحى آخر كان طيّ صفحات الغيب يجهله هو وغيره من الناس.

وحين سبر غور الكتاب، ونهل من معينه الرّاوي، أخذ في ممارسة ما تعلّمه، متدرّبًا على تطبيق ما تلقّاه من معلومات جديدة وردود قويّة، شأن من كانوا يستفزّون متدرّبين، وكان أوّل ما بدأ به أخْذُ الموافقة بزيارة الطرف الآخر في أيام الأحد، فكان يلتقي بصغار المنصّرين بعد انتهائهم من قداسهم الكنسي من يوم الأحد، ليُفاتحهم في قضايا طالما أثاروها، واتخذوها ذريعة للطعن في الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام، وكان غالبًا ما يحتدم الجدال والنقاش بين الطرفين، دون أن يعترف أيّ منهما بانتصار خصمه عليه، رغم ما كان يبديه فريق المنصّرين من تخاذل بيّن، ومراوغات ماكرة.

واستمرّ الطرفان على هذا النهج بفضل ما بذله أحمد ديدات من نشاط متزايد ضمن به لقاءات أسبوعية لعقد هذه الحوارت الدينية؛ حيث كان يبادر بالذّهاب إليهم، وحتى في أيّام غيابهم عن مواقع اللقاء كان لا يفتر عن ملاحقتهم في مواطن إقامتهم، وكان يقول لهم بعد ما لمس في نفسه من ثقة كافية كان من ورائها تحسّن مستواه

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي ص17 مصدر سابق.

الحواري فكرًا وأسلوبًا، بأنه على استعداد دائم لتوجيه عشر ضربات صائبة نحو عقيدتهم مقابل كلّ ضربة خاطئة يطلقونها تجاه الإسلام ورسوله[1].

وبعد أن تسلح بسلاح الإيمان، وتحصّن بالمعرفة اللازمة، واشتد عُودُهُ في فنّ المناظرات عدل عن محاورة صغار المنصّرين بعد أن تحداهم واستعجزهم في سلسلة من اللقاءات الملزمة.

ومن ثم اتجه إلى استدراج الأساتذة المتخصصين في اللاهوت المسيحي لمناقشتهم وإيقاع الهزيمة بهم، متجاوزًا بذلك وبنجاح كبير المرحلة الابتدائية في مدرسة الحوار والمناظرة بين المسلم والمسيحي، وتعتمد تلك المرحلة أكثر ما تعتمد على العامة من المتدينين، وتنتهي بالحوار مع الطلبة، والمتدربين.

وهكذا ظل على ديدنه يشاسع المتضلعين في الفكر المسيحي، مستفيدًا من تجاربه التي أفادها من مرحلته الابتدائية في مدرسة الحوار، وهي تجارب أساسية وضرورية، إذ يتوقف عليها نجاح المحاور في أي مرحلة لاحقة من مسيرة حياته الحواريّة.

والواقع أنّ مالقيه أحمد ديدات في مراحله الأولية من انتصارات دامغة على خصومه المدرّبين منهم والمتدربين، كان دعمًا نفسيا للمزيد من الزحف والمواجهة، ودفعًا قويًا لتعزيز قدراته، ومضاعفة زاده للاستمرار في رحلة شاقة ومثيرة، لها مالها من متاعب ومصاعب.

وفي تلك الأثناء فوجئ أحمد ديدات بفرصة طيبة بواسطة أحد أقاربه للعمل في أحد مصانع الأثاث، مما اضطّره لمغادرة منطقة الدّكان الذي كان يعمل فيه، وقد كان فاتحة خير لما كرّس حياته له من مناظرات شهيرة، وما عرف به من حوارات عالمية ناجحة، .

وهكذا اتّجه أحمد ديدات عام 1937 إلى مدينة دربان للالتحاق بعمله الجديد في مصنع بدأ فيه سائقًا للشاحنات الكبيرة، ثمّ تدرّج إلى وظيفة كاتب ضابط للصادرات

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق د. ر.

والواردات ومنظم لحركة انطلاق الشاحنات ووصولها، فترقى تدريجيًا إلى أن تقلّد منصب مدير المصنع، وخلال إقامته بدربان شهدت حياته الاجتماعية طورًا جديدًا، حيث أقدم على الزواج بسيّدة من قرية في شمال ناتال تسمى بحواء غنغت، وقد تمخّض هذا الزّواج السّعيد عن بنت وولدين[1].

والظاهر أن العمل في المصنع امتص أوقات الشيخ وجهوده، فضاق بسببه نطاق حواره الدّيني، وإن كان لم ينقطع عنه كليًا، إذ كان قد كوّن لنفسه خلال هذه الفترة حلقة من الأصدقاء وشبكة من العلاقات، كان يتناقش مع أفرادها في أوقات فراغه من حين لآخر، في مسائل دينية، كما كان يتلقى دروسًا في المحاسبة، إلى جانب مواد أخرى في كلية سلطان للتقنية في دربان، تنفيسًا عمّا لازمه من رغبة جامحة في التحصيل العلمي، والاستزادة من المعرفة بمختلف فنونها وأصنافها. وفي هذه الكليّة اجتاز برنامجًا في الرسم الهندسي إضافة إلى برنامج آخر في رياضيات تشغيل اللاسلكي وصيانته[2] الأمر الذي أمدّه بقدرات فنّية في إدارته للمصنع، وضبط واقع أجهزته وآلاته.

وفي نهاية الأربعينات بعد أن توفّر له قدر من المال، سافر قاصدًا باكستان عام 1949م، وقد قضى فيها فترة من حياته منكبًا على تنظيم معمل للنّسيج، ولعلّه اغتنم هذه الفرصة السانحة للتزوّد من موائد الثقافة الإسلامية؛ وهو في أشدّ الحاجة إليها في بلاد حققت في هذا المجال قدرًا لا يستهان به، وتتوفر فيها ما يكفي لسدّ حاجات أحمد ديدات من الناحية العلمية، بما يؤمن له الإجابة على الكثير من الأسئلة والتساؤلات التي تواجهه، مما قد لا يجد لها جوابًا شافيًا في البلاد التي أتى منها.

وإن كان لم يطلع على شيء من هذا أثناء إقامته بباكستان فإن مما لا شك فيه، أنه قد تأثر بما رآه خلال إقامته فيها، وعايشه من مظاهر إسلامية على صورة لم ير لها

---

(1) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 9 مصدر سابق.

(2) ينظر: الموسوعة العربية العالمية مج10 ص: 554، ط2، 1419هـ 1999م الرياض، السعودية.

مثيلاً من قبل. وقد عاد إلى موطن إقامته بجنوب أفريقيا مسجلاً انطباعات حيّة عن المسلمين في جزء من العالم الإسلامي، بعد أن أقام فيه ثلاث سنوات، اضطر للعودة حتى لا يفقد جنسية البلاد التي هاجر إليها، إذ لم يكن من مواليدها.

وعاد ديدات لمواصلة عمله من جديد في المصنع، حيث كان يعمل سابقًا قبل الرحلة إلى باكستان، وهذه المرحلة لتميّزها عن غيرها من مراحل حياته، يمكن اعتبارها الحلقة الأولى في سلسلة تتضمن بضع حلقات، تمثل كل واحدة منها فترة ذات سمات خاصة وملامح محددة، ولو شئنا أن نصنّف فترات حياته إلى مراحل متمايزة لقلنا: إن هذه الفترة من حياته المباركة تشكل مرحلة ما قبل الانخراط والتفرّغ للعمل الإسلامي وهي بذلك تمثل المرحلة التمهيدية لما بعدها من مراحل ومنعطفات.

ورغم أن هذه المرحلة ليست غنية جدًا بالأحداث المثيرة، إلاّ أنها هي العمود الفقري لحياة ديدات، ومسيرته مع العمل الإسلامي وإن كان النظر إليها بمفردها يولّد انطباعًا خاصا مفاده أنّ حياة الرجل الحقيقية، وسرّ عزته يكمن في عمله الإسلامي الذي بدونه ما كان له من شأن يذكر، وقد صدق الله تعالى في قوله: ﴿ . . . ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 24].

فهو ممن أعزه الله بالإسلام، ولو ابتغى العزة في غيره ما وجد إليها سبيلاً يداني ما تكفّل به الإسلام لشخصه المتواضع.

أجل.. لقد انطلق في حياته من فراغ ليعود بعد سنوات من خدمة الإسلام، وقد تحقق له كل شيء على نحو مفاجئ لم يكن يحلم به إطلاقًا. الأمر الذي أوثق صلته المخلصة بهذا العمل الإنساني العظيم، وراح يضحي ويبذل ما بوسعه من أجل دينه وأمته بكل عزم وإصرار. وإنها لبداية قصيرة وصعبة لحياة طويلة سعيدة، حفلت بالعديد من الانتصارات وحملت الكثير من الإنجازات الغالية.

وإنّ القراءة المتأملة لحياة ديدات المبكّرة توحي بنتيجة قاطعة مؤدّاها: أنّ حياة الرجل هي دعوته، وخدمته للإسلام هي مبعث عظمته وشهرته؛ ولا غرابة في ذلك إطلاقًا بالنسبة لشخص ينحدر من أسرة متواضعة ومجهولة، لم تعرف في حياتها طريقًا إلى الظهور، فضلاً عن ارتقاء سلّم المجد والشهرة، فجاء على شاكلتها وليدها البكر أحمد ديدات ليمضي حينًا من الدّهر دون أن يكون شيئًا مذكوراً.

وعليه.. فإن صحة القول بأن حياته هي دعوته تثير أمام الدارس سؤالاً يترتب عليها؛ قِوامُهُ: إذا كانت حياته وعظمته في خدمته للإسلام، فكيف بدأها؟ وما هي قصّة البداية الجادة لعهده وصلته بالعمل الإسلامي؟

المبحث الثاني

بداية عهد الداعية
أحمد ديدات بالعمل الإسلامي

إن صلة الداعية أحمد ديدات بالعمل الإسلامي، وبداية اتصاله الوثيق به تعود إلى خمسينات القرن العشرين، أثناء إقامته عاملاً في مصنع الأثاث بدربان، وكانت في تلك الفترة ولا تزال دائرة الدراسات العربية في جنوب أفريقيا تعنى بنشر اللغة العربية في أوساط المسلمين، علاوة على إسهامها بقسط وافر في نشر الإسلام. وللقيام بمهمتها المزدوجة المتكاملة كانت بين فينة وأخرى تنظم مهرجانات ثقافية ومسابقات خطابية حول مختلف الموضوعات والقضايا ذات العلاقة بالإسلام والمسلمين، وكان ثمّة تجاوب كبير، ومشاركة غفيرة من مختلف مناطق البلاد في تلك اللقاءات الثقافية والأنشطة الدعوية. وإلى جانب الحضور الحاشد على الصعيد المحلي كانت الدائرة تقوم باستدعاء بعض علماء المسلمين من خارج البلاد للحضور والمشاركة في تنشيط برامجها الهادفة من جهة، والقيام بجولات علمية دعوية في أرجاء البلاد من جهة أخرى، وكان هذا النشاط الإسلامي من الأمور التي توليها الدائرة اهتماماً كبيراً، وتعمد إلى تنظيمها، وترتيب تلك اللقاءات الثمينة بين مسلمي البلاد، وعلماء العالم الإسلامي في حدود ما هي متاح لها من الإمكانيات. وكان أحد المسيحيين من بريطانيا ممن اعتنق الإسلام حديثًا يقوم تحت إشراف الدائرة بإلقاء محاضرات أسبوعية في أيام الأحد متحدثًا إلى الناس عن الإسلام، في فترة زمنية وجيزة.

وبفضل دراسته الجامعية والعميقة للإسلام قبل اعتناقه، فقد كان متميزاً في محاضراته بجُدة منهجه، وطرافة أسلوبه وبراعته في فن الحديث والحوار، مما شدّ كثيراً ممن حرصوا على الحضور المنتظم للاستفادة مما كان الرجل يقدّمها من معلومات جديدة وبطريقة جذّابة، وسرعان ما شهدت دروس المسلم الجديد ومحاضراته حضوراً شعبيًا ملحوظًا، وأخذ المسلمون في التدفّق إليها بشكل متزايد في كلّ لقاء جديد. وما أن أخذت تلك الدروس الأسبوعية مجراها في التأثير على من واظبوا على حضورها، وولعوا بمتابعتها بعناية كبيرة حتى انكشفت للقائمين على الدائرة حقيقة عقيدة المحاضر الزائر، وتبين لهم وللأسف أنه يعتنق العقيدة البهائية، وينتمي إلى جماعتها، وقد أفصح عن ذلك حين أدلى بتصريحات مناقضة للقرآن والسنة في إحدى

محاضراته الأخيرة، مما عرّض مجتمع الجالية المسلمة لهزّة واضطراب عنيفين من خلال ما أثار من ضجة هائلة، كتب له الكثيرون من أعداء الإسلام رسالات الدّعم ومقالات التأييد نشرت في بعض الصحف المحلية، وخاصة «رأي الهنود» وذلك في أكتوبر عام 1957م، وعلى الرّغم من أن الرجل أصبح منبوذاً في هذا الوسط المسلم، بعد ما انكشف ضلال عقيدته، لمن كانوا يكنّون له كلّ احترام وتقدير، إلاّ أنّ له فضلاً لا ينكر في التأثير على قاعدة عريضة وثابتة من المسلمين، تكوّنت لديها اتجاهات وميول واضحة في الالتزام بحضور المحاضرات والدروس الدينية على نحو منتظم، وقد استطاع المحاضر الزائر - عن غير قصدٍ - بهذا التأثير الإيجابي الذي طبع الناس به، الدّفع بدائرة الدراسات العربية من بعده إلى اعتماد برنامج أسبوعيٍ جديد بعنوان «دروس إنجليزية» سدا لما خلّفه الرجل من فراغ، وإشباعًا لحاجة الجمهور الناشئة في الحرص على الإفادة من المحاضرات التثقيفية والدّروس الدينية العامة[1].

وتقديراً لما أبداه الحضور من تحمس وتشجيع للقيام بمحاضرات دينية مقارنة، وعقد حلقات أسبوعية من هذا القبيل، تقدّم رجل آخر ممن أسلم من الإنجليز واسمه (فيرفكس) لتحمل هذه المسؤولية الدينية الجليلة، مقترحًا على الراغبين في الأمر نيّته في إلقاء محاضرات ودروس عن المقارنة بين مختلف الديانات، عارضًا عليهم خطّته في انتقاء حوالي عشرين شخصًا من ذوي الاستعداد والكفاءة لتخصيصهم بدروس إضافية يزدادون فيها علماً بكيفية استخدام الكتاب المقدّس في الدعوة إلى الإسلام.

وكان الجميع مسروراً بهذه المقترحات، فوافقوا عليها بكلّ سعادة وارتياح[2]. فشرع الرجل في القيام بالواجب على النحو الذي ذكره واستمرّ فيه لعدد من الأسابيع لا تزيد على شهرين، فتوقف هذا النشاط الطيب بسبب مغادرة السيد فيرفكس لجنوب أفريقيا لأسباب مجهولة، وسرعان ما بدأ القلق يدبّ إلى نفوس من وجدوا في هذه المحاضرات وسيلة لا يستغنى عنها في تعميق معرفتهم بالإسلام وغيره من العقائد

---

(1) تنظر: المذكرة الواردة من جنوب أفريقيا عن الشيخ ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 21 مصدر سابق.

الدينية، وتقوية مواقفهم في الدعوة إلى الإسلام والدّفاع عنه. فتركت مغادرة فيرفكس الفاجئة على وجوههم شعوراً بالإحباط وخيبة الأمل، وأصبحوا يتبادلون نظرات مليئة بالحزن والاستياء.

وفي سبيل مواجهة الموقف، وعلاج ما جدّ من مشكلة، اتخذت الدائرة قرار الاستمرار في تقديم الدروس المقارنة على النهج الذي سلكه من فاجأ الناس برحيله عن البلاد، وهم في أمس الحاجة إليه، وعلى أن يتولى الأمر هذه المرة أحد الطلاب النابغين ممن عرفوا بانتظامهم في المحاضرات السابقة، على أن يكون القائم بالأمر ممن يتمتع بخلفية جيّدة من المعرفة بالكتاب المقدس، فوقع الاختيار بعد تمحيص وتدقيق على الأخ أحمد ديدات الذي كان عند حسن ظن القوم فيه. وقد اتفق أن بادر هو الآخر من جانبه باقتراحٍ يعبّر عن رغبته في التصدي لملء هذا الفراغ مبتدئًا من حيث انتهى فيرفكس؛ لأنه كان قد تزوّد من المعرفة في هذا المجال، وكان يرى في متابعته لمحاضرات سلفه مجرد تشجيع ورفع لروح معنوية الضّيف المغادر، ولم يكن الحضور يعني بالنسبة له أكثر من ذلك، وهو ما يفهم من قوله: «... ويوم الأحد من الأسبوع الثالث اقترحت عليهم أن أملأ الفراغ الذي تركه السّيد (فيرفكس)، وأن أبدأ من حيث انتهى السيد فيرفكس لأني كنت قد تزودت، بالمعرفة في هذا المجال، ولكني كنت أحضر دروس السّيد فيرفكس لرفع روحه المعنوية»[1]، على أني وإن كنت لا أتهم السيّد أحمد ديدات في صدق ما قاله؛ إلاّ أنّ ممّا هو يقين عندي أن حضور محاضرات خبير في هذا الشأن، هو آنئذ أمر لا يخلو من فائدة بالنسبة لمبتدئ كأحمد ديدات، وهو يخطو خطواته الأولى معرفة وممارسة في هذا الطريق الغامض الممتد.

وهكذا شرع أحمد ديدات على بركة الله وتوفيقه، في أداء المهمة على أحسن وجه ممكن، الأمر الذي أثار الكثير من الاهتمام والمتابعة، وظل لمدة ثلاث سنوات يتحدث إلى الناس في كل يوم أحدٍ في موضوعات المقارنة بين الإسلام والصليبية، وكانت هذه

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص: 21 - 22 مصدر سابق.

التجربة أفضل وسيلة تعلّم منها على حدّ قوله، فبدت له مهمته متمثلة في نطاق ما أمر به الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام من تبليغ لرسالة الله. فمن خلال هذه المحاولة الناجحة اكتشف ديدات سرّ الحكمة النبوية في الأمر بأداء مهمة التبليغ، وقد كشف عن جزء من هذه الحكمة فقال: «إنّ سرّاً عظيمًا يكمن وراء ذلك.. فإنّك إذا بلّغت وناقشت وتكلّمت فإن الله يفتح أمامك آفاقًا جديدة، ولم أدرك قيمة هذه التجربة إلاّ فيما بعد»[1]. حيث قد فتح الله عليه بموجب القيام بواجب التبليغ آفاقًا معرفيّة جديدة، ومجالات عمليّة واسعة، ولِمَا تمكن في نفس أحمد ديدات من ثقة بالغة، وما أحرزه من نجاح مشكور في دروسه الأسبوعية، تم توسيع نطاق اللقاء الأسبوعي بتوجيه دعوات متعدّدة إلى ضيوف وشخصيات غير مسلمة، وخاصة من المسيحيين، لحضور المجلس من أجل إثراء المحاضرات بالمناقشات الجادة، والتعليقات المفيدة[2]، وذلك وقوفًا - فيما أعتقد - على حقيقة ما يقرّ به المسيحيون كعقيدة لهم، وتمهيداً لخوض حوارات ومناظرات مستقبلية جادّة معهم، فضلاً عن الطمع في تأثر بعضهم بالحضور في تلك المحاضرات والمشاركة فيها؛ مما قد يدفع بهم إلى نبذ الصليبية واعتناق الإسلام.

وبينما كان أحمد ديدات مواظبًا على أداء واجبه الأسبوعي، بدأ صيته يذيع في آفاق البلاد وأخذت شهرته تمتد إلى أوساط مسلمي جنوب أفريقيا في مختلف مواقعهم. وقد اتفق أن حضر أحد الدروس التي كان يلقيها زوّار مسلمون من جوهانسبرج، فأعجبهم ما كان يقوم به ديدات. ومن ثم وجهوا إليه دعوة لمشاركتهم، والحديث في مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في إحدى قاعات مدينة جوهانسبرج، فوافق على ذلك بكل طيب نفس مبديًا كامل سعادته بالمشاركة، فبادر القوم إلى تأمين إمكانية وصوله إليهم عبر رحلة جوية، تعتبر هي المناسبة الأولى من نوعها في حياته، ولعلّه كان مدفوعًا بشدّة احتفائه بها حين قال عنها: «...فأعطوني تذكرة الطائرة ذهابًا وإيابًا، وكانت هذه هي أول مرّة في حياتي أسافر

(1) المصدر نفسه ص: 22.

(2) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

فيها بالطائرة، لألقي محاضرة في جوهانسبرج»[1]. وبعد عودته الميمونة من رحلته الدعوية الأولى، أوحت إليه التجربة باقتحام باب إقامة المحاضرات في قاعة مدينة دربان التي يقيم فيها، وتعتبر من المدن الهامة في جنوب أفريقيا.

وهكذا بدأت تتعدّد نشاطات الشيخ بتعاقب الأيام، وأخذت الثمرات الأولى لنشاطه تظهر في إقبال بعض المسيحيين والهندوس على اعتناق الإسلام بعد تردّد طويل على دروسه ومحاورات عدّة معه. ولِمَا لاح في الأفق من بوادر النجاح والتوفيق التهب حماس شباب ـ اتسموا بالنشاط - من ضمن مجموعة الدائرة بتشكيل لجنة مختصّة بعقد الحوارات وتنظيم المناقشات الدينية، شكّل هذا الإجراء البسيط في حينه باكورة حمل سعيد بوليد جديد ذي شأن متميّز في تاريخ العمل الإسلامي بجنوب أفريقيا وفي عموم دائرته الإقليمية، وغيرها من مناطق العالم نسبيًا. وقد أسفر ما عقب هذا الإجراء من مشاورات كثيرة، وترتيبات مكثفة عن مخاضٍ كان من نتائجه تأسيس المركز الدّولي للدعوة الإسلامية بتاريخ 17/ 3/ 1957م، الذي كان من مكملات تأسيسه وضعُ لائحة نظام أساسي له، وتشكيل لجنة تنفيذية تقوم بإدارة شؤونه، وتمّ اختيار أحمد ديدات أمينًا عامًا، مع عدد من الزملاء لأداء مهمّة استكمال متطلبات تأسيس هذا المركز الإسلامي الجديد، والنّهوض به قويـًا لتحقيق رسالة إسلامية سامية عظيمة. صورّتها اللجنة التنفيذية فيما رسمته للمركز من أهداف واضحة ومحددة متمثلة في :ـ

1 – نشر الإسلام بين غير المسلمين، وترقيته لدى المسلمين بالمحاضرات والأدبيّات المنشورة.

2 – العمل على إنشاء مؤسّسة لتكوين الدعاة الناهضين بأعباء العمل الإسلامي، وتأليف المسلمين الجدد، وشدّ أزرهم والرّفع من مستوياتهم للانخراط في التجمعات والأوساط المسلمة، وسلوك الطريقة الإسلامية في حياتهم اليوميّة.

3 – العزم على بناء مدارس تعليمية، وإنشاء كليّات للدراسات الإسلامية، إلى جانب

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 22.

دور الأيتام، في سبيل نصرة الإسلام، وجذب الآخرين إليه.

4 - تقديم العمل الاجتماعي، والقيام بالخدمات الخيرية والدينية لكل المحتاجين.

5 - جمع تبرعات لصرفها في مختلف النشاطات التي تخدم الأهداف السّابقة، وتعمل لصالح تنفيذها وضمان نجاحها.

6 - التعاون مع كافّة الجمعيّات والمؤسسات الإسلاميّة العاملة في مجال نشر رسالة الإسلام، السّاعية نحو تحقيق كلّ الأهداف المرسومة أو جزء منها(1).

وفي غمرة نشاطات ديدات الإسلاميّة، وبداية إقبال غير المسلمين على الإسلام بفضل جهوده، قام شخص اسمه [الحاج قدوة] ممن كان يتابع هذا العمل بإعجاب وتقدير بالغين، بمنح أحمد ديدات ومعاونيه قطعة أرض واسعة في منطقة تقع على بعد تسعين ميلاً عن مدينة دربان وقْفاً على العمل الإسلامي؛ لخدمة أغراضه الدّعوية والتعليمية، وجاءت هذه المنحة الكريمة عقب اعتناق رجلين إسلامهما في جامع دربان الكبير.

وفي هذا المكان شرعت لجنة إدارة المركز الدولي للدّعوة الإسلاميّة عام 1959م بإنشاء مؤسسة السّلام التي تضم مسجداً ومعهداً لتدريب الدعاة وتأهيلهم بما يلزم من استعدادات معرفيّة، وفنيّة، لنشر الإسلام في جنوب أفريقيا، إلى جانب مدرسة ابتدائيّة يدرس بها أطفال المنطقة في محاولةٍ لجَذْب سكانها إلى الإسلام، إضافة إلى عيادة طبيّة يشرف عليها أطباء مسلمون، تؤدي دوراً مكمّلاً لدروس المدرسة، كما تتضمن المؤسسة ملحقات رياضية ومرافق ترويحيّة(2).

وقد ثمّن القائمون على المركز هذا الوقف الكريم غاليًا، ورأوا فيه عاملاً مساعداً على تحقيق مختلف الأهداف المنشودة، التي يسعى مركزهم الدّعوي إلى تحقيقها، ومن هنا فرضت ضخامة العمل لتأسيس المؤسسة وترقيتها، على أحمد ديدات اتخاذ قرار التفرغ لمواجهة هذه المسؤوليّة الجسيمة، متخليا عن عمله في المصنع وعن مختلف

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات هذه حياتي، ص25-26، مصدر سابق.

مصالحه الشخصيّة الأخرى، حيث كان الواجب يقتضي منه ذلك، والّذي كان يتعذّر النجاح فيه بالجمع بينه وبين غيره من المهام الشّاغلة، فانتقل بأسرته حين تفرّغ عام 1959م إلى مقرّ عمله الجديد لإدارة الأمور ومتابعتها عن كثب، وأيضاً للتفرغ التام، وإيلاء ما يمكن من اهتمام ساهر لهذا العمل العظيم، الّذي بادر هو وغيره إلى جمع ما يكفي من تبرعات لإقامة بنيانه، وإنشاء صرحه المتكامل، وكان يزداد اندفاعاً وإقداماً على العمل بصبر واجتهاد، كلما تطلّع إلى ما يرجى للمؤسسة القيام بها من رسالة نبيلة هادفة، تتمثل في إرساء أسس الإسلام ونشر ثقافة التسامح والتعايش الآمن، لتوطيد أواصر التفاهم والانسجام في بيئة طالما عرفت بشدّة تنافر أبنائها وتناحرهم لأسباب سياسية وثقافية، وفي ضوء هذه الرسالة تم اختيار اسم السلام لهذه المؤسسة الناشئة إيحاءً بقيمة السلام في رسالة الإسلام، ورمزاً إلى رب السلام مصدر الأمن والأمان.

وعلى الرغم من أن أحمد ديدات أنفق زهاء عشر سنوات من عمره الغالي قيّماً على هذا المشروع، سدّاً للحاجة الملحّة إلى كفاءات إداريّة لم يكن الحصول عليها في تلك الأيّام بالأمر اليسير، إلا أن جهوده المبذولة لم تصادف ما كان يتوقع لها من نجاح، وما علّقت عليها من آمال طموحة، وذلك لجملة أسباب منها: أن اللجنة المُنفذة للمشروع بعضويّة أحمد ديدات البارزة كانت تفتقر إلى أدنى الخبرات التربويّة، التي تؤهلها للتنظيم، والإشراف على برنامج تكويني تربوي، من قبيل ما كانت تهدف إليه المؤسسة، إلى جانب أن ديدات وجد نفسه وحيداً فريداً على ساحة العمل بمختلف مجالاته وأوجه نشاطه، من جمع التبرعات اللازمة، والقيام بواجب التعليم، وإلقاء المحاضرات، وضبط أعمال الإدارة اليوميّة، فكان ينوء بثقل العمل من غير كفاية، الوضع الذي فقد معه القدرة على حصر وتركيز جهوده على جانب من جوانب العمل، لضمان النّجاح فيه، بل ظلّ جهده موزعاً ومبعثراً بين هذا وذاك، على نحو يقلل جدواه. وهذا – وللأسف – آفة من الآفات التي تنتاب غالبًا مشاريع العمل الإسلامي الوليدة، ويتكرّر ورودها، في محاولة إجهاضها وهي في رحم التكوين ومهد النشأة.

وفضلاً عن ذلك فإن ثمة مشاكل وخلافات طرأت بين المتبرّع الحاج (قدوة) ولجنة المركز مما لا نعلم طبيعتها ولا أسبابها، وإن كانت تلك المشاكل عادةً من معوقات العمل الناجح، إلا أنها في الواقع لم تثبط همّة أحمد ديدات الصّامدة، ولم تفلّ من عزيمته الصّلْبة.

هذا...وللعوائق القائمة في وجه مشروع مؤسسة السلام، تحولت إدارتها عام 1973م. إلى منظّمة حركة الشباب المسلم للإشراف على تسيير شؤونها[1]؛ إذ لم تفلح - فيما ظهر- الجهة المؤسّسة وهي لجنة المركز الدولي للدّعوة الإسلاميّة في القيام بهذا الدور في محاولتها الأولى لهذا النوع، فعاد ديدات بعائلته بعد هذه التجربة المتعثّرة إلى «فيرولام» القريبة من دربان، مستأنفاً عمله في المركز الدّولي للدعوة الإسلاميّة في مقرّه بدربان.

حقاً، تُمثل هذه المرحلة من حياته بداية عهده في مجال العمل الإسلامي، والتي تطوّرت إلى اتصال وثيق ودائم بهذا العمل حين تفرّغ له عام 1959م. ويعتبر قرار التفرغ لهذا المجال أجرأ وأخطر قرار اتخذه في حياته، فهو حدث من أحداث حياته البارزة، لا يدانيه في أهميته - فيما أظنّ- سوى عثوره على كتاب إظهار الحق، وانتصاره الحواري لاحقاً على القس سواجارت، إنّه قرار الحياة بالإسلام وللإسلام، قرار صادق في دخول عالم الدّعوة من بابه الأوسع ملقياً على عتبته كل المصالح الشخصيّة، والعلائق العائليّة، متجهاً إلى الله بالدّعوة إليه قلباً وقالباً، سراً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، حضراً وسفراً. إنّه حقّاً لموقف عظيم !! .

في هذه المرحلة وهي الثانية من حلقات حياته الدّعويّة أخذ نجمه يسطع من خلال ما استخدمه من أسلوب دعوي مقارن بين العقائد والديانات، عبر مسيرة السنوات الثلاث التي قضاها في إلقاء محاضرات أسبوعيّة عامّة، مفيداً ومستفيداً بتحضيره لما يقدمه وبحضور المسلمين وغيرهم في تلك اللقاءات ومشاركتهم فيها بالنقاش الجادّ والحوارات المثرية. وقد عمل في تلك الفترة على اعتماد أسلوب ترتيب اللقاءات

(1) ينظر: التقرير الوارد عن الشيخ ديدات ومركزه، مصدر سابق.

وتوجيه الدّعوات وحضورها، للمناقشة الدّينية في المنازل العائلية، والأماكن الخاصّة، وعلى موائد الولائم وغيرها .

وعن أهمية ما تمثّله ديدات من دور بالغ الأهمية في هذه المرحلة بالذّات تحدث قائلاً: «أمّا ثمرة تلك اللقاءات فقد تمثلت في لجوء كل صاحب مشكلة إليَّ بحثًا عن حلّ لمشكلته»[1] . لقد كان سند من تعلّقت ثقتهم به في حلّ المشكلات والمرجوع إليه لكشف المعضلات وإزالة الشبهات، وذلك لما لمسوه فيه من إخلاص في سبيل نشر عقيدته، وخبروه من عمق درايته بما يعرف بالكتاب المقدّس. وكان منذ أن داعبته فكرة التّفرغ لهذا العمل الّذي ارتاح له، وسعد به كثيراً - تلك الفكرة الّتي ألحت عليه طويلاً وأخذت بمجامع شعوره وأحاسيسه - حيث أخذ في تقصّي كلّ ما يتّصل بهذا المجال من معلومات مفيدة وخبرات سابقة وتجارب مشهورة، فتأصّل في نفسه الأبية حب الدّعوة، والتّعلّق بها، وكان الأسلوب الحواري أكثر ما تاقت إليه نفسه من ألوان العمل الإسلامي والّذي صار فيما بعد أبرز اهتماماته في وضعه الجديد، وأشهر ما عرف به طيلة مسيرته النشطة، الأمر الذي أتاح له قدراً مُقدّراً من القدرة على تملّك زمام المحاورات، والمناظرات، لتوجيهها والتحكم في مسارها بكل نجاح وأمان.

وإنّ المعالم البارزة لهذه المرحلة من حياته، وهي مرحلة البداية الحقيقية والمتّصلة بعمله الإسلامي يتمثل في عدد من الأنشطة هي:

أ - **المحاضرات الأسبوعيّة**: التي كان دائباً على إلقائها في كلّ يوم أحد، والتي فتحت الطريق أمامه للّقاء المستمر مع الجمهور المسلم، ومواجهة من كان يحضرها للنقاش من غير المسلمين، ومن خلالها أخذ يعدُّ نفسه معرفيّاً ويتكون في فن الحوار والمناظرة، فتفتحت قدراته، وظهرت براعته، الأمر الذي جلب إليه اهتمام القريب والبعيد، ممن تلقى منهم دعوات كثيرة، وفي مناسبات متعددة؛ للحضور والمشاركة في وجه من أوجه النشاط الإسلامي التي كانوا يعملون على إقامتها من حينٍ لآخر، وقد

---

(1) في لقاء مع ديدات، مجلّة الفيصل، ع135، ص44، س12، 1408هـ- 1988م.

استمرت تلك المحاضرات لبضع سنوات، شجع نجاحها على توسيع نطاقها في عدد من المناطق، من خلال بعض ممن تكونوا عن طريقها من كبار المتابعين المنتظمين في دروس أحمد ديدات الأسبوعيّة.

ب - **بداية الرحلات الداخلية لممارسة العمل الإسلامي**: وكانت أولاها تلك الزيارة السّالفة التي دُعي فيها إلى جوهانسبرج للمشاركة في الاحتفال بالمولد الشريف، ومن حينها شرع يفكر في إقامة محاضرات أخرى في أماكن متفرّقة في دربان وما جاورها، ولاشكّ أنه قد تكلف الكثير من مشقّة التنقلات عبر المناطق في سبيل أدائه لهذه المهمة الجليلة.

ج - **تأسيس المركز الدولي للدعوة الإسلاميّة**: وهو المركز الّذي تولدت فكرة تأسيسه من حماس شباب واظبوا على محاضراته الأسبوعيّة، وكان ديدات من أكبر مؤسسيه والمشرفين عليه، وقد صُعّدت لجنة تنفيذية في بداية الأمر للقيام بوضع لوائح التأسيس، واستكمال الإجراءات الإدارية اللازمة، ووضع الخطوط العريضة لأهدافه العامّة، ومقاصده الكليّة.

وقد شهد هذا المركز بمرور الأيام تطوراً هائلاً ونجاحاً مثيراً، مما سنقف لاحقاً على بعض منه في حينه. وعموماً يمكن القول بأنّ مشروع تأسيس المركز عبّر في ظرفه عن ثورة جادّة في التفكير لدى الجماعة المؤسسة، كانت ناتجة عن تأثيرات نجاح نشاط ديدات الأسبوعي، وغيره من النشاطات الإسلاميّة النّاجحة التي بدت تلوح في الأفق من ظرف لآخر، وربما تتابعت وتراكمت لإنارة السبيل أمام السّراة، في رحلة البحث عن عقيدة الحقيقة والخلاص، والدعوة إليها.

د - **صدور أول كتيب له في دراسة الكتاب المقدّس**: إلى جانب ما كان يقوم به ديدات من محاضرات، ومحاورات، في مرحلة بدايته للعمل الإسلامي وتعلّقه به، شهدت بداية الخمسينات صدور أول كتيب له في هذا المجال بعنوان: (ماذا يقول الكتاب المقدّس عن محمد ﷺ)، وأعقبه بآخر من أهم كتيباته يحمل في عنوانه موضوعًا من أبرز

الموضوعات التي دارت عليها حواراته مع الصليبيين وهو: (هل الكتاب المقدّس كلام الله)[1]. وهذا يعني أن عمليّة الكتابة والنشر عند ديدات كانت مواكبة لنشاطه البارز في مجال المحاضرات والمحاورات، وربما أمكن القول بأن تلك المنشورات تمثل المحصّلة النهائية، بعد عملية تنقيح وبلورة لأهم الموضوعات والقضايا التي كان يدرسها، ويطرحها للنقاش في تلك المجالس واللقاءات الأسبوعية، وغيرها من المناسبات.

هـ - إنشاء مؤسسة السلام: إن الحصول على هذه الأرض الموقوفة التي أنشئت عليها المؤسسة من الأمور الواضحة الدلالة على ما بدأ يحققه من نجاحات أولية في رحلة الأمل والنّجاح؛ حيث إن المتبرع بأرض المؤسسة الغالية عنّ له الإقدام على هذا الإجراء حين لاحظ إقبال الآخرين نحو الإسلام بفضل أسلوب ديدات الحواري المقارن، مما دفع به ذات يوم إلى مفاجأة ديدات بهذا الوقف الكريم عقب إشهار رجلين إسلامهما في جامع دربان الكبير. فأقبل القائمون على المركز الدّعوي بمعيّة ديدات بجمع التبرعات لإنشاء مؤسسة السلام، التي غامر ديدات في عمل شاق وواسع على التفرغ لها بمفرده حين انتقل بأسرته إليها، ولكن المهمة كانت أعظم وأوسع من أن يستوعبها رجل واحد مهما توافرت فيه مؤهلات ومواصفات نادرة، ولو كان أحمد ديدات في عزمه وهمته. فلذلك مني المشروع بنوع من الإخفاق، مع سابق إصراره على النهوض به وترقيته بعمله الدؤوب الذي استمرّ فيه لعقد من الزمن. ومع ذلك تظل المؤسسة معلماً بارزاً في مجال خدمة ديدات للإسلام. وشاهداً قوياً على تضحيته وصبره وإخلاصه، وهي معانٍ تتجلى في:

و - تفرغه للدعوة الإسلامية والإعراض عن غيرها من النشاطات الدنيوية: ففي عام 1959م، توجّه أحمد ديدات كليّاً بكيانه وحياته إلى الإسلام، وانصرف عن غيرها من الأعمال الشخصيّة التي كان يزاولها لحسابه الخاصّ، وذلك حتى «يتسنى له التفرغ للمهمة التي نذر لها حياته فيما بعد وهي الدّعوة إلى الإسلام»[2]، التي شكلت بؤرة اهتمامه الوافر، وطبعت حياته بمِيْسمها حين تفرغ لها، وأقبل عليها إقبالاً لم يلتفت

(1) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص10، مصدر سابق.

(2) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص10، مصدر سابق.

معه إلى غيرها مما لا يقارن بها بتاتاً، وقد ظهرت آثار هذا التفرغ فيما اكتسبه من أوقات ثمينة واسعة، أنفقها بسخاء سابغ على مختلف مجالات العمل الإسلامي، التي جدّ ونشط على السعي الوافر المثمر في إطارها، من خلال أنشطته الفكريّة، والإداريّة، والميدانيّة، وغيرها داخل البلاد وخارجها. ولما كان هذا التفرغ وما أدّى إليه من جهد جهيد مقرونين بالصدق والإخلاص فقد أثمرت المسيرة نتائج هائلة، وكان التفرغ بذلك خيراً وبركة للعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا وفي غيرها، وكان بمثابة ضالّة مفقودة طالما بحثت عنها الأمة بحثاً طويلاً ومملاً. فوجد أخيراً في أحد أبنائها البررة من عثر عليها، وقدّمها هديّة نفيسة لأمته المجيدة، ولعملها الإسلامي النبيل. ذلكم هو الدّاعية أحمد ديدات في تفرغه للدعوة إلى الله، وتسخير العمر من أجلها.

لقد دخل إلى فسيح عالم الحوار والدعوة بالقراءة الجارفة، بعد أن تعرض لضغوطات معنويّة شديدة وواجه تحديات عنيفة كانت بالنسبة له الهزّة النفسية التي أيقظته مما كان يشترك مع غيره فيه من سبات عميق، ورقاد طويل، فانتهض على قدميه، وهبّ يدعو إلى دين الله القيم محاضراً، ومناظراً وكاتباً ومترجماً ومعلماً، ومربياً وغير ذلك من الصفات التي حازها من خلال مجموع المجالات العمليّة التي خاضها، ووفّق للمشاركة فيها بفاعلية ملحوظة، مما سيتبين لنا من أنشطته الدّعويّة ومجالات عمله الإسلامي.

المبحث الثالث

أنشطته ومجالات عمله الإسلامي

إن الإلمام بالخطوط العامّة لأهمّ أنشطة الشيخ ديدات ومجالات عمله الإسلامي التي يتعذّر استيعابها جميعاً لسعتها وشموليتها من جانب، وندرة المصادر عنها من جانب آخر يظل أمراً هاماً؛ إذ يعدّ مقدمة لازمة للوقوف على منهجه بمفهومه الأوسع في العمل الإسلامي؛ ذلك أن تلك المجالات التي سلكها، وركز عليها جهوده واهتماماته تشكل في جملتها إطاراً منهجياً عاماً - على الأقل - في رؤية ديدات وممارسته لما وهب حياته لها من نشاطات وأعمال إسلاميّة.

وإن التناول الكلّي المفصّل لتلك الجوانب والمجالات برمتها مع ما لها من أهمية بالغة هو من الأمور التي تخرج بنا عن أولويات هذه الدراسة، وتبعد بنا عن قضيتها الأساسية؛ ذلك أن الرجل خدم الإسلام والأمّة في مجالات عديدة. نكتفي منها بأهم الجوانب التي كانت بارزة في عمله الإسلامي من نشاطات يمكن إيرادها مسلسلةً على النحو الآتي:

1 - نشاط المحاضرات العامّة:

من أهم أنشطته إلقاء محاضرات متخصّصة، وعامة، وقد بدأ بهذا النوع من النشاط في وقت مبكر من بداية خدمته للإسلام، ولعلّ الأصح القول بأن انطلاقه في هذا المجال يشكل البداية الفعلية لنشاطه الإسلامي، وقد زحفت محاضراته التي انطلقت من دربان إلى غيرها من مناطق البلاد، وبالأخص في المدن والمراكز الحضريّة، تلبيةً لحاجة الجماهير المسلمة والتي غالبًا ما كانت تدعو إلى تنظيم تلك المحاضرات وتبدي نحوها إقبالاً عميماً، واهتماماً عظيماً، كما أن دوافع الرد على موقف الإرساليات التنصيريّة المهاجمة للإسلام والمسلمين، كانت مبعث تنظيم بعض منها؛ حيث أُلقي في هذا الصدد عدد من المحاضرات الرامية إلى الدفاع عن الإسلام، ورد الاعتبار للمسلمين عامّة، وللجالية المسلمة في جنوب أفريقيا، خاصّة في مواقفها النضاليّة وفي جهودها الإنمائية للبلاد، وأيضاً في سعيها الدائم بمقتضى تعاليم دينها لتحقيق الأمن والسلام وكل ما من شأنه أن يرقى بالبلاد ويسعد العباد.

وكان هذا الصنف من المحاضرات يركز على معالجة قضايا مقارِنة بين الإسلام

والصليبية، مما يتعلّق بالأناجيل، وطبيعة المسيح عليه السلام وعن البشارة المضمرة بمحمد عليه السلام في الكتاب المقدّس. وإن مما يميز هذا النّشاط أنه لم يكن محصوراً في نطاق إقليمي معين، وإنما كان موزّعاً على مختلف مناطق البلاد، حيث أضحت المحاضرات نشاطاً محورياً لديدات ولمركزه الدّعوي، وبفضل تلك المحاضرات العامة والعديدة، وما حظيت به من إقبال شعبي كبير كسب المركز سمعة طيبة، وشهرة واسعة، حيث كان يحضرها أتباع مختلف العقائد الدينية لمنحاها المقارن الذي يجعلها أكثر إثارة وإفادة، بالإضافة لما يتاح للحضور عقب المحاضرات من فرص التعقيب، والمناقشة، وطرح الأسئلة، وهي أمور تشوّق الجمهور، وتستقطب جمعاً غفيراً منهم، ولذا لم يكن من المفاجئ أن تشهد بعض تلك المحاضرات حضوراً غير متوقع ممن تضيق بهم القاعة المخصّصة لهذا الغرض، الأمر الّذي يدفع تارة إلى بحث سريع عن قاعة بديلة أكثر اتساعاً، وخاصّة في الحالات التي يقال إن الحضور قد بلغ نحو ثلاثين ألف مشارك فصاعداً[1]. وبصرف النظر عمّا يمكن أن ترد على مثل هذه التقديرات الإحصائية من ملاحظات، فإنّ لها من الأهمية ما تُسعفنا به، في إمكانيّة تشكيل صورة تقريبيّة عن واقع الحضور والمشاركة في تلك اللقاءات، مما يضعنا أمام أهمية وخطورة تلك المحاضرات في آن معًا، إذ تعتبر من أندر الفرص وأثمنها في طرح الخطاب الإسلاميّ في هذه الحشود الكبيرة من الناس، بأساليب رائعة جذّابة، وهو ما لا يتم في غياب عناصر مؤَهلة ممن لهم باع طويل في كلٍ من مقارنة الأديان، وفي الثّقافة الإسلاميّة وعلم الدعوة على نحو وافٍ شافٍ، الأمر الّذي لا أظن أنه كان متاحاً للقائمين على المركز وعلى نشاط المحاضرات في كل الأحوال، من غير طعن في أهميّة جهودهم، أو نيل في إخلاصهم. ولعلّ تلك المحاضرة التي تحدثنا عنها من قبل، والتي ألقاها الدكتور زغلول النجّار في إحدى ضواحي بريتوريا بنجاح كبير، حيث أسلم على إثرها وبتأثيرها قسّيس القرية وعدد من الوجهاء ما يقطع بصحّة ما علّقنا به على نشاط المحاضرات من خطورة وأهميّة، وربما لهذا السبب نفسه مما توفر من فرص

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

النّجاح، وتحقق من التأثير في الحضور تعمّق ديدات في هذا النشاط وتوسّع فيه، وهو ما يعني أنه لم يتقوقع بتلك المحاضرات في نطاق حدود جنوب أفريقيا فحسب، وإنما تعداها إلى الدول المتاخمة لها ليتجاوزها إلى ما وراء البحار في مختلف أرجاء العالم، حيث خرج عام 1975م، في زيارة دعويّة إلى زامبيا[1]، بدعوة أخويّة كريمة من مسلميها لإلقاء سلسلة من المحاضرات فيها، وقد لقي منهم استقبالاً حاراً، وتميّز حضوره عندهم بترتيبات عالية، واستعدادات مكثّفة بلغت ذراها في السعي لضمان تغطية إعلامية له مسموعة ومرئية[2].

وبهذه الزيارة يكون الدّاعية ديدات قد دشّن لعمله بعده العالمي، ونقل بها من الداخل إلى الخارج مهمته في الدعوة الإسلامية موسعاً آفاق رسالته، لتعميم خيرها على كافة الناس كما هو مرادٌ لها ومقدر من ربّ العالمين. ولهذا الاعتبار خرج ثانية عام 1978م. إلى بوتسوانا المتاخمة لبلاده للقيام بجملة محاضرات في عاصمتها، وكان قد زار قبلها بعام الولايات المتحدة الأمريكية في جولة إلقاء محاضرات متفرّقة في عدد من مناطقها. وقد صوّر لنا نفوذ مسلميها في تلك الأيّام بقوله: «أثناء جولتي لإلقاء المحاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية الدّولة القويّة في عام 1977م. اكتشفت أن جنودنا في العالم الجديد مازالوا أضعف مما كنت أعتقد»[3] ويعني بهم الجالية المسلمة هنا، بمن فيهم دعاة الإسلام.

وعن نشاطه في مجال المحاضرات الإسلامية على المستوى العالمي، ورد في الموسوعة العربية ما ينوّه بشأنه فيها بقولها: «...وألقى محاضرات كثيرة في العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية مثل السعوديّة والبحرين، والإمارات وبريطانيا

---

(1) زامبيا: قطر يقع جنوب أواسط أفريقيا، يأتي في مقدمة منتجي النحاس، ويتحصّل على عائدات ضخمة من تصديره، كما كانت محمية بريطانية، فاستقلّت عام 1963م. وعاصمتها لوساكا، وهي أكبر مدنها.

(2) ينظر: القرآن الكريم معجزة المعجزات، ص87، مصدر سابق. ج11/ 488، ط3 الموسوعة العربية العالمية؛ سبق ذكره.

(3) الرسول الأعظم محمد ﷺ ص26، مصدر سابق. يلاحظ في تعبيره كلمة: "جنودنا" مدى ما يلقيه من مسؤوليّة على عاتق الأقليّات المسلمة في مواطنها.

والولايات المتحدة...»[1]، وقد أسهمت هذه المحاضرات إلى جانب أنشطة أخرى في التعريف بداعيتنا، وتأمين ما حظي به من إجلال وتوقير عظيمين.

2 - برنامج سياحي لزيارة جامع دربان الكبير:

يعتبر البرنامج السياحي لزيارة جامع دربان الكبير من أنشطة ديدات المتميزة، ومن مشروعاته الناجحة، حيث يقوم من خلال مركزه الدعويّ الناجح باستغلال هذا المسجد لجذب الزوّار. وتعود فكرة اعتماد هذا المشروع الدّعوي الناجح إلى ما أثارته محاضراته العامة من أسئلة واستفسارات كثيرة عن الإسلام، مما كان يقتضي تخصيص متسع من الوقت للإجابة عليها، وإتاحة المزيد من الفرص للتعرف على الإسلام خارج نطاق المحاضرات، وقيودها التنظيمية، فوجد ديدات ومن معه في تنظيم هذه الزيارات السياحيّة خير مجال يضمن تلبية هذه الحاجة الدّعويّة، وبذلك أصبحت الزيارات برنامجاً خاصاً، ونشاطاً قائماً بذاته، يندرج ضمن أنشطته الأساسية المعتبرة، بعد أن بادر مركز ديدات إلى تسجيل الموقع ضمن المزارات السياحيّة في قائمة البلديّة، وعين للبرنامج من يسهر عليه قائماً بدور الدليل السياحي، والمرشد الدّعوي، فكان بما وفق له من نجاح وتطور الأول من نوعه في جنوب أفريقيا.

ويقوم هذا البرنامج الجذّاب بطريقة إعلامية لبقة على إيضاح حقائق الإسلام للزوّار وتعليمهم مبادئ الإسلام، وقيمه، والإجابة على استفساراتهم من خلال شروح ضافية، وتزويدهم مجّانًا بمطبوعات معدّة لهذا الغرض، وكثيرًا ما أبدى الزوار ارتياحهم واستفادتهم من هذا البرنامج الّذي يسجّل فضل إبداعه لديدات ومركزه كمنهج حضاري معاصر من مناهج العمل الإسلامي، له جمهوره الخاص ممن يستهويهم هذا النوع من النشاط. وقد بلغ منذ عام 1980م. - طبقًا لديدات - عدد من استضيف في هذا البرنامج الجديد ما يربو على اثني عشر ألف شخص ممن زاروا المسجد وقدموا استفسارات عن الإسلام[2]، وهو أمر ذو أهمية كبيرة في حد ذاته،

---

(1) الموسوعة العربية العالمية، مج10، ص554، مرجع سابق.

(2) ينظر: مجلّة الأمة، ع1، س1، ص28، مصدر سابق.

يكفي لوحده مبرراً للدّفع بهذا النّشاط، وإيلائه المزيد من الاهتمام والرّعاية، فضلاً عمّا يمكن أن نلمسه من تأثيره الإيجابي الّذي دفع أحد الزوار إلى التعبير في شيءٍ من الدهشة، عن انطباعه المفاجئ بقوله فيما مفاده: «كنت أتوقع الاطلاع على متحف للمواد التافهة، ولكن الحقيقة هي التي اكتشفتها ووجدتها هناك»[1]. ويرجع هذا التأثير- فيما أعتقد - إلى الطريقة التي تنظّم بها تلك الزيارات وروعة ما يقدم فيها من حقائق إسلاميّة طريفة تمثلُ ضياءً للعقول، وشفاءً للقلوب، حيث يتضمن هذا البرنامج السياحي عادة مقارنات يسيرة ومركزة بين الإسلام والصليبية، والتركيز على عرض قيم الإسلام ومبادئه، وإبراز فلسفة السلام في الإسلام من منطلق التحيّة الإسلاميّة: السّلام عليكم[2]. وللعلم فإن الغالبية العظمى من ضيوف هذا البرنامج هم من البيض، من أتباع الديانة الكنسية غالبًا، إضافة إلى زوّار راغبين في اعتناق الإسلام من مختلف الأجناس، مما يكتسي به هذا البرنامج طابعاً استثنائياً من المكانة ضمن مجالات عمل ديدات الكثيرة والتي منها أيضًا:

3 - متابعة المسلمين الجدد وتعهدهم بالرّعاية:

يشترك ديدات مع الكثير من فعاليات العمل الإسلامي في إعارة اهتمام خاص بالمعتنقين الجدد وتخصيص مساحة متزايدة من العناية بهم، تأليفاً لقلوبهم، وتمكيناً لدين الله في نفوسهم وحياتهم، غير أن ديدات من خلال المركز يعتمد أسلوباً متميّزاً لاستكمال مراسم الدخول في الإسلام، والذي يمر بعدّة خطوات تبدأ بسؤال الشخص عن صدق اقتناعه بالإسلام، وإرادته الحرّة في الإقدام على اعتناقه، مروراً بعد الاغتسال والتطهر بتلقينه كلمة الشّهادتين مشفوعاً بشرح مستفيض لمدلولها، ومتعلّقاتها، مع اختيار اسم إسلامي مشهور للشخْص إن لزم الأمر، وبعدها يتلقى أربع محاضرات على الأقل يتم من خلالها تجريده من كلّ ما هو فاسد من معتقداته الضّالّة، وأوهامه البالية، لتحل محلها عقيدة الإيمان، وأركان الإسلام، وقيم

(1) التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص28-29، مصدر سابق.

الإحسان وكل ما تدعو الحاجة إليه من ضروريات الإسلام. وتنتهي المسيرة بمتابعة إحدى أقسام المركز الدعوي لهذا المسلم الجديد، بالإجابة على تساؤلاته، وكافة استفساراته الدينية، وتزويده بعدد طيب من منشورات المركز، ويظل هذا المسلم على صلة مستمرة بالمركز- في حدود ما هو متاح له - لتلقي المزيد من الإرشادات من الأقسام المخصصة لهذا النوع من الواجب. والتي تسعى جاهدة لدمج هذا المسلم في مجتمعه الجديد، ومساعدته على التكيّف النّفسي مع عاداته، وأعرافه الإسلامية، والتي هي جديدة بالنسبة إليه.

وإن تعدد الجهات المسؤولة عن هذا النشاط الهام جداً في مؤسسة ديدات، مما يدل على ما توليه المؤسسة من عناية لبرنامج متابعة المسلمين الجدد، وعلى جدّيتها في هذا الشأن، حيث يقول ديدات: «ولدينا في المركز أقسام مختلفة للتعامل مع المعتنقين الجدد، فلقد خصّصنا واحداً متخصصاً للتعامل مع المواطنين الأفريقيين من الزّولو، ويوجد متخصص آخر للتعامل مع الّذين يتحدثون الإنجليزية»[1]، ويقوم غالبًا هؤلاء الموكلون بالأقسام بدراسة مشكلات المسلمين الجدد، وتقصي حاجاتهم الدينيّة وذلك في إطار السعي الجاد للتوصّل إلى حلول حاسمة وملائمة لها.

ولعلّ أهم هذه الحاجات يتمثل في الحصول على المنشور من :

4 - مطبوعات مركز ديدات الإسلاميّة:

من أهم المجالات البارزة في نشاط ديدات الإسلامي إصدار العديد من الكتيبات والأدبيّات المنشورة للرد على خصوم الإسلام، ودحض مزاعمهم، وللتعريف بالإسلام وبيان موقفه من بعض القضايا الاجتماعية. وإن هذا الهدف المزدوج في محاربة التنصير من جانب، وتبصير المسلمين بدينهم النيّر من جانب آخر، هو ما يرمي إليه في مختلف ما أصدره من مطبوعات دينيّة بكمياتها الهائلة. وقد أصبح هذا النشاط بارزاً ومتواصلاً على مر مراحل عمله الإسلامي، وكان يشهد سنوياً تطوراً متقدماً من

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص14، مصدر سابق.

ناحيتي الكم والكيف، ومع باهظ التكلفة المطبعية لتلك المنشورات والتي تضاعفت فيما بعد إلى أضعاف ما كانت عليه من بداية الأمر، فإن ذلك لم يحل دون ما ذكر من تطور عددي ونوعي لتلك الأدبيات، وفي إصداراتها المتعددة، برغم ما يميزها من عموميّة مطلقة لحقوق نشرها الممنوحة للجميع بلا استثناء.

ومع غلبة موضوعات المقارنة بين الإسلام والصليبية على تلك المنشورات، فإن بالإمكان تقسيمها استناداً إلى معيار ملكيتها الأدبية، ومصدرها العلمي، إلى ثلاثة أصناف رئيسة هي:

أ - **مؤلفاته الشخصيّة**: وهي مؤلفات متعددة ومتنوعة الموضوعات، أصدرها في كتيبات صغيرة باللغة الإنجليزية، ومن أهمها:

المسيح في الإسلام، هل الكتاب المقدّس كلام الله، خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدّس، محمد الأعظم ﷺ، القرآن معجزة المعجزات، المسلم في الصلاة، مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ماذا يقول الكتاب عن محمد ﷺ؟، الخمر بين المسيحية والإسلام، العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، شيطانية الآيات الشيطانية[1]، هذه وغيرها من مؤلفاته التي طبعت منها مئات الآلاف من النسخ للتوزيع المجّاني على القرّاء المحليين والمراسلين، ولتأكيد ذلك يقول ديدات: «ولقد أصدرنا عدة كتب تتعلّق جميعها بالمقارنة بين الأديان، وطبعنا ونشرنا من هذه الكتب مائة ألف نسخة في المرة الواحدة»[2]، وذلك لغرض نشر الإسلام، ومحاربة الأعداء فكراً وعقيدة.

ب - **نشره لما يخدم قضيته الإسلامية من مؤلفات الآخرين**: يعمد ديدات أحياناً إلى طبع ونشر بعض ما يستحسنه من بحوث الآخرين، ومؤلفاتهم التي يراها جيدة، تصب في المجرى العام لعمله الإسلامي وتخدم ما يتبناها من أفكار وقضايا. ومن هذا النوع ما نشره من بحث جيد بعنوان «محمد المثال الأسمى» يعبر عن رؤية

---

(1) ينظر أحمد ديدات: محمد ﷺ المثال الأسمى، ص139، ترجمة محمد مختار من سلسلة مكتبة ديدات، دار المختار الإسلامي- القاهرة.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص32، مصدر سابق.

فيلسوف هندوسي معاصر لنبي الإسلام، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة ميسور في الهند، وقد ذهب أحد المترجمين إلى تقييم هذا البحث قائلاً: «إن قيمة هذا الكتاب ترجع لعرض مؤلفه للرسول والرسالة، والمسلمين عرضاً علمياً وتاريخياً حاول فيه أن يكون محايداً، فيبينُ فضائل نبي الإسلام، وفضل الإسلام على العالم، ويرد على بعض الشبهات والافتراءات التي أثارها حوله أعداؤه من المستشرقين وغيرهم من الحاقدين»[1]، والذي يقرأ الكتاب دون سابق علم بمؤلفه يخيل إليه أنه مسلم، إذ لا يظهر انتماؤه لغير دين الإسلام فيما كتبه؛ لأنه كان موضوعياً ملتزماً. ولعل من أروع ما في الكتاب أنه يركز على قيمة التسامح والمساواة في الإسلام، متطرقاً إلى التحول الكبير الذي أحدثه في بيئته الأولى، ومنبعه التاريخي العربي، ثم في المجتمع الإنساني في عمومه، مع عناية خاصّة وإشادة منصفة بتحرير الإسلام للمرأة، مقارناً بما كان عليه وضعها قبل ظهور الإسلام، كما أنّ من مزايا الكتاب الإفاضة في ذكر شمائل النبي ﷺ ومآثره، منوهاً بجوانب عظمته المتعددة في شتى مجالات الحياة، وهو في كلّ ذلك يوثق لأطروحاته منهجياً، ويدعمها باستشهادات ونقولات من الثقات من كبار المفكرين، والأدباء ورجال الدين الغربيين.

ولا يألو الكاتب جهداً في تفنيد فرية انتشار الإسلام بالسيف ليبقى التفسير الوحيد لسرعة انتشاره متمثلاً فيما أبداه المسلمون من التزام بأخلاقيات التّسامح، وحسن المعاملة الإنسانية الكريمة النابعة من فيوضات أخلاقيّة الرسول العظيم، وهو ما أكده المؤلف بقوله: «إن أعظم نجاح في حياة محمد ﷺ جاء نتيجة للقوة الأخلاقيّة فقط، وبلا ضربة سيف واحدة»[2]. وقبل ختام دراسته يقف وقفة ممتدة للحديث عن الدور الحضاري للإسلام والمسلمين في مختلف المجالات الروحيّة والعلميّة، عارضاً العقيدة الإسلاميّة السّامية بوحدانيتها الفريدة المبدعة، والتي هي أكبر منحة كريمة يقدمها الإسلام للإنسانية، بما يتفرّع عنها من نظرة إلى الوجود، وفلسفة للحياة والموت من منظور الإسلام. إنه حقّاً لدراسة رائعة

(1) محمد ﷺ المثال الأسمى، ص 7، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه، ص 46.

تستحق إعجاب داعية عالمي من طراز أحمد ديدات وهي خليقة بمبادرته بطبعها ونشرها.

ويندرج في هذا الإطار نشره لمحاضرة عضو الكونجرس الأمريكي السابق بول فندلي التي انحاز فيها إلى الحق في قضية الصراع بين المسلمين والصّهاينة في فلسطين، حيث انتصر للجانب المسلم منددّاً بالصهاينة ومعرّياً لجرائمهم البشعة ضد الإنسانية[1].

يضاف إلى ما تقدم: تلك المحاضرة التي نشرها ديدات لدبلوماسي ألماني ممن عمل في جنوب أفريقيا، عالج فيها موضوع التفرقة العنصرية بعنوان: «الحلّ الإسلامي للمشكلة العنصرية»، وكان الموضوع من أكبر القضايا في جنوب أفريقيا وأخطرها في الظروف التي نشر فيها، ولِمَا اتسمت بها تلك المعالجة من موضوعية وجودة تصوير، كان لابد من مبادرة ديدات إلى نشرها، حيث إنها تميزت بالوضوح والبساطة وشموليّة التناول، انطلق فيها المؤلف من النصوص القرآنية، واستحضر عدداً من الأمثلة التاريخية في حياة الرسول ﷺ ومن بعده، كما عُني بفك رموز الشعائر الدينية، وما تعكسه من مساواة ونبذ التفرقة العنصرية، مسلطاً الضوء على المعالجة اليومية في كلّ من الصلوات الخمس، والحج، وفي عقيدة الإيمان بوحدة الربّ، والتسليم بوحدة الأصل البشري المشترك ومبدأ المساواة، والتسامح الديني في الإسلام.

ويؤكد المؤلف الموقف الإسلامي الحاسم في علاج المشكلة بقوله: «إن هذه الآيات القرآنية الحجرات: 13 هي الحل الإسلامي للعرقيّة والعنصرية، وهي الحل الّذي لم يبق - بقدر ما يتعلق بالمجتمع المسلم - نصيحة دينية محضة، بل إنها كانت بمثابة الجنازة التي شيّعت التميز والتفرقة العنصريّة في العالم الإسلامي إلى مثواها الأخير»[2]، ولا يخفى ما في هذه المنهجية التي تبناها ديدات في انتقاء البحوث

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص: 59 ترجمة علي الجوهري. دار الفضيلة القاهرة، مصر د. ت.

(2) أحمد ديدات، الحل الإسلامي للمشكلة العنصريّة، ص56. والمراد بالآية 13من الحجرات قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾.

الرصينة، والمؤلفات الهادفة، لنشرها مجاناً بموافقة أصحابها من أهمية قصوى في مجال العمل الإسلامي، وإن كان يعوزنا الدليل في القول بأنه مقلّد لغيره في هذا الباب، إلا أنه -كما هو بين- ليس متفرداً به عن غيره من الشخصيات والهيئات الدعوية.

ج - توزيعه الواسع لترجمة معاني القرآن الكريم: من القضايا التي شغلت ديدات، التوزيع الواسع للقرآن الكريم في هذا العالم، وبالأخص ترجمة معاني القرآن الكريم بمختلف اللغات في أوساط غير النّاطقين بالعربيّة، وقد ساقه هذا الهمُّ الشريف إلى توزيع عشرات الآلاف - وربما مئاتها- من النسخ المترجمة لمعاني القرآن الكريم، تتضمن النسخة منها النّص القرآني وترجمته مع شرح وتفسير وجيز، يباع منها بأسعار زهيدة مدعومة لاستثمارها في المجال الدعوي، ويوزع مجاناً الجزء الأكبر منها معمماً على المدارس، والكليات، والمساجد، والمكتبات العامّة، والجامعات وغيرها. وللوقوف على حجم التوزيع والجهات المستفيدة منه يحاول ديدات أن يطلعنا على شيء من ذلك فيقول: «وإلى الآن عام 1989م وزّعنا حوالي خمس وثمانين ألف نسخة. وقد اتفقنا مع إحدى المطابع على طبع مائة ألف نسخة أخرى لمساعدة إخوتنا في جميع أنحاء العالم، فعلى سبيل المثال: سوف أرسل عشرة آلاف نسخة إلى إخواننا المسلمين في أمريكا، وأريد أن أساعد المسلمين في سيرلانكا، وفي الهند وباكستان، والمملكة المتحدة»[1].

وبالمناسبة فإن مما يبعث على الارتياح، ويقتضي التقدير والعرفان هو ما توسعت فيه جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في إصدارها لطبعات متعددة للقرآن الكريم، وترجمة معانيه كاملاً ومجزّءاً إلى عدد من اللغات العالمية ذات الانتشار الواسع كالإنجليزية، والفرنسية، والتايلانديّة، والإسبانية، والألمانية، والهولنديّة، والعفريّة وغيرها من اللغات الهامة، وذلك إسهاماً في نشر الإسلام، وتعميم خطاب رب العالمين على العالمين، ومن جهة أخرى فهي ذات اهتمام فائق بمتابعة ترجمات معاني القرآن الكريم المنتشرة في العالم دراسةً وتقويماً من حيث الدقّة، والسّلامة. وبموجب هذا

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي ص34-35.

الاهتمام (عملت الجمعية على عقد ندوات حولها، كان آخرها: الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن الكريم والتي عقدت بالجماهيرية خلال الفترة 21-23/ 1/ 1369 من وفاة الرسول ﷺ بالتعاون مع كل من المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، والفدرالية الإسلاميّة في فرنسا، شارك فيها عدد من المتخصصين في هذا المجال[1].

إن كلاً من هذا التعاون الواسع، وما تم من لقاء غال على هذا الأمر الأجل بفضل جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ينهض دليلا فصيحاً على هذا الاهتمام الساهر، وتلك العناية الفائقة التي أشدنا بها سلفاً. مع إيحاءٍ قوي بأن المهمة هي فوق ما يمكن أن ينفرد بها شخص أو مؤسسة مهما كانت قدراتها وخبراتها، وفي هذه اللفتة العابرة إلى هذا المجال الدعوي المشترك بين جمعية الدعوة الإسلامية، ومركز ديدات الدّعوي ما يوحي بأهمية هذا اللون من النشاط الدعوي، وما ينفرد به من خصوصية وخطورة كبيرين.

هذا . . ومما يتصل بمجال نشر المخطوطات في عمل ديدات ومنهجه الدعوي ويعتبر متمما له، نشاطه في مجال:

5 - الإعلام بالإسلام:

إذ يشغل استخدام الجانب الإعلامي في وسائله المعاصرة حيزاً واسعاً من أنشطة الدّاعية ديدات، حيث يعتبر من أشهر المجالات التي عرف بها، وبرع في توظيفها لخدمة العمل الإسلامي. وقد تنوعت استخداماته لمختلف الوسائل والأساليب الإعلامية، كالإعلام عن القرآن في الصّحف المحليّة بنشر آيات مترجمة المعاني إلى الإنجليزية أو اللغات المحلية تحت عنوان: «القرآن يقول» أو «رسالة من القرآن»، وغيرها من العناوين المثيرة الجذّابة، مرفقة بالاسم والعنوان لتسهيل الحصول على المزيد من المعلومات، أو طلب التزويد المجاني ببعض منشورات ديدات من مطبوعات وكتب إسلامية، إلى جانب الإعلان عن الإسلام بطرق فنيّة مقبولة من خلال لوحات خشبية أو معدنيّة، وأخرى

---

(1) صحيفة الدعوة الإسلامية، ع765، ص5، بتاريخ 11 جمادى الآخرة 1369من وفاة الرسول ﷺ، طرابلس.

مضيئة، تعلق في أماكن بارزة في الطرق، والشوارع، وفوق المباني، والعمارات الشاهقة، وغيرها من المواضع التي تجعلها لافتة للأنظار ليلاً ونهاراً، وهي تحمل عبارات قويّة في إثارتها، ومصطلحات شديدة الجاذبية من قبيل «مرحباً بك إلى الإسلام» و«اقرأ القرآن. . . . العهد الأخير». والغاية من هذه الإعلانات وبهذه الصورة، هي فيما يقول ديدات: «إن فضولهم أمر مهم بالنسبة لنا، فهذا يدفعهم للبحث والمعرفة ويجعلهم يفتشون عن القرآن، ونحن نحقق هذا الهدف بالإعلان عن ذلك في أعلى المباني»[1]، وقد نشرت هذه اللافتات الإعلامية في عدد من المناطق. ولكن رغم ما يميز هذا الأسلوب الإعلامي الّذي جاء انعكاساً لظاهرة شائعة في جنوب أفريقيا من بعد حضاري هادئ في الدّعوة إلى الإسلام، فإن ذلك لم يحل دون اعتراض المختار البلدي لمدينة دربن عليه بدعوى مزعومة باطلة، من قول بأنه يثير الشغب، ويستفزّ الجماعة المسيحية، وأنه بسببه قد ووجه باحتجاجات واردة من قبل بعض المواطنين، وغير ذلك من الادعاءات الحاقدة المعبرة عمّا يكنّه أعداء الإسلام لدعوته من عداء قديم، وحقد دفين، وقد نوقش من قبل القائمين على المركز الدّعوي مناقشة واعية استندت على مبدأ الحرّيّة الدّينية والذي تكفّل به دستور البلاد كحق مضمون للجميع[2].

وقد استحدث الدّاعية أحمد ديدات في ضوء عنايته بدور الإعلامي في التعريف بالإسلام برنامج «التليكوم الإسلامي» وهو عبارة عن تخصيص غرف ذات واجهات خارجية مطلة على الشوارع العامة لعَرض برامج إسلامية عبر شاشات تلفزيونية كبيرة، تجذب المارة في الشوارع للترحيب بالرّاغبين منهم في الدّاخل، للمشاهدة على مقاعد جاهزة لهذا الغرض، مع تقديم ما تيسّر من خدمات الشاي وغيرها مجاناً، ويمتد العرض في هذا المجال يومياً لمدة ست عشرة ساعة[3]، أو ما يزيد، وللإعلام أيضًا فقد

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص32، مصدرسابق.
(2) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.
(3) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 42، مصدر سابق.

أنشأ ديدات عام 1961م صحيفة (الموقف) التي توقف صدورها، وخلفتها صحيفة (البرهان) التي جمعت بين مهمة تقديم معلومات مفيدة عن الإسلام من جهة، والتوثيق الإعلامي بتغطية مختلف نشاطات مركز ديدات الدّعويّ من جهة أخرى.

ويلحق بالإعلام الصحفي مشروع نشر مفكرة إسلامية حولية لغرض البيع، ولكن هذا المشروع استمر من مطلع الستينات إلى أواسط السبعينات فتوقف عندها عن الصدور.

ونظراً للأهمية التي تكتسيها قضية الإعلام في فكر وعمل ديدات الإسلامي، فإن العودة لإتمام الحديث عنها مطلب لابد منه، وذلك في موضع لاحق ومناسب من هذه الدراسة.

6 - الاحتفال بالمناسبات الدّينية:

يغتنم ديدات - كغيره عادة - فرصة المناسبات الدّينية للاحتفال بها وإحيائها بمحاضرات، وبرامج إسلامية تعد من صميم عمله الإسلامي، وقد يدعى أحياناً إلى بعض المناطق المسلمة للمشاركة في الاحتفال بتلك المواسم والمناسبات، والتي غالبًا ما يكون منشّطها، وكان لما يكنه من تقدير خاص لذكرى المولد النبوي الشريف أنه كلما وجهت إليه دعوة للاحتفال بها بادر إلى قبولها فور ورودها، لما يرى فيها ويعتبرها مثابة امتياز وتشريف لشخصه المتواضع[1]، فلذا حين قرر مسلمو جنوب أفريقيا الاحتفال بذكرى مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم، بتنظيم متعاون من دائرة الدّراسات العربيّة، والمركز الدولي للدعوة الإسلامية، إلى جانب عدد من المدارس المحلية، كان للمركز الدّعوي وللقائمين عليه كديدات وغيره دور محوريّ في الاحتفال بتلك المناسبة العظيمة، لما لها من دلالات عميقة، وأبعاد تاريخية وواقعية، وقد نجح المنظمون لها في إضفاء طابع وطني على هذه المناسبة، بأن شاركت في الاحتفال بها وفود عن مختلف مناطق جنوب أفريقيا.

وأحسب أنّها كانت فرصة ذهبية نفيسة لطرح ومناقشة هموم الأمة، ومشكلاتها

---

(1) ينظر: الرسول الأعظم محمد ﷺ ص 24، مصدر سابق.

الرّاهنة، والحوار حول قضاياها المركزية الجادّة، وللنظر الموضوعيّ الشامل خصوصاً في مسيرة العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، وما جاورها من مناطق جنوب القارة الأفريقية، من منافذ ومراكز الغارة التنصيرية في حملتها الرامية إلى تطويق المسلمين، وإفراغهم عن محتوى عقيدتهم وهويتهم، فهذه وغيرها من القضايا التي أظن أنها كانت حاضرة بوضوح في بال من عملوا على تنظيم هذا اللقاء التاريخي الكبير على مستوى جنوب أفريقيا وفي جدول أعمالهم.

ولعل تعلّق ديدات بنشاط الاحتفال بالمناسبات الدّينية، وما صرفه في هذا المجال من عناية وجهود يعود إلى ما وجده فيه من أهمية متعدّدة، حيث يعتبر وسيلة ناجعة في استقطاب غير المسلمين إلى جانب ما يحتويه من بعد ترفيهيّ، فضلاً عن كونه مناسبة لتعميق الفهم والصّلة بالإسلام، وشدّ روابط الأخوّة، والانتماء الثقافي، وغيرها ممّا يمكن أن نجد ما يعززها في جهود ديدات في مجال :

7 - تقديم الخدمات الاجتماعية :

عُنِيَ ديدات من خلال مركزه الدّعويّ بالعمل في مجال تقديم الخدمات الاجتماعية، والقيام بأعمال خيرية تمثلت في المساعدة على تقديم تسهيلات للرّاغبين في الزواج، وصيانة الأسر المسلمة بالحيلولة دون وقوع الطلاق فيها ممّا يعرضها للتفكك والوهن، علاوة على جهوده المشكورة في تأليف قلوب المعتنقين الجدد للإسلام بتقديم مساعدات معنوية ومادية للمحتاجين منهم. وفيما يلاحظ هنا، هو أن فترة سبعينات القرن العشرين، تعتبر من أنشط فترات مزاولته لهذه الأنشطة. ففي حينها بدأت تشيع ظاهرة الزّواج بين المسلمين وغيرهم، وخاصة الهنود، الأمر الذّي ظهرت انعكاساته السلبية في تهديد تناسق النسيج الاجتماعي للأقلية المسلمة في البلاد، وتبدّتْ في جملة المشاكل الاجتماعية، والقلاقل العائلية التي أفرزتها هذه الظاهرة ذات العواقب الوخيمة غالبًا، فعمل ديدات ضمن نشاطات المركز الدّعوى على التدخل في محاولة لتسوية الوضع من خلال ما قام به من عمليات نشر الوعي

الإسلامي، ببيان الأسس الإسلامية السوية في بناء العلاقات الاجتماعية، وخاصة العائلية منها، منطلقاً من واقع النصوص القرآنية، والنبوية، وكانت المعالجة تتجه إلى التركيز على بيان ضوابط علامة التزاوج بين المسلمين وغيرهم، وتوضيح أسس السّلوك الإسلامي، وما يتعين الالتزام به في الحالات التي يفرض فيها الزواج خارج النطاق الدّيني نفسه على الإنسان المسلم كشبه ضرورة لابدّ منه[1]. وأعتقد أنه كان لهذا النشاط مردوده الطيب في إزاحة الكثير من ضباب الغفلة والجهل في هذا الشأن، وفي العمل على إزالة بعض من المشكلات التي طرأت منغصة الحياة الزوجية في عدد من العائلات، فهو بذلك نشاط لا سبيل إلى التقليل من أهميته بحال من الأحوال.

وربما رأى ديدات في هذا النشاط الاجتماعي خدمة للأقلية المسلمة أكثر من غيرها من مواطني البلاد، فتأمل في توسيع نطاق خدمته الاجتماعية لتستوعب كل مجتمعه من خلال اعتماد مشاريع الإغاثة والإنماء، والتي كان من أولها وأشهرها تبنّي:

8 - مشروع زمزم:

وهو أحد المشاريع الإنمائية التي تبناها مركز ديدات الدّعويّ لمساعدة المناطق الفقيرة المحتاجة، وكان هذا المشروع المعتمد عام 1983م يهدف إلى حفر مجموعة من الآبار للتغلب على مشكلة المياه في مناطق تعاني منها، وكانت الخطة المرسومة لهذا الغرض تنص في مرحلتها الأولى على حفر عشرين بئراً، ولكن المشروع أجهض ولم يقدر له الخروج إلى حيز التحقيق، لأسباب يقال إنها إدارية في معظمها[2]، وهو ما يثير العجب! ويبعث على التساؤل؟ وإن كان من المهم أن نعلم أن تنفيذه كان يقوم على جمع التبرعات في حملة قام فيها المركز بطباعة وتوزيع 100 ألف بطاقة لتأمين متطلبات التمويل الكافي. على أن هذا المشروع مع توقفه، وعدم تنفيذه يصوّر لنا جانباً مغموراً من تلك الجوانب الكثيرة المجهولة عن نشاط ديدات، ومنهج عمله الإسلامي في مجالاته المتعددة والتي لم يعرف منها في الغالب إلا ما أبرزه الإعلام لسبب أو لآخر.

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر السابق.

9 - نشاطه في مجالي التعليم والتكوين :

وردت الإشارة فيما سبق إلى أن ديدات قد انشأ مؤسسة السّلام لخدمة العمل الإسلامي، وهي تتضمن إلى جانب وحدات أخرى مدرسة تعليمية تقوم بأداء رسالة العلم إلى أبناء منطقتها، وتستقطب غير المسلمين لإرسال أبنائهم إليها لينشأوا في رياض التربية والتعليم الإسلاميين .

وإن موضوع التعليم يشكل في فكر ومنهج ديدات قضية جوهرية، تنكشف لنا حقيقتها حين نلقي نظرة موسوعية فاحصة على مختلف مجالات عمله الإسلامي، حيث نجد أن كل تلك المحاضرات التي دأب على إلقائها، وما قام بها من دروس كثيرة، ومواعظ متناثرة، في مناسبات مختلفة هنا وهناك، فضلاً عن تلك التي تمت بناء على طلبه، وتوجيهاته، هي في مجملها تمثل جزءاً صميمـاً، مما يعول عليه ديدات، في إطار رسالته التعليمية ذات الهدف الدّعويّ، في منظورها الأوسع. وتأتي كتاباته، ومنشوراته الهائلة لتعميق وتوسيع دائرة حركته التعليمية التثقيفية من منطلق نشاطه الدعوي المحيط .

وفيما يخص التكوين فقد لمع ساطع اهتمامه في مجال تدريب الدّعاة وفق منهجه الدّعويّ لمقاومة المؤامرة التنصيرية، ومناهضة جحافل المنصرين، وقد توفر لديه عدد من الطّلاب[1] والأصحاب، ممن ترسموا خطاه، واقتفوا أثره في مسيرة طويلة يرجى منها الوصول إلى المحطة التي نزل عندها ديدات بزاد وافر من عُـدَدِ وذخائر الكتاب المقدس، لخوض معارك ضارية طالما انحسمت لصالحه، وخرج منها منتصراً لدينه وأمته .

وفي سياق متطور لعمله في مجال تدريب الدّعاة أقدم عام 1998م على تجربة جديدة بإقامته في مركزه الدّعوي دورة تدريبية للدعاة المسلمين، شارك فيها عناصر منتقاة من مختلف القارات مع محدودية عددهم، واستمرت لمدة شهرين، وكانت الدّورة الأولى من نوعها في أنشطة وأعمال الدّاعية ديدات، ولنا مع هذه الدّورة موعد

(1) ينظر: معركة التبشير والإسلام، ص: 186، مرجع سابق.

آخر للحديث عنها في موضع أحق وأنسب[1].

10 - نشاطه الإسلامي في مجال المراسلات :

يصور لنا الشيخ ديدات نشاطه في مجال المراسلات قائلاً : «فالرسائل التي تأتي إلينا كثيرة جداً، ولابد أن نجد حلاً لهذه، لأن كمّ الرّسائل كبير إلى الحد الذّي يمكن أن يستنفذ كل طاقاتنا»[2]؛ إذ تتراوح الرسائل الواردة يومياً ما بين مائة ومائة وخمسين[3] رسالة، وهي إما لطلب كتبه ومطبوعاته بالمجان، أو لطرح أسئلة دينية، والاستفسار في مسائل معينة. وهذا الكمّ الهائل من الرسائل اليومية الواردة من مختلف قارات العالم، بما تتطلبه من ردود مادية وإجابات معنوية سريعة يجعل من هذا اللون من النشاط مجالاً قائماً بذاته في عمل ديدات وخدمات مركزه الدّعوي. فلذا لا نعدو الصواب حين نعتبره مجالاً مستقلاً، ونفرد له اعتباراً خاصّاً بالنظر إلى أهميته ودوره الدعوي، ولِمَا يوحي به من تقبل وتفاعل الناس في كل مكان مع جهود الشّيخ ديدات، وهو ما يعبر عنه هذا الحرص العالمي في التوجه إلى الاستفادة من خدماته، والانتفاع بعمله ومنهجه. وهذا المجال يعتبر أحد المجالات الواعية التي يتحقق من خلالها تبليغ الإسلام بهدوء وعقلانية، ليتم تقبله من قبل الآخرين عن نافذ وعي، وكامل اقتناع.

11 - استعانته بغير المسلمين في نصرة قضايا المسلمين :

من إيجابيات ديدات الكثيرة أنه مسكون بروح التعاون مع غيره في تحقيق ما تقتضيه خدمته للإسلام والمسلمين، فلذا نجده يتعاون إلى حد ما مع إخوانه المسلمين في مختلف المجالات التي من شأنها أن تفتح آفاقاً رحبة أمام حركة الدّعوة الإسلامية، وتمكن للحياة والعمل الإسلاميين. ولا نعدم في مسيرته المباركة : من منطلقها، وتطوراتها، وإنجازاتها، ما يؤيد خط التعاون في عمله، ويؤكد سيره عليه. ولكثرة الأمثلة في هذا

(1) ينظر : ص : 333 - 343، من هذا البحث.

(2) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 38، مصدر سابق.

(3) المصدر والصفحة نفسها.

الجانب ووضوحها ما يغني عـن العـرض والبرهنـة. علـى أن مـن خصوصياتـه المميزة لـه حقاً، ظاهرة الاستعانة في نصرة القضايا المسلمة بالآخرين من غير المسـلمين، وبـالأخص من الشخصيات المنصفة من ذوي الضمائر الإنسانية الحية، المعروفة بانحيازها وانتصارهـا لكل ما هو إنساني في جوهره، بغض النظر عن الفـوارق الشـكلية العارضـة. وهـذا المبدأ الحكيم هو الذي حدا بالشيخ ديدات إلى تحقيق لقـاء تـاريخي هـام مـع عضـو الكونجرس الأمريكـي السّابق بـول فندلـي، بمدينـة كيـب، لدراسـة ومناقشـة القضيـة الفلسـطينية باستيعاب دافق مؤثر، وذلك في محاضرة عامة شهدت حضوراً حاشداً.

فلقد كان حقاً لقاء مفاجئًا، إذ أسفر عن العديد من الحقائق عن جرائـم الصهاينـة في فلسطين مما كشف النقاب عنها، وحمل الثقيل مـن الهمـوم والإدانـات الموجهـة إلـى المحتلين الصهاينة، فكان بذلك مكسباً عظيماً من مكاسب ديدات الوفيرة، في انتصاراته للأمة وقضاياها.

ولأهمية الحدث، وجدّيته في مجال العمل الإسلامي، ولتسجيل الفضل لمحققه قال الأستاذ علي الجوهري: لا تستطيع حكومة من الحكومات، لدولة مـن الـدول، أن توفـر الأموال اللازمة لتحقيق مثـل هـذا اللقـاء الـذي حققـه الدّاعيـة الإسـلامي الكبير العلامـة «أحمـد ديـدات». ولكـن توفـير القـدرات والمواهـب الفنيـة اللازمـة لإنجاحـه كمـا أنجحـه العلامة الكبير أحمد ديدات أمر بعيد المنال بغير جدال إن لم يكن في نطاق المحال[1].

إن هذا المنهج البديع الرائع يستحق التنمية والاستثمار، بتوظيفه في خدمة مختلف قضايانا العادلة، في كافـة الدوائـر العلميـة والإعلامية، وفي شـتى السـاحات الإنسـانية على المستويين المحلي والعالمي، وهو ما حاول ديدات القيام به متعاونـاً مـع غـيره تـارة، ومنفرداً بالمهمة تارة أخرى كما يظهر ذلك في:

12 - نشاطه في مجال الرّحلات الدّعوية:

ولئن كان ديدات يلتقي مع غيره من قدامى ومعاصرين في ممارسة نشاط الرّحلات

---

(1) من كتاب أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 5، ترجمة على الجوهري، مصدر سابق.

الدعوية، فإن مما يميزه في هذا المجال كثرة رحلاته، وتنقلاته عبر العالم، حيث قد جاب مختلف مناطق العالم شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، وزار العديد من الدول. ولاشك أنه قد كابد الكثير من الصعاب والمتاعب، وهو يتجشم عناء السفر من منطقة لأخرى للقيام بواجبه الدّعوي، كما أمضى عشرات السنين في هذا العمل الإسلامي دون أن يلقي بعصا الترحال أو يركن إلى الراحة والاستقرار، بل تضاعفت رحلاته، وتواصلت تنقلاته داخل القارة الأفريقية، وخارجها، ولا يستبعد أن تكون إجراءات السفر الرسمية قد حالت دون تحقق بعض أسفاره، فصدّته عن الوصول إلى بعض الجهات التي كان يود زيارتها، حيث قد حدثنا عن التزامه في رحلاته المتعددة باستيفاء الشروط اللازمة لتمامها، فقال في مناظرته للقس سواجارت: «عندما قصدت المجيء إلى الولايات المتحدة، فرضت عليّ حكومتكم الحصول على تأشيرة، ونفذت كل الإجراءات المطلوبة للحصول على تأشيرة . . .». وأيضاً حدث أني أردت الذهاب إلى (زامبيا) «حينما حصلت على استقلالها فسلموني نماذج الحصول على التأشيرة، وكان عليّ أن أوقع . .»[1]. وكان أغلب ما تتجه زياراته نحو دول الخليج العربي، وإلى العواصم الغربية من أوروبية، وأمريكية، فظل الأمل يحدوه بحسه الإسلامي المرهف، وثقل ما يعانيه من هموم العمل الإسلامي في اللقاء بشخصياتها البارزة، والاتصال بمؤسساتها الموقرة في الأوساط الدينية والفكرية، وذلك للتحاور معهم وتبادل وجهات النظر حول ما يثيرها من قضايا مفيدة ومهمة بالنسبة للطرفين، وقد ألقى في تلك الزيارات عدّة محاضرات، وعقد أثناءها سلسلة من اللقاءات الحوارية، كما حرص فيها على الاجتماع بالجاليات المسلمة وإسداء ما تيسر من نصائح وإرشادات إليها، ومتحدثا عن تجربته في العمل الإسلامي، مخطراً بفداحة التحديات التي تواجهها الأمة المسلمة، وجسامة المشكلات والعوائق العائقة لنهضتها الحضارية المنشودة. وهو في اتصاله بالإعلام، وقادة الرأي العام، والجماهير في العالم الغربي

(1) أحمد حجازى السقا: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ أحمد ديدات والقس سواجارت، ص 190، مكتبة زهران – القاهرة، د، ت.

يحرص على الدفاع عن قضايا الأمة، وحماية حقوقها، وينتصب في وجههم محاميـاً بارعـاً عن الإسلام والمسلمين. ومما يدل على ذلك أنه في زيـارة لـه لبريطانيـا التـي أرى أن الشيخ قد شغف بها كثيراً، وكانت لها عنده مكانة خاصـة تدفعـه في بعـض المواقـف إلى الإفصاح عن اعتزازه بها وببعض ما يتصـل بهـا كقولـه: «لقـد ولـدت - أنـا أحمـد ديدات - بريطاني الجنسية، ولازلت أحتفظ بكل اعتزاز بجواز سفري البريطاني الـذي بلغ عمره الآن أكثر من ستين عاماً.. ! إنني لا أعرف لقيمته حدوداً»[1].

ففي زيارته تلك - والهجمة الإعلامية الغربية على العالم الإسلامي على أشـدها في موقفه الثائر ضد صدور كتـاب الآيـات الشيطانية للكـاتب المارق سـلمان رشـدي - عمل ديدات على تأجير قاعة واسـعة والإعـلان بصـورة ملتويـة عـن محـاضرة عامـة، شهدها ما يبلغ حوالي ستة آلاف شخص، سلخ فيها رشدي سلخاً وعرّاه من أسـلحته الوهمية الواهنة، مميطاً اللثام عن وجهه المعادي لكل ما ينتمي إنسانياً إلـى عـالم القيـم والأخلاق، ليكشف بذلك عن عداوته للإنسانية كلها، ولعل مـن المهـم إدراك أنـه قـد لجأ ديدات إلى أسلوب المحاضرة، بعد أن رفضت هيئة الإذاعة البريطانيـة عرضـه عليهـا مبلغ خمسين ألف جنيه مقابل تخصيصها له خمس دقائق فقط للحديث عـن رشـدي، وكتابه، وتوضيح ما ينطوي عليه من توجـه خبيـث عـابث[2]. وعليه فإن هـذا المنهـج العقلاني الفاعل هو أخوف ما يخاف منه العالم الغربي، وهو ما كان يدركه جيداً خبير الدعوة الإسلامية الشيخ أحمد ديدات.

ولعل في الاستدلال بهذا الموقف ما يغني عن غيره من الأدلة التي لا حاجة بنا إلى أن نسوقها لتأكيد مـا طرحنـاه عـن نشـاط ديـدات في رحلاتـه الدّعويـة، ومحاماتـه عـن قضايا الأمة ومواقفها، وذلك في مختلف رحلاته ولقاءاته. ومما له أيضاً اتصـال قريـب بهذا المجال في عمل ديدات الإسلامي، وقد يتقاطع معه في بعض الحالات هــو :

---

(1) أحمد ديدات، شيطانية الآيات الشيطانية، ص42، تعريب علي الجوهري، من منشورات دار الفضيلة، القاهرة، د.ت، د.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 64.

13- مشاركته الفاعلة في المؤتمرات الإسلامية :

تسجل لديدات في سجل مجالات عمله الإسلامي الخالد. فاعلية مشاركته في العديد من المؤتمرات الإسلامية: الإقليمية منها والدولية إلى جانب تلك التي انعقدت منها محلياً في جنوب أفريقيا، مثل مؤتمرات الندوة العالمية للشباب الإسلامي[1]، ومؤتمرات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، وغيرها من المؤتمرات والندوات التي تعقد في ظروف مختلفة زماناً ومكاناً للنظر في قضايا المسلمين، ومراجعة مسيرة العمل الإسلامي، تقييما وتخطيطاً وتنسيقاً، وتبادل الخبرات، ووجهات النظر بشأن مختلف الموضوعات ذات العلاقة بالإسلام والمسلمين. ومما درج عليه ديدات وعرف به في تلك المؤتمرات إفصاحه الصادق عن مراده بحرارة دون لثام، فكان حين يأتي دوره في الحديث تراه يستفيض في نقل تجربته إلى الآخرين بكرم وسخاء، مغلباً في مداخلاته جانب الإنذار بالخطر التنصيري الداهم بحملاته المسعورة، مستحثـًا اهتمام المسلمين وجهودهم للنهوض بواجب الدعوة إلى الله؛ نشراً لرسالة الإسلام، وحماية للذات الحضارية المسلمة، ويتعميق المجال الحيوي للأمة، والعمل الفعال للتوسيع من نطاق مناطق انتشار المسلمين. وفي سبيل هذا الشأن العظيم كان - وهو يتحدث إلى إخوانه من رجال الدعوة وقياداتها - غالبًا ما تتصاعد درجة حرارة انفعالاته، وتحتد نبرات صوته، وكأنه يتمزق تحسّراً ما بين مرارة إحساسه بخطورة جهود المنصرين السّاهرة، وما يقابل ذلك من تخلف وقعود غالب المسلمين عن الحركة والعمل، في مدافعة ما يتربص بدينهم ويهدد وجودهم من مخاطر هائلة، هذا ولنا فيما بعد وقفة على مشاركته في أحد مؤتمرات الدّعوة الإسلامية بطرابلس، وذلك في موضع آخر من هذا البحث[2].

غير أن من تمام العلم بمجالات عمل ديدات الإسلامي، وحسن إدراك العوامل التي أتاحت له هذه المشاركة الواسعة، ويسرت له سبلها، أن نعلم أن وجود مركز دعوي نشط في أداء مهمته، منظم في جهاز إدارته، بإشراف ديدات - بعد مشاركة في تأسيسه -

---

(1) ينظر: أسماء الفائزين بجامعة الملك فيصل العالمية "ص 142، من مجلة الفيصل، ع 107، س 6، 1406هـ-1986م.

(2) ينظر: 348-360، من هذا البحث.

هو عامل أساسي ورئيس من العوامل التـي هيأت لـه هـذه الفـرص العظيمـة ، وسـاعدته على القيام بمختلف تلك النشاطات السابقة ، والانخراط في مجالاتها المتعددة .

إذن : فلما يحظى به هذا المركـز من أهمية خاصـة ، لا يسـعنا إغفـال دوره ، وقـد أصبحت إدارته في حدّ ذاتها تشكل جزءاً له اعتباره في أعمال ديدات ، مما يجعـل تجـاوز المركز دون الحديث عنه نقصاً مشيناً في سياق أي حديـث كهـذا عـن أنشـطته ومجـالات عمله الإسلامي خاصة ، وعن منهجه في الحوار والدعوة على نحو أعم .

14 - المركز الدّولي للدّعوة الإسلامية :

كانت بداية المركز عام 1958م ، حينما تحمس عـدد مـن شـباب محـاضرات ديـدات الأسبوعية بتشكيل فريق دائم للمحاضرات والحـوارات الدّينية ، مـن خـلال مركـز ثـابت أريد له منذ بدايته أن يكون دولياً وللدعوة الإسلامية خاصة ، وقد ظهر المركز إلى الوجود في ظروف محلية معقدة ، وملابسات دولية دقيقة ؛ حيث كان ذلـك في سـياق أحـداث مـا بعد الحرب العالمية الثانية ، بما أفرزته من مضاعفات ، ومضايقات ، وكـان مـن نتائجهـا أن تحول العالم الإسـلامي إلـى هـدف أساسـي ، شُنّت عليه مختلـف الحمـلات : عسـكرية وسياسية وتنصيريـة ، وسـعى المتـآمرون إلـى تجزئتـه إلـى دويـلات وجنسـيات ، إمعانـاً في إضعافه من أجل القضاء عليـه . وفي سياق هـذا السـباق مـن التـآمر الإمبريـالي ، تعـززت الغـارة التنصيريـة ، وانتشـرت في معظـم أرجـاء جنـوب أفريقيـا . وبحلـول عـام 1950م نجحت الخريطة التنصيرية في ضم واستيعاب أو سـاط وجماعـات مـن غـير المسـلمين عـن طريق المدارس والدّورات التنصيريـة ، وملتقياتهـا المتعـددة في كافـة أرجـاء البـلاد . وكـان يسـعى المنصرون فيمـا يطمعـون فيـه إلـى توسـيع نطـاق عملهـم ، وتركـيز جهودهـم لاسـتقطاب الأقليـة المسـلمة هنـاك ، فهبـوا مكثفـين مـن نشـاطاتهم في محيـط المسـلمين ، وضاعفوا من أسلوب توزيع المذكرات ، والتردد على المنازل ، وعمليات التنصير الميدانـي في السّاحات . وكانت الأقلية المسلمة من جانب آخر تتعرض لحملـة إعلاميـة شرسـة مـن ذوي العواطف والميول المضادة للإسـلام مـن مختلـف التيـارات الفكريـة[1] ، ممـا وضعهـا

(1) ينظر التقرير الوارد عن ديدات ومركزه ، مصدر سابق .

اضطراراً أمام واقع المقاومة؛ إذ لم يكن عنها بدٌّ ولا بديل، فوجدت نفسها ملزمة - بل مرغمة -على رد الفعل المضاد لوابل الهجمات التي تمطر عليها، فكان لابد من الدفاع عن النفس من أجل حياة عزيزة كريمة. وهو ما لم يكن ميسوراً في غياب شخصيات مؤهلة ومؤسسات متخصصة، في بيئة اعتصم مسلموها بالهدوء وإطباق الصمت بسبب ما كان يخيم عليهم من جهل عام بفنون هذه المعارك الدينية الحديثة، وأساليبها الفكرية الماكرة، ناهيكم عن وسائلها الإعلامية المتطورة، والتي كان العدو يستغلها من حين لآخر لإثارة قضايا مثيرة لحفيظة المسلمين، مجنداً معه كافة الدّوريات الإعلامية البريئة باتخاذها طعمة سائغة في صنّارتها لاصطياد المسلمين، ولتحقيق ما ترنو إليه من علمنتهم، وإبطال مفعولهم في حالة تعذر تنصيرهم، أو ارتدادهم عن دينهم. فمن هذا المنطلق، ولِمَا أدت إليه الأوضاع، دعت الضرورة إلى تأسيس هذا المركز الدولي للدعوة الإسلامية بمدينة دربان للقيام بمهمة التصدي وغيرها من مهام نشر الإسلام والدّفاع عنه.

وفيما تفيد به المعلومات الواردة في تقرير دعوي وعلمي - اعتمدنا عليه كمصدر وحيد متوفر في هذا الخصوص - تعتبر الفترة ما بين عام 1959 إلى 1962م من أهم المراحل المبكرة في حياة المركز، إذ ظهر فيها نموه السريع من خلال توسعه، وانتشار نشاطاته التي طبقت الآفَاقَ بشهرة هذا المركز. وفي عام 1965م انتقل المركز إلى مقر جديد له وبقي فيه لغاية 1986م لينتقل أخيراً إلى مقره الحالي بشارع الملكة في مدينة دربان، أترى هل ثمة من دلالة عملية لهذه الانتقالات من مقر لآخر؟ وهل يمكن الاعتقاد من خلالها بأن المركز كان يعاني من أزمة عدم الاستقرار الطويل بما لها من تأثيرات على مجريات العمل وإدارته؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تغيير للجو، وشحذ للهمة من أجل انطلاقة جديدة وجادة، وفق خطط عملية مستخدمة؟ أم أنه ليس أكثر من تعبير رمزي عن الإمكانيات المادية التي توفرت للمركز في فتراته اللاحقة، فأصبح يتلملم مستطرفًا الحياة في أجوائها؟ وعلى أي حال يبقى كل هذا وذاك وغيرها من الاحتمالات واردة، وقابلة للعرض والنقاش، مع وضع اعتبار خاص لما ظل عليه المركز من أول نشأته إلى يومنا هذا من ضبط دقيق لشؤونه الإدارية والمسائل المالية منها خاصة، حيث كان القائمون بأمره يجمعون له المساعدات، ويفتحون باب التبرعات الخيرية في الأشهر والمناسبات المباركة،

ويقومون كذلك بتوجيه طلبات الاستمناح إلى بعض الشخصيات والهيئات لتحمل نفقات طباعة بعض المطبوعات، أو تمويل أحد المشاريع. وكان الحرص شديداً على صرف الموارد المالية في شؤون الدعوة، والعمل الإسلامي: من نشر وإعلام وإيفاد واستضافة وغيرها، بعد صرف المخصصات الشهرية: من مرتبات، ومستلزمات إدارية. وتحقيقاً لمقتضيات الضبط كانت الإجراءات المالية تسجل بدقة متناهية لإخضاعها للمراجعة والتحقيق من قبل شركات محاسبة عامة، بموجب عقود بينها وبين المركز للنظر في مسائله المالية، والإشراف على مهمة الرقابة والتفتيش من حين لآخر[1].

وربما - فيما يبدو - يكون هذا الإجراء الدقيق هو الذي ضمن للمركز ما تحدث عنه ديدات قائلاً: «بدأنا المركز عام 1958م برصيد مالي مقداره ثلاث جنيهات وخمس شلنات ونحن حالياً نملك المبنى الذي به مقر المركز، وقد تخلصنا من كل الدّيون، واشترينا مبنى آخر، سنجهزه بقاعة ضخمة للجمهور، ولدينا محلات ودكاكين كثيرة تدر علينا دخلاً وعائداً، وعملنا في تطور وتقدم»[2].

ومن الناحية الإدارية فقد كان مقرراً في لائحة تأسيس المركز العمل بنظام تصعيد المجالس الإدارية، على أساس التعاقب سنوياً على إدارة المركز والإشراف عليه، وهو ما يفهم في إطار ظروف تأسيسه، وبما كانت له من قاعدة شعبية مُقَرِّرَة يرجع إليها. وبحلول عام 1980 اقترح ديدات تشكيل لجنة خاصة ودائمة تستمر عضويتها مدى الحياة، وإمدادها بصلاحيات واسعة تمكنها من العمل الجاد مراعية فقط مصلحة المركز وأهدافه، وحتى دون مشاورة الآخرين، أو إبلاغهم أحياناً، وهذا الاقتراح الذي تم اعتماده عائد - فيما أظن - إلى فتور وإهمال، لمسه ديدات في العامة من الناس. وبتقصيرها في التفاعل والمتابعة، وعملاً بموجب اقتراحه شكلت لجنة دائمة وقوية من أربعة أعضاء بالإضافة إلى ديدات نفسه، وتم تسجيل العضوية الدائمة لهؤلاء الأعضاء في سجلات المحكمة العليا طبقاً لمقررات الدستور وهم: أحمد ديدات،

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 27، مصدر سابق.

فنكر، غلام حسين أقجى، يوسف علي، محمد يوسف بخاس .

وفي العام 1987 قدّم هـذا الأخير استقالته لأسباب مجهولة، وهـو العام نفسه الذي توفي فيه أحد أبرز قادة المركز وهو السيد فنكر، فأصبح موقعهما الوظيفي شاغراً من بعدهما، الوضع الذي اقتضى التعويض عنهما بعنصرين آخرين هما: يوسف أحمد ديدات، وتوشد يوسف علي، وهما نجل كل من ديدات ويوسف علي[1] .

لنجد أنفسنا بذلك في مواجهة وتأكيد ما أسميناه من مشكلات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا بمشكلة الوصاية على المساجد ومؤسسات العمل الإسلامي، حيث يخلف الآباء أبناؤهم دون مراعاة العوامل الموضوعية، والضوابط العملية. ويعتمد المجلس يوم الخميس من كل أسبوع لعقد اجتماعاته الإدارية لمناقشة المستجدات، وتداول النظر في شؤون المركز ومختلف مسائل عمله الإسلامي بكلياتها وجزئياتها .

وفيما يتصل بنشاط المركز وأقسامه، فمن غير المبالغة القول بأنه قد شهد نمواً مطرداً وكسب سمعة عالمية طيبة؛ بفضل رئاسة أحمد ديدات وإشرافه عليه، في فترة من أزهى مراحل حياة المركز وأنشطها؛ إذ وظف ديدات في إدارته للمركز ما كان يتمتع به من رصيد إداري فكراً وممارسة، مما تحقق له أيام أن كان مديراً لمصنع الأثاث إلى جانب عدد من الدورات التي تلقاها في الإدارة والمحاسبة في تلك الأيام. وبتوفيق الله تعالى ثم بفضل تلك المعارف النظرية والخبرات العملية تطور المركز كثيراً، وتوسع في أقسامه وأجهزته المتعددة، والتي تتضمن قسماً للنسخ المرئي (الفيديو) يقوم شهرياً بنسخ مئات النسخ من أشرطة ديدات وغيره من مشاهير العمل الإسلامي، من قبيل الأشرطة التي عرف بها المركز في موضوعات الدّعوة من محاضرات، وندوات، ومناظرات[2] .

ويشكل هذا القسم جهازا متكاملاً في مجال عمله تتوفر به كافة الإمكانيات الآلية والفنية للقيام بمهمته على خير وجه ممكن. وإن كان عمله يتوقف إلى حدّ ما على ما

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 35.

يحال إليه من أعمال صادرة عن قسم الدبلجة والتركيب الفني الإعلامي (المونتاج) وهو القسم الذي يتلقى في حدود اختصاصاته الأشرطة المرئية، بعد التسجيل وانتهاء عمل المصورين، ليتولى تضمينها بآيات قرآنية، وفقرات من الكتاب المقدس[1].

وإلى جانب هذين القسمين؛ يوجد في المركز قسم للحاسوب، يتوفر على تخزين المعلومات العامة، إضافة إلى ملفات المركز والرسائل الواردة من كافة الجهات. وقد بلغت أشرطة هذا القسم سبعة آلاف شريط تعمل على الحاسوب[2]، مما يدل على نشاط وافر وإنجاز كبير وهمة عالية !!.

وقد أبت هذه الهمة الطموحة إلا أن تكون للمركز مطبعته الخاصة به، فكان ذلك بفعل إرادة قوية من نفوس كبيرة، كان من شأنها دائماً أن تتعب الأجسام في مرادها، وأهدافها العظيمة.

وتتلخص مهمة هذه المطبعة في القيام «بطباعة كل ما يتعلق بالنشرات والكتيبات التي تخص المركز، بالإضافة إلى المطبوعات والدفاتر والنماذج التي يحتاجها المركز في نشاطه اليومي، وتقدم هذه المطبعة خدماتها لمن يرغب فيها من الزبائن، لتشكل بذلك دخلاً ماليًا للمركز الدّولي للدّعوة الإسلامية[3].

وبالإضافة إلى هذه، توجد في المركز أقسام أخرى مختصة بالبرنامج السياحي لجامع دربان، وبالمراسلات، والعلاقات العامة، وبالمهتدين الجدد، ونحوها من النشاطات التي تجعل المركز دائماً يموج بالحياة، والحركة، ويغص بالمراسلات والزوار. وقد صور لنا ديدات هذا النشاط معبراً بقوله: «لأن المركز الإسلامي العالمي لنشر الدعوة الإسلامية بجنوب أفريقيا نشيط كخلية النحل، فإنه يجذب كثيراً من الناس للحوار والمناقشة بما في ذلك رجال الصحافة والإعلام»[4].

---

(1) ينظر: احمد ديدات، هذه حياتي، ص 36-37 مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر نفسه، حاشية الصفحة الـ 38.

(3) المصدر نفسه حاشية الصفحة الـ 34.

(4) أحمد ديدات، القرآن معجزة المعجزات ص 61.

والمركز يبذل قصارى جهده في تفعيل وتطوير خطابه الدّعوي لمواكبة العصر، والارتقاء بالعمل الإسلامي، إلى مستويات أكثر رقياً وتقدماً، وقد ورد في أحد أعداد صحيفة القلم عمن له صلة بالمركز ما يحدد ملامح خطته العملية لخوض الألفية الثالثة، وقد أفصح المقال عن أمل المركز في إيصال الرسالة الإسلامية، وتبليغها بطريقة معاصرة تتناسب مع مستجدات العصر، باستخدام كافة المصادر والوسائل المتاحة لنشر الدّعوة، ومواجهة التنصير بمختلف الوسائل الإعلامية الحديثة. وبما أن خدمة الخلق لوجه الله جزء من خدمة الخالق، فإن المركز يرى أن الدعوة هي الخدمة العليا لتحقيق الواجب نحو الله سبحانه وتعالى، الذي جعل الأمة الإسلامية بركة وخيراً للإنسانية، وجعل الرّسالة المحمدية رحمة للعالمين. وفيما يخص واقع ومستقبل العمل الإسلامي في هذه الألفية الجديدة فإن المركز يعرب في خطاب متفائل عن تصوره بأن المجتمعات الإسلامية خلالها ستتقدم في طريقها لتحقيق أهداف الإسلام الحضارية؛ إن هي أدركت بأن الإسلام هو نظام الحياة الأمثل لدخول الألفية الجديدة، والأسلوب الأفعل لمواجهة تحدياتها. وأيضاً في الخطاب تعهد من المركز بالاستمرار في الخط الذي دشنه واستمر عليه أبرز أعلامه، أحمد ديدات، خط الحوار، والمناظرات الدينية[1] الذي غلبت شهرة ديدات به أكثر من غيره من المجالات. فلذا تأجل الحديث عنه ليكون نهاية مطافنا في رحاب أنشطته ومجالات عمله الإسلامي.

15 - نشاط ديدات في مجال الحوار والمناظرة :

إن مجال الحوار والمناظرات، وهو من غير شك أبرز مجالات عمل ديدات هو المسار الذي استهواه فاختطّه لنفسه، وانطلق منه منذ بداية أمره، وانتظم سيره عليه طيلة رحلة حياة عمله الإسلامي، كما التزم بجادته في مختلف المراحل والمواقف التي مرّ بها وشهدها خلال تجربته الدعوية، والتي شكلت ظاهرة فريدة من نوعها في عالمنا المعاصر. وقد تكوّن منهجه العام في مختلف أنشطته وأعماله بطابع الحوار والمقارنة، ومع ذلك فمن الخطأ حصر عمل ديدات في هذا المجال دون غيره من المجالات التي

(1) ينظر: 1-AL-qalam p:16 volume 25 No. 11-12-1990

كشفنا عنها من قبل هذا. ويبدو معلوماً أن أغلب حواراته ومناظراته مع الصليبيين والمستصلبين كانت بهدف المقاومة ووقاية الآخرين من شرّهم المستطير.

ولهذا، دخل معهم في مساجلات حوارية، وعقد مناظرات عديدة مع كبار علمائهم المتضلعين في اللاهوت الكنسي، كان من توفيق الله إياه، في مختلف تلك المواقف الصعبة، أن أبدى تفوقاً حاسماً عليهم؛ الأمر الذي لفت إليه الأنظار من كل مكان، وكان لدرء مخاطرهم - بتوكله على الله آخذًا بالأسباب - يحرص كل الحرص عل أن تكون مناظراته لخصوم الإسلام ومناوئيه علنية ومسجلة، لتعم فائدتها، ويعظم نفعها. وكان حبه لعمله في هذا المجال يدفع به دائماً إلى إثارتهم للمباراة معهم في حلبات النقاش والمحاورة، كما كان أبعد ما يكون عن التقاعس أو التخاذل في مثل هذه الأمور وغيرها، من شؤون الدعوة والإسلام، وبذلك توصل إلى عقد عشرات من الحوارات البارزة مع القساوسة في مختلف مناطق العالم على مدى نصف قرن أو ما يزيد، ولكنه اشتهر من تلك المناظرات والحوارات ببضع منها أكثر من غيرها[1].

وبعد رحلة أربعين عاماً من المناظرات الدامغة مع ألمع رجال الدين الصليبي، تطلع ديدات إلى مناظرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني من خلال رسالة بعث بها إليه عام 1985م باعتباره الرمز الأول وأكبر شخصية في سلم مقامات المذهب الكاثوليكي الصليبي، قاصداً من وراء ذلك تتويج مسيرته الطويلة الشاقة من الكفاح الدّعوي في مجال الحوار والمناظرة بالغلبة على رأس الحربة، للقضاء على الفتنة قضاء مُبْرمًا؛ بسحق من تولّى كبرها، ولكن البابا تخاذل عن رد هذا التحدي السافر؛ لضعف في منطقه الديني، وضلال في عقيدته، فَلَم يستجب لمطلب ديدات لا في الحوار العلني، ولا في اشتراطه حضور عدد من مسلمي جنوب أفريقيا برفقته في حوار غير إعلامي مع البابا[2]. وليته ألحّ في متابعته لهذا الأمر مشايعًا البابا لاستدراجه في لباقة وحكمة إلى حلبة المناظرة، وذلك وصولاً إلى

---

(1) ينظر: بسام داود عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، ص 228-229، ط 1/ 1418هـ، 1998م، دار قتيبة، دمشق، سورية.

(2) ينظر: معركة التبشير والإسلام، ص 178، مرجع سابق.

إلحاق الهزيمة به، وإمنائه بالفشل الذريع كغيره ممن ناظرهم سابقاً، وهو مما لو تحقق بالفعل لكان إنجازاً تاريخياً عظيماً، ولكان - حتماً - للإسلام والصليبية وللدعوة إليهما في عالمنا المعاصر شأن آخر غير ما هو عليه اليوم، بل يختلف عنه تماماً، ويتناقض كلياً مع ما هو قائم ومشهود الآن. ولو تمت تلك المناظرة كما كان يراد لها لتشكل بها واقع ومصير جديد، وحاسم لصالح الدعوة والعمل الإسلامي في عمومه.

حقاً لقد كانت إستراتيجية دعوية مبدعة، ورؤية حضارية متقدمة، استمدت جذورها من سيرة رسولنا الكريم ﷺ وتاريخ دعوته في مرحلتها التأسيسية، وذلك حينما اتجه إلى دعوة الرموز العالمية داخل الجزيرة العربية وخارجها من خلال أوفدهم محملاً إياهم كتبه إليهم، في وقائع معروفة في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، وإن من المؤسف في حق هذه التجربة التي أقدم عليها ديدات أنها لم تصادف نجاحاً يخرجها إلى واقع التنفيذ، بل بقيت أمنية غالية، وأملاً يظل متجدداً عبر الأجيال إلى أن يتحقق بعون الله تعالى، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ومما هو جدير بالإشارة إليه، أن حوارات ديدات وإن كانت غالبة مع الصليبيين، كما تقرر، فإنها ليست مقتصرة عليهم دون غيرهم، بل وإنما اتسع حواره ليشمل إلى جانب المستصلبين كلاً من المارقين عن الإسلام من أمثال سلمان رشدي، الذي فضحه ديدات ودعا إلى أن يفتح معه باب الحوار والنقاش، فيما سنأتي على تفصيله في هذا البحث، وكذلك حاور نماذج من الشخصيات الغربية من ذوي الاتجاهات العلمانية مثل الرّجل السّياسي الأمريكي بول فندلي، فضلاً عن محاورته لليهود في بلاده فيما أشار إليها بقوله: «...ودعاني اليهود تيلفونياً لإلقاء محاضرة عن «القرآن واليهود» ووافقت أن أتحدث إلى أبناء عمومتي اليهود في هذا الموضوع الذي طلبوه منيّ وتحدثت إليهم في الموضوع[1]، وبهذا يتبين أن ديدات حواري بطبعه وفي ديدنه ومنهجه، ولم يكن بحكم تأثّره وإفادته من منهج القرآن الكريم من النوع الذي يستقذر الحوار ويستنكره حتى مع الخصوم التاريخيين وألدّ أعداء الإسلام والمسلمين،

---

(1) أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 39، مصدر سابق.

بل وإنما كان شعاره في مبدئه الحواري مع الجميع كما تبين لي «تعالوا إلي ناقشوني استوضحوا أي شيء تريدون مني، تعالوا إنني أرحب بلقائكم والتفاهم معكم، تعالوا تعالوا أنا مستعد أن أذهب إليكم، أنا مستعد أن ألقاكم، تعالوا، تعالوا، إنني أرحب بكم»[1] فياله من شعار رائع وحكيم!.

ومن الطبيعي جداً في شأن داعية شعاره الحوار مع الجميع، أن يتحاور مع العالم بأسره: أفراداً وشعوباً ومؤسسات عن الإسلام وبالإسلام وللإسلام، من خلال محاضراته العديدة التي ألقاها في مختلف مناطق العالم.

وأخيراً، إذا كان قد تقرر أن الحوار هو المجال الذي استهوى ديدات أكثر من غيره، فغلب عليه، ومن ثم دعا إليه مع الجميع، أترى فما هو المنهج العام الذي سلكه في مختلف حواراته، وبالأخص منها حواراته مع الصليبيين؟ هل ثمة من إمكانية لتحديد الملامح البارزة لهذا المنهج؟ وما هي سماته العامة؟ إضافة إلى مرتكزاته الأساسية وأساليبه الفنية؟

وفي محاولة الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، مما يتصل بمنهج الحوار عند ديدات نجد أنفسنا في هذا البحث أمام فصل جديد، يطمح إلى مواجهة تلك الأسئلة، متطلعاً في حدود ما هو متاح له إلى تقديم ما تيسر من إجابات عليها وذلك حين نفسح له المجال.

---

(1) المصدر نفسه ص 35.

الفصل الثالث

منهـج ديـدات

الحواريّ بين مؤثراتـه وتأثيراتـه

المبحث الأول : جهوده ومنهجه في حواراته

المبحث الثاني : شخصيته بين مؤثراتها الموضوعية ومكوّناتها الذاتية

المبحث الثالث : صدى حواراته في عالم الاعتقاد والدعوة

المبحث الأول

جهوده ومنهجه في حواراته

في غياب محاولات سابقة لدراسة المنهج الحواري عند الشيخ أحمد ديدات، لاسيما - كذلك - وهذه الدراسة تفتقر إلى معلومات كافية لرصد مختلف أبعاد وملامح هذا المنهج على نحو علمي دقيق في مقرراته، موثق بأدلة ونصوص استشهادية قوّية، فضلاً عن أن الشخصية المدروسة ليست قوية الصلة بالمعايير الجامعية الحديثة، مما يعني أن الصورة ليست لديها من الوضوح بالقدر الكافي، فتجدر الإشارة حقاً في أوضاع علمية كهذه إلى أن المهمة التي يحاول هذا المبحث التصدي لها هي شأن علمي يكتنفه الكثير من الصعوبة؛ استناداً إلى العديد من العقبات التي أشرنا آنفاً إلى بعضها، ولكن مع ذلك يظل من المشروع، بل من الممكن محاولة التأسيس لهذا الأمر، انطلاقاً من إطلالة عابرة على جهود الشيخ ديدات في مجال الحوار الديني، بالإشارة إلى ما كان يعلقه من أهمية على الحوار كوسيلة بارزة فاعلة من الوسائل التي دعا إليها الإسلام في الدعوة إليه .

ومن المعلوم في هذا الصدد، أنّ الشيخ ديدات قد تألق بعمله الجاد والمتواصل في مجال العمل الإسلامي عموماً، وفي ميدان الحوار والمناظرة خصوصاً، حيث أمضى ما لا يقل عن نصف قرن يحمل لواء المناظرة مع غير المسلمين دفاعاً عن الإسلام، وانتصاراً لأهله، وظل طيلة تلك الفترة يتصدى ويتحدى ببراعة نادرة مع من تسول لهم أنفسهم الكيد للإسلام والمسلمين. وهو ما يبرر لنا انحصار مناظراته في دائرة الطوائف، والشخصيات المعادية لدين الله الحق.

وبعمق تجربته في هذا المجال وطول باعه المكتسب من ممارسة أنشطة ممتدة عبر نصف قرن من الزمان، بلغ شأواً ضليعاً، يكاد لا يضاهيه غيره من معاصريه، فيما يبدو أنّه قد تخصص فيه وتفرّد به، حتى أصبح بفائق اهتمامه، وبما خبره من تجارب متراكمة فارس المناظرات الحامية الذي لا يشقّ له غبار ولا مخلص منه في الحوار .

وقد تحدث ديدات وهو ما يزال في مرحلة من مراحل المسيرة عمّا مارسه من تحدّ وإفحام على مناظريه فقال: «لي أربعون عاماً من الخبرة العلمية في التحدث إلى علماء

المسيحية ولم يستطع واحد منهم أن يتفوه بتفسير لعبارة مولود وليس مخلوقاً، التي يردّدها المسيحيون»[1]. وما أن أدرك ديدات أهمية المناظرات وقيمتها الدفاعية والدّعوية ظل متمسكًا بها، ولم يتخل عنها في سانحة من السوانح؛ وذلك لما يمتاز به هذا النوع من مجالات العمل الإسلامي من قوّة الإثارة، وشعبية جذابة لخّصها في قوله: «وميزة المناظرات أنها تجذب أكبر عدد من الجمهور لها وتجعل الأمور أكثر إثارة وجاذبية من أحاديث المحاضرات»[2].

ولهذا السبب مع غيره من الأسباب المتعلقة بإقناعية الأسلوب الحواري في الدعوة إلى الله، إضافة إلى أهمية المكاسب التي قد تسفر عنها اللقاءات الحوارية بكل بساطة وهدوء، فضلاً عن الاعتبارات الإعلامية في الاهتمام بقضية نشر الدعوة على الصعيد العالمي فلكل ما سبق - وربما أكثر - عُنيَ باستمرار بتحسين مستواه في ممارسة الحوار وتنمية قدراته في لقاءات المناظرة، وهو ما كان يدفعه إلى ارتياد المكتبات المسيحية العامة والتردّد عليها، للوقوف على الإصدارات الجديدة، وربّما لخلق فرص الحوار وإثارة قضايا نقاشية ذات اهتمام ديني مشترك.

ومن أمثلة هذه المواقف ما حكاه ديدات في قوله: «كنت أزور (دار الكتاب المقدس) في جوهانسبرج وبينما كنت أتجول بين أكداس الكتب تناولت نسخة للإنجيل مطبوعة في أندونيسيا مكتوبة باليونانية والإنجليزية للعهد الجديد في مجلّد غالي الثمن، ولم أكن أدرك أنّ القائم على الدار المشرف عليها يراقبني، وعلى الفور أقبل نحوي. . . فدعاني إلى تناول الشاي معه بمكتبه فوافقت، وأثناء تناول الشاي أوضحت له من العقيدة الإسلامية ما يتعلق بعيسى عليه السلام، وأوضحت له المكانة السامية التي يحتلها في كنف الإسلام . . »[3] وهذه بادرة من بوادر جهوده في الحوار الديني، وسعيه الدائم في تعميق هذا الاتجاه لدى أتباع مختلف العقائد والثقافات.

---

(1) أحمد ديدات: المسيح في الإسلام ص63: عليّ الجوهري ط دار الفضيلة، القاهرة، مصر د.ت.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي ص: 42، مصدر سابق ذكره.

(3) المسيح في الإسلام ص: 46، مصدر سابق.

ومن أجل التمكين لهذا النهج الحواريّ فقد كان على استعداد دائم بكل ما لديه، لبذله في سبيل إجراء مناظرات دينية في أي مكان أو زمان يتقرر ذلك، ومن أوضح الأدلة على هذا الطرح قوله لأحد المباغتين: «يا مستر د. شروش» أنا أقبل التحدّي، وأكثر من ذلك أنا أعطيك شيكاً على بياض لكي تحدّد مكان وزمان وكيفية إجراء المناظرة وموضوعها[1].

ومما ينصب في إطار جهوده المعتبرة لبناء صرح الحوار والمناظرات الدينية، استدراجه للرموز البارزة إلى حلبة المبارزة الفكرية بروعة المنطق وقوة الحق، وقد قاده ما كان يحمل من همٍ شاغلٍ بقضية الحوار مع الجميع إلى المواقف الذي عبر عنها قائلاً: «فقد كتبت أتحدى السفير الإسرائيلي في جنوب إفريقيا وكذا كبير الحاخامات وأدعوهما إلى مناظرة هناك، وأنا في انتظار الرد»[2].

وهذا من المواقف التي تسجل له في تجاوز خط الدّفاع والمقاومة إلى المبادرة والمواجهة، إذ لم يأل جهداً في الإقدام على الحوار وخوض المناظرات في أرقى مستوياتها، ومع أنضج وأبرز الشخصيات فكراً ومقاماً؛ كدعوته لبابا الفاتيكان فيما سبقت الإشارة إليها، ومناظراته العلنية مع البروفيسور كومبستي رئيس قسم اللاهوت في جامعة كيب تاون بجنوب إفريقيا[3].

بالإضافة إلى العديد ممّا يستعصي على الحصر والضبط من محاوراته الثنائية أو ذات الحضور المحدود البعيدة بصفتها عن الأضواء الإعلامية. ومن جانب آخر من جهوده الكبيرة اندفع ديدات في مدافعته للتنصير والمنصرين إلى عملية التوعية بمخاطرها، فنشر في سبيلها عدداً من المؤلّفات والأبحاث، منها بحث بعنوان: «الدعوة في مواجهة التنصير»[4]، ولعلّ في عنوانه - حتى بدون الاطلاع عليه - ما يكفي

---

(1) نقلاً عن عليّ الجوهري: مناظرة العصر بين ديدات والقس أنيس شروش ص27، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت.

(2) العرب وإسرائيل شقاق، أم وفاق، ص 78، مصدر سابق.

(3) ينظر: أحمد ديدات، هل الكتاب المقدس كلام الله، ترجمة: إبراهيم خليل أحمد ط1/ 1410هـ، 1989.

(4) ينظر كتابه: محمد ﷺ المثال الأسمى، في هامش الصفحتين 32-33.

للإيحاء بمحتواه، على الأقلّ بالنسبة لمن تتوفر لديهم خلفية علمية عن علاقة المواجهة بين الدعوة والتنصير، وخاصةً في قارتي أفريقيا وآسيا، مما تناوله الدكتور عبد الجليل شلبي، وسلّط القدر الكافي من الضوء على كثير من جوانبه الخافية في كتابه «معركة التبشير والإسلام . . حركات التبشير والإسلام: في أفريقيا وآسيا وأوروبا».

وكان ديدات بجهوده المتحمسة لقضية الحوار الجاد يمقت ذلك النوع من الحوار الذي يمكن أن أسميه (الحوارات الدينية الدبلوماسية)، لما يغلب عليها -في الغالب- من طابع المفاوضة والمقايضة، وما تتسم به من مجاملات ومداهنات، وتركيز على عموميّات هامشية، وشكليّات دبلوماسية على حساب القضايا الجوهرية الهامّة.

وديدات ممن يعيب على هذا النمط من الحوار، مبدياً انحرافه عن مساره الصحيح بقوله: «وللأسف فإن المسلمين حين يتحاورون مع المسيحيين، فإنّ حوارهم يدور حول أمور غير التي حددها وأرادها الله لهم، فلقد قرأت عن اجتماع ضخم من هذا النوع عقد في (سويسرا) وضم الاجتماع العلماء والمفكرين المسلمين والمسيحيين وجرت مناقشات استمرت لأيام وصدرت في نهايتها قرارات ...إنّه بعد القرارات التي أصدرها هذا الاجتماع، والتي اتفقوا فيها بعدم التدخل في شؤون أتباع أيّ من الديانتين، فإنّهم شرعوا فوراً في مشروع تبشيريّ يتكلّفُ ملايين الدولارات لتنصير الفولانيين في نيجيريا»[1]. وفي هذا يكشف لنا ديدات ما تنطوي عليه هذه الحوارات من مكرٍ وخديعة، ممن لا عهد لهم ولا ذمّة إلا في مواقف نادرة، وبالأخص في حالات القلّة والضعف.

ومن ثاقب وعي بكل ذلك انطلق الرجل جاداً وجاهداً لتعرية كيد المنصّرين، والكشف عن حقيقة الغارة التنصيرية الماحقة، الأمر الذي لم يجدْ معه بدّاً من التنبيه كلّما اقتضى المقام إلى خصوصية النصرانية، حتى في أصدق صورها، وفي أصحّ رسالتها الأصلية، وأنها ليست ديانة عالمية عامّة. وقد ساق رأيه في هذه المسألة في سياق إجابته على سؤال قوامه: هل جاء في القرآن الكريم أنّ الإنجيل المقدس هدى للنّاس أجمعين؟

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص100 مصدر سابق.

فقال ديدات: «كلاّ إنّ القرآن الكريم لا يقول: إنّ الإنجيل هدى للنّاس أجمعين، ولا حتى الإنجيل يقول بذلك وأنتم تجدون المسيح عندما بعث حوارييه للوعظ وشفاء المرضى، أوصاهم قائلاً: (إلى طريق الأميين لا تمضوا، وإلى طريق مدينة للسّامريين لا تدخلوا، بل بالجري إلى خراف بيتِ إسرائيل الضّالة). وأنا أتساءل أين هو موقع الأمريكان الأنجلوسكسان من هذا. وهم ليسوا يهوداً من بيت إسرائيل؟»[1].

وعمّا يعرض للبعضِ من انبهار، وانسياق وراء الخوارق التي يتأتّى لبعض المنصّرين الإتيان بها تصديقاً لرسالتهم الكاذبة، ودعماً لجهودهم الماكرة، فإن الشيخ ديدات لا يبدي أدنى إعجاب بتلك الخوارق التي يشترك المؤمن مع غيره في القدرة على صنعها، بل يذهب إلى استنكارها مستنداً إلى موقف كتابهم المقدس الرافض، والمحارب لها. ذلك أنه حين سئل ديدات عن رأيه في تحقيق ظاهرة الشفاء أحياناً باسم المسيح أجاب قائلاً: «ليس لديّ أي تردد في قبول هذه الظاهرة، وأنها يمكن أن تحدث، وهذه الأمور تحدث في الهندوسية، النّاس يأتون بالمعجزات، وباسم إله كاذب يمكن أن تتحقق المعجزات»... وهذا ما يقوله عيسى: «فينهض كثيرون يّدعون أنهم المسيح، وأنّهم أنبياء، ويأتون آيات وعجائب عظيمة، ليضلّوا الصفوة لو أمكنهم، حتى حوارييّ عيسى يمكن أن تضلّهم مثل هذه المعجزات، ولهذا فإن المعجزات ليست أبداً دليلاً على الصدق أو عدمه»[2].

ويظهر من هذا الجواب أنّ ديدات كان حريصاً على إزاحة كل ما يمت بصلة إلى الخرافة والشعوذة من مسعى الحوار العقلاني الجادّ، فظلّ يبذل جهداً غير قاصر في صرف النّاس عن الاحتكام إلى تلك الأوهام التي- من غير مبالغة - مازالت تشكل معتقد الأغلبية الساحقة، وتخلق بذلك صعوبة معضلة في وجه قيام الحوار المنهجيّ على سوقه، ممّا يسبب - ولاشك - لأي نشاط حواريّ يعتمد على العلم والمنطق كساداً في سوقه، وهو ما يتعارض تعارضاً صارخاً مع الخط الّذي اختطه ديدات لنفسه، وجاهد في سبيله، من خلال جهوده العريضة الممتدّة في مجال الحوار

(1) المناظرة الحديثة بين ديدات وسوجارت، ص174-176، مصدر سابق.

(2) المصدر السابق، ص181.

والمناظرة، وذلك لكي يسود سلطان العلم والعقل كمعيار للموازنة بين العقائد، والمبادئ، وفيصل للتمييز بين صحيحها وسقيمها. وحتّى يتحقق لديدات ما قصده من نجاح، ويتم له ما أراده لدينه من انتصار وظهور فقد خلُصَ- متوسّطاً -إلى اعتماد منهج أسّس عليه مختلف حواراته ومناظراته، ويتضمن هذا المنهج في عمومه جملة من الأسس، والدّعائم، ويتّسم بعدد من السّمات، وطائفة من الخصائص الأسلوبية.
وفي محاولة متواضعة يمكن تحديد بعض من تلك العناصر في الفقرات الآتية:

أولاً: (جوهر المنهج ومحوره)

إنّ إلقاء نظرة مستوعبة إلى مناظرات ديدات الكثيرة ومؤلّفاته الحواريّة العديدة كافٍ لاستبانة جوهر منهجه، ولاستخلاص الباحث ما يمكن أن يؤلّف منهجاً متكاملاً يقوم عليه عمله في مختلف مواقعه، ومصادره. ومما يعمق علميّاً نتيجة هذه النظرة، ويعزّز مضمونها أنّ ديدات كثيراً ما كان يقف في كتاباته، ومقابلاته، لتسجيل المنهج الذي سلكه، وللحديث عنه، إسعافاً للآخرين ممّن يريد الاقتداء به، والاستفادة من تجربته.
ومع ذلك فقد أوهم الأستاذ علي الجوهري بالحديث عن أسلوبه ومنهجه دون أن يقدّم في الواقع شيئاً قريباً من ذلك، وإنّما اكتفى بالإشارة إلى الوسائل العلميّة والإعلاميّة التي اشتهر ديدات باستخدامه الواسع لها في مجال الدعوة إلى الله تعالى[1].

هذا، ويتلخص جوهر منهج ديدات الحواريّ فيما صرّح به في أكثر من موقع ومناسبة بقوله: «لقد علّمنا الله تعالى منذ 1400 عام أن نطالب بالبرهان في حوارنا مع المسيحيين.. يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[البقرة: 111]... وطلب الدليل والبرهان هو الرّدُّ الطبيعي والمنطقي، ولكننا للأسف لا نفعل ذلك»[2]. وتأكيداً على هذه القاعدة

(1) ينظر أحمد ديدات: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص186، مصدر سابق. والأستاذ علي الجوهري ناقل ومعرّب لعدد من أعماله المنشورة من دار الفضيلة المصرية.
(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص75-76. مصدر سابق.

الأساسية في منهجه، المتمثلة في المطالبة بالبرهان؛ يقول ديدات في موقف آخر وهو يتحدث عن منهجه: (...نحن بدورنا قد اتبعنا أسلوباً جديداً وهو أسلوب مواجهة العدوّ في مواقعه، وهذه الفكرة مأخوذة من القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[البقرة: 111] وأما طريقته في تطبيق القاعدة المنهجية فتقوم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: يكتفي فيها بالمطالبة بالبرهان من منطلق هاتوا برهانكم، كما أنّه يلتزم بتقديمه عند أي طرح يقتضي ذلك، سواء أكان في الحوار الصّامت أم الناطق، حيث جرت عادته بدعم معلوماته وأطروحاته بما يشهد بصحتها من أدلّة نصية صحيحة، وبراهين عقلية مقنعة في كافّة حواراته وكتاباته.

المرحلة الثانية: وهي مكمّلة للأولى وقائمة عليها، وتتمثل في تحليل ومناقشة، وتفنيد البرهان كخطوة لاحقة، وقد أشار ديدات إلى هذه الخطوة بقوله: «وحينما يقدّمون برهانهم -كما أمرنا الله أن نطالبهم به- فعلينا إذن منطقياً أن نحلّله ونفنده، وإلا فلا معنى إطلاقاً في طلب البرهان»[1]، والظّاهر أن هذه الخطوة وإن كانت مكمّلة لسابقتها إلاّ أنها أهم منها، وأصعب، لاعتمادها على إمكانيات علمية في تحليل ما يُسَاقُ من أدلّة، ونقدها نقداً موضوعياً، واستنادها كذلك على قدرات مُعيّنةٍ في مناقشة البراهين العقلية مناقشة واعيةً متّزنة، وتفنيدها على نحو لا يسوغ للخصم الاستناد إليها ثانية في الدفع والمواجهة. وتبلغ براعة المحاور ذروتها حين يكون قادراً على استخدام برهان الخصم في دكّ أطروحاته، بإشْهار أسلحته ضدّه، للإجهاز عليه بها، وهو ما قصد إليه ديدات في قوله: «المطلوب إذن أن تستخدم برهانه في تفنيد وتعرية ادّعاءاته، وأن تستخدم هذا المنهج في مواجهة كلّ ادّعاءاتهم، وفي مواجهة كل الحملات التبشيرية الصليبية»[2]. وبهذا نقف على مفهوم الحوار عند ديدات بأنّه جهد فكري، ونقاش علمي ينتفي وجوده في غياب الأدلة الصحيحة

(1) ينظر مداخلة ديدات في المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية المنعقد في طرابلس ص131. مصدر سابق.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص98-99، مصدر سابق ذكره.

والبراهين المعتمدة المقنعة. ومنهجه الحواري في لبابه، وجوهره قائم على المطالبة بالبرهان متمحوراً حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ الأمر الذي يسوّغ لنا أن نطلق عليه – إن شئنا أن نلخّصه في كلمتين – تسمية «الحوار البرهانيّ» بالنظر إلى منهجه، حيث إنّه «بمجموع أسئلته، وأجوبتها يؤلّف برهاناً منطقياً يلزم المخاطب أو المخاطبين الإقرار بالأمر الذي صيغ الحوار من أجل إقناعهم به وهدايتهم إليه»(1). ويتبين لنا ممّا سبق أن ديدات في صياغته لمنهجه في الحوار تتلمذ على المبادئ التي أتى بها القرآن، من مطالبة بالبرهان وتدبّر، ومراجعة للكلام بين الطرفين من خلال مناقشة هادئة عُمْدَتُهَا الجدال بالأحسن بإيراد الحجج والبراهين، وإسقاطها الواحد تلو الآخر حتى لا يبقى للمحاور بُدٌّ من التّسليم بالحقّ، أو ينكشف لغيره تماديه في العناد واللجاج بعد وضوح الحقّ كرابعة النّهار، إلاّ أنّ منهج ديدات وإن كان يعتمد على المطالبة بالبرهان، المشاسعة في الاستدلال والنقد جوهراً ومحوراً، إلاّ أنّه لا ينحصر فقط في هذا الإطار وإنما يقوم على أسس وركائز، بدونها لا يتحقق له وجود فاعل، بل حتّى مطلق الوجود، ومجرّد الحياة، وتتمثل تلك الأسس والركائز في:

ثانياً: أسس منهجه ومرتكزاته:

لمنهج الحوار عند ديدات مجموعة من الأسس والركائز التي يتأسّس عليها ويستمدّ منها قوام وجوده، وبالنظر إلى تلك الأسس والركائز يتأتى تصنيفها في قطبين أساسيين يعملان على توازن هذا النهج وتكامله، وهما النّص والعقل، أو الرّواية والدّراية بمعنى آخر.

ومن حيث النّص فهو يشكل أحد مركزي الثقل في منهجه، ويكون غالباً محفوظاً لديه عن ظهر قلب، وتأخذ المسألة أهمية بالغة عندما يكون في مقارعة النصارى، وفي مناظرة غير المسلمين عموماً، وتنقسم النصوص التي يُعْنَى بها ديدات في محاوراته إلى ثلاثة أنواع هي:

---

(1) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالحوار، ص 21، ط1/ 1421هـ–2000م، دار الفكر، بيروت، دار الفكر، دمشق.

أ - نصوص الكتاب المقدس :

يعول ديدات كأساس لا يستغني عنه في كافّة محاوراته على نصوص الكتاب المقدّس استشهاداً ونقداً، وهو دقيق في إيراد نصوصه كلّما اقتضى منه الحوار ذلك، وغالباً ما يبهر الحضور بضبطه لتلك النصوص عن ظهر قلب، كما أنه ينبّه طلابه ومتدرّبيه دائماً إلى الاستعانة بنصوص الكتاب المقدس، إذ لا يمكن التغلّب على الصليبيين في الحوار دون دراية بنصوصهم، ودراسة نقدية معمَّقة لمحتويات كتبهم، للوقوف على المتناقضات واستكشاف مواطن الضعف فيها، ولا ستكناه تلك النصوص التي تضمر التبشير بنبي الإسلام، وتنكر ألوهية المسيح المزعومة، للوصول إلى إثباتات قوية بأن الكتاب المقدس ليس وحياً من عند الله، وإنما هو من وضع بشر يتقاسمون مع غيرهم مختلف صفات القصور والضّعف، وغيرها مما تنزّه الله عنها في كماله المطلق. ولإبراز أهمية الكتاب المقدس في الحوار مع المنصّرين يقول ديدات لطلاّبه: «...برهانه وحجته ومرجعه إذن هو الكتاب المقدّس، وإذا أردنا أن نتعامل معهم فعلينا أن نستخدم حججهم وبراهينهم ضدّهم»[1].

وبمتابعتنا لمختلف مناظراته نجده يصدر دائماً عن المصادر والمراجع المعتمدة لدى الطرف الذي يحاوره، ولا يلزمه بما لا يسلّم به من مصادر أطراف أخرى ضمن دائرته الدينيّة، أو غيرها، وإن أورد شيئاً من ذلك فلا يخلو من أن يكون لغرض نقدٍ مشترك لهذه وتلك، أو لبيان التضارب في المعتقدات، وتباين وجهات النّظر في تفسيرها وتصورها لدى طوائف مختلفة تَنْتمي لدينٍ واحد.

وهو إذ يهتم بتحديد مصادر الحوار مع الطرف الآخر يقدّم انطباعاً إيجابياً للدّارسين والمشاهدين عن موضوعية منهجه وعلميّته، ولعلّ أصدق دليل على ذلك حصره النقاش مع سواجارت في نطاق الرواية التي يؤمن بها هذا الأخير دون غيرها، وهو ما حدّده بقوله: «لأنّ الأخ سواجارت متيم بنسخة الملك جيمس. وأنا كذلك، وكلّ الاستدلالات التي

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص76. مصدر سابق.

أقدّمها سوف أقتبسها من نسخة ورواية الملك جيمس. وأنا أحب لغتها»[1]. وهذا مما يكشف لنا أن ديدات في التزامه بمصادر مساجله لم يكن يتعدّاها قيد أنملة، وذلك إمعاناً في دقة منهجيّة الحوار، وحرصاً على حسن سيره، وضماناً لما يرمي إليه من إفحام وإلزام، ولذا لم يجنح قط في هدم معتقدهم إلى الاستعانة بمصادر تحوم حولها شكوك مانعة من إلزامهم بها، كإنجيل برنابا وغيره من الكتب التي ينكرونها، وينسبونها إلى خصومهم.

ب - نصوص إسلامية :

من الأسس التي يستند عليها منهجه، القرآن الكريم الذي تشبع ديدات من معارفه الغزيرة، وأفاد من نصوصه الفاصلة في قضايا الحوار الديني وغيرها من القضايا العديدة، وقد انطلق منه في صياغة منهجه، والتزم به في بلورته، وتغذيته بثمار القرآن الكريم اليانعة، فتحقق له بتوجيه القرآن وعلومه في مجال الحوار الديني والمناظرة، القدر الهائل من الانتصار على الخصم في نقض أباطيله، ومكاشفته بالحق الذي يجهله أو يتجاهله. وفي توظيفه لنصوص القرآن في حواراته يطالعنا غالباً في مطلعها بآيات قرآنية ذات علاقة بموضوع النقاش، كما أنه يورد أحيانًا في معالجته للموضوعات آيات من القرآن مشفوعة بتفسير ميسر لها، مع مقارنات بالنصوص المقدّسة فيما يقتضي ذلك إن وجدت، وقد ورد في معرض تفسيره لآية قرآنية فيما يفيد نزوعه إلى هذا المعنى أحيانًا، كقوله: وليس المقصود بـ «المقرّبين» المتفوّقين بدنياً أو الأقرب مكانياً، لكن «المقرّبين» مقربون لتفوقهم الرّوحي. قارن ذلك بقول إنجيل مرقس:

(ثمّ إنّ الربّ بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء، وجلس على يمين الله). (مرقس 16-1). لقد أساء المسيحيّون هاهنا الفهم كما أساءوا الفهم في مواضع أخرى»[2].

وبالنسبة للأحاديث النبوية فإنه يعدّ من المقلّين جداً في استخدامها في محاوراته إلى حد ما يمكن أن يقال عنها إنّها خالية من الأحاديث، واستخدامه القليل لها ينحصر

---

(1) المناظرة الحديثة بين ديدات وسواجارت، ص 131، مصدر سابق.

(2) المسيح في الإسلام، ص28، مصدر سابق.

في بحوثه وموضوعاته الإسلامية التي كتبت لأغراض الدعوة والإرشاد لا لِلْحوار والمناظرة، ككتبه عن العبادة في الإسلام، والحلّ الإسلامي للمشكلة العنصريّة، وغيرهما. وفي الآيات التي يحاول تفسيرها، يدفع اعتماده الكلّي على تراجم معاني القرآن الكريم إلى القول بأنّه ليس على إلمام كافٍ بما عدا الآيات التي تشكل موضوع حواراته، وركائزها، ولا غرو في ذلك، إذ لم يكن ديدات - في حدود دراستي إيّاه - بالضليع في الدراسات الإسلامية قدر بروزه في دراسات الكتاب المقدّس، وهذا راجع إلى ظروف بيئية، مع اعتبار كافة المؤثّرات التي كونت شخصيته كما سنرى لاحقاً[1].

ولعدم إجادته اللغة العربية فقد كان يعود إلى الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، وبالأخصّ ترجمة المسلم يوسف علي التي تعلق بها ديدات كثيراً واستغنى بها عن غيرها من الترجمات التي يحمل لبعضها لهجة نقدية لاذعة، كترجمة الإنجليزي جورج سال التي قام بها عام 1734م[2]. ومهما تكن عليه ترجمات المعاني من دقّة وإتقان فإن اعتماد علم من أعلام الدعوة عليها يُعدُّ نقيصة منهجية، ومأخذاً مكشوفاً لهواة النقد والطعن.

ج - نصوص من مراجع عامّة :

إلى جانب ما تقدم، يعمد ديدات إلى توثيق أطروحاته ودفوعاته، بنقولات من مراجع عامّة، وهي عديدة لا حصر لها، منها كتابات الدارسين والنقّاد الغربيين للكتاب المقدّس، ككتاب «الكتاب المقدس تصنيف بشر، مع ذلك فهو سماوي» للدكتور جراهام سكروجي، أحد مشاهير الإرساليّين في العالم[3]، والسيّدة إيلين هوايت في كتابها «تفسير الكتاب المقدس»، وكتاب القس جورهاريس بعنوان: «كيف تقود المسلمين إلى المسيح »، وغيرها من ملاحظات القساوسة، ومراجعهم لكتابهم المقدّس في مختلف ترجماتها المنقّحة، وإصداراتها الجديدة، كما أن من مراجعه عدداً من الكتب

(1) ينظر: ص: 224 238، من هذا البحث.

(2) ينظر: القرآن معجزة المعجزات، ص15-16، مصدر سابق.

(3) ينظر تباعاً: هل الكتاب المقدّس كتاب الله، 103-145-232، مصدر سابق.

التاريخيَّة، والثقافة العامّة ككتاب الأبطال لتوماس كارلايل، و«المائة الأوائل» لميشيل هارت، وشهادات المؤرخ اليهوديّ يوسيفوس عن العهود المبكرة من تاريخ المسيحية، وغيرها من الصحف اليومية، والمطبوعات السيّارة التي يعرض ما تدعو إليه الحاجة منها في أغلب كتاباته، وفي مناظراته كذلك، الأمر الذي يدل على متابعة دقيقة للجديد في مجال عمله، واستيعاب شبه كامل لكل ما من شأنه أن يدعم له رأياً أو يعزّز له موقفاً.

وبتنوع مراجعه العامّة يتاح لنا أن ندرك طرفاً مما حواه منهجه من العلم والتحقيق، وعن واسع ثقافته التي جهد دوماً في سبيلها، لتغذية فكره ومنهجه، يقول أحد مترجميه: «. . . إنّه واسع الاطلاع فيما يتعلّق بالعقيدة الإسلامية، والقرآن الكريم، دارساً مدققاً ومحققاً للأناجيل، ملمّاً بتاريخ العقائد والأديان، يجيد الإنجليزية ويعرف اليونانية، يدرك بعين ثاقبة، وبصيرة نافذة، كلّ نقطة من ألفاظ الإنجيل، بل كل مقطع من كل لفظة»[1]. وإن كان هذا الحكم -فيما أرى- صحيحاً في معظمه إلاّ أنّ ذلك لايستلزم بداهةً صحة المقطع الأول منه، والذي ينص على سعة اطلاعه في العقيدة، والقرآن الكريم. ومن غير شك فإن هذا الاطلاع الواسع أمد ديدات بخاصيّة منهجية، ظهرت في قدرته البارعة على استحضار الأمثلة والشواهد دائماً لمختلف أقواله، وآرائه، كما يتضح ذلك من قوله: «. . . وأضرب لكم أمثلة على ذلك، وهنا أنبه أن الحوار بلا أمثلة لا يكفي»[2]. وفي موارد كثيرة من مواقفه وكتاباته يتكرر قوله: «وأضرب لكم أمثلة على ذلك، ونضرب مثالاً» إلى آخر ما هناك من هذا النوع.

وهذه الركيزة الأساسية لمنهج ديدات مدينة إلى شغفه بالقراءة وولعه بالإحاطة المتخصصة في الكتاب المقدّس، وما يتصل به من قضايا العقيدة والحوار، وقد أفْضى ديدات بذلك إلى الناشئين والمتدرّبين عامّة قائلاً في إخلاص مرشد خبير: خلاصة القول: لكي أستطيع التّصدّي لهذا السّيل الشرس والمتجدّد دائماً من الأباطيل،

---

(1) المسيح في الإسلام، ص5، مصدر سابق.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص60، سبق ذكره.

شعرتُ أني أريد أن أقرأ «وأقرأ « وأقرأ «كنت أقرأ كل ما تصل إليه يدي»[1].

وللإعانة على القراءة الهادفة والمثمرة، ينتقي أحياناً للدّارسين والحضور عامّة، ويوجههم إلى كتب مفيدة، وثرية في موضوعاتها، من شأنها أن تعين الباحثين، وتوسع من آفاق ثقافة المستزيدين.

وعليه، فإنّ النصوص بمختلف أنواعها تشكّل متكأً عريضاً لمنهج ديدات الحواريّ؛ حيث اتخذها في الغالب دليلاً في الحكم على مختلف ما يعرض لنقاشها من قضايا، وما يتناولها من موضوعات مكتوبة، ساكباً عصارة ثقافته الواسعة في تلك المناظرات، والمصنّفات. وتأسيساً على ما سبق، يتقرر أن النّصّ بنوعيه المقدّس والمؤسس يشكل أحد قطبي منهجه المرتكز عليهما. ويتجلّى ذلك في استخدامه الواسع للنصوص، افتتاحاً، واستشهاداً، وطعناً، ونقداً بآليات عقليّة يخضع لها النصّ فهماً وتدقيقاً، تحليلاً وتركيباً[2]، والنظر إلى المنهج من هذه الزاوية، يسمح بالقول عنه - تجاوزاً - بأنّه منهج نصّي، مما يعني أنّ للنّص اعتباراً غالباً فيه، دون إغفال لدور العقل والّذي يأخذ هو الآخر بطرف وحظّ وافر من هذا المنهج، ولكنّه ليس طليقاً، وإنما هو مقيد بتحليل معطيات النصوص ونقدها، مما يعني أن العقل في منهج ديدات، على الرغم من كونه أحد قطبيه إلا أنه تابع وخادم للنصوص المنقولة، وليس مستقلاً لوحده! مما يبعد به عن الخوض في تأملات فلسفية جافّة، والإغراق في تحليلات فكرية عويصة، تُشتّتُ الفكر، وتُقصي الهدف المراد أكثر مما تخدم قضيّة الحوار والإقناع بأقصر الطرق، وأيسر الأساليب.

د - ركيزة العقل المحلّل النّاقد :

إن ديدات يوظف العقل تحليلاً ونقداً، باعتباره ثاني قطبي منهجه، وفي إطار هذا التوظيف يعمّق أحياناً في التحليلات العقليّة، والمناقشات الفكرية دون شطط أو مغالاة، وإنما يلتزم بحدود الموضوع الذي يناقشه منطلقاً من واقع النصوص التي

(1) في لقاء مع أحمد ديدات: ص44، من مجلّة الفيصل 1354، مصدر سابق.

(2) تتوفر العديد من الأمثلة على هذه الظاهرة الواضحة في مختلف كتاباته، ومحاوراته، ومنها: مناظرتان في استكهولم، ص16، وفي مناظرة العصر، ص60، وفي شيطانية الآيات الشيطانية، ص 69.

يوردها للنقد. وإنّ إطلالة سريعة على مختلف حواراته وكتاباتـه ولاسيما كتابيه عن مسألة صلب المسيح، وعتاد الجهاد، كافية للخروج بصـورة عن البعد العقلـي المؤازر للنّص في منهجه الحواريّ. وإن كان حتى في استخدامه للنقد العقلي ينطلق من مستند نصّيّ يدفع به إلى ارتقاء هذا الخط الذي سلكه للوصول إلى ما يتمتع به منهجه من تكامل بين النقل والعقل. وهو ما يقرّبه ديدات ضمناً عندما يقول: «إنّ القرآن الكريم يضع لاختبار مصداقية كلام الله اختباراً ومقياساً حاسماً...يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]. وهذا الاختيار معناه ببساطة ووضوح هو أن أي كتاب يدّعي أنّه من عند الله يلزم ألا يكون به خلاف أو تناقض... وهكذا يجب أن يكون كلام الحقّ بحقّ.. فلنطبق هذا الاختبار مستخدمين هذا المقياس على الإنجيل»[1]. ويتضح لنا من هذا المثال، أنّ ديدات يسحب هذا المقياس العقلي القرآني على الأناجيل وغيرها، ويحاول إخضاعها للدراسة والنّقد في ضوئه الكاشف، وقد توصّل من خلال هذه الأداة العقلية القائمة على التدبر إلى محتويات أربعة للكتاب المقدّس، وتتمثل في كلام الله تعالى، وكلام الأنبياء عليهم السلام، وكلام المؤرّخين والرواة، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة مثل النصوص الإباحية وغيرها[2]، وتوثيقاً لهذا الاستنتاج حتى لا يلقى القول على عواهنه، يضرب ديدات في إحدى محاضراته أمثلة توضيحية لكلّ نوع من الأصناف الأربعة مما يطول بنا إيرادها في هذا المقام لو استعرضناها.

وبعد دراسة نقدية للكتاب المقدّس وقف خلالها على تناقضاته وتهافتاته، مقارناً بما عليه القرآن من دقّة وتماسك، خرج ديدات برأي يكاد يجرده من أي قيمة دينية، ليندرج بذلك في قائمة المواد الجيّدة لإنتاج الأفلام السينمائية، وهو ما عبّر عنه مؤكداً في قوله:

---

(1) أحمد ديدات: مناظرات في استكهولم، ص28-29، نقل وتعريب علي الجوهري، ط: دار الفضيلة القاهرة. د.ت.

(2) ينظر أحمد ديدات: هذه حياتي، ص58-62، مصدر سابق.

لا أستطيع إلا أن أؤكدّ باستمرار: أنّ السّرد القرآني يختلف كليّة عن أي كتاب آخر على سطح الأرض، إنّه يتحدث بطريقة مباشرة في الصميم. ليس فيه لو. . . ولكن. . . ولا مراوغة ولا يحوم حول الموضوعات، وفي كلّ الكتاب لن تجد النص المسرحي الذي يصلح لشبّاك التذاكر. . أو لفيلم يضرب الأرقام القياسية مثل الوصايا العشر، وشمشون ودليلة ليكون مادة إنتاجية للشاشة الفضية للسّينما، ومن هذه الناحية فإنّ الكتاب المقدّس مادة مبهجة لكتاب النصوص الفلمية والمسرحية يمكن تحويلها بسهولة إلى قدور الذهب[1].

وفيما يتصل بركيزة التحليل والنقد يعمد ديدات أحياناً إلى إجراء عمليات إحصائية لموارد بعض الألفاظ العقديّة مثل استقرائه لعدد المرّات التي ورد فيها لفظ ابن الإنسان كُنْيَةً للمسيح مقابل لفظ ابن الله في الكتاب المقدّس، وهو 83>13 مرة[2]. كما أن دافع الدقة في التمحيص والتحليل، يقوده أحياناً إلى متابعة أصول بعض ألفاظ الكتاب المقدّس في اللغة العبريّة أو اليونانية، لضبط مدلولاته الصحيحة من خلال تحليل وافٍ بالغرض الذي يرمي إليه، إمّا للتفنيد، أو لبيان الصواب[3]. وكان ديدات في كل ذلك مُشَبَّعاً بِحسٍ لغوي مرهف، واعياً بخطورة دور اللغة في نقل محتوى الفكر صحيحاً، وفي قلب المفاهم، وتزييف الحقائق عن طريق التلاعب بالألفاظ كحمولة للمعاني ووعاء للأفكار.

لقد كان متميزاً وبارعاً في قدرته على قراءة النصوص وتوجيهها كلّما أراد الآخر استغلالها لأغراض غير أصيلة وغير مقصودة.

وعلى هذا النحو يشغل العقل وما يتفرّع منه من تحليل ومناقشة ونقد، حيّزاً قطبيّاً من منهج ديدات في محاوراته، بالإضافة إلى عدد من القوائم، والدعائم الموثقة لهذا المنهج.

---

(1) ينظر: معجزة المعجزات: ص79–80، مصدر سابق.

(2) ينظر: المسيح في الإسلام، ص30، مصدر سابق.

(3) ينظر: محمّد صلّى الله عليه وسلّم المثال الأسمى، ص137، مصدر سابق.

ثالثاً: قوائم منهجه ودعائمه :

ينطوي منهجه على مجموعة من الدعائم والقوائم الهامّة التي يقوم عليها، وتعمل تلك الدعائم مجتمعة مع غيرها لتثبيت هذا المنهج الحواري، والتمكين له، حتى يؤدي غرضه العلمي بنجاعة وتأثير بالغين على النحو المنشود. وتتوزع تلك الدعائم في العناصر الآتية:

أ - الحفظ الدقيق، والضبط المحكم :

إنّ أهمّ انطباع يخلّفه ديدات على جمهوره: قرّاء، ومشاهدين، على النقيض من الآخرين هو حفظه الدقيق لنصوصه، وضبطه المحكم لنقولاته، وأمثلته عن ظهر قلب؛ لِمَا يرى من أنّ حفظ الأدلة سلاح للدّفاع عن الدين، وبدون معرفة الأدلّة وحفظها يتعذر الدفاع عن الدين، بالغةً ما بلغت مكانة المحاور العلمية، ولذا يولي ديدات اهتماماً فائقاً لحفظ الأدلّة من الكتاب المقدّس لدعم منهجه وإقامته على قوائم راسخة، وقد بهرت دقة حفظه للنصوص وضبطه مواردها أحد مترجميه فقال: «درج العلاّمة أحمد ديدات على الاستشهاد بنصوص صحيحة من التوراة والإنجيل والقرآن مع قدرة عجيبة على ذكر مواضع اقتباسها مع تحديد الإصحاح، وأرقام الجمل والآيات، بدقّة بالغة اعتماداً على الذّاكرة بطريقة معجزة، كما أن دقّة وصحّة ملاحظاته بلغت دون ريب حدّ الإعجاز»[1].

وهذا ما يصادفه كثيراً من لهم اطّلاع على محاضراته، أو مشاهدة أشرطة مناظراته بمختلف أنواعها وموضوعاتها.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ من مميّزات ضبطه المحكم إحاطته بالظُّروف، والملابسات التاريخية التي وردت في سياقها نصوص الكتاب المقدّس[2]، أي إنّه يحيط بما يمكن

---

(1) مناظرة في استكهولم بين أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد، هامش الصفحة 14، نقل وتعريب علي الجوهري، منشورات دار الفضيلة، القاهرة. د. ت.

(2) ينظر أمثلة عن ذلك في كتابه: المسيح في الإسلام، ص80، وما بعدها، مصدر سابق.

تسميته بعلم مناسبات وُرُودِ النصوص، وهو ما يقابل علم أسباب النزول في الدراسات القرآنية، وطالما أسر هذا الجانب من منهجه الكثيرين ودفع بهم إلى التعبير عن عظيم إعجابهم بقدرته العبقريّة في الحفظ والضبّط، مما دعا ديدات - مدفوعاً بتواضعه - إلى تصحيح ما في هذا الفهم من خطأ شائع، فأعلن - للحقيقة - الحقيقة قائلاً: «والنّاس يتصورون أنّني أتمتع بذاكرة فريدة قادرة على الحفظ، وحقيقةً الأمر غير ذلك. إنّما ذلك هو حصاد الجهد السّابق الذي أبذله، وبقدر ما تعمل يجازيك الله، وكلّما بذلت جهداً أكبر كلّما كان جزاء الله أوسع»[1]. وهو بهذا الإعلان الصّارخ يعبر عن حقيقة التوكل في حياة ديدات، وعمله البعيد كل البعد عن الركون إلى الدّعة والاستسلام للتواكل، فكأنّه يصرف المعجبين به إلى منهج السببية المتوكل، ويفتح من جانب آخر للقاصرين مجالاً واسعًا فسيحًا من الأمل في إمكانية الوصول إلى النجاح عن طريق ما لفت انتباههم إليه من اجتهاد شاقٍّ، ودربة متواصلة، ومراس دائم باعتبارها من دعائم منهجه القويم.

ب - الدّربة المتواصلة والمراس الدائم:

في متابعة دقيقة للشيخ ديدات يصادف المرء في كتاباته ومقابلاته الكثير من الاعترافات بدور التدرب والتمرّس في نجاح عمله وفاعلية منهجه، كما أنّها تتضمّن كمًا هائلاً من الإرشادات الموجّهة للدارسين والمتدرّبين إلى مواظبة التدرب على الحوار، وممارسته لتحقيق القدر الكافي من النجاح فيه، بالوصول إلى أرقى مستوياته، ورغم أن قراءة تجربته من بداية أمره في مجال الحوار والمناظرة كفيلة بحمل الكثير من الدروس والعبر لمن يترسمون خطاه، ويطمعون فيما فوق مقامه السامي، فإن ديدات ظلّ أمينًا في نقل تجربته إلى الآخرين، مُبصّرًا بأهمية الدرّبة المتواصلة، والممارسة الدائمة.

ومن هذا الباب قوله موجهاً طلابه: «فوصيّتي لكم: عليكم أن تستمروا في التدريب.. ولا تخجلوا أن تقفوا أمام المرآة.. وتتمرّنوا، تمرنوا وتكلّموا أمام المرآة، وتصوّروا أنكم

---

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 81، مصدر سابق.

تتكلّمون لصورتكم في المرآة، وتكلّموا بكل حيوية: ولا تخجلوا. تدربوا. وتدربوا، بالإنجليزية وبلغتكم الوطنية، عليكم بالتدريب والتدريب. والتدريب، وهكذا يصبح الأمر جزءاً منك ومن طبيعتك»[1]. ولعل هذه القطعة مع قصرها، أمر ذو دلالة واضحة على ما تكتسيه عنده هذه الدعامة من أهمية منهجية.

ج - التحضير الشامل للحوار مسبقاً:

يندرج ديدات في قائمة النّوع الذي يحضّر محاوراته، ويتهيأ لها، متفرغاً لإعدادها ما وسعه الإعداد، مستقصياً في شمولية التّحضير، جامعاً لها ما يلزم جمعه من معلومات ووثائق، موطّناً نفسه للمثول أمام كلٍ من المحاور والجمهور بزاد معنوي هائل، وطاقة نفسية مشحونة، ويتكلّف في سبيل هذا التحضير المسبق مشقّة الإلمام بمصادر الطرف الآخر، وأفكاره الخاصّة، مؤمّناً لنفسه اطّلاعاً كافياً على أهم أعماله، ومؤلّفاته إن وجدت، وذاك من أجل اللجوء إليها للاستشهاد منها ضد صاحبها بعد معرفته جيداً، ولمحاولة تحديد أولويات المحاورة المرتبة، ورسم خطوطها العريضة من خلال تصوّر صورتها العامّة.

ومن أنواع الأمثلة على شموليّة تحضيره المسبق، ما قام به ديدات إعداداً لمناظرته العالمية الشهيرة مع سواجارت، حيث إنه في إحدى لحظاتها رأى أن يلزم مساجله بأقواله ومؤلّفاته، فقال: «الأخ سواجارت في إحدى هذه الكتب الثلاثين التي اشتريتها من جنوب أفريقيا قبل حضوري إلى هنا، وهذه هي كتبه أكثر من ثلاثين. اشتريتها، وقد قرأت كل واحدٍ منها، واضطررت لأعرف عن أي شيء يتكلم الأخ سواجارت؛ وما الذي يؤمن به حقيقة؟»[2]. وهذا مما يكشف لنا ما يبذله ديدات من جهد في التحضير للحوار كدعامة من دعائم منهجه، بالسعي الحثيث لاقتناء كتب نظيره، والاطلاع على أبرز رؤساء الطوائف الصليبية لقراءتها، واستيعابها، إلى جانب

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص76، مصدر سابق.

(2) المناظرة الحديثة في علم المقارنة والإعجاز، ص134، مصدر سابق.

متابعته لكافّة نشاطاتهم ومحاضراتهم للخروج، من ذلك بما يمكّنه من إدانتهم بأقوال، وأفكار سابقة، وإفحامهم بحجج كانوا قد أقرّوها في غير مواقف الحوار والمناظرة.

ولتعزيز ما نحن بصدده من حديث عن تحضيره المسبق، فقد حكى لنا ديدات قصة تجربته المجهضة؛ إذ لم تتحقق، وهي أولى محاولة في ترتيب اللقاء مع المنصرين والقساوسة عن طريق محاضرة كان قد عزم على إلقائها بعد عُدّةٍ كاملة، وصفها بقوله: «...اجتهدت في الإعداد لها وحفظها والتدريب عليها»[1]. وظلّ في مختلف أطوار عمله الحواريّ سائرًا على هذا المنهج، ملتزماً بالنمط نفسه - أو أشد - من التحضير المسبق الشامل.

د - إجادته لعدد من اللغات، وامتلاكه زمام الإنجليزية :

إنّ امتلاك ديدات ناصية اللغة الإنجليزية، وإجادته لعدد من غيرها يشكّل - ولا ريب - في منهجه دعامة أساسية، لها دور حي ولافت للنظر، حيث إنّه يجيد الإنجليزية أكثر من غيرها، وهي في هذا العصر من الأهمية بالمحلّ الذي لا يخفى على الصعيد العالميّ، وقد أفاد في التصريح بإجادته لها أكثر من غيرها في قوله: «أنا أتحدث الإنجليزية أفضل من أيّ لغةٍ أخرى، ...ولقد شاءت الظروف أن تكون الإنجليزية لغتي القومية، لأنني أحكم بالإنجليزية، وأقسم بالإنجليزية، وإنني أجعلها لغتي القومية، حسب آراء علماء النّفس»[2]. على أنّ حصيلته اللغوية مع استيعاب لغته الإنجليزية لمساحة كبيرة منها، إلاّ أنها ليست قاصرة عليها وحدها دون غيرها من اللغات التي يعرفها ديدات إضافة إليها، ومع الجهل بماهية تلك اللغات في معظمها، فإنّ بحسبنا في هذا المقام الاستناد في معرفته لها إلى ما أدلى به في مساق الردّ من إحدى مناظراته قائلاً: «أنا أيضًا أعرف لغات كثيرة...مقابل كلّ لغة يعرفها باسترستانلي، أعرف ثلاث لغات، وبدون مساعدة الروح القدس»[3].

---

(1) القرآن الكريم معجزة المعجزات، ص46-47، مصدر سابق.

(2) المناظرة الحديثة، ص132-133. مصدر سابق.

(3) مناظرتان في استكهولم، ص150. مصدر سابق.

ولمكانة اللغات في نشر المعرفة، وأهميتها في مجال الاتصال والتواصل بين البشر، كان ديدات غالباً ما يشجع على تعلمها، وإجادة أكبر قدر منها، توسيعاً لنطاق الاتصال والتفاهم مع الآخرين، لنشر الإسلام من خلال الحوار، والإرشاد. وقد تحدث مرة إلى طلابه في شيء من هذا المعنى فقال: «...الحقيقة أنّه لا توجد لغة سخيفة ومضحكة فكلّ اللغات عذبة، وكلّ اللغات جميلة، ولذلك فهي نعمة كبرى إذا استطعنا أن نتعلّم المزيد من اللغات، فعندما تتعلّم لغة جديدة، فإنّ آفاقاً جديدة تفتح أمامك، وكلّما تعلّمت المزيد من اللغات كلّما ازداد أفقك وفهمك»[1].

وممّا نستشفّه من هذا التوجيه أنّ اللغة تمثل عنصراً فاعلاً في عمل ديدات الإسلاميّ، وتعتبر عاملاً داعماً لمنهجه الخاص بالحوار الديني، وبذلك لا أظنّ أن ديدات كان مخوّلاً لما أتيح له من نجاح علميّ، وشهرة عالمية، لو لم يكن قد خاطب العالم وحاوره بأشهر لغاته، وأوسعها انتشاراً، في ظروفه الرّاهنة، وهو السرّ - فيما أعتقد - في احتجاب عدد من الشخصيّات الأكفاء القادرة على الحوار في أروع صوره، وأمْضاها، مغمورة خلف ستار الغيب، وفي زوايا العصر الخفيّة المظلمة، كأمثال بعض من سيعرض هذا البحث للمقارنة المنهجية بين ديدات، وبين كلٍ منهم على حدة[2].

إذن؛ فمن الضروري لأي محاور على نهج ديدات، أو حوار وفق منهجه، تخصيص جانب كبير وواسع من الاعتبار للبعد اللغوي في هذا المنهج، وفي نجاح هذه الشخصية الفذّة التي تعدّ اللغة وخاصّة الإنجليزية من أبرز العوامل التي تقف وراء شهرته الإعلامية، وانتشاره الإعلاميّ، هذا.. بالإضافة إلى الدعائم المتقدمة، وتتمة لتلك القوائم المنهجية ترد.

هـ - الشّجاعة الأدبيّة الوافرة :

توفّرت لديدات في منهجه الرّائع شجاعة أدبية نادرة، فكان كالطود الشامخ في

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص86.

(2) ينظر: ص: 424ـ 440، من هذا البحث.

صموده وثباته، ورباطة جأشه في مختلف مناظراته ومحاوراته؛ ولا غرو في ذلك فهو من صَقَلَتْهُ تجارب الأيام، وشحذته ضراوة التحديات، إيماناً بالله لا يهتزّ، وثقة بالنفس لا تتزعزع، وكان يصدر عن جرأة كبيرة، ويواجه بشجاعة أدبية وافرة، وهي من الصفات المحمودة والمطلوبة ضرورة في عامة الدعاة، وفي المحاورين والمناظرين على نحو أخصّ. حيث إنّ قول الحقّ وحمل لوائه ناشِراً ومنتصراً له يقتضي قدراً كافياً من الجرأة باعتبارها «قوّة نفسية رائعة يستمدّها الداعية من إيمان بالواحد الأحد الذي يعتقده، ومن الحقّ الذي يعتنقه، ومن الآخرة التي يوقن بها ومن القدر الّذي يستسلم إليه، ومن المسؤوليّة التي يستشعر بها، ومن التربية التي ينشأ عليها»[1].

ولإحساس ديدات الدائم بمكانة هذه الخصلة في منهجه، وفي كلّ ما يتصل بالحوار، والتبليغ، ظل يؤصّلها، ويمكن لها في نفوس وشخصية طلابه، وفي كلّ من يؤمه ناهلاً من تجربته الثرّة. ومن المواقف المحفوظة من هذا، قوله لفوجٍ ممن جندهم بمنهجه في الدعوة، والحوار: «تقدّموا . . بكل حيويةٍ ممكنة ولا تخجلوا من ذلك، حتى لو كان هناك قدر من المغالاة في آرائكم . . فلا تخشوا . . بالعكس فإن ذلك يرفع التردد والخجل بعيداً. والغرض من ذلك أن تتدرب حتى تستطيع مواجهة الجمهور لتكون طبيعياً أمامهم، ولا تجد نفسك في حالة ارتباك وتحتار . . »[2]. وهذا تدريب عملي للنّاشئة على منهجه، وتنويه بشأن ما لابد منه لهذا المنهج من جرأة وشجاعة أدبية، وللدّربة والممارسة العمليّة دور كبير في التحلي بها.

وإلى جانب هذه الدعائم المنهجية تقف جملة من الخصائص الأسلوبية نكتفي بذكر أهمّها فيما يلي:

رابعاً: الخصائص الأسلوبية لمنهج ديدات الحواري:

إن دراسة هذا المنهج تكشف للدرّاس جملة من الخصائص الأسلوبية الملازمة له.

---

(1) الدكتور محمد أمين حسن بني عامر: أساليب الدّعوة والإرشاد، ص225، ط1999، جامعة اليرموك. د.ر.

(2) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 80.

والغالب على هذه الخصائص التعاطي مع البعد النفسي العاطفي سلباً، وإيجاباً؛ إذ يحرص ديدات في أسلوبه على التفاعل الوجداني مع الآخر، سواء أكان مواجهاً أم مشاهداً، محاولاً في أقصى ما يمكن ممارسة قدرٍ كبير من التأثير عليه لينفعل بما يسمعه أو يشاهده في تلك الحوارات، والمساجلات الدينية، بسلاح العلم والفكر. ولعلّ أهم هذه الخصائص في تصوّري لها يتمثل في:

أ - حيوية الإلقاء الفنيّ المؤثّر:

من أبرز الخصائص المميزة لمنهجه في الحوار: الإصداع بالحقّ في استرسال متحمّس، بفضل ما يتمتع به من قدرة أدبية مبدعة، تميل به إلى الاسترسال والتفصيل في القول، فكان وهو يتحدث يُخيل للمرء أنّه أمام شلال غزير ينحدر بتدفق كبير قويّ بأمواجه، وتياراته الجارفة، وتظلّ هذه الحيوية الأسلوبية ملازمة له، حتى وهو يكتب؛ بدليل أنّه غالباً ما يميل في عرضه لموضوعاته إلى الإمعان بنفس طويل في التفاصيل الدّقيقة، مزوّداً بتعليقات وافرة تحقيقاً للدقّة في حسن تصوير وإرسال الفكرة المرادة.

إنّ ديدات في إلقائه الرائع يُمثل جذوة نشاط وفكر يفيض حيوية وتأثيراً، ويبلغ في حديثه أثناء الحوارات أرقى وأروع مستويات الأداء الخطابي المتحمّس، حيث يكون كلامه مثيراً ومليئاً بالمؤثرات الجذّابة لكل من يتابعه. وهو في تجاذبه لأطراف الحوار مع الآخر، وفي محاضراته العامّة، يتَبَسَّط في حديثه بطريقة نَفّاذة خارقة، في شيء كبير من اللباقة ومراعاة انتقاء الألفاظ والأساليب الملائمة، ولفاعلية هذا الأسلوب في تأثيره وصفه أحد الباحثين بأنّه: «أسلوب دراميّ خطابي»[1]. فهو أسلوب حافل بالهيبة والوقار، يحمله قالب أدبي شيّق، ويحمل هو الآخر قلباً ومضموناً سامياً من قلب رجل صادق.

وبهذا أرى أنّه يصحّ فقط في استثناءات قليلة من الحالات بعضُ ما سجله أحد المترجمين عنه قائلاً: «يبدأ حديثه حديثاً هادئاً، ...ودون تكلّف لفنون الإلقاء، ودون بذل

(1) ينظر: هل الكتاب المقدّس كلام الله، ص78. مصدر سابق.

أي جهد لاستغلالها من أجل التأثير على الجماهير؛ في هدوء الواثق وثقة الهادئ»[1].

وبما عُرف عنه من حيوية الأسلوب، مضافةً إلى سمو المضمون، ووقار الشخصية يتكوّن من المجموع حوار بليغ يتّسم بالفاعلية والتأثير، ممّا قد يدفع به – أحياناً – السعي المتحمّس من أجل تحقيقه إلى بعض مالا يتعمّده من التلبُّس بالخاصية اللاحقة.

ب – شيء من الحدّة وقليل من الانفعال :

من الملاحظات الأسلوبية على منهج ديدات، أنّه يجنح في أحيان نادرة عندما يحتدم النّقاش بينه وبين الآخر إلى شيءٍ من الحدّة في أسلوبه، وقد يغلظ في الهجوم أثناء ردوده المنفعلة، فتتصاعد وتنخفض نبرات صوته على نحوٍ متموج، تمتدّ أحياناً لتحمل بعضاً من القسوة وضروب الانفعال. وتارة حين يشتد في النقاش، والرّد على الأفكار الباطلة، ومواجهة الضالّين، والمنحرفين، يقسو في أقواله، فتطغى لغة الانفعال، والمعاقبة بالمثل على الردّ الهادئ، ومبدأ الصبر الجميل. ومع ذلك يحاول قدر المستطاع أن يظلّ عفيف اللسان، نزيه القلم، محافظاً على المعهود عنه من أدب وحياء، وإن كانت تصدر عنه عفواً في أمثلة قليلة تحصى فلتاتٌ عاثرة عابرة دون أن تكون مقصودة في أغلب حالاتها. ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله في الردّ على أحد الأسئلة في مناظرته مع سواجارت: «. . . ولكن حين أسألكم كم صورة ترون؟ تقولون: واحدة، وتكذبون عليّ، أيّها الإخوة والأخوات، أنتم تكذبون عليّ»[2]، وبالإضافة إلى هذا توجد أمثلة عديدة في كتابه عن سلمان رشدي وفكره الشيطاني، وهي مما يفهم في إطار الرّد الواجب على هذا الفكر القذر البذيء، والّذي كان بحاجة إلى أسلوب حاد في الردّ عليه، وتنفير النّاس عنه بتوعيتهم بدناءته، وتفاهته. ولذا تظهر قسوة لهجة ديدات مبثوثة في معظم أجزاء الكتاب إلى أن يختم بالدعاء عليه ولعنه، بَدَلاً من الدُّعاء له بالتوبة والهداية. وفي ذلك يقول: «نسأل الله القوي العزيز، أن يغصّ حلق ذلك المارق المأجور، سلمان رشدي بما ربحه وكسبه من مال حرام، كأجرٍ تقاضاه مقابل القيام بهذه المهمة الشّريرة وهو مدفون في الجحيم. . ونرجو من

(1) مناظرة العصر، ص60، مصدر سابق.

(2) المناظرة الحديثة، ص199، مصدر سابق.

الله القويّ العزيز، العليم الحكيم، السميع البصير أن يميته ميتة الجبناء خائفاً مذعوراً مرعوباً، وأن يخلد في الجحيم، إلى أبد الآبدين»[1]. ولعلّ الكثير من أمثالي لا يتفق مع ديدات في هذا الأسلوب في منهجه، مهما تكن مبرراته في هذه الخاصية الأسلوبية، لأنّ «الغلظة من الآفات التي تمنع وصول الدعوة إلى المدعوين، وتثير الغضب والكراهية والحقد، والإصرار على الباطل والشر، وتبذر بذور الشقاق والعداء لحامل الرسالة وأتباعه المناصرين له. . فالرّفق في الخطاب أرجى لقبول الدعوة، والشّدة تفوت المنفعة»[2]. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: 83]. وأيضاً: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125]، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: 159]. كما يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - فيما روي عنه: (ما كان الرفق في شيء إلاّ زانهُ، ولا نزع من شيء إلا شانه)[3]. صدق الله العظيم ورسوله الكريم.

ج - من الاستدراج إلى الإحراج:

يلجأ ديدات أحياناً في ركاب أساليبه المنهجية إلى استدراج من يحاوره، متظاهراً بالتأييد والموافقة له في رأي من آرائه التي لا يؤمن بها ديدات إطلاقاً، مستخدماً أسلوب الحوار الهادئ لإيقاعه أخيراً في شرك الاعتراف، والاستسلام للحق. ومن الأدلّة على ذلك ما جاء في قوله: «وإذ نعرف ونؤمن إيماناً لا ريب فيه أنّ القرآن الكريم كلّه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإننا مع ذلك سنوافق جدلاً أعداء محمد ﷺ فيما يزعمون من أنّه قد اخترعه بنفسه ولمْ يَتَلَقَّهُ وحياً من الله، وإننا لنرجو بعض التعاون من المنكرين بأن يتماشوا مع حوارنا معهم بقدر ما يسعفهم المنطق المعقول»[4]. وينتهي به هذا الاستدراج - غالبًا - إمّا

---

(1) شيطانية الآيات الشيطانية، ص58. مصدر سابق.

(2) أساليب الدعوة والإرشاد، ث60-61، مرجع سابق.

(3) صحيح مسلم جـ4 / 2004 / ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

(4) المسيح في الإسلام، ص: 24، مصدر سابق.

إلى: إحراج الطرف الآخر ساحباً منه الاعتراف بالهزيمة، والإقرار بالحقّ، وذلك حين يحصره مضيّقاً عليه الخناق في متاهات نصوص أخلاقية محْرِجة، مما لها مواردها في كتابهم المقدّس، كما حصل ذلك في محاورته التي قال عنها: سألت المشرف على دار الكتاب المقدّس: أيّهما تختار لابنتك فيما يتعلّق بمولد عيسى عليه السلام: التصور القرآني أو التصوير الإنجيليّ؟ وأحنى الرجل رأسه بتواضع وقال: «التصوّر القرآني»[1].

وإما لإحراجه أمام جماعته الدينية، وأهل مذهبه خاصّة. حين يكشف ديدات للآخرين عمّا يتبنّاه نظيره من أفكار عقديّة مخالفة لمقررات الكنيسة، وما عليه عامّة مذهبه، ومن هذا النوع ما أورده أثناء الحوار من نصّ لمحاوره معلّقاً عليه في قوله: . . . أنا أقتبس لكم ممّا كتبه الدكتور (شروش) على الصفّحة الثمانين، يقول: «أيّها الأب السّماوي المحبّ، أنا أشكرك على معجزة إسداء الحياة لي، وإنّ أكبر معجزة في الدنيا أنّك تموت من أجلي»، ولقد تساءلت من الذي يموت من أجل الدكتور(شروش)؟ الأب الذي في السماء يموت من أجله؟ لقد حظرت الكنيسة هذا المعنى منذ أكثر من ألف عام. ويقول الإنجيل «ولا تدعوا لكم أباً في الأرض لأنّ أباكم واحد الذي في السماوات» [متى 9:23][2]. والقصد عند ديدات – والله أعلم – في التركيز على هذا النوع من الانفرادات العقدية التي يُخالف فيها مساجله كنيسته هو إثارة النزاع والشقاق بينهم، وجلب شيء من التوتر ضدّ من يواجهه بالدفاع عن عقيدته الضّالة، مع أنه خارج عن رأي جماعته ومخالف لها. وهذا النوع من الاستدراج المحرج لا يتأتى للمحاور ما لم يكن على سابق علم كافٍ بأفكار محاوره تفصيلاً، وبعقائد كنيسته وجماعته إجمالاً. وهو من الأساليب ذات المفعول الطويل في الانتصار على الطرف الآخر.

د – استغلال العاطفة اللغوية :

وهو لون من أساليب الإثارة والتأثير في منهج الحوار عند ديدات، حيث يحاول غالباً حفظ وقراءة النصوص التي يكثر الاستشهاد بها في الحوارات الدينية بلغات متعددة، من أجل التأثير على الناطقين بتلك اللغات، والتي تشدهم لمتابعة ما يقال

(1) المصدر نفسه، ص 54.

(2) مناظرة العصر، ص66، مصدر سابق.

بإنصات وتركيز، وليس بالضرورة فيما يرى ديدات أن يكون الشخص المحاور مجيداً لتلك اللغات، بل وإنما تكفيه القدرة على استحضار النصوص بها متى يكون ذلك مُستحسناً. وبهذا نصح ديدات طلابه قائلاً: «...وإذا كنت تستطيع أن تقرأ بلغة أخرى...فافعل ذلك، ولقد أخذتُ على نفسي مشقّة حفظ ذلك بعدة لغات، فحينما ألتقي بالمواطنين «الزولو» فإنني أتحدث إليهم بالإنجليزية...ولكني أقرأ عليهم بالزولو، ويكون لذلك تأثير عظيم عليهم. وحينما ألتقي بالأفريكانا، فإنيّ أتحدث إليهم وأقرأ النّصّ بالأفريكانا، وقد حفظته بالعربية، فقد تصورت أنني يمكن أن أذهب إلى لبنان، لذلك حفظته بالعربية للتحدث إلى المسيحيين اللّبنانيين..»[1].

ويكثر في عصرنا هذا استخدام الصليبيين، وبخاصة العرب منهم، لهذا الأسلوب المؤثر في محاضراتهم ومحاوراتهم، مع المسلمين ممن يتحدثون العربية ويتقنونها، إذ لا يخلو اللقاء بهم غالباً من مفاجأة المسلم بآيات تلوك بها ألسنتهم محرّفة، وأحاديث يتلعثمون في ضبط رواياتها، والقصد من ذلك خداع المسلم، وإيهام الآخرين بالتبحّر في مصادر الإسلام، ورغم ذلك فإنهم فضلوا غير الإسلام عليه، لا عن جهل، أو تقليد، وإنّما عن دراسة واختيار.

ولاشك أن ديدات حين يستخدم هذا الأسلوب ضمن أساليبه المتعددة يعي وعياً تامّاً مجمل هذه الاعتبارات، وهذا لا يعني أنّه يقلّدهم في ذلك، بل وإنما يصدر فيه عن درايته بأهميته النفسية في التأثير الإيجابي على الآخرين بشدّ انتباههم، وتفاعلهم مع المحاضر أو المحاور. وهو الهدف الذي سخّر له ديدات إلى جانب هذا الأسلوب مختلف ما تقدم من أساليب مميّزة من منهجه المؤثر، ومما يلحق بهذا من الأساليب المثيرة، تحديه للطرف الآخر في مختلف لقاءاته بجُعلٍ مادي مقابل إجابة صائبة على سؤال من تلك التي يوجهها إليه ديدات[2]، كما أنّه أحياناً قد يراهن برأسه، مضحياً بحياته في حال استطاع مساجله أن يقدّم نصّاً صحيحاً صريحاً ينهض دليلاً على دعواه، مناقضاً لصحة ما يقول به ويعتقده

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 81.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص30.

ديدات . ومن أمثلته ، قوله لأحدهم : «أرني نصاً واحداً قال فيه عيسى : (أنا إله) وقال (اعبدوني) عندما تعثر عليه ، وأنا مستعدّ لو فعلت ذلك أن أقدم رأسي إلى المقصلة»[1] . وهذا مما يدل على ثقته بنفسه ، وجدية الحوار عنده ، وصدق إخلاصه لدعوته .

وفضلاً على هذه الأساليب تطالعنا قبل ختام دراسة هذا المنهج طائفة من السّمات والملامح المميزة له عن العديد من المناهج المغايرة .

خامساً : السّمات والملامح العامّة لمنهجه في الحوار[2] :

يتسم منهجه في الحوارات على اختلاف مواقعها وموضوعاتها بسمات متعددة ، وملامح عامّة ، تشكل في جملتها القسمات الرئيسة المميزة لمنهجه عن كثير من المناهج . وتكمن أهمية معرفة تلك السمات في المساعدة على التمييز بين مختلف المناهج مهما تعددت ، وفي تزويد الدّارس بإمكانية تصنيف المحاورين حسب سماتهم المنهجية ، وصولاً -حين تقتضي الحاجة-إلى دمج عدد من المناهج لأداء دور متكامل في مواقف حوارية معينة ، فضلاً عن أنها من الوسائل المعينة في الحكم على الشخص سلباً أو إيجاباً . ونرصد فيما يلي - ما يبدو لنا - أهم تلك السّمات على النحو الآتي :

أ - التركيز على القضايا العقديّة ، وربطها بالقيم والظواهر الأخلاقية :

تشكل العقيدة وما يتصل بها ، الخيط الرفيع وربّما الفريد في مختلف حوارات ديدات ، إلا ما شذّ عن هذا الباب من تجنيده للسياسي الأمريكي «بول فندلي» في ندوة مشتركة لمواجهة قوى الشرّ والعدوان الصهيونية ، مما يجوز أن نعتبره تجاوزاً من قبيل الحوار المتحالف ، حيث تتحالف فيه عناصر ذات اتجاهات مختلفة ، وانتماءات متباينة لتشكيل جبهة موحدة ؛ لتحقيق قيم الحقّ ، والخير ، والعدل ، والسلام في مفهومها العادل السويّ .

---

(1) المصدر نفسه ، ص138-139

(2) بعد ما مر بيانه عن المنهج من قواعد هيكلية ، وخصائص أسلوبية تتعلّق بفنيات الأداء الشكلية ، استحسنا الحديث عن السمات العامة لهذا المنهج ، وذلك لصالح الخروج بصورة جامعة عنه ، فاصلة بينه وبين غيره من المناهج الأخرى ، إن وجدت .

وفيما يخص تركيزه على العقيدة، تكاد تنعدم عنده الحدود الفاصلة بين ما هو عقدي وما هو أخلاقيّ؛ وقد ترتّب على هذا الفهم ما ظهر في مناظراته أنّه غالباً ما يجرُّ محاوريه إلى واقع مجتمعاتهم لنقد ما شاع فيها من مظاهر الفساد والانحراف من النّاحية الأخلاقية، وذلك في قفزة سريعة من دوائر العقيدة إلى ساحات حياة المجتمعات اليوميّة؛ إيماناً منه بأنّ للعقيدة حيث تصح دوراً فاعلاً في توجيه الحياة، وإرشاد النّاس في دروبها ومسالكها الأخلاقية، وبالعكس عندما تصاب النّاس في سلوكياتها الأخلاقية تتعرض المجتمعات الإنسانية لأزمات حادة، وأمراض خانقة فتّاكة. والعياذ بالله.

وفي ضوء هذا التصور كان ديدات يأخذ بأيدي محاوريه ليُوقفهم على الأمر الواقع، وكأن لسان حاله يقول لهم: إنّ ما تشهده مجتمعاتكم من فساد وتيه، أيّها الصليبيون لهو أكبر دليل على فساد وضلال عقيدتكم؛ حيث إنّ صحّة العقيدة تورّث في الأغلب مجتمعاً سليماً معافى. وبهذا صرّح في إحدى مناظراته قائلاً: «...هذا هو المحك، المحك الثمرة، لقد أوجد الإسلام أكبر مجتمع في العالم لا يتعاطى المسكرات، يوجد حوالي ألف مليون مسلم في العالم، وهم في عمومهم لا يعاقرون المسكرات، ولا يشربون الخمر، هذه هي الثمرة»[1]، وفي موضع آخر من المناظرة ذاتها يقول: «انظروا في هذه الأمّة الجبّارة أمريكا، يوجد حسب قول سواجارت: أحد عشر مليون سكّير. . هذه هي أمتكم، أمّا في الإسلام فلا شرب خمر، حتى على سبيل المجاملات الاجتماعية»[2]، وفي موقف مختلف من مناظرة أخرى يقول أيضاً في مواجهة محاوره باعترافاته: «وفي كتاب الدكتور (شروش) المعنون بعنوان: (الفلسطيني المتحرّر) . . . يقول الدكتور شروش بعد استعراضه مظاهر الإباحية الجنسيّة في أمريكا، يقول إنّه كان يمشي وقد تعلّقت بكلّ ذراع من ذراعيه فتاة. ودعته فتاة جميلة إلى منزلها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وذهب معها، وكان أبوها ينتظر ومعه مسدّس، وكان عليه أن يتراجع، هذا ما

(1) المناظرة الحديثة، ص169، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه، ص170.

يقوله الدكتور شروش في كتابه. أين هي الأخلاق الحميدة في مثل هذا المسلك؟ .»[1].

إن تطرق ديدات إلى القيم والظواهر الأخلاقية وهو يحاور ويحاضر في العقيدة، سمة ظاهرة واضحة من سمات منهجه البارزة. والظّاهر أن تقيُّد ديدات بالحوار في العقيدة كان مبنيّاً فيما أظن على رؤية مفادها أنّ الحوار في غير العقيدة غير مجدٍ، مادامت العقيدة فاسدة؛ إذ لا تلبث أن تزول وتتلاشى كلُّ النتائج والثمرات التي يمكن أن تتحقق وتجنى من الحوار غير العقدي، عندما تتغير الظروف والملابسات، ومن ثمّ تنتسخ النتائج الآلية المؤقتة. وإنّ ما يجنى من الحوار العقديّ مهما شقّ طريقه وتوعّر فهو الذي يبقى ويدوم، ويكفي ديدات مبرراً في تركيزه على العقيدة في حواراته، أنّه عاش في ظرف من الزمان والمكان يموج بالكثير من النِحَلِ والتيّارات، ويسوده الكثير من الحركات الفكرية الضّالة، وتنتشر في مختلف جنباته ألوان من الفوضى الاعتقادية يثيرها جحافل من المنصرين البادئين بالظلم والتحدي، فكان لزاماً على ديدات أن يعتصم بطود العقيدة، وقوة الأخلاق وثباتها، إذن؛ فلا غرو منه في مسلكه العقديّ الأخلاقي إذا علمنا أنه هو القائل: «...إنه بدون استماع إلى كلام المسيح الحق بصدق وطاعة لا يمكن أن يحكم العالم»[2]. وعليه، فلابد من التركيز على العقيدة لتصحيحها.

ب - غلبة الصّون والهدم على البناء والتعمير[3]:

ومما يتصل بتخصصه في الحوار العقدي أنّ الطابع الغالب على منهجه سمة الصون، والهدم، أي صونهُ لعقيدته والدفاع عليها أمام اعتداءات المعتدين، دون أي تخاذل، والعمل على توعية إخوانه المسلمين، وإرشاد الحائرين الباحثين لأنفسهم الخلاص في الأديان بأنّ العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تستحقُّ أن يحيا بها الإنسان مطمئناً، ويموت عليها ملاقياً ربّهُ بكلّ أملٍ وأمان، ومن حيث الهدم فإنّ ديدات يقضّ

(1) المصدر السابق، ص92.

(2) مناظرة العصر، ص92، مصدر سابق.

(3) أي له همّ كبير في ضمان النجاح لموقفه الحواريّ الذي يعكس كثيراً من رغبته الفائقة في أن يصون عقيدته من هجمات الأعداء، ويحامي عن دينه وأمّته ضدّ المتربصين بكلّ منها.

بها على العقائد الباطلة، وبخاصّة الصليبية منها بمعاول الهدم، يدكُّ بها معاقل المهاجمين، مخرّباً بنيانهم من الأساس لينهار برمّته من المعركة، وينزاح أمام الحق ليشق طريقه إلى العالمين رحمة من ربّ العالمين. ولم يكن ديدات في منهجه بمن يّغتنم فرصة محاوراته متجاوزاً فيها هذه السمة للبناء والتعمير؛ بتقديم البديل الصّحيح بعد الهدم، وبإلقاء ضوء شامل كاشف على الإسلام، بعقيدته، وشريعته، وقيمه، سواء لمساجله أو لعامّة الحضور. ولعلّ تقيده بما يحدَّدُ لمحاوراته سلفاً من موضوعات، هو الذي حدا به عن هذا المنحى الإيجابي، فلم يحفل به في منهجه الحواري العامّ إلا في القليل النّادر. وبخلوّ المنهج تقريباً من هذا البعد يقصر عن أداء أهمّ وظائفه من منظور من يرى أنّ الهدف من المناظرات والحوارات، هو الوصول معاً إلى الحقّ والخروج من رحلة البحث عنه بنتيجة حاسمة، وحقيقة واضحة محدّدة، يشترك كلا الطرفين المتحاورين في التسليم والالتزام بها.

وبالرغم من هذه الملاحظة، فإنّ من محاسن منهجه الكثيرة أنّه يصحّح العقيدة الكنسيّة بهدي القرآن الكريم، بعودته غالباً بعد مناقشته لمغالطهم العقديّة، واتهاماتهم الباطلة إلى كشف الصواب، وبيان وجه الحق فيما ضلّوا في معمعته من عقائد باطلة[1].

على أنّ حقيقة عذر ديدات في غلبة الصّيانة والهدم، على البناء والتعمير في منهجه، تكمن - فيما أرى - في منطلقه الذي بدأ منه الحوار أساساً، وهو منطلق المقاومة، ودفع التحدّي، والّذي انتقل منه لاحقاً إلى موقف:

ج - المبادأة والملاحقة :

من شيمة ديدات في سماته المنهجية، أنّه يبادر بفتح باب الحوار مع الآخر، فهو نزّاع - كليًا - إلى الحوار؛ حيث أصبح منذ أنس في نفسه بعضًا من القدرة العلمية، والكفاءة العلميّة على النقاش والمناظرة يبادئ المّنصرين، ويلاحقهم بالتطويق في ميادين الحوار، وقاعات المحاضرات. وإنّ كثرة محاوراته وإشراعه باب الحوار مع الجميع بما فيه

---

(1) المسيح في الإسلام، ص44، على سبيل المثال. مصدر سابق.

دعوته بابا الفاتيكان إليه كما أسلفنا، إلى جانب ممارسته الفعليّة للحوار من خلال مئات الرحلات والمحاضرات كفيلة بالتعبير عمّا يتمتع به من روح المبادأة الحوارية الجلية من سمات منهجه. وفى هذا الجانب كان ديدات مليئًا بالتحمس لتشجيع ودفع كل ما يخدم قضية الحوار بين الأديان والعقائد الفكرية بمختلف أنواعها.

وهذه المبادرة الإيجابية في نزوعه الدائم إلى الحوار والتي حكى لنا طرفاً منها بدعوته من المسجد لأحد طلاب كليّة اللاهوت في بلاده، إلى منزل أخيه القريب من المسجد للحوار والمناقشة على مائدة غذائية حول أصالة الكتاب المقدّس [1]، تكشف لنا مع أمثلة كثيرة جانباً كبيراً من عشقه للحوار، وتعلّقه به، ومن ثمّ مبادرته إلى تنظيمه والترتيب له ببذلِ كلّ ما بوسعه في سبيل تنمية روح وثقافة الحوار، والتمكين لهما.

ومع هذه النقلة النّوعية التي تحققت في حياة ديدات الحوارية من موقف الدفاع والاعتصام، إلى التجرؤ على الإقدام والمبادأة، فإننا لانصادف في هذا المنهج ما يدل على مواكبته لهذا التطور، إذ ظلّ برهانياً استدلالياً ولم يُقَدَّر لديدات الارتقاء به إلى مستوى الإثارة، وجعل الآخر في موضع الدفاع والاستدلال، وهو الموقف الذي ابتدأ ديدات نفسه منه الحوار، وكان حَرِيّاً به أن يعمل على تطوير المنهج وتنويعه، محافظاً على روحه وجوهره القرآني طبقاً لما طرأ من تطورات، وما استجدّ من مواقف.

د - الالتزام بنمط المقارنة الدّائبة :

لقد جرى ديدات في منهجه على نسق المقارنة الدّائبة، فمنذُ أن تشرّب روحها، واستمتع بثمارها، أصبح طابعها يسود منهجه الحواري في عمومه، وكان التفكير في التنصير والمنصرين مما يلازمه دائماً، حتى إذا واتته الفرصة انشغل-تنفيساً عن إحساسه الحزين-وشغل أيضًا من معه من دعاة المسلمين وعامّتهم، بالمقارنة بين جهودهم وبين ما عليه الدّعاة إلى الإسلام. وبالنسبة لحواراته، فسرعان ما كان يأخذ في النّسج على منوال المقارنة كلّما تهيأت عنده مناسبة لها، مستحضراً الآيات القرآنية ذات العلاقة

(1) ينظر، هل الكتاب المقدّس كلام الله، ص105. مصدر سابق.

بموضوعه، مقارناً بدقة بينها وبين نصوص كتابهم المقدّس لتجلية الروعة الأسلوبية، وإبداء مظاهر الدقة في التعبير القرآني الممايز لما عندهم، مزيلاً اللبس عمّا يلوح في الظاهر من تشابه بين الخطابين في بعض المواطن القليلة[1]، والملاحظ أن سمة المقارنة في منهجه، وبالأخص في جانبها النصّي ترد غالباً عقب المناقشة والتفنيد، للتصحيح بالتصور الإسلامي المتضمن في الآية التي يسوقها مقارناً ومصححاً. ومن أمثلتها قوله لمن كان يواجهه في إحدى الحوارات العلنيّة: «...ولذا فإنّ يسوع يستحيل أن يكون هو الأب ويستحيل أن يكون هو الله، لأنه كان ليسوع لسان وشفتان وتكلّم مع اليهود. وكانت له عينان، والعينان في وجه واللّسان يمتدّ من البلعوم. وكانت له أمعاء. وباختصار كان إنساناً وله جسم الإنسان. ولم يكن إلهاً بكل حال. ما هي الأشياء التي يجب ألاّ تنسب إلى الله؟ يقول القرآن الكريم: «ليس كمثله شيءٌ» ووفقاً للعقيدة الإسلامية، لا يصح أن ينسب إلى الله كل ما تحدّه قدرة الإنسان على التخيّل، وأي صورة يتخيّلها البشر لله ليست هي الله» [2].

إنّ ديدات وقد استهوته سمة المقارنة بين عامّة القضايا والمعتقدات التي تحاور فيها مع الآخرين، كان يعي حقاً ويعكس مدى هذا الوعي في منهجه، بأنّ من طبيعة المقارنة بين الأديان النّهج دائماً على درب المقارنة مختلف موضوعاتها ومصادرها، وأتباعها، وغيرها ممّا له علاقة بها. وبقدر ما تعبر عنه هذه المقارنة الدّائبة -التي ترد من زوايا مختلفة- من وعيٍ متيقظٍ فإنّها تدلُّ من جهة أخرى على:

هـ - حضور دائم فاعل لشخصيته القويّة في حواراته:

يُلمس جلياً في كلّ أعماله، ولا سيّما في منهجه الحواري، حضور شخصيته ووضوحها؛ ذلك لما تحلّت به هذه الشخصية من صرامة وصراحة في قول الحقّ، والدّفاع عنه، وتتجلّى في تضمين محاضراته ومحاوراته أطرافاً من تجربته، وجوانب ممّا جرى له مع غيره في مواقف سابقة من أحداث لا يخلو العلم بها من فوائد، وذلك إمّا من باب

(1) ينظر: المسيح في الإسلام، 50-56. مصدر سابق.

(2) مناظرة العصر، ص69.

الاستشهاد أو من قبيل عمليّة نقل التجربة العمليّة إلى الآخرين. ويحضور بارز لشخصيته المهيبة في منهجه-كما يتضح ذلك حتى في مجرد حديثه، وفي بصماته الواضحة في تعبيرها عن شخصيته في مختلف أعماله-يشكلّ ديدات في هذا المنهج شخصيّة محورية تدور بها وقائع محاضراته، ومحاوراته الجمّة، على غرار محورية شخصية المسيح عليه السلام فيما تحوم حولها من عقيدة كنسيّة باطلة. وربما لا تتضح فكرتنا عن حضور شخصيته القوية كسمة من سمات منهجه، إلاّ في ظل تصور شخصية أخرى، في إطار منهجه الخاصّ، ليتبين من ذلك مدى بروز وضمور الشخصيات في مناهجها.

إلاّ أن هذا الحضور الواضح بتأثيره الفاعل لم يحل دون سمة:

و - انضباطه في حواراته بقواعدها التنظيمية:

ينحو ديدات من النّاحية المنهجية منحى متميزاً في الانضباط بما اصطلح عليها من ضوابط، وإجراءات تنظيمية لمجرى حواراته، الأمر الذي يقدم لنا فكرة عن أدب الحوار فيما عوّل عليه من منهج حواري، وعمّا يتصف به شخصه من رصانة، واتزان، مما تشهد له بها حواراته المتعددة، والتي ظهر في معظمها منضبطاً بالتنظيميات، وملتزماً فيها بأدب الحوار الرفيع، إذ نادراً ما كان يخرج عن طوق مصطلحاته، لخرق شيء من مبادئها المحددة سلفاً. وإن حصل منه شيء من ذلك فلا يلبث أن يُراجع نفسه، عائداً مستدركاً، دون أن يتجاوز في الغالب حدّ المداخلة بمقاطعة نظيره المتحدث، وذلك عند اللزوم وفي أضيق الحدود كضرورة توضيح فكرة، أو تصويبٍ لعقيدة، أو تصحيحِ لفهمٍ خاطئ، نزوعاً بمقتضى: لكلّ مقام مقال، ولكل مقام مقال كذلك.

ولّما كانت القاعدة الغالبة على هذا المنهج من حيث أدب الحوار، هو الانضباط والتقيّد، إذن؛ فهو المعوّل عليه دون غيره من الحالات الشاذّة. ومن الأمثلة الكثيرة على هذا التقيّد إمساكه عن الحديث وفي نفسه شيء مما يحسن قوله، وذلك نزولاً عند مقتضى نفاد المدّة المحددة له في إحدى محاوراته، والتي قال فيها: «أعرف أنّ الحديث يمكن أن يمتدّ بيننا، ولكنني أحترم إشارة مدير المناظرة لي بما يفيد أنّ الوقت المحدّد

للإدلاء بما تيسر من الملاحظات قد استهلك ونفد»[1] . ولشدّة مراعاته للضوابط والآداب الحوارية كان حتى في الحالات التي يشجعه المعجبون به بالتصفيق الحار يعمل على صرفهم عن ذلك[2]، حفاظاً على الأدب واحتراماً للطرف الآخر، ولموضوعية الحوار. فياله من أدب رفيع، وروح حوارية سامية!!.

وإنّ هذه السمة الشريفة تستمدّ أسباب وجودها عنده من الإطار الجامع لكلّ سمات منهجه السابقة وغيرها، وهو الإطار الذي يشكل في منهجه أمّ السمات الإيجابية متمثلاً في:

ز - قرآنية المنهج :

لقد تقرر فيما مرّ بيانه أنّ منهج ديدات يستمد روحه وجوهره من القرآن الكريم، ويقوم على أسس لا تتعارض معه، إن لم يكن قد قرّرها بالفعل. وقد تجلّت السمة القرآنية في مختلف المراحل والمواقف التطبيقية لهذا المنهج في الحوار، من براعة استهلالاته بآيات قرآنية تتناسب مع الموضوع الذي يقْدم على معالجته، ومناقشته للقضايا بنصوص قرآنية، ملتزماً بآداب القرآن وتوجيهاته، بما حدده من موضوعات الحوار العقديّ، مُختتماً أحياناً حواراته بآيات ومقرّرات قرآنية، إلى جانب قرآنية منطلقه وغايته في كلّ ما قدّر له من نشاطات إسلامية، ومحاورات دينية بخاصّة. إذ كان قصده من ورائها خدمة القرآن الكريم بدعوة العالمين إليه.

ولذا ما كان ديدات ليُغفِل أبداً هذا البعد القرآنيّ لمنهجه، بل ظلّ يؤكد دائماً أن منهجه في الحوار والمقارنة نتاج أعظم كتاب في الوجود وهو القرآن الكريم، ذلك المعين الذي لا ينضب، والذي اهتدى ديدات إلى صياغة منهجه من بعض كنوزه النفيسة المتدفقة، ومن ثمّ فلا غرو في انطباق بعض خصائص القرآن على المنهج الذي بدا عليه جليّاً تلونه بها في سماته، وملامحه، ولعلّ أبرز مظاهر انعكاس السمة القرآنية على

---

(1) مناظرة العصر، ص 92.

(2) المصدر نفسه، ص 67.

منهجه أنّه استطاع أن ينأى عن المنحى الفلسفي المعقد، ويأخذ به بعيداً عن أساليب الجدل الكلاميّ في مسائله الدقيقة، لتتمحّض مطابقته فقط لمنهج الاحتجاج القرآني المعروف ببساطته وفعّاليته.

أجل؛ وربما لا يكون ثمة خيار أمام المسلم المحاور في الأخذ بهذا المنهج الذي فرض نفسه، وخاصّة بعد موجة انحسار الأساليب الكلامية التي وجّه كثير من أعلامها سهام النقد إليها، بعد جولة طويلة في أزقتها الواعرة دون الخروج منها بطائل مثير ومثر. ولعلّ أبرز نقادها بعد الجويني، والغزالي، وابن رشد، هو فخر الدين الرّازي الذي قال في وصية أيّامه الأخيرة: «...ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم...»[1]، إذ هو أقرب وأيسر الطرق وأفعلها.

وممّن يؤكد من العلماء المعاصرين على هذا الاتجاه القرآني الذي سلكه ديدات في منهجه، الإمام محمد أبو زهرة في قوله: «ولو أنّ المتكلّمين عنوا بإثبات العقائد والجدل فيها، وسلكوا مسلك القرآن الكريم، وساروا في سمته، لكان علمهم أكثر فائدة، وأدنى جنى، وأينع ثماراً، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق وقيوده، والبرهان وأشكاله، فكان عملهم للخاصّة، من غير أن يفيد العامّة»[2]. وإلى هذا التيّار القرآني في منهجيّة الحوار ينتمي أيضًا من المعاصرين «منيع عبد الحليم محمود» المنقول عنه قوله: «ويرى العلماء: أن القرآن الكريم اشتمل على جميع أنواع البراهين وألوان الأدلّة، وسلك جميع طرق المناظرة، وما من سبيل من سبل إثبات المدعى إلاّ وكتاب الله قد سبق إليه وقرّره، ووضع له الأسس السّليمة التي يجب أن تحتذى[3].

ولهذه الاعتبارات – فيما أرى– عُنِيَ ديدات بالإفادة من القرآن في منهجه، لما به من كثرة النّفع، وتمام الفائدة. وبهذه العناية اكتسب في حواراته منهجيّة القرآن التي

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص468. شرح وتحقيق: د. نزار رضا، ط: دار مكتبة الحياة، 1970ف، بيروت.

(2) د. محمد أبوزهرة: تاريخ الجدل، ص73.

(3) «منهج القرآن في الدعوة إلى الله»: ص180، مجلة الأمّة، ع25، س3، 1403هـ – 1983 الدّوحة – قطر.

تثير القلوب وتنير العقول لإقناعها بقوّة الحجّة والبرهان .

وممّا سبق ؛ يتأكد لنا في ختام دراسة منهج ديدات الحواري أنّه ثاب إلى القرآن الكريم فاستمد من خزائنه الخالدة المتجدّدة ما أقام به صرح منهجه الرّفيع بجوهره ، وأسسه ، والقويم بدعائمه وركائزه ، الرّائع بخصائصه وسماته ، البديع بقرآنيته وأدبه الجمّ .

ولعلّ أكبر هدية حملها لعصره هو أنّه أكد الدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من منهجيّة الحوار مع الجميع ، وسعى قدر استطاعته لتطبيق وممارسة هذه الدعوة الكريمة إلى الحوار منوّعاً للمجالات ، وموسّعاً للآفاق ؛ ليزداد بذلك التأكيد على أهميّة الحوار الدّائم الموسّع ، ومن ثمّ ضرورة الالتزام به والسير عليه في الدّعوة إلى الله تعالى بالأَوْلى والأحسن ، وبذلك فإنّ دراسة منهج هذا العَلَمِ في نطاقه الشّامل ، يحمل أهمية كبيرة للدّراسة المعاصرة للأديان ، ويخدم إلى حدّ كبير قضية الحوار في عالمنا المعاصر في ظرف هو أحوج ما يكون فيه أكثر من أيّ ظرف سابق ، إلى كلّ ما يمت بصلة إلى الحوار الهادف البناء ، وهو ما يعزّز أهميّة منهج ديدات في الحوار وضرورة تنمية وتطوير ما قام به من دور تاريخي في مجال دعوته وحواراته ، وجعل منه ظاهرة عملاقة لا يمكن تجاهلها ، ممّا يدفع بنا في المبحث اللاحق إلى دراسة المؤثرات الموضوعيّة ، والمكونات الذّاتية التي صاغت في مجملها هذه الشخصيّة الإسلامية الفذّة ، بما لها من انتشار واسع ، ومن صدى عميق لمنهجه الفريد في عالم الدعوة والاعتقاد .

مخطط هيكلي لمنهجه الحواري

1-جوهر منهجه ومحوره

المطالبة بالبرهان

2 ـ أسسه ومرتكزاته

- العقل المحلل الناقد .
- النص :
  - أ ـ نصوص الكتاب المقدس
  - ب ـ نصوص إسلامية
  - ج ـ نصوص عامة

3 ـ قوائم المنهج ودعائمه

أ ـ الحفظ الدقيق والضبط المحكم .

ب ـ الدربة المتواصلة والمراس الدائم .

ج ـ التحضير الشامل للحوار مسبقا .

د ـ إجادته لعدد من اللغات ، ولا سيما الإنجليزية

4 ـ الخصائص الأسلوبية لمنهجه الحواري

أ ـ حيوية الإلقاء الفني المؤثر .

ب ـ شيء من الحدة وقليل من الانفعال .

ج ـ من الاستدراج إلى الإحراج .

د ـ استغلال العاطفة اللغوية

5 ـ السمات والملامح العامة لمنهجه في الحوار

أ ـ التركيز على القضايا العقدية وربطها بالقيم والظواهر الأخلاقية

ب ـ غلبة الصون والهدم على البناء والتعمير.

ج ـ المبادأة والملاحقة .

د ـ الالتزام بنمط المقارنة الدائبة .

هـ ـ حضور دائم فاعل لشخصية القوية في حواراته .

و ـ انضباطه في حواراته بقواعدها التنظيمية .

ز ـ قرآنية المنهج

المبحث الثاني

شخصيته بين مؤثراتها الموضوعيّة ومكوناتهــا الذّاتيّــة

إن شخصيّة ديدات شأن كل شخصية استثنائية هامّة، ولاسيّما الأعلام من نوعها، هي صياغة لعدد كبير من المؤثرات والعوامل الموضوعيّة، إلى جانب غيرها من المكونات الذّاتية، التي تضافرت معاً لتشكيل هذه الشخصيّة الفذّة وفقاً لإرادة الله العلي، وطبقاً لتقديره في الأزل.

ولعل من الأهم أن نتذكّر فيما يخص أهميّة الوقوف على تلك المؤثّرات والمكونات، بأنّها من الشرائط الضروريّة المُعينة على فهم من لا تخلو سيرتهم ومعرفة مسيرتهم من فائدة علمية ومتعة نفسيّة. بالإضافة إلى ما هو أهم، وهو أنّ معرفة تلك العوامل شرط لازم في أي مشروع تخطيطي، يرمي إلى استنبات شخصيّات من هذا النّوع وإنتاجها -إن جاز التعبير- وهو مما قد تدعو الضّرورة إليه غالباً لترسيخ الأصالة، وتنمية روح الإبداع، واستثمار عناصر الفاعلية والتجديد، على نحو يستمر وجودها في الأمّة، وفي الدّعوة إلى دينها والتبْشير بأنموذجها الحضاري.

ومن هذا المدخل فإنّ ديدات لم يكن بدعاً من غيره من البشر، وإنّما هو من مفرزات ظروف موضوعيّة وذاتية، أطّرت في مجملها شخصيّته، وهيأته لما قام به من جهود، وقدّم من أعمال وفق منهج وثيق الصلّة بتلك المؤثرات والمكونات، إن لم يكن بالفعل يعكسها تمام المعاكسة، في تعبير تلك الظروف عن نشأة كل من العلم والمنهج، وتطورهما معاً، وما رافق ذلك من حيثيات، سجلت بصمات واضحة عليهما في مختلف أطوار المسيرة ومراحلها.

وبتتبُع شخصيّة ديدات من النّاحية المنهجية، وإمعان التأمل فيما يمكن اعتباره من العوامل الموضوعيّة التي أسهمت في تكوينه والتأثير فيه، نهتدي إلى طائفة من العناصر، نذكر منها ما هي أساسيّة وأهم من غيرها، وذلك على النّحو الآتي:

أ - البيئة العائلية :

كانت أسرته الهندية هي البيئة الأولى التي أبصر ديدات فيها النّور، وتنسّم في أجوائها من مبادئ التربية الإسلامية القليل مما هو متاح منها لأمثاله ممن هم في مثل سنّه

ومجتمعه غير الإسلاميّ، فانطلق خلال أعوامه التسعة الأولى من حياته لتلقّي المزيد يوماً بعد يوم ممّا تجود به عليه بيئته الآسيوية من قيم، وآداب إسلامية، ظلّ لها وقْعُها الحميد في مختلف مراحل حياته اللاحقة. وفي هذه الفترة المبكّرة اكتسب في رحاب أسرته من أساسيات الأقوال والأفعال الإسلامية ما يمكن القول معها بأنّ اتجاهه الإسلاميّ بدأ يتأسس، حيث إنّه تعلم في أسرته المتواضعة ما يتعيّن في الإسلام تعليمه للأطفال، وتدريبهم عليه من طهارة، وصلاة، وسلام، وأدب، وأخلاق.

وكان ديدات في كلّ ذلك يُقلّد أبويه، متعلّماً منهما ما توفّر لديه القدرة على استيعابه في تلك السنّ الطفلة[1]، وربما كان إلى جانب ذلك لأسرته المتواضعة فيما كانت تشهده من ظروف ماديّة صعبة – اضطرّ بضغطها والده للهجرة إلى جنوب أفريقيا – دورٌ في تأصيل روح التّحدي، والتّجلّد لديه، وغرس بذور الطموح والأمل في مستقبل سعيد في نفسه الحازمة، والسعي الجادّ لتحقيق حياة ناجحة مطمئنّة، مغايرة لما تعرّف عليها في نعومة أظفاره.

ولعلّ تلك الأحلام المستقبليّة التي كانت تراود ديدات في طفولته، هي التي دفعت به للالتحاق بوالده في مهجره، وهو في التاسعة من عمره، ليتربى في كنفه تربية قصيرة الأمد، ألقته فجأة على عتبة مواجهة الحياة، ومن ثمّ نزلَ–على مضض–من غير عدّة كافية على ساحة المعركة لمواجهة مصير كانت بالنسبة له أمراً محتوماً لابد منه، وكأنّه منذ أن تفتّحت براعمه على الحياة لم ينعم براحة البال، سيّما أن يهنأ بطعم الحياة خلاف ما يتحقق في الغالب لأترابه من الأطفال والغلمان. وكان من إيجابيات هذا التطوّر في حياته، أن ترعرع ديدات على العمل، وشبّ على النّشاط والحركة، وتحمّل المسؤوليّة وهو ما يزال دون أوانها بكثير، وهي من الأمور التي ساعدته إلى حدّ بعيد، حين أقدم على العمل الإسلامي، فظهرت ثمارها يانعة في أعماله الوافرة. إنّ هذه النقلة الحياتية السّابقة لأوانها في حياة ديدات الغلام، تنقلنا معه للاطلاع على عامل آخر من عوامل تكوينه متمثلاً في:

---

(1) وليس من المعاد –فيما أرى– إيراد هذه المعلومات هنا، بل إنّما هو من قبيل التفصيل في حينه المناسب بعد سبق الإجمال، ممّا يؤكّد ترابط عناصر الرّسالة، ويوحي بما بين أجزائها من تكامل علمي مطلوب.

ب - مجتمعاتــــه :

قليل من مكوناته ما يُعزى إلى مجتمعه الهندي الأوّل، وهو المجتمع الذي غادره ديدات في وقت مبكر، قبل بلوغ سنّ الانخراط فيه، والتفاعل معه، الأمر الّذي من شأنه أن تكون -حتى- ذكريات طفولته فيه قد امّحت من ذاكرته، وانتسخ من وعيه مع الأيّام القليلُ ممّا لا يُستبعد من أحداث كان قد عاينها. ولم يبق لـه مع الزّمن سوى تعلّقه به، وشدّة حنينه إليه، وذلك ربّما لمكانة والدته وأخته عنده اللتين فارقهما وهو ما يزال طريّ العود، لم يمهل الأجل أولاهما بعد وداعه لهما. ومن ثمّ ظلّت الفاجعة محفورة في ذاكرته، ماثلةً أمامه طوال لحظات حياته. وبصرف النظر عن كلّ ذلك فللمرء أن يتساءل عمّا يمكن أن يكتسبه صبيٌّ مسلم في مجتمع تغلب عليه ثقافة غريبة عن ثقافة دين أبويه، وينتمي لحضارة مناقضة لتلك الحضارة التي تنتمي إليها أسرة ديدات بحكم العقيدة، والتي كان أخذ هو الآخر في التّزوّد بأساسيّاتها، ومبادئها الأولية.

وبالعكس فإنّ رحلته إلى الباكستان، وإقامته فيها ثلاث سنوات، وقد بلغ مبلغ الرّجال، ممّا لا يمكن إنكار أو إغفال تأثيرها في شخصيّته، وإن كانت الأدلّة العلمية تعوزنا في ضبط نسبة ودرجة تأثره بها، وتحديد ملامح هذا التأثير المفترض، غير أنّ المستند إليه في تقرير مبدأ تأثير البيئة الباكستانية عليه، هو ما عُلِم من إسلامية مجتمعها، ورواج الثّقافة الإسلامية فيه على نحو قد يَنْدُرُ مثيله في المجتمعات الإسلامية الأخرى، غير العربية منها، وفي باكستان وللمرة الأولى من حياته يُخالط مجتمعاً إسلامياً، وينتقل من وضع طالما عومل فيه مع أهله كأقليّة، ليجد نفسه في رحاب مجتمع إسلامي فسيح نابض بالحياة والحركة الإسلامية. وإنّ من الصعب الجزم بأنّ ديدات قد عني بتلقي شيء من العلوم الإسلامية مخصِّصاً لها وقتاً بعينه أثناء إقامته في الباكستان، وخاصّة إذا علمنا أنّ دوافع رحلته إليها لم تكن خارجة عن الدّائرة المهنية، الأمر الّذي يجعلُه منكباً على الهدف الّذي رامه منذ وصوله، فضلاً عن كون اتجاهه نحو العمل الإسلامي لم يكن متبلوراً بما فيه الكفاية في تلك الفترة، ومن ثمّ فإنّ تأثير المجتمع الباكستاني عليه-ربما-ينحصر في التأثيرات

الواقعية غير المباشرة وغير المقصودة، ممّا هي من طبيعة الحياة الإسلامية، وحيويّة النّشاط الإسلامي في هذا المجتمع الزّاخر بموجة الجماعات والتيّارات المتعدّدة، وبقيادة عدد من الشخصيّات الإسلامية البارزة على السّاحتين الفكريّة والدّعوية. ورحلة ثلاث سنوات في تلك الأجواء كفيلة بتوسيع مدارك ديدات الإسلامية، وتطوير ثقافته عن الإسلام والمسلمين، وربّما للتفكير الملح في القيام بواجب الدّعوة والتّضحية بجزءٍ من حياته لخدمة الإسلام في ديار هجرته، وموطنه بجنوب أفريقيا.

وهي البيئة الأكثر تأثيراً عليه من غيرها، لأنه هبط إليها في طفولته وقبل العاشرة من عمره، فتعلّم فيها المرحلة الابتدائية، وسرعان ما وقفت قسوة الحياة سدا منيعاً أمام مسيرته الدراسيّة، عندما أتم المرحلة التي بدأ منها، فعدل عن مسار التعلم-اضطراراً- إلى غيره من المسارات الكسبية والمهنيّة.

وفي هذا المجتمع المتناقض حتّى النخاع، وقف ديدات على ألوان الحياة والأحياء، ولمس عن عمق معاناة المجتمع من جفاف روحي قاحل، وتكالب على ماديّات الحياة، وتعرّف عن كثب على مختلف ألوان التيارات الفكرية والاجتماعية التي كانت تشكل خليط هذا المجتمع المتنافر، وإلى وقتٍ قريب جداً.

ولّما كان ديدات جزءاً من هذا المجتمع الذي اصطرعت في شخصيته متناقضات ذات وجوه متعددة، فقد اشْتوى بنار تحدياته، وأنضجته تجارب أيّامه، ومرارة ظروفه الطبقية البائسة، مما كان لها أثر عليه وهو يُعرّج على الواقع أحياناً بالنقد والتشهير، محاولاً تقويمه وإسعافه بالعلاج القرآني، كيما يضع حداً لتلك المشكلات الخطرة. وتتبدى محاولاته في هذا الشأن في محاضراته، وكتاباته عن الحلّ الإسلامي للمشكلة العنصريّة، وعن الحركات التنصيريّة، وعن أضرار الخمر، والمسكرات عامّة، وموقف الإسلام منها، ورفعه شعار الدّعوة إلى الحوار مع الجميع، بدلاً من العنف والمجابهة الوحشيّة، وغيرها من النشاطات والجهود، التي تكشف فيما تكشف عنه أنّ ديدات كان وثيق الصلة بواقع مجتمعه، لصيقاً به على أشدّه، ولم يكن من النوع الّذي يعيش

منعزلاً في برجٍ عاجيّ دون إعارة اهتمام عملي لهموم الحياة، ومشكلاتها الإنسانية في مجتمعه، وأنّى له أن يغفل عن دوره الاجتماعي الحيّ وهو الدّاعية الكبير من حملة مشعل رسالة الإسلام، ورحمة حضارته للعالمين.

على أن هذا المجتمع حمل له من المكونات في نوعين من النشاط أكثر من غيرهما، والعجيب في الأمر أنهما متناقضان في طبيعتهما، حيث إنّ أحدهما سلبي، والآخر إيجابي، ويتمثل هذا النوع الأخير في تأثير أنشطة دائرة الدراسات العربية على ديدات، وهي من المؤسسات الإسلامية النشطة في جنوب أفريقيا، ولها جهود مشكورة في نشر اللغة العربية، والدّعوة إلى الإسلام، والعمل على تبني كافّة الوسائل الإيجابية المعينة لها في أداء مهمتها، فكانت تستقدم الضيوف المحاضرين، والدّعاة للقيام بجولات علمية ودعويّة في مختلف أنحاء البلاد، وبالأخص في مناطق انتشار المسلمين. كما كانت تنظّم بدورها مهرجانات، وملتقيات عامّة لأبناء الجالية المسلمة وغيرهم، لتزويدهم بما لا غنى عنه من مبادئ تربية وثقافة الناشئة من أبناء المسلمين، بمن فيهم ديدات الذي أفاد كثيراً من حضوره لتلك المحاضرات، والبرامج التثقيفية المنوّعة.

ولعلّه أفاد خارج نطاق الدّائرة من نشاطات إسلاميّة أخرى كانت تظهر من حين لآخر، بتنظيم وإشراف من مختلف فئات الجالية المسلمة، بالإضافة إلى الدروس العامة في المساجد، والخطب، والمناسبات الدينية التي تظلّ من الروافد الثّقافية العامّة للمجتمعات الإسلامية، والهامّة بالنسبة للأقليات المسلمة خاصة .

وكان يعاكس تلك الأنشطة المحدودة من أقلية ضئيلة، نشاط آخر سلبي ينبعث متدفقاً من مصادر صليبية، همها الأكبر هو الوصول إلى تنصير المسلمين، ومحو الإسلام من الوجود. ولهذا الهدف الخبيث تميز هذا التيار بالعنف الجارف، والهجوم الحادّ، والمواجهة الحاقدة بشتى ضروب الأسلحة الفكرية، والإعلامية، والنفسية، وغيرها؛ لبث الشكّ في نفوس المسلمين نحو دينهم، وإغرائهم بالفتات الملوّث من مائدة رسالة المسيح الأصليّة التي كان أكبر مهمة لها التبشير برسول الإسلام عليه

الصلاة والسلام، وبرسالته العالمية الخاتمة.

وكان هؤلاء القوم في مشروعهم الجاد لتنصير المسلمين، يتعرضون لهم بشبهات مثيرة ودعاوى باطلة، لزعزعة ثوابتهم الإسلامية، وبالأخص منهم النّاشئة والعامّة، ممن كان أحمد ديدات أحدهم في تلك الفترة. ومن ثمّ فقد رشقوه بسهام نقدهم التضليلي لدينه، وطعنهم في رسوله الكريم بما يخرج الردّ عليه عن طوق قدرات ديدات وأمثاله من المسلمين العديدين[1]، ممّا جعله لضعف معرفته، وضيق حيلته يستسلم للبكاء لفرط تحمسه لدينه، وهو ما يزال صغيراً لّما تتوفر له عوامل النضج الانفعالي في تلك السّنّ الشّابة. والواقع أنّ معلوماته عن دينه في تلك الفترة لم تكن تتعدى مجمل أركان الإسلام الخمسة، كما أفادنا بذلك في رواية عنه قائلاً: «كانت معظم تعاليم الإسلام آنذاك مبهمة علي...كنت أقوم بأداء الفرائض الإسلاميّة كما كان يؤديها والدي...كنت أصلي كما كان يصلي...وكنت أصوم شهر رمضان كما كان يصوم...وكنت لا أشرب الخمر ولا أقامر اقتداء بوالدي، ولكنّي لم أكن أعرف شيئاً عن تفاصيل العقيدة الإسلاميّة، ولا أعرف كيف أرد على أباطيل دعاة التبشير، وكنت أشعر بكثير من الضيق والحزن لدرجة أنّي كنت أثناء الليل أبكي ولا أنام إلا قليلاً»[2]. ولا غرو في ذلك، إذ لم ينعم في صباه وفيما تلاها بما توفّر في الوقت الحالي لكثير من أبناء المسلمين بفضل الجهود العربية المباركة من فرصٍ واسعة لتعليم الدّين، والتوسّع المعمق في دراسته بمختلف المراحل الدنيا، والعليا، والأعلى. وبما أنّه لم ينل في حينه، ولو الحدّ الأدنى من المعرفة الإسلامية، فقد كان قاصراً عن مقاومة تلك الاستفزازات التنصيرية المتهافتة، شأنه في ذلك شأن أي مسلم تأسس دينه في شخصيّته على التقليد التربوي، والمحاكاة المكتسبة دون أساس معرفي ثابت، يعصمه من عواصف رياح التضليل العاتية، ويحصّنه من تيارات أعداء الإسلام الحادّة العنيفة، مما

(1) والمقصود بهم الكم الهائل من المسلمين ممن لا يعلم إلا القليل عن دينه، ولا تتجاوز قيمتهم انتمائهم الكمي إلى الإسلام، دون وعي نوعي، وتأثير معتبر.

(2) العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص8، مصدر سابق.

لا يُستبعدْ معها أحياناً التعرض للاهتزاز وربما الانهيار، عندما تتزعزع تلك المعتقدات المبنيّة على الرمال لاعلى الصخور، وتوضع على محك السّبر والاختيار، في معركة غير متكافئة مع قوى الشرّ والضلال.

وفي هذا الجو المحموم، والمشحون بالعلاقات الإنسانية الظّالمة، ووسط هذا الهول المتلاطم من الصراع الديني، انقشع عن عزيمة ديدات الشّاب ما استحوذ عليه من أدران الخمول والتخاذل، فراح في هذا المضطرب الفسيح من الاتجاهات والصراعات، يبحث لنفسه عن خلاص، يتمثل في الحصول على آليات فكريّة قوية تضمن له إمكانية المقاومة المنتصرة في هذا المعترك العقدي الفظيع في عنفه، وقد بارك الله سعيه، وسدد خطاه إلى ما سوف يؤدي به إلى إحراز انتصارات باهرة حتى تلك التي لم تكن متوقّعة، ولم يكن له مطمعُ فيها قط.

وبذلك فقد استفاد ديدات من هذا التحدي السافر، وبدونه ما كان لينجح في حياته الدّعوية وغيرها بالقدر الّذي تحقق له، وما كنّا من جانبنا لنفكّر في دراسة شيء ممّا يتصل بحياته ومنهجه، إذاً؛ فقد أحسن المنصّرون إليه من حيث أرادوا الإساءة، فدفعوا به منطلقاً من فراغ إلى خط الاستعداد بتنمية مواهبه، وشحذ همّته العالية للمقاومة الغالبة. ولعلّ أمثال هذه التجربة وغيرها من تجارب المسلمين هي التي عناها توماس أرنولد حين عبّر - بأسلوب غير دقيق - بالإسلام مريداً المسلمين بقوله: «تعلّم الإسلام منافع الشّدائد...»[1]. وفي خضم تفاعل ديدات مع هذه المجتمعات كلّها بتموجاتها العرقية والفكريّة، وبطوائفها الدينية والإلحادية، كان يقف مع الوعي بالذّات المسلمة، والحفاظ على الهويّة سنداً قوياً للصمود، والاستمرار في المقاومة. وقد يأخذ هذا الوعي بالذّات في بعض تجلياته بعداً جغرافياً وربما عرقيّاً، إذ يظهر من أحاديثه أحياناً التنبيه إلى أصوله الهندية، وتارة انتماؤه الوطني إلى جنوب أفريقيا، وأخرى إلى حمله للجنسية البريطانية، الأمر الذي يدل على أنّه كان مشدوداً بين التاريخ والجغرافيا، يتنازعانه للاستئثار به، وهو يبذل في ظلّ المعاناة النفسيّة من ضغط

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص469، مرجع سابق.

هذا النزاع قصارى جهده للحفاظ على التوازن بين قطبيها ، وإن كان انتماؤه للجغرافيا بعد انتمائه الإسلامي أقرب إليه ، وأغلب عليه لواقعيّته وحيويته .

ومن اللافت للنظر إلى جانب ما تقدّم من مؤثرات مجتمعيّة . أن قضية الإحساس بالذات والحفاظ على الهويّة ، تميّزت ببروز واضح في حياة ديدات ، ودعوته إلى دينه الإسلامي . ولا سيما حين يتحدث إلى الأقليّات المسلمة من خلال رحلاته ، ولقاءاته . ولا شك فيما لمجتمع جنوب أفريقيا من دور كبير في تعزيز وتنمية هذه الروح ولو من منطلق ردّ الفعل ، كما أنّه في بناء منهجه الدّعوي والحواري خاصة ، تأثّر ببعض المؤثرات المجتمعيّة التي كان لها تأثير بيّن في تبنيه أسلوب الحوار ، وفي تنويعه لمجالات عمله الإسلاميّ واعتماده الكبير على الوسائل الإعلامية الحديثة في نشر رسالة الإسلام ، وغيرها من التأثيرات المتناثرة في ثنايا منهجه وعمله هنا وهناك .

هذا . . ومّما يلي دورَ الأوساط المجتمعيّة في تكوين شخصية ديدات ومنهجه تأثيرُ :

2 - الشخصيات الإسلامية العظيمة:

تتصدر شخصية الرسول الأعظم عليه الصّلاة والسلام قائمة الشخصيات التي يُرى أنّ لها أثر في تكوين شخصيّة ديدات ومنهجه الدّعوي ، وكأي داعية إلى الإسلام فقد تأثر ديدات بسيرة الرّسول الكريم ، ومنهجه العام في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ ، حيث إنّه قد درس سيرته العطرة ، وقارن بين نظرة كلٍ من المسلمين وغيرهم إلى شخصية رسول الله ﷺ ، فخرج بصورة ملؤها الإعجاب بأعظميّته على الصّعيد الإنساني . وبما أن دعوة ديدات إلى الإسلام تستمد أصولها ومبادئها من خلال البلاغ النبوي ومسلكه العلمي ، فإن مظنّة تأثره بمن يدعو إلى دين رسالته ، ووفق منهجه ، تظلّ قاطعة ومشروعة ، وخاصّة حين نتذكر أن دوافع ديدات الدّعوية ارتكزت على خلفية الدفاع عن الإسلام ، وتبرئة رسوله الكريم المعصوم عمّا اتهم به من سفهاء القوم ، وأعداء الأمس واليوم . ومّما يذكر إشارة إلى المؤثّرات النبوية العديدة في تكوين ديدات ومنهجه ، تفانيه وإخلاصه للدعوة ، ورحابة صدره في الحوار ، وتركيزه على

الجانب العقدي، وهو جزء من المنهج النبوي الشّامل، والمراهنة بحياته فيما يشبه أسلوب المباهلة، والحركة بالدعوة إلى آفاق العالم تأكيداً على بعدها العالمي، والاستنان بسنّة رسول الله ﷺ في دعوته علية القوم، وقادة الجماعات الدينية في العالم، إلى غير ذلك من المؤثرات النبوية التي لا تدخل تحت حصر حين نستقرئ حياة ديدات، ومنهجه في الحوار والدعوة.

ومن الشخصيات المسلمة التي مارست تأثيراً مباشراً على ديدات، الداعية عبد العليم صديق [1]، الذي زار جنوب أفريقيا سنة 1934 لإلقاء سلسلة من المحاضرات الإسلامية، وكان ديدات ما يزال طالباً، وقد أفاد من تلك المحاضرات الثريّة من علم الشيخ عبد العليم، كما أنّه تأثر بمنهجه وموضوعاته في الدعوة إلى الله تعالى، وظلّ يحمل في نفسه إعجاباً شديداً بهذا الشيخ العظيم، أوْحى بشيءٍ منه لقرائه في النعوت التي أطلقها عليه، لتكون بمثابة أو سمة توشيح نادرة لا تضفى إلا على كبار الدّعاة المخلصين لخدمة الإسلام، ومن تلك الأوسمة، والإجازات الدّعوية نعته إياه بـ«سفير الإسلام المتجوّل والملقب بالخطيب، ذو اللسان الفضّي... الخادم العظيم للإسلام» [2].

ومن الميسور والواضح جداً أن نلمس أثر هذا الشيخ على ديدات حتى من خلال النعوت السّابقة، إذ تحول هو الآخر إلى سفير متجوّل حاملاً للناس رسالة الإسلام، كما لمع لسانه القاطع في حواراته مع مختلف المخالفين للإسلام والمسلمين. وبرزت خدمته للإسلام معبرة عن نفسها في كافّة المجالات والجهود التي نشط على العمل في إطارها.

وآخر أنموذج نعرضه للشخصيّات المسهمة في تكوين ديدات، ودفعه نحو منهج الحوار والمقارنة هو المسلم الإنجليزي المسمى بـ«فير فاكس» [3]، وهو ممن أقام حيناً من الزمن في جنوب أفريقيا مسهماً في الدفع بالنشاط الإسلامي، مبصراً المسلمين بالصليبية الحاقدة وأساليب مقاومتها. وقد اتخذ مقارنة الأديان سبيلاً إلى هذه المهمّة، فكان

---

(1) وهو فيما أظن أحد علماء الباكستان، ومن أعلام الدعوة في النصف الأوّل من القرن العشرين؛ إذ لم أقف على ترجمة له.

(2) ينظر: القرآن معجزة المعجزات، ص39-40، مصدر سابق.

(3) تقدّم الحديث عنه فيما سبق من مباحث الفصل الثاني، ص: 148 149.

يعقد حلقات أسبوعيّة عن منهجية استخدام الكتاب المقدّس في الدّعوة إلى الإسلام، ومقارعة النّصارى بالحجج الدّامغة، والبراهين السّاطعة من تلقاء كتبهم المعتمدة لديهم. وأرى أن للأستاذ فيرفاكس فضلاً كبيراً على ديدات في تعميق فهمه لقضايا الحوار الديني، وامتلاك فنّ مناورة أساليبه، والمساعدة على كشف وإبراز المطاعن الحسّاسة النفّاذة في الكتاب المقدّس، وإن كان ديدات - فيما يلي - يقلل من أهميّة هذا التأثير، إلاّ أنه ليس محلّ إنكار في حالة إنصافنا للرجل، ولعل قصر المدة التي غطاها في هذا العمل الحواري البنّاء، هو الذي حجب الستار عن تأثيره الهام، وحسبُه فضلاً أنّه فتح لديدات خط العمل المستمر في هذا المجال، وأتاح له فرصة النيابة عنه في القيام بما كان يقوم به، مما كان الجمهور المسلم في أشد الحاجة إلى أمثاله. ومن ثمّ وجد ديدات خلال السّنوات التي خلف فيها فيرفاكس في دروس المقارنة الأسبوعية متّسعاً لمواهبه، وتعبئة لقدراته في مجال الحوار الديني، فكانت تلك السّنوات بمثابة كليّة تخصصيّة تخرّج منها ديدات متدرباً بالمنهج التطبيقي على نقد الكتاب المقدّس، وعقد حوارات مع أصحابه ممن يدافعون عنه، ويروّجون لعقائده وتعاليمه، إلى جانب اكتسابه جمهوراً دائماً يواجهه أسبوعياً منمياً شجاعته الأدبية في فنّ مواجهة الجماهير ومخاطبتها، ولعل ثباته واتزانه في محاوراته، وحفاظه على هدوئه النفسي في محاضراته مهما بلغ جمهورها من الآلاف، من أوفى الأدلّة على إفادته من المسلك الجديد الذي دشّنهُ المعلّم «فيرفاكس»، والذي قال ديدات في مواصلة لما بدأه: «ويوم الأحد من الأسبوع الثالث اقترحت عليهم أن أملأ الفراغ الذي تركه السيّد «فير فاكس»، وأن أبدأ من حيث انتهى السيد«فيرفاكس» لأني كنت قد تزوّدت بالمعرفة في هذا المجال، ولكني كنت أحضر دروس السيّد فيرفاكس لرفع روحه المعنويّة»[1]. ومن الأسئلة التي تواجه ديدات في هذا المقام: هو مادام أنّه كان قد تزوّد في هذا المجال فما الّذي منعه من التّصدي له قبل اقتراح فيرفاكس القيام به؟ علماً بأن ديدات أوْلى بهذا الواجب، وأدخل في مسؤوليته من زائر عابر؟!.

(1) هذه حياتي: ص21-22، مصدر سابق.

وفضلاً عن تأثيرات الشخصيّات الإسلامية العظيمة على شخصيّة ديدات ومنهجه، توجد تأثيرات موضوعيّة أخرى من نوع آخر، كان له حظه إلى جانب ما سبق في توجيه ديدات شخصيّةً ومنهجاً، وإسعافه بالأساسيات اللازمة لتكوينه، ونجاح عمله. ويظهر هذا النوع في تأثير ما يلي:

3 - الكتب والمطبوعات الدينية:

علمنا في السّابق أن ديدات استقى منهجه الحواري من القرآن الكريم، واعتمد على كتاب إظهار الحقّ في طريقة مناقشة أهل الكتاب، وقد أفاد من هذين المصدرين أكثر من أي مصدر آخر، وإلى هذا التأثير بالكتب نشير إلى:

أ - القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي الذي عبّ ديدات من معينه جوهر منهجه، ونظم من دُرَرِهِ النّفيسة مختلف عناصر النهج الّذي سار عليه في حواراته. وتتبُّع ديدات في منهجه، وكافّة أعماله ممّا يوحي للقارئ بدقة استعانته بالقرآن الكريم في نصوصه، وبتراجم معانيه، ويكشف عن تركيز خاص على آيات وموضوعات الحوار الديني فيما عرض لها من حوارات، وألقاها من محاضرات. ومن اليسير جداً الوقوف على مظاهر التأثير الناتج عن تغذية القرآن لفكر ومنهج ديدات كغيره من الدعاة عامة. وكان مرشحاً لتلقي مزيد من أنوار القرآن المؤثرة لو لم يحل ما يعانيه من حاجز لغوي دونها، وهو ما جعله يتوسّط بالتراجم إليها، دون التمكن الكافي من الورود المباشر. وبهذا فقد كان للقرآن تأثير هائل عليه سواء في حياته، أم في دعوته وحواراته.

وكفى بمنهجه دليلاً ساطعاً على هذا الأثر القرآني في تكوينه وصياغة منهجه. وقد أفرد للحديث عن القرآن أحد كتيباته بعنوان: «القرآن معجزة المعجزات» عكس فيه سمو نظرته إلى القرآن الكريم، ومكانته العظيمة عنده في مجال الحوار مع شتى الأطراف، والانتماءات غير المسلمة.

ب - كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة اللّه الهندي :

ولعلّه الكتاب الوحيد الذي عُرف ديدات بتأثُّره به عند معظم القلائل في العالم الإسلامي، ممن عرف عن ديدات شيئًا علمياً، مما يندرج في إطار الثقافة العامة. وفي أغلب القليل الّذي وقفت عليه من حديث عن ديدات وتجربته في العمل الإسلاميّ، ورد التعريف به مقروناً بالحديث عن تأثره البالغ بكتاب إظهار الحقّ، ومن ثمّ يتهيأ القول بما مؤداه: لئن كان ديدات قد تأثر بكتاب إظهار الحق، وأفاد منه إفادة عظيمة، فإن له هو الآخر فضلاً على الكتاب، في التعريف به، وتوجيه الأنظار إليه بعد أن عمل أعداء الإسلام - فيما أظن - على تغييبه وإبعاده عن ساحة الفكر، والدعوة، ومن ثمّ أصبح القليل من المسلمين هو الذي يعرف الكتاب وأهميته بماله من قصة طويلة وطريفة، سنعرض لطرفٍ منها في حينه.

ومما لا مراء فيه أن لهذا الكتاب تأثيراً جمّاً على شخصية ديدات، ومنهجه الحواريّ، إذ كان وقوفه عليه في مرّته الأولى ثورة فاصلة في حياته، ومحطة انطلاق نحو مستقبل يقوم على خدمة الإسلام، والدعوة إليه، بالاعتماد المتميز على المنهج الحواريّ أكثر. ومنذ أن تعرف على الكتاب في شدّة ظمئه إلى شيءٍ من قبيله، ونال عنده من القبول والحظوة ما ناله، عكف على مطالعته، متشرّباً من معلوماته وأسلوبه، لتنشأ بتأثيره في شخصه ملكة الحوار والمناظرة، بعد أن اجترّ أفكاره ومنهجه الحواريّ، وبذلك أخذ يشق طريقه على دروب الحوار الديني بخطوات بطيئة، ولكنّها كانت واعدة بالخير، ومبشرة بالانتصار. وإنّ صلته بالكتاب تعود إلى ضرورة ظرفيّة وعملية أكثر منها دوافع علميّة مجرّدة، إذ «كان كل من حوله، وكل ما حوله يحفزه على البحث والاطّلاع فيما يتعلّق بالدين والعقيدة، وكرّس «أحمد ديدات» نفسه وتخصص في دراسة تُشبع نهمه فيما يتعلّق بمعرفة أسرار العقائد والأديان، فتوجّه إلى دراسة مقارنة الأديان..»[1]، تلمّساً الإجابة على أسئلة كثيرة كانت تتصارع في

(1) العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص9، مصدر سابق.

ذهنه، يجمعها سؤال مركزي ملح قوامه: ما السبيل الحواريّ إلى مقارعة المنصّرين بسلاح الفكر والمنطق؟ وكيف يمكن التغلب عليهم، وردّ كيدهم في نحورهم؟.

وفي خضم الحيرة، وتحت ضغوط المعاناة النفسية لم يجد ديدات بداً من الاستنجاد بمحصّلة القراءة، والبحث الدائب عن المكتوب المنشور في هذا المجال، فوجد إسعافاً له في رغباته الكامنة في القراءة والتعلّم، ومن ثمّ لعبت تلك الرغبات المحرومة دورها البارز في هذا الشأن، فجاءت عنايته بكتاب إظهار الحق، وإفادته منه وليدة دوافع علميّة وعمليّة عميقة الغور في نفسه، فلذا ظهرت قراءته له ولغيره من المؤلّفات التي تبين معالمها في عديد من جوانب فكره، ومنهجه، حبلى بالنتائج المتوخّاة من ورائها، ومن تلك الكتب التي لها أيضاً تأثير لا ينكر على ديدات وتطعيم لفكره ومنهجه، كتابا «خرافة الصّليب» و«الكتاب المقدّس كلام الله أم كلام إنسان» اللذان قال في حقّهما: «إن الحاج أ. د. جيجولا في كتابه «خرافة الصليب» يعطي عرضاً محكماً عن الشرور والضلالات التي يحتويها الكتاب المقدّس جنباً إلى جنب مع «خرافة الصّليب»، وباختصار يشتمل الكتاب «خرافة الصليب» على عموم أخطاء المسيحيّة، ولا يستطيع طالب مقارنة الأديان أن يتصدّى للحوار دون أن يقتني هذا الكتاب، وكتاباً آخر هو» الكتاب المقدّس كلام الله أم كلام إنسان» لمؤلّفه أس. دك. جومال»(1). وقد أنشأ ديدات على غرار الكتابين، وفي ضوء تأثره بهما كلاً من كتابه: «مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء»، وآخر بعنوان: «هل الكتاب المقدّس كلام الله». وإنه لجليّ ما بين العناوين من استيحاء وتطابق، وعليه فإنّ هذه الكتب القيّمة بالإضافة إلى غيرها تعدُّ معالم بارزة، ونُصُباً هادية في مسيرة ديدات الحوارية لها تأثيرها البيّن على فكره ومنهجه، وإليها يعود بعد الله تعالى الكبير من الفضل في حسمه الصّارم للحوارات الدينية لصالح الإسلام والمسلمين.

ومع ذلك فإننا نخلص هنا إلى ما لابد من تأكيده فنقول: ولئن كان ديدات قد استفاد واعتمد في حواراته على عدد من الكتب الأصيلة والدخيلة في مجال الحوار

---

(1) هل الكتاب المقدّس كلام الله، 2ص206، مصدر سابق.

والمقارنة، فإن لكتاب إظهار الحقّ مقاماً متميزاً في حياته، وعمله، وتقديراً خاصاً في نفسه، وكان لا يتمالك عن الإبانة عن ذلك كلّما دعا داعٍ إلى الحديث عن سيرته، وعرض تجربته في مجال الحوار والدّعوة على الآخرين.

ورغم كلّ ما يمكن أن يسند من تأثير عظيم لكتاب إظهار الحق على حياة ديدات ومنهجه، فإن من الخطأ واقعياً وعلمياً ما صاغه أحد الباحثين بهذا الشأن قائلاً: «وأما اعتماده الكلي في كل حواراته فكان على كتاب «إظهار الحقّ» والسبب في ذلك هو تشابه القضايا والمواضيع التي يحتويها الكتاب مع الكثير من الموضوعات التي طرحتها حوارات الشيخ ديدات مع المسيحيين»[1]، وعذره في مبالغته أنّ قوله متضارب في حدّ ذاته، إذ لا ينسجم أوله مع آخره، فضلاً عن أنّه باحث عارض في هذا الشأن، وليس متخصصاً حتى تصدر أحكامه عن عمق ودراية، وينقل عنه كمرجع معتمد فيما أفتى فيه.

وإلحاقاً بما سبق، فإنّ من تمام التصوير المتكامل لمكوّنات ديدات ومؤثراته، الرجوع من غير إطالة إلى المكونات الذّاتية التي كان لها أثر كبير في توجيهه العلمي، وتشكيل ما ائْتَلَفَ لديه من عناصر منهجيّة، وذلك حتى لا يخطر لأحد ببال أنّنا نقلّل من أهميّة تلك العوامل الذّاتية التي يسوغ لنا تصنيفها إلى صنفين رئيسين على النحو اللاحق:

أ - المميزات الشخصيّة [2]:

اجتمع في ديدات عدد من المميزات الحميدة كان لها أثر في بناء شخصيّته، ونجاح حياته الدّعوية، ومن أبرز تلك المميزات طموحه بلا حدود، حيث إنه يتمتع بنفسٍ طموحة وإرادة صادقة، دفعت به تلك الطموحات وهذه الإرادة في مختلف مراحل حياته إلى السعي وراء معالي الأمور وأعزّها، متغاضياً عن السفساف منها، بفعل ما جبلت عليه شخصيّته من عزة النفس، وإباء كلّ هوان ومذلّة، إذ كان حلمه في تحقيق

---

(1) الحوار الإسلامي المسيحي، ص232.

(2) نشير إلى أن الحديث اللاحق، وإن كان لا يخلو من تكرار بعض ما سبق من أجل تحليله ومعرفة موقعه في المركب التشكيلي لشخصيّة ديدات الدعوية، فإنه بحكم هذا التعليل يعدّ مما لا يمكن تفاديه؛ إذ لابد منه في هذا المقام.

حياة سعيدة له ولأهله من أقوى الدوافع التي شحذت همته للتفوق والظهور في كافّة ميادين حياته، وقد جاء حرمانه من الدراسة وهو في أشد الشوق إليها عاملاً حاسماً في تنمية طموحاته النبيلة للتعويض عن خسائر هذا الحرمان في مجالات أخرى.

وبفضل ما امتاز به من طموح لا يعرف حدوداً أو تبخُّراً أمام العقبات، استطاع عن طريق المغامرة أن يقحم نفسه في عداد أكبر وأبرز رموز الحوار الديني في تاريخ المسلمين على مرّ العصور، مع أنه في مطلع حياته كان من أبعد الناس عن استحقاق شرف تاريخي من هذا القبيل، إذن بهذا الطموح السّامي، سما ديدات في آفاق الحوار والدعوة، بعد أن تكلل سعيه بنجاح باهر مشكور، وبدون ما يقال عن طموحه ما كان ديدات ليهيء نفسه لهذا العمل، فضلاً عن تميزه بمنهج ممتاز، ومسلك فريد، على أن هذا الطموح لم يكن يتيماً منفرداً، وإنما كان مسَانداً بميزة أخرى في شخصية ديدات هي «الجدية الدافعة والعمل الشريف». إذ يتضح بكل سهولة ويسر للناظر إلى حياة ديدات، ومجالات عمله الإسلامي مدى ما اتسمت به شخصيته من جديّة ساهرة، ونشاط جمّ، وحب وإخلاص لكل ما هو عمل شريف وخيّر، وإن مختلف نشاطاته من بدايتها تعكس صادقة ما كان يتمتع به من روح جادّة، وحب أصيل للحركة الهادفة، والنشاط الدّائب المثمر. ولعلّ تلك الأيّام الأولى التي قضاها من حياته متنقّلاً بين مواقع العمل من محلات، ومصانع، كانت ذات دور كبير في تنمية وتعميق هذه الميزة في نفسه، وقد وعى أهميتها فنمّاها، واستوظفها في دعوته وحواراته.

فقد طبع ديدات بعزْمه الوقّاد ما عاشه من نشاط إسلامي في مختلف تفرعاته وأشكاله، وحاول من جانب آخر تسريبه إلى كافّة شركائه وأعوانه، وبالأخص فيما يظهر من خلال تنظيمه لمركزه الدّعوي من جديّة النشاط والحركة في وحداته المختصّة وعناصره العاملة، كما أن هذه الجديّة غالباً ما تنتقل معه إلى منابر المؤتمرات، حتى إذا ما أخذ في الحديث والمداخلة، أتاح لها الفرصة لمعاتبة الآخرين، وإغرائهم للتنافس عليها باعتبارها غالية، وعصيّة المنال. وبالإضافة إلى هذا وما قبلها يمثل «حبّه لدينه وتفانيه في خدمته»، سنداً ظهيراً لشتى مكوناته الذاتيّة، وقد عرف -بلا مراء- بغيرته

على دينه، وتحمسه الرشيد للدفاع عنه، والتفاني في خدمته بكل ما من شأنه أن يعلو بنيان ظهوره وانتشاره. فكان ديدات المعاصر أحد القلائل ممن تشربوا روح الدين الإسلامي، وتذوقوا جمال قيمه، ونعموا بصحة ووضوح عقيدته، ومن ثمّ انبروا للدفاع عنه بنصره، ونشره. وقد عمل كلٌّ من حبه الأصيل لدينه، وتفانيه في خدمته، دوراً متكاملاً في الدفع به إلى صرف المزيد من الجهد والهمّة في سبيل تكوين شخصيته الدّعوية، وتعزيز صرح منهجه بالتطبيقات المتواصلة على الدوام، الأمر الذي كان من نتائجه إحكام سيطرته على تطبيقه للمنهج، ونبوغ كفاءته في إجراء المحاورات الدينية، إذن، فلولا حبه لدينه ما كان ليتفانى في خدمته، ولولاه أيضاً ما شغل نفسه بالدفاع عنه بمنهج متميز تحمَّل من عناء تشكيله، وممارسته ما لا قبل للآخرين به ممن لا يجدُّون في سبيل ذلك، ولا يهتمّون به.

ب - التجارب الشخصيّة :

وتنقسم إلى تجارب شخصيّة محضة، وأخرى مقتبسة من الآخرين، استفادها ديدات من خلال رحلاته وتنقلاته فأضافها إلى مكونات شخصيته الدّعوية، وغذّى بها فكره الحواري. ومن الأمثلة على ذلك: أنّه قابل في زيارة له إلى أستراليا بعض سكّانها الأصليين ممن يعيشون في أماكن منعزلة، ووقف على مقياسهم البسيط لاختبار فكرة الألوهيّة، والذي يقوم على تنزّه الإله عن الأكل وعن كلّ ما يترتب عليه، فتأثر ديدات بهذه الفكرة التي نالت إعجابه دون أن ينتبه إلى ورودها في القرآن الكريم[1]، فاقتبسها بشهادة الأستاذ علي الجوهري على ذلك في قوله: «وأعجبه هذا المقياس للألوهيّة عند أحد القبائل البدائية للسكان الأصليين بقارة أستراليا، وضمّن هذه الفكرة واحداً من كتبه الصّغيرة الحجم بعنوان: ما اسمه جلّ جلاله؟»[2]، والأهم عندنا في هذا الأمر أنه يقدم أنموذجاً واقعياً لما عند ديدات من استعداد دائم للإفادة من مختلف الأفكار والثقافات،

---

(1) وذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: 75].

(2) مناظرة العصر، ص17، مصدر سابق.

التي من شأنها إثراء أفقه الحواريّ بالبراهين والحجج القويّة البسيطة. وليس ببعيد عن الصّحة أن يكون قد استفاد من أفكار الآخرين وأعمالهم، في كل رحلة من رحلاته العديدة جداً والتي اتجهت به -مجملاً- إلى جميع أنحاء العالم.

وأمّا تجاربه الشخصيّة المحضة التي تفتقت عن خبراته العملية وممارساته السّابقة، لها فلها هي الأخرى دورها في التكوين والتأثير. لأن من طبيعة الإنسان العاقل الاستفادة من رصيد تجربته، ولا سيّما عندما تكون هائلة كتجربة ديدات وخبراته. وتتراكم تلك التجارب والخبرات الشخصيّة لتُشكّل رافداً من روافد تكوين الشخصيّة، وعاملاً من عوامل التأثير على بناء المنهج ونموه من خلال عمليات مراجعة تطبيقاته وتقويمها.

وتتجلّى أوجه تأثير هذه التجارب الشخصية المحضة عليه، في توسّع نشاطه، وتحسن أدائه الحواري، وفي عمق معرفته بالطرف الآخر عقيدة وتاريخاً وواقعاً، إلى جانب سعة دائرة اطلاعاته المنمية لثقافته في مجال الحوار الديني، بمختلف قضاياه وموضوعاته. وقد استخدم في حواراته، وفي دعوته عامّةً، أهم ألوان ثقافته في جوانبها المتعددة: من ثقافة إسلامية، ولغويّة، وتاريخيّة، وواقعيّة، ودينيّة بعامّة، بالإضافة إلى العلميّة والإعلامية والتي تشكل في جملتها مكاسب حياته الدّعوية، تلك المكاسب التي أسهمت بدورها في تمتين تكوينه وتعزيز فاعلية منهجه الدّعوي الحواريّ.

والحديث عن دور تجاربه في تكوينه فكراً ومنهجاً، يذكّر بواسع خبرته في مجال الحوارات التي قامت على سلسلة من التدريبات، والممارسات المتراكمة عبر عقود من السنين، فكانت بذلك إحدى الروافد الهامّة في تكوينه، وتنمية معلوماته، ومنهجه الحواري مقاومة ومبارزة.

وإلى بعض ما سبق من مؤثرات عليه، أشار الأستاذ الجوهري في حالة من عدم التثبت قائلاً: «ربما كان لطبيعة تكوينه الثقافي، وسعة اطلاعه، واللغة الإنجليزيّة التي يجيدها كلغة أصليّة أثره في تفرّد أسلوبه الفكري، وجدة منهجه في الدعوة إلى العقيدة، وربما كان للوسط الّذي نشأ فيه، وتفاعل معه في جنوب أفريقيا أثر أيّما أثر في

ذلك»[1]. وبالتأكيد فإنّ شخصيّة ديدات قد نمت تحت تأثير كل ما أسلفنا من مكونات ومؤثرات، مما ساعد على تشكيل الوسط والظروف الملائمة لهذا النّمو، وفي ضوئها كذلك برزت جهوده، واتسق منهجه في مجال الحوار والدعوة. فكان لكل من شخصيته ومنهجه متلازمين - بعد أن تفيّأا ظلال تلك المكونات والمؤثرات - دويٌّ هائل، وصدى واسع ومؤثر في الدعوة إلى العقائد، وفي عالم الحوار والمناظرة حولها. مما سنتطرّق إلى بعض جوانبه وآثاره فيما أقبل من مبحث أخير لهذا الفصل.



(1) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص186.

المبحث الثالث

صدى حواراته في عالم الاعتقاد والدعوة

مثلت أنشطة ديـدات الدّعوية في جملتهـا ، - وبـالأخص الحوارية منهـا - حدثـاً هائلاً في دنيا الاعتقـاد ، وواقـع الدّعـوة ، لأنّهـا هـزّت بمنهجهـا الفريـد كـلاً مـن العـالم الإسلامي ، وغير الإسلامي ، فتشكّل لكل فريق منهمـا إزاء الرجـل ومنهجـه الحـواريّ موقف واهتمام متباين ، حيث إنّه بجهوده المشكورة ، قد بثّ في الحركـة الدّعويـة روحـاً جديدة ، وأضرم في مقابل ذلك في نفوس القائمين على الفكـر والحركـة التنصيريين نـار الحقد والقلق ، مما أثار توجّسهم ومقاومتهم لهذا المنهج العـاصف بمبادئهـم ، بالإضافـة إلى تهديده - وهو الأهم - بتدمير مصالحهم الماديّة ، وزعزعة مكانتهم الرُّوحيّة .

وعلى الرغم من أهمية مختلف أنشطته الدّعوية ، إلاّ أنّ لحواراته مكانـة خاصّـة ، وتميزاً ملحوظاً عن غيرها . وإلى هذا التميّز يعود الفضل في تميّز ديدات نفسه ، وإشـراق شمس مجده في الآفاق ، وما ترتب على ذلك من شهرة واسعة ، وسمعة طيّبـة مقرونـة بالإجلال والتوقير ، ولعلّ البعض يميل في تحديده لمنطلق بروز ديـدات شـخصاً ومنهجـاً كظاهرة عالمية إلى التركيز على أشهر مناظراته المتمثلـة في تلـك التـي أجراهـا مـع القـس سواجارت ، حيث ذهب الدكتور عبد الجليل شلبي إلى مفـاد ذلـك حـين كتـب يقولـه : «أصبح هذا الرجل ديدات ذا اسـم وصيت ذائـع بسبب المنـاظرة مـع القـس الأمريكـي جيمس سواجارت -J-SWAGGART ، وقد أدرّت عليه أموالاً طائلة»[1] . أجل لقد كسب عَرَضاً كلاً من الجاه والمال حين ترفّع عن كليهما ، متجهاً بصدق وإخـلاص إلـى خدمة عقيدته وأمّته .

وفيما يخص تأثير المنهج الديداتي في الحوار الديني على الفكر الصليبي ، وحركـة نشره ، فيمكننا رصد نوعين متغايرين من ردّ الفعل ، أحدهما إيجابي ، والآخر سـلبي ، وتحت النوع الأول من التأثير الإيجابي لحوارات ديدات يندرج مضمون قوله في إحـدى المناظرات : «دعنـي أخبرك أن كثيراً من علمـاء المسيحية قـد أخبروني بصراحـة ، أن الإنجـيل ليس وحياً إلهياً مباشراً»[2] .

(1) معركة التبشير والإسلام ، ص186 ، مرجع سابق .

(2) مناظرتان في استكهولم ، ص25 ، مصدر سابق .

إنها لمعلومة خطيرة يدلي بها ديدات، وهي كافية في حدّ ذاتها لإلجام الصّاخبين النّاعقين بعقيدة ما أنزل الله بها من سلطان، إذ الاعتراف سيّد الأدلّة، وحسبُ ديدات تأثيراً إيجابياً سحبه هذا الاعتراف الصريح منهم بالحوار العلمي المقنع دون غيره، مما لا يجدي في هذا الشأن. ولعل تأثيره متضافراً مع غيره هو ما ساق أكثر من نصف أساقفة إنجلترا في ثمانينات القرن العشرين إلى تبني موقف رافض لعقيدة ألوهيّة عيسى عليه السّلام. الأمر الّذي بسببه اجتاح بريطانيا جدل لاهوتي هائج ثائر، مما أفادت بنبئه في حينه صحيفة الديلي نيوز الصادرة بجنوب أفريقيا بتاريخ 25/ 6/ 1984م. فيما نصه: «إن أكثر من نصف أساقفة إنجلترا الأنجليكيين يقولون: إنّه لا يلزم النصارى أن يعتقدوا أن المسيح عيسى هو الله، لقد تمّ استفتاء 31 من 39 من أساقفة إنجلترا، فأنكر معظمهم ضمن أشياء أخرى ألوهيّة عيسى عليه السلام، وقيامه من الموت، وهم بذلك يهددون عقيدتين من أكثر العقائد أساسيّة في المسيحيّة، ويعزون هذه التّصورات العتيقة إلى انعدام الدّقة في الكتاب المقدّس»[1]، ولاشك فيما للمنهج الحواري الذي حظي بعناية الأسلاف من علماء المسلمين، والذي تركز عليه عمل ديدات من دور مركزي في تحقيق تنازلات عقديّة من هذا القبيل في الفكر الصليبي الكنسي، وهو ما نجد له تأكيداً في رأي الأستاذ محمد بنا القائل: «إنّ ما نراه اليوم من تقبّل قسيسين بارزين لوجهة النظر الإسلامية فيما يتعلّق بمكانة المسيح عليه السلام الحقيقية هو بالفعل جزاءً وفاقاً على جهود لاتكل، ونتيجة الدّعوة الإيجابية العاقلة لعلماء علم الكلام المسلمين، وعلماء واسعي المعرفة في مقارنة الأديان على مر العصور»[2]، وبفضل تلك الجهود الحواريّة الصّادقة طرأت تطورات هامّة في الفكر الصليبي مالت به في الظّاهر والمعلن نحو عقيدة التوحيد، مع إضمار وإسرار ما توارثته الأجيال من الاعتقاد بفكرة التثليث الغامضة المستعصية على المنطق والفهم السليمين. وقد لاحظ الدكتور علي عبد الواحد وافي هذا التناقض القائم بين المعلن والمضمر في

(1) نقلاً عن كتاب أحمد ديدات: أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهيّة المسيح، ص23-24، ترجمة محمد مختار في سلسلة مكتبة ديدات، ط، دار المختار الإسلامي، القاهرة- مصر.

(2) المصدر نفسه، ص22-23.

الفكر الصليبي المعاصر على نحو واضح مـن الازدواجيـة المتنـافرة فكتـب يقـول: «ولا تجد الآن أيّ كنيسـة مسيحية ولا أيّ فرقـة مـن المسيحيين لا تقـول بـالتثليث، ولكنهـم جميعاً مع ذلـك يتسترون وراء كلمـات التوحيـد، فيقولـون: «تثليـث في وحديّـة»، أو «وحديّة في تثليث» مع أنه لا يمكن أن يكون التثليث وحدانيّة، والوحدانيّة تثليثاً: «لقـد كفر الّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد»[1].

هذا . . فطالما وجدت من الطرف الآخر الصليبي قابليّة التمويه والإيهـام واللبـس بعقيدته، وإعلان ما يخالف معتقده، حياءوتستراً، فإن ثمة فضلاً كبيراً يرجع في ذلـك إلى ما تعرض له على أيدي المحاورين المسلمين ومنهم ديدات من مضايقات وإلْزامات، لم يجد بدّاً منهـا غير الممـالأة، وإظهـار العقيـدة القريبـة مـن الصحّـة. وهـو مـا يعطـي الدارس مبرراً للقول: بأن منهج ديدات الحواري كان ذا أثـر في زعزعـة معتقـد الطـرف الصليبي، متمثلاً في أكبر وأبرز أساقفته من الإنجليكانيين، ومن ثـم يتـأكد اعتقـاده بـأن للحوار الديني بين المسلم وغيره ما يمكن أن يقدمه من نتائج إيجابيّة عندمـا يكـون مبنياً على أسس صحيحـة، مـن المعرفـة الكافيـة، والمنهجيّـة العلميّـة السـليمة، وأخلاقيـات الحوار وآدابه السامية .

والدليل على ذلك ما أسفرت عنه إحـدى مناظراتـه عـن المسيحية والإسـلام مـن انطباعات طيّبة لدى جمهورها، حيـث إنّهـا قـد أسـهمت نوعيّـاً في إزالـة سـوء الفهـم، والجهل العام لدى الطرف المسيحي بعقيـدة الإسـلام والمسـلمين عـن المسيح والمسيحيّة الصّحيحة، مما قـاد ديـدات إلـى إبـداء الملاحظـة الآتيـة: «إن أكثـر مـن 90٪ مـن الذيـن شهدوا هذه المناظرات قد اندهشوا وملأهم السرور إلـى أقصـى حدّ. ويبـدوا أنهـم لـم يصدّقوا آذانهم، وربمـا ظنـوا أن المسـلمين ربمـا كـانوا يتملّقـون، وأنّهـم كـانوا يجـاملون رفاقهـم المسيحيين، وربما ظنّوا أن المسلمين حينما يقولون كلمة طيبـة عـن عيسـى، فـإن المسيحيين في مقابل ذلك ربما يقولون كلمة طيبة عن محمد، وتكـون المسـألة علـى هـذا

---

(1) الأسفار المقدّسة، ص128.

النحو مسألة غش وخداع ومجاملة متبادلة»[1]. إن هـذا الجهـل العـام الـذي تأسـس، وترسّخ بفعـل التعصـب المـوروث، وتراكمـات الجفـاء والتوتـر التاريخيـة بـين الطرفـين المسلم والصليبي، ليس له أفضل وأفعل من الحوار، مما هو مرشـح لتجليتـه، والقضـاء عليه؛ ببناء فهم صحيح وتصـور سـليم لـدى الطـرف الآخـر عـن موقـف المسـلم، مـن عقيدته ورسوله الـذي يدعـي الانتمـاء إليـه. وليسـت كـالحوار وسيلة في الكشـف عـن الصورة المثلى لعقيدة الإسلام وتعريف الآخر بها. كما حاول ديدات القيام به إلى حـدٍ ما. فكانت لمحاولاته أصداؤها وتأثيراتها الرسـمية والشـعبية إيجابـاً وسـلباً، في أوسـاط المسيحيين. وإلى شيء من هذا أشـار أحـد البـاحثين بـالقول: «وكـان لحـوارات الشيخ ديـدات أثـر واضـح بـين المسـلمين والمسيحيين، إذ إنهـا أحدثـت هـزة كبيرة في مشـاعر ووجدان وعقيدة المسيحيين الذين اطلعوا على تلك الحوارات، والنتيجة كـانت إسـلام أكثر من 700شخص في مختلف بقاع العالـم»[2]، وقد ترتب بالمقابل وكردّ فعل سـلبي على هذا التأثير أن ترصّد له الأعداء من كل جانب، فأخذ بعض رجال الفكر الصليبي في متابعته، والاهتمام بما يقوم به من أنشطة دعويّة، وفكريّة. وربما تجاوزوا حدّ المتابعة السّاهرة عامدين إلى الاختلاق والتزييف عليه، بنسبة ما من المؤلفات هو بـريء منهـا، كما حدث له ذلك في السويد إثر مناظرته لكبـير قساوستها، عندمـا طـالع هـذا الأخـير الجمهور الشاهد بكتاب منتحل يدّعي نسـبته إلـى ديـدات، لغـرض إثـارة عـداوة عامّـة المسيحيين ضده، وتأليبهم للتصـدي بمـا يقـوم بـه، أو الحـذر مـن التـأثر بمـا يقولـه علـى الأقلّ، ولكنّ ديدات قـد ردّ عليـه حـين جـاء دوره في الحديـث قـائلاً: (ولقـد قمـت يـا باستراستانلي بعمليّة خداع، لقـد أظهـرت للنـاس كتابـاً وزعمـت نسـبة الكتـاب إلـي، وأنـت تقـول إن أحمـد ديـدات قـد قـام بتـأليف هـذا الكتـاب، وأنـا أقـول هـذه أكذوبـة مفتراة، أنا لم أكتب مادة هذا الكتاب ولم أُمْلِهَا على أحد. إنّ غلاف الكتاب مكتـوب عليه «وفق آراء أحمـد ديـدات» . . . وليـس «تـأليف أحمـد ديـدات»...إنّ جميـع كتبـي

(1) المسيح في الإسلام، ص10، مصدر سابق.

(2) الحوار الإسلامي المسيحي، ص232، مرجع سابق.

مكتوب عليها «تأليف أحمد ديدات»[1]، إنّ هذا الدسّ الساذج ينم عن أسلوب معيب من أساليبهم الخسيسة في مقاومة الحق، وتشويه جهود رجاله الصادقين المخلصين، لإضعاف وتطويق تأثيرهم؛ بإثارة الشبهات حول ما لا يروق لهم من أعمالهم الصالحة، وقد فضح ديدات الرجل، وكشف أمره بما هو أنكى مما أراده به من أذى، وكفى بالله حفيظاً وكيلاً.

ومن جانب آخر حاول بعضهم الافتراء عليه زوراً وبهتاناً، والتقول عليه بما لم يقله في مؤلفاته، وذلك للتنفير منه، وصرف أتباعهم المستغفلين عن التأثر بأقواله، وحواراته المقنعة، عن طريق إيهام هؤلاء الأتباع بأن أفكار ديدات متناقضة في الموضوع الواحد فيما تكشف عنه المقارنة بين كتاباته، ومن ثمّ فهي أبعد من أن يسلم بها ذو العقول السليمة الرّاجحة، وقد أورد ديدات أنموذجاً ممثلاً عن هذا التيار، في أحد كتبه قائلاً:

ومتعصب آخر يدعي أنه محامي من حيث المهنة، يشد أزر زميله المبشر الأمريكي بأكذوبة أخرى، يقول على صفحة 120، من كتابه المعنون بعنوان: «الإسلام يناظر أو يجادل»، يقول: إن ديدات قد أثار في الأيّام الأخيرة ضجّة بالغة بنشر كتيب له بعنوان «من حرّك الحجر؟»، وفي كتابه ذاك يذهب إلى أن الحجر الذي كان يغلق باب مقبرة يسوع كان قد حرّك بيدي اثنين من أتباع يسوع الفريسيين... لكنه في كتابه المعنون بعنوان: «هل تم صلب المسيح؟»، يذهب إلى أن امرأة خارقة للعادة «25» مفترضاً أنها مريم المجدليّة. كيف لمبشر مسيحي ومحامٍ عن القانون أن يكذب؟ ولكي يحظى بثقة ضحاياه يشير إلى رقم الصفحة «25»[2]...

وبهذا يتبين أن هؤلاء القوم لا يتورعون عن الكذب والتزييف طالما كان يجلب إليهم منفعة دنيويّة عاجلة، أو يدفع عنهم مضرّة مصلحية، ولا غرو في ذلك إذا علمنا

---

(1) مناظرتان في استكهولم، ص142، مصدر سابق.

2)) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص: 156 157.

أن منهج ديدات الحواريّ قد بات يهدد مصالحهم الماديّة، ويكشف للآخرين حقيقة ما هم عليه من ضلال، وخداع، وفساد، حيث انخفضت التبرعات والهبات التنصيرية التي كانت تقدم إلى القس سواجارت الأمريكي من نصف مليون دولار يومياً إلى ثلاثمائة وخمسين ألف دولار، على إثر الفشل الذريع الذي مني به في مناظرته لديدات، وما تبعها من هزيمة أخلاقية نكراء تمثلت فيما ضبط متلبساً بها من فضائح أخلاقيّة مُميتة، اعترف سواجارت والدموع تملأ عينيه، باقترافها مع إحدى المومسات. ونتيجة لما ترتب على هذين الحدثين الهامين في حياة سواجارت من تقلّص دخله اليومي اضطر إلى تسريح أكثر من مائة موظف في مؤسسته الخاصّة، إلى جانب ما ذكره مقربوه من قراره ترك كتاب الربّ، للتفرغ لإدارة شؤونه الخاصة، تفاديًا من انهيارها في غيابه عنها منشغلاً بنشاطه التنصيري المفلس[1].

هذا ولقد تنبه المنصرون إلى خطورة المناظرات والحوارات الدينية الناضجة مع الكفاءات المسلمة، وبالأخص الضليعة في دراسة الفكر الصليبي، من خلال تاريخه ومصادره المعتمدة لدى أصحابها، وظلوا يستحضرون ذكرى أشهر المناظرات التاريخية بين المسلمين والمسيحيين، ولا سيّما مناظرة الشيخ رحمة الله الهندي مع أحد قساوستهم، مستفيدين منها العبر حتى لا تتكرر، وهو ما أومأ إليه أحد المنصرين في مؤتمر كلورادو التنصيري محذراً بقوله: «يجب على النصراني أن يتعمّد مقاومة إغراء السّماح لشهادته بأن تنحدر إلى درك التهجم والمجادلة العنيفة كما كان يحدث في الماضي، فهل يستطيع حقاً أن يقنع المسلم بأن النصارى لم يزوروا الكتاب المقدّس أو أنهم ليسوا مشركين أو أن المسيح هو أكثر من كونه «ابن مريم»، كما هو مذكور في القرآن، أو أن صلب المسيح وبعثه قد تم فعلاً؟ . . »[2]. وهيهات ينفع الندم بعد الخسران، إذ لم يحل التحذير دون وقوع المحذّر منه، حيث تكرر المشهد بعده مراراً،

---

(1) ينظر: مجلة النور59، ص47، 1408هـ-1988م، الكويت.

(2) التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، ص195-196، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، بيروت-لبنان. د.ت.د.ع.

وذلك من خلال حوارات ديدات السّاحقة، التي جاب صداها وتأثيراتها الآفاق والأمصار، وأصبحت لها فاعلية نافذة، مما أثار ذعر وامتعاض المنصرين من أحمد ديدات وأمثاله من الّذين يجيدون الحوار مع هؤلاء النصارى، حتى حرصوا في الآونة الأخيرة على تجنبهم، لأن مثل هذا الحوار في غير صالح عمليّة التنصير[1]. وبهذا أخذوا يحسبون لجانبه ولكل من انتمى إلى المنهج نفسه حساباً كبيراً.

ولعلّهم وجدوا في تجاوب الناس معه، وتأثرهم بمنهجه الحواريّ ما يعمق قلقهم، ويدعم استياءهم إزاء مقاومته لأنشطتهم، وكشفه لواقعهم، وحقيقة عقيدتهم. حيث لا يستبعد أن يكون المنصرون - في متابعتهم الدقيقة لنشاطاته - على علمٍ ودراية بما أجاب به ديدات حين سئل عن نتيجة حواراته، وبالأخص حواره مع سواجارت، فقال: «وقد استلمت رسالة من الفلبين تقول: إن ألفي شخص أسلموا بعد أن شاهدوا شريط الفيديو «المناظرة مع سواجارت»، لأن المحتوى يرفع الروح المعنويّة، لذا فإنه يصبح من السهل قتل جالوت إذا كان هناك شخص يحمل الحجر مع ديدات»[2].

إن هذا التأثير الكبير في عالم الدعوة أوصل ديدات إلى الإيقان بجدوى منهجه في تحقيق الهدف الذي بدأ من أجله الحوار، ومن ثم اطمأنّ إلى أن حواراته تؤدي مهمتها في هداية الناس إلى الإسلام، وتضييق الخناق على أعداء دين الله القيّم. وهو ما قد يفسر لنا قضية العدد الكبير من الجمهور والبالغ عددهم حوالي ثلاثين ألف شخص، ممن حضروا للاستماع إليه في إحدى محاضراته في قاعة ألبرت هول الملكيّة بلندن[3]. فضلاً عن إسلام الكثير من الغربيين على يديه بمنهجه الحواري، من أمثال من تسمى بأنور إسحاق، وهو مواطن أمريكي اعتنق الإسلام على يد ديدات[4]. وطبيعي في شأن داعية نجح أيّما نجاح في اتخاذ الحوار مطيّة له في الدعوة إلى الله تعالى أن يلفت

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص 174، مرجع سابق.

(2) العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص78، مصدر سابق.

(3) ينظر: مجلّة الفيصل ع135، س12، 1408هـ-1988م، مرجع سابق.

(4) ينظر: العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص17، مصدر سابق.

نشاطه الفسيح على المستوى العالمي الأنظار إليه، فكان المعجبون به من المتأثرين بمنهجه الحواري الفصيح، لا يبرحون عن التعبير عن انطباعاتهم الصادقة نحوه، وترجمة أصدق ما تكنه أعماقهم له من إحساس عميق بالشكر والتقدير لشخصه الكريم بعمله الدّعوي العظيم. ولعل ما ورد في مستهل سؤال أحد سائليه عقب مناظرة له بالسويد ما يعكس طرفاً من هذا الإعجاب والتجاوب العالمي الّذي توفر لديدات داعية ومحاوراً، حيث جاء فيما قاله السّائل: «أستهلّه بشكر سيادته لجهوده العظيمة في جعل النّاس مثلي يتقبّلون الإسلام»[1].

وإلى جانب هذه المتابعة الصليبية الحاقدة لأنشطة ديدات لغرض تعويقها، والحدّ من مفعول صداها المؤثر المثمر، انتصب اليهود الصهاينة بدورهم في عناية فائقة لتحسّسه عن كثب، وترصّد مداخله ومخارجه، وتقصيّ مختلف ما يصدر عنه من أقوال وأفعال هدفها الدعوة إلى الإسلام، والرّد القوي على أعدائه. وتأتي دليلاً على ذلك مبادرة رئيس الاتحاد الصهيوني بجنوب أفريقيا بنشر رسالة موجّهة إلى أفراد جاليته من اليهود الصهاينة، معبراً فيها عن سخطهم، وردّ فعلهم تجاه صدور كتاب ديدات عن العرب وإسرائيل، ذلك الكتاب الذي أثار فزعهم، وهزّهم هزّاً عنيفاً. وكان مما ورد في الرسالة قوله عن ديدات ومؤسسته: «لقد كنا على الدوام على اطلاع كامل بأنشطة هذه المنظمة التي تستخدم كما يبدو مقادير لا حصر لها من الأموال لتلطيخ سمعة الشعب اليهودي، ومحاولة التأثير في تماسكه، وتلويث صورة إسرائيل»[2]. حقاً لقد فطن ديدات في تهييجهم بكل براعة، مستخدماً في ذلك سلاح الفكر والمنطق، باعتباره أخوف ما يخافون منه، ويحذرون بأسه.

وعلى الرغم من كل ما يسجل لحوارات ديدات من صدى وتأثير عظيمين، فإنه لابد من الإقرار بأن جهوده قوبلت من قبل معظم من حاورهم ومن معهم من أشياعهم بالرفض والمعاندة، فلم يذعنوا للحق رغم ما بان للجميع من هزيمتهم

(1) مناظرتان في استكهولم، ص: 162، مصدر سابق.

(2) العرب وإسرائيل شقاق أم (وفاق)، ص74، مصدر سابق.

وإخفاقهم في الدفاع عن عقيدتهم الزّاهقة في وجه الحق، بل ظلّوا مصرّين على الغي والمكابرة، وذلك ربما بسبب التعلّق بالجاه والمال، وما إليهما من توافه متاع الحياة الدنيا، بالإضافة إلى ما ورد في قول ديدات: «. . . ولكن المنكر المعاند لن يصغي بسبب أحكام مسبقة؛ أي أفكار تأخُذ مأخَذ التسليم قبل أي نقاش أو بحث أو تمحيص عقلي، وخرافات وسذاجة لا تموت إلا بصعوبة»[1]. ولذلك كان ديدات كلما حاول فكّهم وأتباعهم من آثار قيود ما يكبلهم من عقائد باطلة، وأفكار فاسدة، قوبل بمحاربتهم إيّاه من أجل الإبقاء عليها، وبذلك تتعذر مهمة المحرر طالما استسلم الأسير للأسر، وركن إلى ما يُرثى إليه من وضع إنساني منقوصٍ ومزْر. وربما تعدت مواقف المنكرين المعاندين حدود الرفض والمكابرة، إلى تهديد هذا المحرر العقدي الكبير بالقتل، والتربص به لإزهاق روحه العظيمة، وذلك للقضاء عليه وإيقاف سيل عمله الفياض عن التدفق برسالة الخير والحق، حيث إنه كما يقول: «إنني أتلقى من جنوب أفريقيا مئات الرسائل من اليهود والمسيحيين وحتى من المسلمين تهددني بالقتل وتصلني رسائل التهديد بالقتل هذه في كل مكان، ولكنني ألتمس العذر لأصحابها، إن هذه هي طبيعة عملنا. . »[2]. إنه لأمر عجاب أن يقابل الإحسان بالإساءة ويعارض الجميل بالنكران، ولكن لا ضير طالما وطّن الداعية نفسه لهذه المهمة الجليلة الخطرة، كما يظهر من حياة ديدات العظيم، صاحب القلب الكبير المتسامح، والصدر الرّحب في مقابلة الزلّة بكرم العفو وجميل الإعذار. ولا غرابة في ذلك ممن نهل من نفحات سيرة المصطفى ﷺ العطرة، وتعهد بالدعوة إلى ما جاءنا به عن الله من عهد أخير، لا يُرام له نظير، ولا يرجى عنه بديل.

ولئن كان ديدات ممن هابه أعداؤه، وتوجّسوا منه، مما ألجأهم إلى استخدام منطق العاجز ضدّه، المتمثل فيما تلقاها من مئات التهديدات بالقتل، فقد عرف له محبوه قدره فأكبروا فيه عظمته بدعوته الحواريّة، التي قدر لها أن تحظى بصدى واسع شاسع

---

(1) المسيح في الإسلام، ص98، مصدر سابق.

(2) مناظرتان في استكهولم، ص105، مصدر سابق.

في دنيا العقيدة، والدعوة. ومن هنا ينبغي القول بأن ديدات كداعية قدير، ومحاور خبير، شكل في نظر المسلمين عامة مثالاً حياً ومناسباً للتحدث باسم الدعوة الإسلامية ورجالها في تلك الحوارات التي عقدها مع القساوسة والمنصِّرين. وقد ظهر للبعض خير ممثل عن المسلمين في تلك اللقاءات بسبب عمق دراسته، وسعة درايته بالكتاب المقدّس. وكان لمراسه الحواري، وأسلوبه الخطابي الذي اعتمده فيما وقف عليه حياتَه من الدعوة إلى الله تأثيرٌ رائع في نفْس كل مسلم غيور على دينه، ذي اهتمام حي بنشره، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالأحسن. وقد كسب ديدات بمنهجه الإيجابي في الحوار الدّعوي وُدّ الغالبية العظمى من المسلمين، وحظي بثقتهم في كفاءته الحوارية. ولذلك ظلّ على صلته بالمسلمين في شتى بقاع المعمورة، حريصاً على اللقاء بهم، سواء عن طريق زياراته الدّعوية، أم من خلال المشاركة في ندوات ومؤتمرات المشاورة بشأن تنظيم وتنسيق العمل الإسلاميّ، أو التخطيط له بما يضمن تفعيل نشاطه، ويؤمن له النجاح.

وهكذا تظل ألسنة الجموع المسلمة الواعية بواقع دعوتها، ودور أعلامها البارزين تشيد بذكره، منوهة بدوره في كلّ مقام يتسنى فيه للذاكرة المسلمة أن تسترجع بعضاً من شريط ذكريات معاقد الحوار الديني بين المسلمين والمسيحيين. وبفضل ما بذله ديدات من جهد مشكور، وما حققه من صدى وتأثير قوبل الداعية الكبير بأبهى مظاهر التكريم وأسمى معانيه، ممن يعرفون للدعاة أقدارهم، ويُنزلون الرجال العظام منازلهم، حيث إنّه قد منح جائزة الملك فيصل العالميّة لخدمة الإسلام عام 1406هـ-1986م[1]. وإن السيّد ديدات قبل الجائزة كان قد قطع شوطاً بعيداً في مضمار الدعوة والحوار، وحقق الكثير من الأمجاد والمآثر، مما جعله جديراً بصورة رفيعة للحصول على جائزة تشريفية كهذه، بيد أن الجائزة التي لا تبلى ولا تفنى تتمثلُ في قبول الربّ الكريم لجهاده ودعوته، ورفع مقامه بما قدمه من تضحيات جمّة في خدمة دينه وأمته، تعظيماً لأجره وشأنه.

ولعل هذه الدراسة التي نحن بصددها الآن، عن منهجه في الحوار والدعوة، تشكل

(1) ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مج10، ص554، ج2/ الرياض- السعوديّة، 1419هـ-1999م.

هي الأخرى من جانبها إسهاماً متواضعاً، وتحيّة كريمة من كليّة الدعوة الإسلاميّة في تكريم داعية كبير ذي قامة حواريّة شامخة، وقيمة دعوية رفيعة، طالما أسهم في العمل الإسلامي المعاصر بمختلف مجالاته، وهو الشيخ أحمد ديدات بطل الحوار، وداعية العصر.

وإن مما لا يطاله النكران أن هذه الدراسة باعتبارها جائزة معنويّة للشيخ ديدات هي أنفع له وأفيد لعمله بكثير من غيرها من الجوائز الماديّة، حيث تسهم في التعريف به، ونشر منهجه، تعميماً لفائدته وتخليداً لذكراه، إذ الجوائز الماديّة قلّما تتجاوز فائدتها الظرفيّة شخصه إلى غيره من المسلمين، إلا من تشجّع وتحمّس بسببها على بذل الجهد للفوز بمثلها، وهذه المقارنة بين الجوائز المادية والمعنويّة، تذكر بأن المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ لم تكن ماديّة، بل وإنما كانت معنويّة، لأنها أبلغ في التحدي وأخلد.

ولعلّه، للسبب نفسه عمد بعض المترجمين والنّاشرين في العالم العربي إلى إخراج جزء من تراث الشيخ ديدات لقراء العربية، بتفريغ بعض أشرطة محاضراته وحواراته، معرّبة من الإنجليزية إلى كتب منشورة، من النوع الذي قامت دار الفضيلة بنشره من أعمال الأستاذ علي الجوهري، أو الاكتفاء بتعريب بعض كتيباته، ومحاضرات من قبيل ما نشرته دار المختار الإسلامي المصريّة بجهد ملحوظ من الأستاذ محمد مختار مسلسلاً تحت عنوان مكتبة ديدات، إلى جانب ما بذلته هيئة إذاعة أبو ظبي المرئية من خلال نشر حصيلة ما أجرت معه من مقابلات إذاعيّة، فضلاً عن تعريبها لمناظرته الشهيرة مع الأمريكي سواجارت[1]، منطلقة في ذلك من فكر إعلامي واعٍ ومتقدم، هذه ونحوها من الجهود التي إن دلّت على صدى منهجه الإعلامي، وتأثيره الكبير الظاهر، فإنها تدل في الآن نفسه على رغبة إسلامية صادقة في إشاعة هذا المنهج، والإسهام في تعميق آثاره الإيجابية، والعمل على توفير نتائجه العالميّة في مجال الدعوة إلى الله بالحكمة الحواريّة.

وعلى الصعيد العالمي - من جهة أخرى - فقد كان لمنهج الظاهرة الديداتيّة وقعه السّاحر، كالذي ظهر بتأثيره البين في الاتجاه العالمي إلى الإفادة من معطياته الفكريّة

(1) ينظر: أحمد ديدات: هذه حياتي، ص6، مصدر سابق.

متمثلاً في حجيّة معلوماته النّاصعة، مما أغرى الأستاذ عبد العزيز الكحلوت للتعويل على عدة كتب لأحمد ديدات في مواقع متفرّقة من كتابه: «التنصير والاستعمار في أفريقيا السوداء»[1].

ولما كان هذا التأثير الحاصل بمنهج ديدات الحواري مما يصعّب تتبع صداه في أوساط المسلمين على نحو من الاستقراء التام، والتقصي الدقيق، فلا يسعنا سوى أن نخلص إلى بعض ما انتهى إليه الباحث بسّام داود عجك في قوله: «وأما بالنسبة للمسلمين فقد أعطت تلك الحوارات من اطلع عليها منهم دفعاً قوياً، وثقة أكبر في صحة دينهم، وقوة على مواجهة كل الاعتراضات التي يثيرها الآخرون، حول الإسلام شريعة، وعقيدة، وأخلاقاً»[2]. والملاحظ على هذا النص أنه يفتقر إلى الدقّة في الجزء الأخير منه، إذ لم يتناول ديدات الحوار في شيء من قضايا الشريعة، حتى يلهم المسلمين، ويسعفهم بردود في مجاهلها، بل اقتصر حواره على العقيدة مزيجاً بشيء قليل من الأخلاق، وقبل ذلك فإن الإسلام فيما أعلم ليس مهاجماً من النّاحية الأخلاقيّة، بل هو محسود على سموّ ما تضمنه من تعاليم أخلاقيّة رائعة.

إذن . . . في ضوء ما تقدّم يمكن القول بكل ثقة بأن ديدات من حيث صداه وتأثيره، فبقدر ما لم يكن عالمه بأسره غريباً لديه من خلال ما وسعه بجهوده الحواريّة، واستغرقه به من أنشطته الدّعوية عامّة، فهو بالمقابل لم يكن غريباً عن هذا العالم الذي عاشه فاعلاً ومؤثراً فيه، وبالأخص عند من اتجه همّهم إلى متابعة حركاته وسكناته بدقة متناهية، من أحباء وأعداء. والقول الحق أنه كان منهم قريباً جداً رغم بعده المكاني، وحاضراً بكل ظهوره البارز بما له من ثقل مؤثر رغم انحصار نطاق وجوده الزمني، حيث أخذ الإهتمام به يتعاظم على مرّ الأيام، وتعاقب الأحداث، ممتداً إلى الرغبة في اقتناء حصيلة أعماله في وسائلها العلمية والإعلامية، وغيرها من شتى

(1) تنظر إحالاته إلى معلومات ديدات في الصفحات، 21-22-23-25-28-29-31-62، من الطبعة الثانية لعام 1402هـ-1992م. المنشورة عن كليّة الدعوة الإسلاميّة، طرابلس-ليبيا.

(2) الحوار الإسلامي المسيحي، ص233.

مظاهر الإقبال المتزايد على جهود هذا الْعَلَمْ العملاق، ومنهجه الّذي سلكه إليها، وقد صوّر لنا هو نفسه جانباً يسيراً من هذا الإقبال العالمي على نوع النشاط الذي يمارسه قائلاً: «فالرسائل التي تأتي إلينا كثيرة جداً، ولابد أن نجد حلاً لهذه الرسائل، لأن كم الرسائل كبير إلى الحد الذي يمكن أن يستنفد كلّ طاقاتنا»[1]. وربما لهذا السبب اتخذ لنفسه مندوباً في بريطانيا للتمثيل عنه في أوساط المجتمع البريطاني، وأداء ما تدعو الحاجة إليه من خدماته، فكان السيّد «شام شادخان» أحد هؤلاء المندوبين[2] في ثمانينات القرن العشرين.

وبهذه الصورة المختصرة عن صدى ديدات وتأثير منهجه، لا يحسبنّ أحد أن جهده قد ضاع هباء، أو ذهب أدراج الرياح، على نحو لا يتناسب - بل يتناقض - مع سموّ الرسالة التي حملها في حياته باذلاً في سبيلها جهوداً عظيمة خالدة.

والمُعْتقد عندي -بناء على بُعد صداه وقوة تأثيره- أن يكون قد أخذ في التشكل بالفعل تيار فكري منهجي يمكن أن نطلق عليها اسم «المدرسة الديداتيّة». تستمد نواتها، من طلاب ديدات والمتدربين على يديه، إلى جانب أعوانه وأعضاء مركزه الدّعوي، وقاعدتها هي جماهير الدارسين والمعجبين به، بالإضافة إلى مترجميه وناشريه، ممن يشكلون معاً قافلة المريدين في موكب دعوي بهيج ومتميّز خلف قيادته الحواريّة الحكيمة، في سيرها وفق منهجيّة واضحة ومحددة المعالم، مرسومة الأهداف باهرة النتائج.

ولعلّ الوقوف فيما يلحق على شيء من جدليّة الممارسة والفكر في عمل ديدات الدّعوي كفيل بإمداد دعم وثيق لكل ما تقرر في هذا المبحث الخاتم لهذا الفصل.

---

(1) هذه حياتي: أحمد ديدات، ص38، مصدر سابق.

(2) ينظر: شيطانيّة الآيات الشيطانيّة، ص63، مصدر سابق.

الفصل الرابع

جدلية الممارسة والفكر في عمل ديدات الدّعوي

المبحث الأول : من وقائع الدّعوة في حياة ديدات : (صور ومواقف) .

المبحث الثاني : صورة من جهوده في مجال تكوين الدعاة المحاورين وتأهيلهم .

المبحث الثالث : تصوره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر .

المبحث الأول

من وقائع الدّعوة في حياة ديدات

(صور ومواقف)

لعل من نافلة القول التذكير بأن ديدات قد أمضى ما يربو على ستة عقود من حياته المباركة في جهاد متصل وعمل دعوي دائب، ظل خلالها يتفاعل مع كل ما يمت بصلة إلى الدعوة بروح غيورة نشطة، ووعي إسلامي كبير، حيث كانت الدعوة إلى الإسلام مناط اهتمامه قولاً، وعملاً، فكراً، وشعوراً. وقد سلك طريقها قويًا في عقيدته، عزيزاً بإسلامه، فمثل بذلك طوداً شامخًا تحطمت على عتباته أمواج الباطل وتلاشت على صفوحه تيارات التضليل والتنصير.

وإنّ الدعوة في حياة ديدات إيمان وعمل ورسالة، بدلاً من كونها عقيدة خامدة، وفكراً مجرداً أو دراسة نظرية، ونتيجة لهذا التصور صرف طاقة غير محدودة للعمل على نشر رسالة الإسلام، بكل الوسائل الممكنة، وفي مختلف ساحات العالم ومنابره.

ومما تحكم في منطلقاته الدّعوية فزعه من هول التحذير الإلهي عن التقصير في خدمة الإسلام الوارد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: 24].

شكلت هذه الآية الكريمة لديدات وقوداً دافعًا للخوض في مختلف مجالات العمل الإسلامي بشعور متحمس، مما يسوقه أحيانًا إلى التفكير في ارتياد مجالات لاتتوفر فيه الأهلية الكافية لها، وهو أمر له مخاطره ومحاذيره، ومن هذا القبيل مارتبه على الآية من قول جاء فيه: «وليس علي أن أعتذر لتركي شرح الموضوعات العلمية في القرآن الكريم للعلماء المسلمين حيث إني غير متخصص، ولكن إذا لم يتقدم أحد من المسلمين ليشرح لنا كنوز الحكمة المدخرة التي يزخر بها القرآن الكريم فإنني من جهتي وكشخص عادي غير متخصص في العلم سوف أشارك معكم الطبيعة

الإعجازية في القرآن الكريم كما تظهر لي في الحقائق البسيطة والعادية»[1].

ولعلنا لا نعدم في فهمه للآية ما يفسر لنا مبرر تفرّغه التام للعمل الدّعوي، وإخلاءه الطرف عما عداه من الأنشطة الدنيوية، والمصالح الشخصية، بناء على ما ألح عليه من تصور قائم على أن «الدعوة تحتاج إلى جدّ واجتهاد، كما تحتاج إلى تفرغ وانقطاع، فالجد في نشر الدعوة وإبلاغها، وتذليل الصعاب والعقبات التي في طريقها أمر لا بد منه»[2]. فبمقتضى هذا التصور انخرط ديدات في سلك رجال الدعوة والتزم السير على خطهم طوال عمره المديد، وهو يتابع الملحمة الكبرى للدعوة إلى الإسلام في هذا العالم، والذي طاف العديد من بلدانه، ولديه ولع خاص بحمل رسالته إليها، وكان عليه أن يواجه جيوش التضليل، وجحافل المنصرين مدى عشرات السنوات التي لم يكن له فيها همّ آخر سوى نشر الإسلام في مختلف أرجاء المعمورة، فأبلى في ذلك بلاء حسنًا، ساعدته في تحمله قوة إيمانه، وصلابة عقيدته، مما جعله يفني حياته في خدمة الإسلام بطيب خاطر، ونفس رضية سعيدة، في زحف وثبات دائمين دون نكوص أو تقاعس، بل كان بجسمه وروحه يفيض حياة، ونشاطًا، وحركة، حتى وهو في مرحلة طاعنة من العمر. فرغم شيخوخته ومرضه الذي داهمه بطوفانه الطارح على الفراش لم يستسلم ولم يتوقف، وأبى إلا أن يلقى ربه مجاهداً في صف من امتدحهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: 23].

ورحم الله هذا الفارس فقد كان منذ أن عرف طريقه إلى الدعوة صادقاً مع نفسه، في أداء واجبه الديني أمام الله، وفي ذمة التاريخ؛ حيث أنفق على العمل الإسلامي حياته الغالية بإخلاص نادر وأدب فارع، وبذل سخيّاً كل غال ونفيس في سبيل الدعوة، وظل جاداً في نضاله، حريصاً على عمله، مما سلط عليه مجهر الأعداء ممن ترقبوه بعين ساهرة،

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص: 48، مصدر سابق.

(2) أساليب الدعوة والإرشاد؛ ص: 116.

ونفس قلقة متوجسة، مدركين خطورة المنهج الدّعوي الذي يُصدر عبره خطابه المميز في تبليغ رسالة الإسلام على الصعيد العالمي، وبمعرفة السبب يزول العجب في موقف الإذاعة البريطانية حيال عرضه السخي المعبر عنه في قوله: «ولقد عرضت خمسين ألف جنيه على هيئة الإذاعة البريطانية ليخصصوا لي خمس دقائق أوضح فيها أحسن وأفضل ما عند رشدي، ولم يستجيبوا، يتلون ويقرأون صفحات من كتاب رشدي على الملأ ويرفضون إعطائي خمس دقائق لأوضح لهم أفضل وأحسن ما عند رشدي؟»[1] حسبك الله يا ديدات، وأنى لهم أن يفعلوا ذلك، وأنت عازم على كشف حاسم صارم لما أضمروه من حقد دفين للإسلام، وكيد لأهله؟. بهذا يتضح أن ديدات من الصنف الذي يعطي الدعوة كل ما لديه دون أن ينتظر مقابلاً مادياً دنيوياً على صنيعه الخالص لوجه الله، وإنما يحتسب الأجر العظيم والمثوبة الخالدة عند الله تعالى في مستقر رحمته، وإلى القلائل من أمثاله المخلصين للدعوة أشار الشيخ الشعراوي في قوله: «...ولكن الذي يدعو إلى الله هو الذي ينفق على الدعوة ولا يأخذ منها، وينفق عليها وهو سعيد، ويدفع من ماله وهو مسرور، وهو أول من يتحمل مشاق التكليف والعبادة وكل أمنيته أن يتقبل الله عمله الصالح»[2]، ويتحقق طموحه الغالي في انتشار الإسلام في العالم والذي ما بعده طموح؛ حيث كان أعظم آماله أن يرى الإسلام سائداً في هذا الوجود الدنيوي، ويظهر على الدين كله، تحقيقاً لموجب إرادة الله تعالى، الذي رشح الإسلام لهذا المصير العالمي الخاتم بالدعوة إليه والمجاهدة في سبيله. وما من شك في أن السعي الدائب لإنجاز هذا المشروع العظيم النبيل اقتضى من ديدات وغيره مجهوداً عسيراً، وتضحية غالية بالنفس والفكر والمال وغيرها من الإمكانات المادية والمعنوية التي رصد منها ديدات الشيء الكثير لعمله الدّعوي الكبير، لتتحقق في تضحيته للدعوة، وفي حياته من أجلها، تلك الصفة الأساسية لكبار الدعاة وصفوتهم، والتي قررها الدكتور أحمد غلوش وسطرها بقوله: «أن يجعل الدعوة حية في كيانه كله تملأ ضميره ويجعل راحته في العمل لها، والحركة بها، وتشغله عن نفسه وماله

(1) شيطانية الآيات الشيطانية، ص 94-95، مصدر سابق.

(2) محمد متولي الشعراوي: الخير والشر، ص 102، مكتبة الشعراوي الإسلامية، ط عام 1990، القاهرة.

وولده، ويتمثل ذاته حارسها الوفي، وصاحبها الأمين فيهب لها كل ما يمكنه ليكون كل شيء فيه لله ...»[1]، والشيخ ديدات ممن حقق شأواً بعيداً في هذا المضمار الذي هو أولى وأحق ما يتنافس فيه المتنافسون.

ومن حيث المنهج الذي اتبعه في مواقعه الدّعوية، وبث من خلاله رسالته الإسلامية الهادفة فيما عدا حلبات الحوار والمناظرة، فلم يخرج عن روح قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: 125].

وتنطوي تحت هذا المنهج القرآني كافة نشاطاته الحكيمة التي مارسها من موقع قيادة مركزه الدّعوي، إلى جانب الموعظة الحسنة لعامة المسلمين، المتمثلة في إسداء النصح إليهم، وحثهم على الالتزام بدينهم، مع المشاركة في نيل شرف الدعوة.

بالإضافة إلى جداله الأمثل لغير المسلمين، فهو بدعوته العامة قد استدرك جزءاً كبيراً مما لم تتسع لها حواراته، سيما أن تستوعبها، من قضايا التبليغ والتوعية فمن ثمّ كتب ودرّب، وحاضر الخاصة، وتحدث إلى العامة في تلك القضايا، قياماً بواجب الدعوة والإرشاد بتغطية مختلف المجالات الهامة على مستوى كافة الطبقات والشرائح الاجتماعية وكانت فلسفته في ذلك تقوم على الفكرة التي نص عليها بقوله: «عندما يروّج غير المسلمين لكتاب مقدس غير القرآن الكريم فمن الضروري أن يعرف الناس، ومن حقهم أن يعرفوا كلام الله بحق، ودين الله الحق، ليجتنبوا مغالطات خصوم الإسلام»[2]، وإلى جانب الجناح القولي، وتتمة له كان ديدات معنياً أيضاً بالجناح العملي في الدعوة إلى الله حيث ظل حريصاً على أن يشكل بنفسه أنموذجاً صالحاً للإنسان الداعية، ويمثل من خلال

---

(1) أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ص 439، ط عام 1987، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت.

(2) أحمد ديدات: عتاد الجهاد، ص 24، تعريب علي الجوهري، من منشورات دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د، ت، د، ر.

سلوكه وقيمه الأخلاقية قدوة حسنة للآخرين باعتبارها أنجع وسائل الدعوة، وأنفد أساليبها متحلياً بجميل الصبر، وفائق الأمل بعيداً عن اليأس في إسلام المدعوين وإصلاحهم، مهماً بلغ عنادهم وفسادهم وقد رسم لنا صورة جامعة لكل ذلك حين قال: «. . . هل هؤلاء الملاحدة الماديون، وهل أولئك المسيحيون واليهود بمنأى عن الإصلاح والهدى؟ كلا! . . . ليس لنا أن نيأس. . . لا يزال فيهم خير كثير . . . فلنتعلم كيف نخاطبهم بتعقل، دون انفعال. . . ولنعطهم أمثلة من حياتنا اليومية بحيث يجدونها صالحة لحياتهم اليومية أيضاً. . .»[1] وتأكيداً لهذا التصور الحكيم المتفائل والتزاماً به جرى على الحكمة في تعامله مع مختلف الشخصيات والجماعات بأساليب مناسبة لها مراعياً في ذلك الميول النفسية، والاهتمامات المهنية. ومن هذا القبيل أسلوبه الدّعوي المؤثر الذي يزاوله في مقابلاته مع رجال الصحافة، وهو ما حكى عنه بقوله: «وبمجرد أن أكتشف أن المقابلة صحفية أخبر صاحب المقابلة أنني أود أن أعرض عليه أن القرآن معجزة إعلامية والكل يقبل على الاستماع، إلى وجهة النظر هذه...»[2]، ومن ثم ينطلق ديدات في معالجة هذه الأطروحة، والإفاضة في شرحها مقارناً بين الأسلوب القرآني وأسلوب الكتاب المقدس في سرد القصص، والأحداث التاريخية، للوصول أخيراً إلى إبراز مدى ما يمتاز به الأسلوب القرآني من دقة بيان وإيجاز مركز، وتأثير ساحر.

فبهذا الأسلوب وغيره كان ديدات ينفذ بدعوته إلى قلوب زواره، ومدعويه عامة، منطلقاً من قناعة راسخة بأن المسلم - فرداً وجماعة - مهما يكن وضعه الاجتماعي هامشياً، وظروف محيطه ضاغطة يتعين عليه القيام بواجب الدعوة في حدود المستطاع، وبأساليب إسلامية حكيمة. وإن القيام بنشر رسالة الإسلام في كل الأحوال يعني بالنسبة لديدات خضوعاً لإرادة الله، وانقياداً لأمره تعالى، ويستخلص ذلك من قوله: «. . . يجب أن ننصاع لمشيئة ربنا، ويجب أن نعلن الحقيقة بأعلى أصواتنا»[3]، وبمختلف

(1) شيطانية الآيات الشيطانية، ص 28، مصدر سابق.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص 61.

(3) المسيح في الإسلام، ص 10، مصدر سابق.

الوسائل والأساليب البعيدة عن العنف، والتزمت، وضيق الأفق والتقوقع على الذات، ومفاصلة الآخرين قلباً وقالباً، أو التشاؤم في مرد هداية المدعوين فليس شيء من هذه الصفات والأساليب بمعتمد عند ديدات، بل هي مرفوضة عنده رفضاً باتاً فهو في الدعوة إلى الإسلام ممن يشارك غيره الرأي القائل: «فما جعل الإسلام الإكراه على العقيدة وسيلة، ولكن بالدعوة البصيرة والبيان الهادي والحجة العقلية، والخلق الإنساني العظيم يخط للإنسان بقوة ووضوح سبيلاً إلى العزة والكرامة والوحدة، قد تبين الرشد من الغي»[1]. تكشف متابعة مسيرة ديدات الدّعوية في مختلف وسائلها وأساليبها، وفي كافة مواقفها التزامه الدائم بحدود ما نص عليه في المقطع السابق من أساليب دعوية، مما يدعو إليها القرآن والسنة وتؤكده الأدبيات الدّعوية الواعية لروح الإسلام، وحقيقة الدعوة إليه.

وتقديراً لما تكتسبها الممارسة العملية من أهمية قصوى في عمله الإسلامي العام، فإننا سننتقي فيما يلي: من بعض كتبه وأشرطته المرئية، ثلاثة مواقف دعوية، لعرضها كنماذج لخطابه الدّعوي.

أولاً - خروجه للدعوة في إحدى مناطق قبيلة الزولو القاطنة بجنوب إفريقيا:

يعرض هذا الشريط المرئي بعنوان «الإسلام إلى الزولو»[2]، لأحد برامج ديدات الدّعوية تتم وقائعه تحت خيام منصوبة، وبحضور حاشد حافل بالمسلمين رجالاً ونساء ومن أولاد بنين وبنات، وكعادة المسلمين في مختلف نشاطاتهم وبرامجهم الدينية يتم افتتاح الحفل بتلاوة أحد الغلمان لآي من القرآن الكريم من سورة الرحمن، ويعقبه قارئ آخر من أقرانه بتلاوة الآيات الأخيرة من سورة «المنافقون» وتلتهما بنت صغيرة تلت هي الأخرى سورة «الكافرون» مشفوعة بتفسير ميسر لها باللغة المحلية. وبعد ترحيب حار مما يليق بمقام الداعية الكبير، أخذ في الحديث إلى الحضور حديثاً شيقاً، تتمثل خلاصته في النقاط الآتية:

---

(1) الإسلام والتمييز العنصري، ص 317، مرجع سابق.

(2) ينظر عن العرض اللاحق الشريط المرئي المشار إليه من مسجلات ديدات.

أ - بعد تعبيره عن ارتياحه العميق، وغبطة اللقاء بهم، يذكّر الحضور بأن الإسلام ليس بجديد ولا غريب عليهم بل هو عقيدة هذا الشعب موروثاً عن الأسلاف كابراً عن كابر، مؤكداً قوله بأن ملاحظة عمرها أربعون سنة لم تثبت لديه غير ذلك، بل وإنما توصل من خلال التحليل والمتابعة إلى استنتاج مفاده: أنه لا وجود لقبيلة أفريقية عبدت الأصنام، وهذا من باب جذب عناية المخاطبين، وخلق شعور لديهم بأنهم أرقى من عبادة الأصنام السخيفة، والتي لا تليق بسليم فطرتهم ورجاحة عقلهم، كما أنها تتصادم مع تراثهم الديني العريق، وثقافتهم الأصيلة. وديدات يذهب تأكيداً لهذا الطرح إلى الاستشهاد بأحد الباحثين الأمريكان ممن يرى أن القارة الأفريقية ظلت ميداناً مفتوحاً لكل الديانات، ولكن دين شعوبها الأصلي هو الإسلام، والذي يتميّز بعقيدته الواضحة السليمة، وقيمه الفردية والاجتماعية المثلى مما يسمو به فوق كل من الهندوسية والمسيحية القائمتين على فكرة التناسخ والحلول.

ب - يبين في خطابه مزايا الإسلام الاجتماعية، مستشهداً بواقع الأقلية المسلمة في جنوب إفريقية، فيما يميزها عن الأغلبية المسيحية من التزام أخلاقي وطهارة اجتماعية، ومسارعة إلى فعل الخير، وأداء العمل الصالح وكل ما هو مبرة. وفي المقابل فإن مظاهر الفساد وأوكارها تعمّ أوساط غير المسلمين في البلاد، وتتفشى في الجماعات غير المسلمة الجرائم بمختلف أشكالها ومستوياتها، بما يهدد أمن البلاد، وسلامة الاستقرار فيها. وليس للمسلمين أدنى نصيب في ممارسة هذه الشرور الوخيمة العواقب. وهذه الميزة الأخلاقية، والفضيلة الاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون هي نتاج عقيدتهم الإسلامية الصحيحة، حيث إن الله تعالى لما خلق الخلق، بعث إليهم الرسل بشرائع ومناهج لتنظيم شؤون حياتهم، وضبط تصرفاتهم وتهذيب سلوكياتهم، فجاء الإسلام في هذا السياق لصياغة شخصية المسلم فرداً ومجتمعاً وأمّة وأمة، وفق نمط حضاري بديع متقدم، وطبقاً لتعاليم الإسلام فإن المسلم:

ج - أبعد الناس عن التعصب العرقي وممارسة التفرقة العنصرية، حيث إن الإسلام لا يقرها، بل يستنكرها ويحاربها بشن حملة قرآنية سنية عليها، وهذا موضوع

حساس بالنسبة لمن يخاطبهم ديدات، ونقطة جذب لهم لدعوتهم إلى الإسلام، وتمكينه في نفوسهم، وبذلك فقد وفق ديدات في مراعاة نفسية المدعو، وإعارة الاهتمام لمشكلاته الاجتماعية بخطاب إسلامي بناء له تأثيره الإيجابي في نفس السامع، ومشاعره.

وبعد حديث مختصر في هذه الموضوعات السابقة سئل ديدات عما إذا كان المسيح قد مات بالفعل، وقام من موته، وهل ولد المسيح في الخامس والعشرين من الشهر الأخير من السنة الشمسية؟

فأجاب ديدات على السؤالين بما يسمح به المقام، وعلى سؤال أخير عن الفرق بين المسيحية والإسلام، أخذ ديدات في الإجابة مستطرداً في بيان الفرق العقدي بين أبرز الفرق المسيحية ذاتها، مشيراً إلى وجود مالا يقل عن 3000 فرقة مسيحية مختلفة مبثوثة في ثنايا جنوب أفريقيا على طولها وعرضها، وفي منطقة دربان وحدها ما لا يقل عن 1000طائفة منهم، وعما يفترى على الله من أبوته للمسيح، وبنوة هذا الأخير لمن لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يبين ديدات بأن هذه الإطلاقات لم تكن غريبة على الثقافة اليهودية القديمة وقبل ظهور المسيح، بل كان جارياً عندهم ومعهوداً لديهم إطلاق صفة أبناء الله على العباد، والأتقياء منهم، وقد ورد في الإنجيل عدد من المرات التي استخدمت فيها صفة البنوة منسوبة إلى غير المسيح، مما يعني إنها ليست حكراً عليه، وإنما هي بمفهومها البسيط البرئي تنطبق على كل إنسان.

د - انتهت المحاضرة بحوار مفتوح عن مسائل دينية وتاريخية، حول موثوقية الكتاب المقدس، وعن الاستعمار الغربي، ودوره في تشويه معتقدات الناس وتلويث أخلاقياتهم الحميدة، تمهيداً لزرع سلوكيات استعمارية بديلة عنها، ويذكر ديدات مخاطبيه بأن المسيحية رغم مرور بضعة قرون من تاريخ وجودها في البلاد إلا أنها أخفقت فيما تدعيها من رسالة إنسانية، فلم تستطع إنقاذ أتباعها من الممارسات الإجرامية، والأعمال الوحشية التي يندى لها جبين من في نفسه أثارة من حياء ومسحة من إنسانية، والغريب اللافت للنظر أن هذا الحوار الختامي لم يكن متابعاً

من قبل الجميع، حيث تعالت الأصوات في جنبات الأروقة، وكثرت التناجيات الجانبية بين الحضور ولعل ذلك يعود إلى قلة تجمع أهل المنطقة مما يدفع بهم إلى اغتنام الفرص والمناسبات النادرة للحديث في بعض القضايا العامة والخاصة، فضلاً عن أن ديدات لم يظهر في ختام لقائه معهم من الاهتمام ما يدل على جدية وأهمية رغبته في متابعتهم لهذا الجانب الأخير من أحاديث لقائه معهم .

وعن الملاحظات التي تبدو للدارس المتأمل في هذا الموقف الدّعوي للشيخ ديدات يمكن تسجيل ما يلي :

1 - كان حديثه مقتضباً جداً إذ لم يستغرق ولو ساعة كاملة، بل فقط زاد عن النصف قليلاً، وهو ما لا يتناسب مع ضخامة الاستعدادات والتجهيزات التي تمت لتهيئة هذا اللقاء الهامّ؛ حيث قام فريق مشكل من مختلف الفئات العمرية بإعداد وتوزيع طعام على الحاضرين كان كافياً لألفي مدعوّ ممن عزموهم، متوقعين حضورهم، العمل الذي استغرق يوماً وليلة، وعلى الرغم من كثافة الحضور إلا أنه في تقديري لم يتجاوز نصف ما كان متوقعاً .

2 - قام ديدات بتوزيع عدد كبير من ترجمة معاني بعض أجزاء القرآن الكريم بلغة الزولو، وكانت مخصصة فقط لمن لم يسبق لهم الحصول على شيء منها، والترجمة الكاملة لمعاني القرآن كاملاً قدمت في شكل جوائز تكريمية لمن وفقوا في الإجابة على بعض الأسئلة الإسلامية العامة في مستوى معلومات الحضور، وهذا أسلوب موفق يشجع كثيراً أمثال هؤلاء الناس من قليلي العلم بالإسلام، وربما حديثي العهد به، على تنمية معارفهم، بتزويدهم بالمصادر الأصيلة المعينة على الفهم الصحيح لدينهم، كما يرفع من روحهم المعنوية عالياً .

3 - يتملك ديدات - حتى وهو يتحدث إلى العامة - أسلوب المقارنة، فينساق وراء قضايا هي في موضوعات الحوار المقارن أدخل منها في خطاب دعوي موجه إلى جمهور مسلم، وتترتب على هذه الملاحظة مؤاخذته على عدم تقديره الجيد لنوعية ما تتطلبه المناسبة من حديث عن أركان الإيمان، والإسلام وقيمه وآدابه

العامة وثمارها في الدنيا والآخرة، وبالأخص في وسط لا تزال أصول الإسلام وأسسه غير متجذرة فيه بما فيه الكفاية، فضلاً عما يعانيه أهله من مشاكل اجتماعية حادة، يقدم لها الإسلام حلولاً منطقية وجذرية شافية بكل يسر وبأدنى كلفة، باعتبار أن المناسبة من قبيل ملتقيات التوعية والإرشاد أكثر من كونها موقف تبليغ ودعوة، وكان من الممكن أن يشغل ما اتسع لديه من الوقت بما يفيد الجميع في هذا اللقاء الدّعوي الثمين بدلاً من إطلاق الحبل على الغارب لكل من هب ودبّ، يتناجى مع من يشاء وفيما يشاء.

4 - تسجل لديدات براعة أسلوبه في ملامسة أفئدة المخاطبين بتقرير أصالة عقيدة التوحيد في ثقافتهم القديمة، وتعريجه على موقف الإسلام من التفرقة العنصرية، بالإضافة إلى أسلوب التغني بترجمة معاني بعض الآيات في أحيان نادرة، مناجياً في ذلك الروح الفنية الكامنة في أعماق ثقافة من يخاطبهم.

ثانياً - محاضرته للجالية المسلمة في أحد مساجد بريطانيا[1]:

إنّ هذه المحاضرة من حيث العنوان الذي اختاره لها ديدات تمثل رسالة إلى المسلمين، تتضمن العديد من القضايا، وتعكس على نحو واسع أسلوب داعيتنا في إلقاء محاضرات التوعية والإرشاد، مقدمة صورة عن مضمون رسالته التي أناط بها على عاتق المخاطبين، وغيرها من التوجيهات التي تحسن متابعتها عبر الفقرات التالية:

1 - يفتتحها بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120].

وطبقاً لما تبين من علاقته المنهجية بالنصوص ينطلق من الآية كقاعدة أساسية

(1) هذه المحاضرة التي نعرض لها في الآتي تم تسجيلها مرئياً في الشريط الثاني من مناظرة ديدات لسواجارت، ويمكن الرجوع إليه للتقصي.

يرمي إلى بناء أصول المحاضرة، وتعليق أفكارها عليها، ومن ثم يبادر ديدات - فيما يبدو حديثاً عن العلاقة بين المسلم والمسيحي - إلى إطلاع الجمهور الحاضر على كتاب عِدَائيّ نشرته أطراف مسيحية من جنوب أفريقيا بعنوان (تحدي الإسلام في جنوب أفريقيا)، يأتي في سياق التأكيد على ما نبه إليه القرآن عن موقف أهل الكتاب الدّيني من المسلمين، رغم وجود نقاط الالتقاء إلى جانب أوجه الاختلاف بين العقيدة الإسلامية، والتصور الكنسي لشخصية المسيح ورسالته عليه السلام. وبصرف النظر عما هو واسع بينهم من تفرق عقدي، وتعصب مذهبي ونكران بعضهم البعض، إلا أنهم يجمعون على معاداة الإسلام والمسلمين ومحاربتهما بشتى الوسائل الممكنة من الوسائل والأساليب التنصيرية، ولكن الله تعالى أراد لدينه الإسلام مصيراً ينتهي به إلى الظهور على الدين كله رغم كيد الأعداء، وكراهية الكفار والمشركين .

وبمناسبة الحديث عن التنصير فإن الخيط يجرّ ديدات لعرض واقعه الأشد في بلاده وما جاورها، متطرقاً إلى شيء من قصة دخول الإسلام، وبناء المساجد هناك. وقد بلغ على حد قول ديدات كيد أعداء الإسلام لأهله أن امتهنوا المسلمين المحافظين على دينهم وثقافتهم ورموهم بنعوت التخلف والتطرف، وصوّبوا إليهم سهام انتقاداتهم الهدامة، وكالوا لهم جزافاً ما وسعهم من التهم والافتراءات المنفرة منهم. وقد عمدوا في سياق تشويههم المتعمد لصورة الإسلام، وسمعة المسلمين، إلى استقبال المرتدّين والمارقين من الإسلام، وتشجيعهم بشتى الوسائل الممكنة، والتصدي لردود فعل المسلمين ضدهم، وهم بذلك يضطرون المسلمين إلى مواقف التحدي والإثارة، مما يعرضهم للسخرية والكراهية لدى الآخرين. وفي خضم هذه الهجمة العدائية العاصفة يوصي ديدات جمهوره بالتمسك بالدين، والاعتصام بالهوية باعتبارهما أعظم وأحسم سلاح في المواجهة وإغاظة العدو .

2 - إن مسألة الهوية من أهم القضايا التي نالت اهتمام ديدات في دعوته، ولقاءاته بالأقليات المسلمة؛ حيث إنه يراها وسيلة إعلامية للفت انتباه الآخرين بوجود إسلامي حي، إلى جانب ميزتها في تعرف المسلمين على بعضهم تلقائياً من غير

سؤال أو تكلف تعارف أو تقديم متبادل كما هو عليه الحال عند من يفتقرون إلى هوية مميزة. ولذا يعيب ديدات على 600 باكستاني مسلم ممن قابلهم في إحدى جولاته الدّعوية بمدينة هونج كونج الصينية، بأنهم انصهروا في الآخرين وذابت شخصيتهم الاجتماعية وامحى وجودهم الثقافي؛ حين لم يعد لهم ثمة ما يميزهم عن غيرهم من هوية ثقافية. وبالنسبة لديدات فإن الحفاظ على الهوية يعني إظهاراً للإسلام، وإشهاراً لثقافته الممتازة المميزة، واستمالة للناس الآخرين بهذه الوسيلة، وغيرها من الطرق الودية الحكيمة. وفي المجتمعات التي تضيق ذرعاً بالثقافة الإسلامية، ويتعرض فيها المسلمون للاضطهاد، والإيذاء نتيجة تمسكهم بثقافتهم وعقيدتهم، فحسبهم عند ديدات الانضباط زماناً ومكاناً، وذلك في المناسبات الدينية كالجمعة وغيرها، ومكاناً في رحاب الأسرة، وتنشئة الأبناء عليها. وديدات يعوّل في هذا الصدد على أهمية الدور التربوي للأسرة المسلمة في مثل هذه الأجواء وغيرها.

3 - وفي هذا الخطاب يصرف ديدات اهتماماً خاصاً بتوعية الحضور بأنهم مطالبون بالدعوة في ديار غربتهم وهجرتهم، ولكن فقط بالمسالك السلمية من إعلام وتعليم وحوارات، وسلوك ديني طيب، وخلق إنساني فاضل، تحت شعار «**لا إكراه في الدين**»، وإن كان هدف المسلمين هو إدخال الآخرين في الإسلام إلا أنه يلزم الالتزام بالمنهج المضاد للعنف والإفزاع والقهر والإكراه، وغيرها من الممارسات التي يمقتها الإسلام، ويتبرأ منها الحكماء من دعاته الصادقين المخلصين. وترسيخاً لهذا المبدأ؛ يستعين ديدات بآي من القرآن الكريم تأمر بالدعوة على بصيرة وحكمة، والتزام القول الأحسن والعمل الصالح .

4 - وحتى يتحقق في حياتهم ما أشار إليه من تمسك بالإسلام ودعوة إليه، لجأ ديدات إلى تشجيعهم؛ بالثناء عليهم وشحن معنوياتهم بأنهم أمثل حالاً في تطبيقهم للإسلام وهم في المهجر من مسلمي بلاده، مشيداً بجهودهم النبيلة في الحياة بالإسلام على ضوء القرآن والسنة، رغم إغراءات المحيط الاجتماعي وتحدياته،

والتي يقترح ديدات لمقاومتها من أجل العيش بسلام في رحاب الإسلام، الصحبة الواعية للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك بالاستعانة بتراجم معاني القرآن الكريم، والتدقيق في انتقاء أجودها، وتعمق القارئ إلى المعاني القريبة من روح النص الوافية بمراميه وأغراضه مع ضرورة الحفاظ على استخدام مصطلحات القرآن، ورغم كثرة التراجم وتفاوت جودتها ودقتها إلا أن ديدات يوصي بأهمية الاطلاع عليه والإفادة منه في لغته العربية الأصيلة، ليكتسب القارئ ذوق شمولية القرآن وتعدد عوالمه ولطائف معارفه الإلهية، وإحاطته بمختلف القضايا الدينية والإنسانية. ويتجاوز ديدات هذا الاقتراح إلى تشويق الحاضرين بقراءة القرآن، وفهمه بتدبر فهمًا إيجابيًا يدفع القارئ إلى توسعة دائرة الإفادة والنفع، متجاوزًا نفسه وأهله إلى جيرانه ومحيطه العام، إذ العلم المتعدي خير من اللازم فيما هو بيِّن. وإلحاقًا بالقرآن الكريم، يرغّب ديدات في التمسك بالسنة النبوية حاثاً على اقتناء كتبها إلى جانب تفاسير القرآن، وتراجم معانيه والتي تباع بأسعار زهيدة مقابل كتب باهظة الثمن لا تساوي شيئًا من حيث الأهمية أمام القرآن، وسنة رسول الله وسيرته ﷺ.

وفيما يخص أسئلة الحضور لديدات عقب محاضرته، فقد تراوحت ما بين أسئلة عن قصة دعوته، ومؤهلاته العلمية، وأخرى تتصل بقضايا من الفكر والعلاقات الدينية بين المسلمين والمسيحيين وخاصة ممن تعيش هذه الجالية المسلمة في أوساطهم في ديار الهجرة والدعوة، ولعل أهم ما طرحت من أسئلة يتمثل في الآتية :

أ - عندما سئل ديدات عن حياته وبداية نشاطه الدّعوي، وعن الجامعة التي تخرج منها، أجاب بأنه خريج جامعة الصراع المحموم والضربة القوية، ولها موقع في مختلف أنحاء العالم؛ حيثما يوجد معاً مسلمون ومعادون لهم، ومن هذا المدخل ينطلق ديدات للحديث عن حياته المبكرة، والظروف التي رافقت وهيأت لعمله الإسلامي، معرباً عما أسعفه به كتاب إظهار الحق من عون ومدد هائلين؛ حين وقف عليه وهو منهمك في تنقيب شاغل، وبحث متواصل لا يعرف الكلل ولا

الملل فعكف عليه بقراءة نهمة مستوعبة، وقد دفعه إلى السير قدماً في هذا الخط المميز ما آلمته من قصة فشل أحد ممن لم يكن مؤهلاً للحوار من دعاة الإسلام أمام مساجلات منصّر ساذج .

ب - وفي رده على من سأله عن مدى إمكانية وجود مسيحي مؤمن بالله في عالمنا المعاصر أقرّ ديدات بوجود المؤمنين الموحدين لله حتى من مسيحيي بريطانيا، مع قلة من ينتمي إلى هذا الفريق الذي يرى ديدات أنه بحاجة من المسلمين إلى دعم، وأخذ بيده إلى نور الإسلام وهدايته، باعتباره حائرًا يتلمس سبيلاً واضحاً وعقيدة منيرة وهو أقرب من غيره إلى الإسلام طالما وجد من يرشده بالحوار ويقنعه بالنقاش من منطلق أمره تعالى بدعوة أهل الكتاب إلى الحوار، وفيما يبدو محاولة من ديدات لتزويد الحضور بفكرة عن أسلوب الحوار وموضوعاته مع المسيحيين أخذ يستطرد في بيان صور أنسنة الإله وتجسيمه في الكتاب المقدس، خلاف ما يعتقده المسلم من عقيدة نزيهة خالصة تستلزم عملاً صالحاً كمظهر حضاري لها .

ج - لمّا سئل ديدات عن حكم تناول المسلم لطعام أهل الكتاب وعن عكسه، اعتذر عن الإجابة معللاً ذلك بأن المسألة لا تدخل في عداد منهجه وتخصصه ؛ لأن مهمته هي الدعوة في جانبها العقدي المقارن، وهذه مسألة فقهية شرعية خارجة عن مجاله الذي تفرغ له والأولى في رأي ديدات أن يعترف الإنسان بما لا يعرفه طبقاً لما ينسب لسيدنا علي - رضي الله عنه - من قوله : «لا تقل مالا تعلم وإن قلّ ما تعلم»، وإن كان هذا الاعتراف الذي أدّى بديدات إلى عرض إمكانية طرح السؤال على إمام الجامع، محل هذا اللقاء فضيلة إلا أنه قد يعتبر نقطة ضعف محسوبة عليه، وبالأخص في عجزه عن الإجابة عن سؤال، وإن كان فقهيًا فإنه بسيط ولصيق الصلة بموضوعاته التي يحاور فيها، باعتباره جزءًا من الدائرة المعرفية التي تخصص فيها بجهوده واجتهاداته وربما هذه المحاضرة التي لا نضبط على وجه التحديد تاريخ إلقائها هي جزء من أعماله المبكرة قبل أن يقوي تكوينه، وتنمو ثقافته الإسلامية، الأمر الذي يُذكر بخلفية بدايته للدعوة الإسلامية،

وكيف وجد نفسه فجأة من بين فرسان الدعوة، وأحد أبرز أعلامها في عصرنا المعاصر، ذلك المصير الذي لم يكن مرتقباً، ومن ثم لم يكن من شيء يدعو إلى التهيئة والتربية له، ولذلك تثير لكنته الانتباه، عندما يقرأ أي شيء بالعربية حتى القرآن الكريم، مما يعكس إلى حد كبير اقتحامه لهذا المجال عنوة وضرورة، من غير قدم راسخة فيه، أو أصالة علمية مؤهلة.

د – وفي جوابه الذي أدلى به لمن سأله عن إمكانية تطبيق المباهلة في الحوارات المعاصرة، يرى ديدات أن التركيز الآن ينبغي أن يكون على الحوار بلا مباهلة، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال الأحسن، فالرسول ﷺ انطلق من المناظرة إلى المباهلة، ومن الحكمة الدّعوية لنا في هذا العصر الانطلاق من المحاورة إلى الموادعة، لكم دينكم ولي دين.

وإن ديدات وإن كان قد راهن بروحه وماله في عدد من حواراته إلا أنه لا يميل في هذا العصر بالذات إلى الحوار بالتباهل، وهو بذلك يتقاطع مع العديد من دعاة الحوار من أجل التعايش السلمي والتعاون الإنساني العادل.

هـ – وقد أنكر ديدات على المسيحيين في جوابه الخاتم الطعن في الإسلام بقضية تعدد الزوجات، التي أبيحت كقيد وعلاج معاً مع ما تنطوي عليه حياتهم مما هو أشر وأنكر، حيث تجوز عندهم العلاقات المثلية، وتتفشى في مجتمعاتهم ثقافة العري والإباحية، ومختلف ضروب الفساد الاجتماعي وأشكاله وغيرها من الشرور التي نجمت عن عقيدة نظرية صلب المسيح الفادي، ومن ثم انتفت المسؤولية الأخلاقية، وانهارت أو تدنت مؤسسات المجتمع المدني.

وأما حصيلة ملاحظاتنا عن هذا الموقف الدّعوي الإرشادي فهي الواردة في العناصر اللاحقة:

1 ـ تأكد لنا بهذا الموقف وغيره أن ديدات في أغلب حواراته ومحاضراته يميل إلى الوقوف منتصباً على قدميه، ويتحمل ذلك وإن طال به المقام، ولعل سر منطقه

المؤثر يكمن ضمن عوامل أخرى في حديثه واقفاً، مما ساعده على الاسترسال في الحديث والإطلاق فيه متميزاً بصرامته في الإلقاء، وجديته في الحديث والحوار جدية يلطفها ببسمات طارئة، ومفاجئة تتسم بالقصد، ولا تتجاوز حدود الندرة وذلك للفت الانتباه، وشدّ الحضور مربوطاً بالموضوع الذي يلقيه إليه، وهو في وقوفه متحدثاً يكثر من الالتفات يمنة ويسرة لمقابلة الجمهور بصفحة وجهه موزعاً اهتمامه الشخصي على الحاضرين دون تركيز على جهة بعينها، أو تجميده على شخص دون غيره كيلا لا يحس الحضور معه بالملل، أو يشعر بالإهمال منه، وقد يستعين بحركات يديه الدائبة، وإشارات أصابع كفيه للإبقاء على حيوية الحضور، ومتابعته اليقظة لما يقوله .

2 - إن ديدات في فهمه للهوية المسلمة يكاد لا يتجاوز ما دون الجواهر من مظاهر شكلية تتمثل في اللحية، واللباس والقلنسوة مقابل الخمار عند النساء، وإن كان يعنى بالجواهر إلا أنه يرى أن ميزة المظاهر تكمن في سرعة اهتداء المسلمين بعضهم إلى بعض دون وسيط، ولعل هذا الفهم الشكلي للهوية عند ديدات والذي يتنوع باختلاف عادات وأساليب حياة الشعوب المسلمة مما يساعدنا على فهم ما كونه ديدات لنفسه من هوية، فأصبح الواحد منا كلّما تخيل ديدات لم يره إلا من خلالها؛ إذ لا ينفك عنها غالباً. وتتحدد تلك الهوية في بياض طاقيته الخفيفة وبياض لحيته المتوسطة في كثافتها، وبياض أقمصته التي يرتديها تحت بذلاته التي يفضلها سوداء في الغالب، إنه ثالوث مظهري ناصع البياض يحدد للعامة هويته الوضاءة، وربما كما أرداها إن صح الافتراض .

3 - من محاسن خطاباته الدّعوية أنّه ينمّي في سامعيه روح الدعوة، والاعتزاز بالإسلام، ويبصرهم بما يمكن أن يعينهم على مزيد فهمه من مصادر أساسية، ومؤلفات قيمة الأفكار زهيدة الأسعار .

4 - يراعى في دعوته الأسلوب المناسب لجمهوره ولهذا السبب يجنح عادة إلى إعادة صياغة الأسئلة التي تطرح عليه على نحو أوضح، إزالة للبس، وإفهامًا للجمهور

بموضوع السؤال بالمستوى الذي يتماشى مع عفويتهم، وبساطة مستواهم .

5 - إن المقارنة الدينية أسلوباً وموضوعات تتسلل إليه دائماً في مختلف مواقفه، لتقتطع لنفسها مساحة قد تتسع أو تضيق من كل لقاء يقدر له الحضور فيه وإن كان خاصاً بالمسلمين دون غيرهم .

6 - من الأمور الجميلة حقاً في هذا اللقاء الدّعوي أنه عقد في المسجد، الأمر الذي يعني بالنسبة لمن لهم شأن في ذلك، أن المسجد يشكل دائرة إعلامية مهمة، فضلاً عن كونه دار عبادة وعلم، وملتقى لأفراد المجتمع الإسلامي شيباً وشباباً، رجالاً ونساءً. ومن سعادة الحظ أنه يتيسر فيه اللقاء بالمسلمين أكثر من غيره في المجتمعات الأجنبية ذات الأقلية المسلمة .

7 - إن متابعة هذا الموقف الدّعوي ولو في ثلثه الأخير تسفر عن ملاحظة هامة مفادها أن ديدات عاش مؤمناً بالحوار مستعداً له، ومشجعاً عليه .

وكان يغلب عليه التفاؤل في حواراته، وبالأخص في هداية الحائرين المسترشدين، ومنطلقه الدّعوي الأول والأخير هو الحوار العام الدائم، وإلا فالجوار والمسالمة بدلاً من الصراع والملاعنة، وإن هذا لمنطق عصري حكيم .

ثالثاً: عرضه لدعوة الإسلام وتعاليمه في البلاط الملكي السويدي على الملك وقساوسة بلاده [1]:

من المواقف الدّعوية الخالدة في حياة ديدات التي كرمه الله بنيل شرفها، مثوله بين يدي ملك السويّد بحضور قساوسة مندوبين عن كل الطوائف المسيحية في تلك البلاد، للإدلاء بدلوه في مناسبة دعا إليها الملك للخروج بإجماع ديني في مناقشة ومدارسة قضية اجتماعية ثارت في البلاد، واحتدم النقاش حولها؛ ألا وهي محاولة تحديد فترة ترمل المرأة بعد وفاة زوجها ؛أي تحديد المدة المناسبة لعدة الوفاة، وقد فرضت القضية نفسها على المجتمع السويدي في أعقاب فقدان الملك لقرينته، وسرعان ما انتقل

(1) ينظر بشأن هذه القصة كتابه : القرآن معجزة المعجزات، ص 104-112 من مصدر سابق ذكره .

الموضوع من دائرته الملكية في قفزة سريعة لمواجهة المجتمع كله في صورة معاكسة، انقلب فيها ميزانه من كفة الرجال ليلقي بثقله على ما يقابلها من كفة النساء، ولهذه القضية الشاغلة في حينها جمع الملك حشداً من رجال الدين المسيحي للنظر فيها، وبتوفيق الله تعالى، ثمّ بفضل السيد موسى بورمان من مسلمي السويد كان لديدات حظ المشاركة في هذا الملتقى الديني، حيث «طلب الأذن من الملك أن يدخل الإسلام أيضًا طرفاً في المناظرة، وبموافقة الملك تشرفت بأن أكون أنا أيضًا طرفاً في الحوار»[1] .

وقد التأم المدعوون في نقاش متدافع، دام قرابة نهار كامل، دون الوصول إلى ما يشفي عليلاً أو يروي غليلاً، والجمهور يهتف ويصفق لكل متحدث رغم تباين وجهات النظر، وردّ بعضهم على البعض الآخر إلى أن جاء دور ديدات في الحديث عند الساعة الخامسة من مساء يومه، فهب مبلغاً خطاب الإسلام، ماسكًا بنسخة من القرآن الكريم في يده وهو يقول: «من الصباح إلى المساء ونحن نلتمس الإجابة عن المدة التي تنتظرها الزوجة بعد وفاة زوجها لكي تتزوج بآخر، ولقد سمعنا ما قاله العهد القديم (التوراة) وما قاله العهد الجديد (الإنجيل) ثم ما قاله العهد الجديد وما قاله العهد القديم، ولكننا لم نحصل على الإجابة بعد؛ لأن حل المشكلة موجود في العهد الأخير»[2] ، يعني به القرآن الكريم، وللمرء أن يتصور مع ديدات كم كان سماع الحضور لمصطلح العهد الأخير لأول مرة في حياتهم مفاجأة مدهشة ومؤثرة، كان شأنها جمع قلوبهم للتركيز على ما يقوله هذا المتحدث الجذاب بإيمانه، وروحه المبدعة. فقرأ عليهم ديدات وهم ينصتون بدقة، وحضور تام الترجمة الإنجليزية لمعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: 234].

وأعقب قراءته لها بعرض مستفيض للحكمة الإلهية في تقرير هذا التربص، وذلك

---

(1) المصدر نفسه، ص 105.

(2) المصدر السابق ص 106.

في حدود الفهم البشري للآية الواردة في هذا الشأن، وقد وفق في ذلك وإن كان لم يتعد ما هو منصوص عليه في كتب التفسير والفقه، ومعلوم لدى الدارسين، وربما عند عامة المسلمين كذلك، ويخلص ديدات من ذلك إلى تحرير هدفه العظيم الذي يرمي إليه في أصل مشاركته في هذا الملتقى، وللتباحث في الموضوع المطروح وهو ما أعلنه على رؤوس الأشهاد مبلغًا لرسالة الإسلام بقوله: «هل فكر محمد وعمل حساباً لكل هذه الأخطار المتشعبة منذ أربعة عشر قرنًا من تلقاء نفسه؟ هراء أنك تعطيه قيمة هائلة فوق طبيعة البشر، لقد أمر أن يُكرّر مراراً وتكراراً أن هذه الحكم القرآنية ليست من صنعه ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 4-5.].

إنها من عند الله الخالق الرحيم وإذا كنت لا تزال تشك في هذه الأدلة، إذا فواجه التحدي . . لقد أوحي إليه [1].

وبعدما أعلن ديدات للحاضرين دعوة الحق، وبين برهانه، لم يحفل بإفادتنا بما توصل إليه من خلال هذا اللقاء الرسمي الهام، وما أسفر عنه من نتائج. والظاهر أن كل همه في المشاركة فيه انحصر في اغتنامه هذه الفرصة السانحة لعرض مصداقية الخطاب القرآني، وإظهار ربانية مصدره، وهو ما يفهم في كل من مداخلته وعرضه للمصحف الشريف تعبيراً عن ضخامة دوره المطلق، ونهائية حلوله في تجاوز ومعالجة الأزمات والمشكلات الإنسانية الكبرى رغم محدودية حجمه نسبياً.

وكأني بديدات، وهو يقصد إعلام الحضور بأن القرآن نبع حضاري متجدد، يواكب تطور الحياة في مختلف مراحلها ويقود حضارتها إلى أرقى مستوياتها، معالجاً مشكلات الإنسان بعمق أطروحاته عن الكون والحياة والإنسان والمجتمع، واهباً الإنسان أمثل العقائد، وأليقها بكرامته الآدمية، موجهًا مسار حياته إلى صراط سعيد مستقيم.

لقد رأى ديدات أن ثمة مساحة واسعة للتقدم برسالة الإسلام إلى المجتمعات

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص 111.

الغربية التي تتعطش إلى دين جامع متوازن يملأ عقلها وقلبها معاً، ويحل مشاكل حياتها، ويفيض بالأمن والرخاء والسعادة عليها وعلى سائر الإنسانية جمعاء، ومن ثم فهي فرصة الدعاة الكبرى للتحرك السريع بهذا الدين العظيم الموصوف في قول من خلق وهو اللطيف الخبير: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30].

لقد كان رحمه الله جاداً في دعوته وهو يحمل للغرب وللعالم أجمع نور الخطاب الإلهي المشرق، عاملاً ما وسعه الجهد على أن يفتح للإسلام مجالاً واسعاً في قلب المدنية الغربية، مبشراً في أرحب آفاق العالم برسالته التي تتمثل فيها خلاصة خلاص الإنسان وضمان سعادته، وفي ضوء هذا الموقف الدّعوي السامي نستخلص ما يلي:

آ - يلاحظ أنه ما يزال للدين في العالم الغربي من دور اجتماعي وتشريعي أحياناً حيث يظهر من حين لآخر للاضطلاع به على تردد واستحياء، وإن التقاليد الغربية ما برحت تفسح للديانة الكنسية مجالاً للمشاورة حتى على المستوى السياسي، وتتيح لها هامشًا من الاعتبار لتوجيه الحياة الاجتماعية في مجتمعاتها، وإن ما يقال عن علمانية تلك الدول فإني أجد أنها ليست مطلقة، وإنما هي علمانية متدينة، على الطريقة الغربية؛ حيث إن صلة تاريخية قوية ما تزال تربط بين السلطتين الزمنية والروحية، ممثلة في المؤسستين السياسية والكنسية .

ب - إن من أبناء العالم الغربي الكثير ممن أسلم بحق وحسن إسلامه - فيما أظن - وهؤلاء يشكلون ظهيراً للدعوة الإسلامية، ودعمًا لإخوانهم المسلمين أينما وجدوا، وطالما أبدى بعضهم نوايا صادقة وجادة في الإسهام الإيجابي لنشر رسالة الإسلام في مجتمعاتهم، ونادى البعض الآخر منهم، من قادة الرأي، ومن لهم كلمة مسموعة ووجهة نظر معبرة بإتاحة الفرصة المكنة لإعلان الخطاب الإسلامي والتعبير عنه، والحوار حول مضمونه، والدفاع عن قضاياه بجانب

الخطابات الأخرى التي يموج بها العالم الغربي .

ج - وفق ديدات - مشكوراً - في هذا الموقف الدّعوي النادر في التأثير على الحاضرين، عندما جذب اهتمامهم باستخدام مصطلح جديد لافت للانتباه وهو العهد الأخير مريداً به القرآن الكريم ؛ الأمر الذي أثار فضولهم، ومن ثم أمعنوا في الإنصات إلى ما قد تهيأ لإلقائه عليهم من حل قرآني للقضية المعضلة التي التفوا حولها دارسين .

وهو بهذا وغيره من عديد مواقفه الدّعوية مُعْتَبرٌ عندي ممن عاش لأداء مهمة جليلة وتبليغ رسالة مقدسة وهي رسالة الإسلام السَّامية، وقد حدد مهمته الدّعوية إزاء معاندة المكابرين، وإنكار المنكرين برؤية قرآنية واضحة صاغها بقوله : «ومهمتنا ببساطة تنحصر في أن نبلغ الرسالة، بصوت عال وواضح، ونترك الباقي لله»[1]، وبفضل ما بذله من جهود دعوية عزيزة كان فيها على مستوى مسؤولية الدعاة وواجبهم نحو دينهم، فقد وفقه الله تعالى من خلال مركزه الدّعوي لإدخال أكثر من ستة آلاف شخص في الإسلام من جنوب أفريقيا وحدها، وذلك منذ أواخر ثمانينات القرن الميلادي المنصرم .

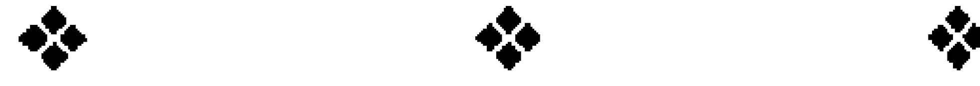
ورغم ضخامة هذا العدد الذي يمثل جهداً جباراً يحظى بتقدير العالم المسلم كله، فإن ديدات بطموحه الخارق يستقله متطلعاً إلى ما هو أجل وأعظم، وبالأخص عندما يقدر نسبة هذا العدد من مجموع سكان جنوب أفريقيا في تلك الفترة التي قال فيها : «وإذا سألتني عن العدد فإنني أقول : إننا أدخلنا أكثر من ستة آلاف في الإسلام، وأقصد بذلك المركز التابع لي، وقد يبدو هذا طيباً لدى البعض، ولكني أقول : ما قيمة ستة آلاف في شعب يتكون من ثلاثين مليونـًا . . فعشرة آلاف أو ستون ألفـًا ليست بالشيء الذي يعتد به»[2] .

والظاهر أنه قدفات ديدات في هذا المقام أنه على جلالة قدره وعظم دوره ليس

(1) المسيح في الإسلام ص 98، مصدر سابق .

(2) هذه حياتي، ص 105، مصدر سابق .

الوحيد الذي يعمل لتحقيق انتصارات الدعوة الإسلامية في جنوب إفريقيا، بل يوجد العديد من الشخصيات الفاعلة، والمؤسسات المعتبرة، التي تعمل جنباً إلى جنب بجهود متكاملة، تصب على الدوام في حقل العمل الإسلامي الواسع. وعليه فإن لجهده الفردي والمؤسسي قدره واعتباره، وهو بكل المقاييس جهد عظيم ومشكور، ولربما أسهمت هذه النظرة لديه في تحميسه للعمل على تكوين الدعاة وتأهيلهم، للقيام بدور عاجل سريع لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاده وفي مختلف أنحاء العالم، وفق منهجه الدّعوي الحواري، على النحو الذي سيتضح فيه بعض من هذا النشاط التكويني في المبحث اللاّحق.



المبحث الثاني

صورة من جهوده
في مجال تكوين الدعاة المحاورين وتأهيلهم

فيما يخص نشاط ديدات في مجال تكوين الدعاة وتأهيلهم فإننا نلاحظ عنده مسلكين متكاملين في تحقيق الغرض الواحد، حيث إنه يجمع في هذا الإطار كلا من التكوين الدائم، والتأهيل الموسمي، ففي مؤسسة السلام التي تقدم الحديث عنها، يوجد معهد مخصص لتربية الدعاة المسلمين وتدريبهم [1]، يخرج منه ديدات أعداداً ممن ينتقيهم وفق ضوابط معينة للالتحاق بالمعهد لغرض التدرب على أساليب دراسة الكتاب المقدس بعقلية نقادة، وكيفية إجراء الحوارات الدينية مع المنصرين صَدّاً لهجماتهم، وطرق إلقاء المحاضرات العامة في هذا المجال لتبصير الجماهير بزيف ودحض العقيدة الكنسية، وتوعيتهم بقيمة عقيدة الإسلام المثلى بين سائر العقائد الدينية والمذاهب الفكرية، وهذا النوع من التكوين يتسم بالثبات والديمومة في مشروع ديدات للعمل الإسلامي، وهو الذي عناه الدكتور عبد الجليل شلبي في ملاحظات زيارته لجنوب أفريقيا، حين قال: «ورأيت في مدرسته (أي ديدات) بعض التلاميذ يقرأون الأناجيل في لغتها الإنجليزية الحديثة، وقراءتهم لها إنما هي لنقدها وبيان ما بها من مضارب ومآخذ أيّاً كانت، وهذا على نحو ما جاء في مناظرته»[2] .

وإلى جانب هذا النشاط الدائم جَدّ ديدات في اعتماد برنامج دورات تأهيلية غير منتظمة، ظهرت حلقتها الأولى بالمركز الدولي للدعوة الإسلامية بمدينة ديربان عام 1988م، واستمرت لحوالي ستين يوماً، اختتمت بحفل تخرج للمشاركين، أسدى إليهم ديدات خلاله نصائح وتوجيهات عملية هامة، ومنح كلاً منهم شهادة مشاركة ملتقطاً معه صورة تذكارية، وقد اختير للالتحاق بهذه الدورة الأولى عشرون دارساً من ست عشرة دولة في كل من أسيا وأفريقيا، وأوربا، وأمريكا، وهذه الدول بالتحديد هي:

«سريلانكا وتايلاند وباكستان وبورما والفلبين وسنغافورة وجزر فيجي، وفلسطين والأردن، ومن نيجيريا والصومال وكينيا وزامبيا، ومن الولايات المتحدة

(1) ينظر: هذه حياتي: حاشية الصفحتين: 25-26، مصدر سابق.

(2) معركة التبشير والإسلام، ص 186، مرجع سابق، والمقصود مناظرته لسواجارت.

الأمريكية وبريطانيا» [1]، والملاحظ أن كل المشاركين ينحدرون من دول ناطقة بالإنجليزية كلغة رسمية أو ثانية، وربما كان ذلك مدبراً لتسهيل الاتصال والتواصل اللغوي فيما بينهم، حيث كانت محاضرات الدورة باللغة الإنجليزية. ومع أهمية هذا الاعتبار إلا أنه يُفوّت فرصة المشاركة على من تشتد حاجة بلادهم إليها من غير الناطقين بالإنجليزية، وهو أمر جدير بالملاحظة والاهتمام به.

وقد انعقدت هذه الدورة برعاية كريمة من بعض أثرياء الجزيرة العربية ممن تحمسوا لهذا الشأن، وسعوا لتأهيل دعاة على شاكلة ديدات ونهجه، وذلك ما أن سمعوا وعاينوا شريط مناظراته للأمريكي سواجارت، «فجزاهم الله خيراً»، إذ إليهم يعود الفضل بعد الله في تبني ديدات لهذا البرنامج لما لقيه منهم من جميل التبرع بنفقات هذه الدورة، وغيرها من أنشطته الدّعوية. وقد علل ديدات منطلق هذه الدورة والدافع إليها فقال: «لقد بدأنا الآن في تدريب الدعاة المسلمين لأن المسلمين في البلاد التي نذهب إليها ونحاضر فيها أعجبتهم على ما يبدو طريقتي في طرح الموضوعات.. ذلك أن شيئًا ما كان مفقوداً في التعامل مع غير المسلمين، ثم عثروا عليه في أسلوبي وطريقتي» [2]. ولعل هذا النص إلى جانب دلالته المقصودة يعكس لنا وعياً نافذاً عند ديدات بجدة أسلوبه وطريقته في التبليغ، بالإضافة إلى التعبير المكنون عن مدى سعادته العامرة جراء إقبال الناس على عمله، وإعجابهم بمنهجه، وثنائهم عليه، وهو المنهج الذي اندفع من أجله البعض لتكوين الدعاة على نمطه فكانت من ثمرات هذا الاندفاع الخير هذه الدورة العالمية الأولى، والتي تركزت موضوعات دراستها على قضايا فرعية متعددة يضمها في عقد شامل موضوع رئيس، قوامه «التحديات التي يواجهها المسلمون في العالم»، ومن جملتها الحملات الموجهة ضد المسلمين من ضروب الغزو الفكري، وبخاصة ضد الأقليات المسلمة، وما يحاك ضدها من مكائد الانسلاخ الثقافي، واستلاب الهوية، وغيرها من الأنشطة الكيدية المدبرة للهيمنة

(1) هذه حياتي، ص 43، مصدر سابق. ويمكن الاطلاع على تفاصيل الدورة من الكتاب نفسه.

(2) هذه حياتي، ص: 45.

عليهم وسائر المسلمين عامة، والتي تعرف المشاركون على أغراضها وأساليبها الماكرة. ولما كانت الغارة التنصيرية على العالم الإسلامي، وكيفية التصدي لها تشكل اهتماماً محورياً في فكر ومنهج ديدات الدّعوي، فقد لزم التركيز عليها في دورة تدريبية تعنى أساساً بتوعية الدعاة بمخاطرها، وتزويدهم بطرق مواجهتها، واكتساب السبل والمناهج الكفيلة بالقضاء عليها، وكشف القناع عن حقيقة مآربها الخبيثة لكل من تستهدفهم، وهم عن ماهيتها غافلون. وقد اقتضى هذا الهدف الجوهري للدورة تخصيص جانب كبير من الاهتمام للتدريبات العملية وتغليب الدراسة التطبيقية، وذلك حتى يعود المشاركون إلى بلادهم وقد استفادوا عملياً من خبرات ديدات العميقة الغور في هذا المجال.

وقد أفصح ديدات عن أهداف الدورة معرباً عن الأمل المعقود على عاتق المشاركين فيها فقال: «إن الذي نرجوه من وراء هذه الدورة أن ندربهم على الدعوة للإسلام بين غير المسلمين، وأن يعودوا إلى بلدانهم، وأن يتدارسوا ما تعلموه هنا مع الآخرين في أوطانهم، وبتبليغ ما تعلموه هنا والتحدث حوله ستزداد معرفتهم، وسيقيمون المراكز الإسلامية الخاصة بهم، فمركزنا هنا يتوسع ويزداد حجم العمل فيه ويتضخم، لذلك نريد لمراكز إسلامية جديدة أن تنشأ في كل مكان إلى الحد الذي يستطيع كل منها أن يعتمد على نفسه، بالطبع سنقدم لهم كل يد عون ممكن، ولكنهم ذاتياً يستطيعون القيام بما نقوم به هنا»[1]، والظاهر أن الطلبات التي تلقوها عقب ما أعلنوه في العديد من الدول عن عزمهم على تنظيم هذه الدورة قد بلغت ما يزيد على أربعمائة طلب مشاركة، فرز منها فقط هؤلاء العشرون ممن أتيحت لهم فرصة المشاركة بناء على مواصفات وخصائص معينة، حددها المشرفون سلفًا، ولم يكن قبول المشاركين خبط عشواء، بل وإنما خضع لمعايير دقيقة وهادفة، وهو ما أوعز إليه ديدات بقوله: «ونحن في المقام الأول نفتش عن نوع معين من البشر ونختار أفضل العقول وأكثر النّاس حماسة»[2].

(1) هذه حياتي، ص 45-46، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه ص 46.

والمعلوم من شروط الاختيار والقبول كون المترشح على خلفية معرفية كافية بالإسلام، حيث إنه لن يتلقى في الدورة شيئًا عن أساسيات الإسلام، وإنما يتم تدريبه على أساليب الدعوة، وفن الحديث إلى الناس، وتحفيظه ما يتيسر من الآيات والنصوص التي لا غنى له عنها في أداء مهمته الدّعوية والحوارية منها خاصة.

ولعل المُعَوّل عليه في هذه الدورات أكثر من غيره هو تدريب المشارك على الحديث الجيد، وتنمية مواهبه الحوارية الكامنة، كيما يكون قادراً على التصرف في فنون القول، وتجاذب أطراف الحوار مع الآخرين بكل أريحية وهدوء، وفي منتهى التأثير والإقناع. وإن تركيز ثقل التدريب على هذا الجانب ناشئ فيما أعتقد عن تصور سائد لدى ديدات وأعوانه بأن الداعية هو الإنسان القادر على تبليغ رسالة الإسلام عن طريق الحديث والحوار، وقد أبان أحد إخوان ديدات وأعوانه وهو عبد الله ديدات عن هذه القناعة المشتركة في ضرورة توفر القدرة الحوارية لدى الإنسان الداعية؛ وذلك في كلمة له ألقاها على المتدربين في الحفل الخاتم لدورتهم، جاء فيها قوله: «إن الداعية هو ذلك الشخص الذي يجيد الحديث لخدمة الهدف، ولا يعني هذا ألا تكتبوا عن الإسلام، استمروا في ذلك، ولكن احرصوا على أن تكونوا دعاة ناطقين باللفظ والحديث، واستخدموا في هذا ما تعلمتموه هنا»[1]، وبما أن نجاح الداعية المحاور يظل متعذراً طالما كان أسيراً للخجل؛ فإن ديدات يدرّب مريديه على التحلي بالحيوية الممكنة، والتخلي عن الحياء الزائد بالشجاعة الأدبية اللازمة، والتي يمكن أن تتحقق للناشئة من الدعاة عن طريق التدرب المكثف على الحديث، وأسلوب الالقاء الجريء بالممارسة المتواصلة ولو أمام المرآة.

ولأهمية العامل اللغوي في النشاط الحواري، والدّعوي عمومًا يوصي ديدات المشاركين ببذل أقصى الجهود لتعلم أكبر عدد ممكن من اللغات، وإن تعذّر ذلك فلا أقل من حفظ النصوص الحوارية في عدد منها، ولا سيما من لغات من يتفاعل معهم الداعية كثيراً، ويتعاطى عمله الحواري معهم، أو في أوساطهم، على أن هذه الدورة

---

(1) المصدر نفسه ص 47.

التي انطلقت فعالياتها لغرض التدريب عادت في ختامها لتركز على النّصح بالتدرب الدائم المتواصل[1].

وبالجملة فقد تعلم المشاركون من الشيخ ديدات ما يشجعهم على التضحية بحياتهم من أجل الدعوة، ويعينهم على مواجهة التحديات الصعبة، ومعالجة المشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وحركة دعوتها.

وكم كانت الدهشة عظيمة أن يطلعهم ديدات بإخلاص نادر على كل ما بجعبته من خبرات وتجارب من خلال هذه الدورة، فكان مسلكه في التدريب يقوم على قوله بلسان الحال للسالك في هذا الطريق الحواري الخطر: تعمق وتوسع في القراءة الناقدة، تدرب، تدرب، تدرب ثم اخلق فرصة سانحة لترتيب لقاء وحوار مُحَضّرٍ. . . طالب محاورك بالبرهان إن هو أدلى برأي أو تقدم بهجوم، ناقشه في ذلك وحاوره محللاً ومفندًا بكل هدوء وسكينة، كي تنجح في إفحامه وإلزامه بالحق مقيمًا الحجة عليه، وليكن كل ذلك في ظل الحوار الموضوعي المتأدب، وفي جو نفسي يسوده التسامح والنظرة المحترمة إلى الطرف الأخر.

كان ديدات حريصاً على توفيق الله له ليجعل للإسلام من هؤلاء المتدربين جنودًا أوفياء ومؤهلين يسهرون على حماية الدعوة إلى الإسلام، ويسهمون سواء في حياته أو من بعده بدور إيجابي مثمر في خدمة قضية الحوار الديني البناء في هذا العالم التائه المتصدع؛ حيث «إن الدعوة إلى الله هي العلاج الوحيد لصلاح العالم ويجب أن يشمر الدعاة عن سواعد الجدّ حتى يتقنوا وسائل الدعوة، ويوصلوا دين الله إلى كل مكان في الوجود»[2]، مكرسين حياتهم من أجله على نهج ديدات الذي أصبحت الدعوة قوام وجوده، ومكمن سعادته، فتشكلت بها هواية حياته ورسالتها.

وبروح متفائلة فإني أعتقد أنه قد نجح في غرس شيء من هذه المعاني العظيمة في

(1) ينظر: المصدر السابق ص: 86.

(2) الدعوة الإسلامية وأصولها ووسائلها، ص 232، مرجع سابق.

نفوس المتدربين، مما جعل بعضهم يفكر جدياً في التفرغ للعمل الإسلامي في بلاده، ويخطط لمواجهة الحملات التنصيرية المتفاقمة، كما يتبين ذلك من تصريحات معظمهم في حفل اختتام الدورة.

وكفى بهذا الشعور النبيل لتأكيد نجاحها في تحقيق رسالتها الهادفة، وإنّ من تمام الإلمام الكامل بهذه الدورة النموذجية الأولى من نوعها في مخطط ديدات الدّعوي تسجيل ما يحمله عنها بعض المشاركين فيها من انطباعات طيبة، وذلك للوقوف على طرف مما يرمون القيام به من مشاريع دعوية فور عودتهم إلى بلادهم، وسيتم ذلك من خلال عينات قارية على النحو الآتي:

1 - **محمد شيخ من باكستان**: بعد تحيته الإسلامية وشكره لذوي الفضل في مشاركته المفيدة، يعبر عن مشروعه الذي سيقدم عليه في القريب العاجل قائلاً: «أنوي أن أكوّن فريقاً للدعوة يتنقل في أنحاء باكستان وبخاصة في المناطق الدّاخلية، فكما تعلمون فإن منطقتي (مولتان) و(سيالكوت) تتعرضان لهجمة تبشيرية مسيحية قوية، وأنوي التوجه إلى هناك مع جماعة لنتحدث إلى الناس هناك ولنحاضر فيهم ولنعرض عليهم الفيديو الخاص بكبار علماء المسلمين، وسنتوجه إلى شمال باكستان حيث يوجد المهاجرون الأفغان، وهناك تنشط اثنتان وسبعون جماعة تبشيرية وسط المسلمين»[1].

إنه لتصور واضح يرمي إلى هدف نبيل، نأمل أن يوفق صاحبه في القدرة على تحقيق كله أو بعضه على الأقل.

2 - **محمد جمال الدين من سيريلانكا**: وهذا الأخير من آسيا يدلي بحقائق مؤلمة عن انتصارات الحركة التنصيرية في شبه القارة الهندية، وهو لذلك يخطط للعمل في الاتجاه المضاد لهذه الحركة، مما دفع به للمشاركة في هذه الدورة التي قال في حفل ختامها: «لقد أتيت كما تعلمون من مؤسسة تذيع ليل نهار برامج تبشيرية موجهة إلى شبه القارة الهندية... موجهة إلى الهند وباكستان وبنجلادش، ولهذه البرامج تأثير هدام

---

(1) هذه حياتي، ص 49، مصدر سابق.

وضار على المسلمين هناك، وتذاع هذه البرامج التبشيرية بكل اللغات الهندية المختلفة، ونتيجة لذلك فقد تحول الكثيرون في الهند وباكستان إلى المسيحية، ولقد بعث المسلمون بكثير من الشكاوى إلى الجهات الإسلامية، لذلك أنوي أن أبدأ في الترتيبات اللازمة لإذاعة برنامج في الراديو يمكن فيما بعد أن يتكفل به راديو سيلان»[1]. ولا شك أن نجاح هذين المشروعين على مستوى القارة الأسيوية سوف يسهم بدور كبير في خدمة الإسلام والمسلمين، وعامة الناس هناك، إسهاماً يتكامل مع غيره من الجهود القارية، ويتعاون مع مثيلاته في سائر القارات كإفريقيا التي ينتدبها كل من :

1 - **خالد بالعلا : من كينيا** : يظهر من تعريفه بنفسه أنه أحد الدعاة الناشطين في بلاده، وله مشاركة واسعة في العديد من الجمعيات والنشاطات الإسلامية، وقد قطع على نفسه وعداً عزيزاً في كلمته التي ألقاها أمام الحفل، مشهداً الحضور عليه بقوله : (وأعد إن شاء الله بتبليغ ما تعلمته هنا إلى الأخوة في جميع أنحاء العالم، فطبيعة عملي تتيح لي ذلك لأني أسافر كثيراً، وإن شاء الله سأترجم كل كتب الشيخ أحمد ديدات إلى «السواحلية»، وسوف أبعث بنسخ منها إلى المركز هنا)[2].

ولعل السنوات التي مرت والتي تفصل بيننا وبين تاريخ هذا الوعد قد تكفلت بتحقيق هذا الحلم، وإنجاز بعض معطياته ملموساً على أرض الواقع .

2 - **عثمان عمر محمود : من الصومال** : لقد كان سعيداً جداً بالمشاركة في هذه الدورة، حيث إنه من الصومال التي ينشط فيها آلاف المنصرين من خلال معسكرات اللاجئين، وفي مختلف مواقع الحياة اليومية، والحال أنه لاوجود يذكر لدعاة محاورين من طراز خريجي مدرسة ديدات، ممن يمتلكون القدرة المعرفية والمنهجية، للتصدي لهذه الجيوش الجرارة من معسكر التنصير. وعما يخص استفادته وأهمية مشاركته بالنسبة لبلاده تحدث قائلاً : «وبالنسبة لي فقد تعلمت الكثير عن المقارنة بين الأديان، وتعلمت توظيف القرآن الكريم والكتاب المقدس في الدعوة وأكاد

---

(1) المصدر نفسه ص 49-50 .

(2) هذه حياتي، ص 51 .

أكون الشخص الوحيد في بلدي الذي يستطيع ذلك، ومن خلال عملي في التدريس فسوف أدرس للطلبة ما تعلمته هنا، وستكون لدي الفرصة والقدرة لدعوة المسيحيين إلى الإسلام»[1].

إنه مشروع رائع وهام من شخص يعي خطورة دوره في بلاده وجسامة مسؤوليته في نقل المعرفة الحوارية فكرًا ومنهجاً .

وعلى الصعيد الأوربي فقد حضر الدورة اثنان من بريطانيا نعرض الآن لبرنامجهما الدّعوي المخطط على أساس ما تلقياها في الدورة من معلومات، وما خرجا بها من خبرات عملية .

1 - **شكيل أحمد حافظ أبو صفوان** : من لندن: بعد تعبيره عن سعادته بنيل شرف المشاركة في هذه الدورة المتميزة وإعلان رغبته في القيام بواجب الإرشاد والدعوة راح يحكي عن أمنيته العملية بعد العودة في الأسطر التي ضمنها قوله: «إنني أطمح في تعرية وكشف الألاعيب المسيحية ضد المسلمين، وفي مساعدة المسلمين حتى لا يقعوا ضحايا الهجمات التبشيرية، ومن خلال عملي بالتدريس سأعطي لتلاميذي جرعة في الديانات المقارنة، وحين أعود إلى لندن سأجمع نفراً من الشباب المسلم لأعلمهم ما حصلته أثناء إقامتي هنا في ديربان»[2].

وأتوقع أن يكون لهذا الشخص تأثير ما مهما يكن حجمه، وذلك طالما هو جاد مخلص لله، ومستعين بما يستخلص من كلامه من وسيلتي التعليم والإعلام، واللتين لهما من التأثير في العالم الغربي ما لا يقارن بغيره .

2 ـ **فاروق يوسف .. من بريطانيا** : بعد استهلاله ببيان أهمية بريطانيا كأحد المراكز الرئيسة للتنصير في العالم، وعما بذله شخصياً في وقت سابق من جهد في جمع المعلومات المتعلقة بنشاط تنصير المسلمين، وإفادة الجهات المعنية بها بما فيها مركز

(1) المصدر نفسه، ص 53.

(2) المصدر نفسه، ص 54.

ديدات الذي كان على تنسيق سابق معه، بما يود القيام به في بريطانيا ملتقى الطلاب الوافدين من جميع أنحاء العالم بتنظيماتهم الدينية الفاعلة، وهو ما عرضه علينا في قوله: «أنوي إنشاء منتديات في المدن المختلفة حيث يأتي الناس ويرتاحون ويتناولون فنجاناً من القهوة، وتكون فرصة للاختلاط بهم والتحدث معهم عن الإسلام، ونحن نقوم حالياً بهذا العمل في الجامعة، ولكننا نريد أن نعمم هذا النشاط في الجامعات البريطانية، ثم في جميع أنحاء العالم»[1].

ونجد هذا النوع من العمل وهو ما يمكن تسميته بالحوار العفوي، ونقاش الصدفة يتناسب مع بيئته، ويمكن أن يؤثر في الكثير ممن يستهويهم هذا اللون من الحوار في أوقات فراغهم، وإلى جانب هؤلاء انتظم في الدورة داعيتان من أمريكا، وقد أفادا منها كالآخرين، فعبر كل منهما عن ارتياحه العميق وما يعتزم القيام به في ظل ما اكتسب في الدورة من معلومات، وأساليب جديدة، وهما:

1ـ **وراث الدين عمر**: بعد إجزائه الشكر وافراً لمن هم أهل لذلك، يحدثنا عما هو مقدم عليه عند عودته إلى بلاده بقوله: «إني أستمر في الدعوة للإسلام، وهو العمل الذي كنت أمارسه قبل حضوري إلى هنا، لقد استفدت بالتأكيد من حضوري إلى هنا . . . لقد حفزني روحياً ومعنوياً حين أعود إلى أمريكا أن أستمر في نشر كلمة الإسلام، والآن لدي رؤية جديدة لإعادة دارسة (الكتاب المقدس) للخروج بدراسات مقارنة جديدة»[2].

والواقع أن أملاً فائقاً يحدوه في تطوير ما تلقاه والإفادة منه في خدمة العمل الإسلامي بأحد أكبر معاقل حركة التنصير العالمية؛ حيث عقد الشيخ ديدات أشهر حواراته وأهمها، وكانت له في أرجاء تلك البلاد جولات دعوية وجهود تاريخية خالدة، مما لا يستبعد أن يفكر في إحيائها هذا الأخ وشريكه الآخر من أمريكا وهو:

---

(1) هذه حياتي، ص 54، المصدر سابق.

(2) هذه حياتي، ص 54-55، مصدر سابق.

2 - **حمزة عبد الملك**: وهو أيضًا ممن لهم سابق عهد بالعمل الإسلامي قبل الالتحاق بالدورة كما يستفاد ذلك من سياق حديثه، وهو يعرض لبرنامج عمله لمرحلة ما بعد الدورة بالقول: «أنوي إن شاء الله حين أعود إلى أمريكا أن أستمر في تقديم هذا العلم وهذا التدريب بهذا الأسلوب، وهو النشاط الذي مارسته خلال السنوات القليلة الماضية، ولدي هناك فصل دراسي يعمل حالياً، وأعتقد أني قادر الآن على الارتقاء بالعمل، وأنوي أيضًا استغلال موجات الأثير المتاحة في نيويورك في العمل الإسلامي ولتكون منبراً لهذا النشاط»[1].

وعما لا يقل أهمية عن هذه المشاريع، والانطباعات السعيدة، عبّر الأخوة الآخرون ممن لا يتسع المقام لعرضهم الواحد تلو الآخر. والحقيقة أنه قد ساد الجميع إحساس عارم بالسعادة، وشعور موحد بقيمة هذه الدورة المفيدة، وأهمية العمل على ضرورة تنمية معلوماتها وفوائدها؛ لاستثمارها في مجالات الدعوة الإسلامية. ومما لا ريب فيه أن هناك مؤسسات قائمة لغرض تأهيل الدعاة، ودورات تدريبية يتوالى عقدها على كافة الأصعدة والمستويات، ولكن هذه الدورة ذات طبيعة مميزة وخاصة خصوصية منهج ديدات الحواري في خدمته للإسلام، فضلاً عن أهميتها الكبرى باعتبارها فرصة تعارف ثمينة لرجال تجمع بينهم المرابطة على ثغور الإسلام، وتأمين الدفاع عنه في خندق واحد، والتفاني في الآن نفسه لرفع رايته بنشر رسالته، وبهذه الدورة التي هي صورة من جهود ديدات الدّعوية، وغيرها من أنشطته الإسلامية المتنوعة يكون صاحبنا قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، حيث إنه «قد أهدى الشيخ ديدات خلاصة تجربته للشباب الواعد من جيل الدعاة الذين يتلقون منه دروس الدعوة، وقد أتوا إليه من مشارق الأرض ومغاربها ليعلمهم فن الدعوة ومواجهة جحافل المبشرين وعتاة التنصير»[2].

ولقد كانت ملامح تشميره عن ساعد الجد في سعيه الإسلامي بادية لهؤلاء

(1) المصدر السابق ص 48-49.

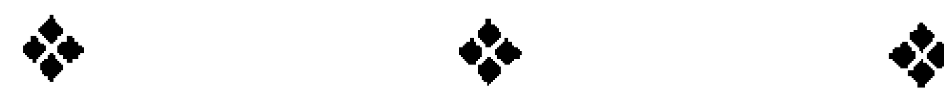
(2) المصدر نفسه، ص 7.

المتدربين الذين ما أسعد ديدات حين ينجح في تكوينهم الجيد لتعقيبهم خلفاء له لأداء أعلى مهمة بالنسبة له في وجوده، تلك التي كرس حياته وضحى براحته وبمتاع دنياه من أجلها، ألا وهي رسالة الحوار والدعوة .

ولعل مما يثير الفضول التعرف على ما عسى أن تسفر عنه هذه الدورة وأخواتها من نتائج، وما هي حدود النجاح التي يتوقع أن يصل إليها هؤلاء المتدربون، ويحرزوها من انتصارات ومكاسب حوارية للدعوة الإسلامية، على الحركات والدعوات المضادة ؛ من تنصيرية وتهويدية وغيرها . وقد ذهب الأستاذ عبد الجليل شلبي باعتباره شاهد عيان على شيء من دور ديدات التكويني إلى التعبير عن قدر من التفاؤل بشأن النجاح المرتقب لمبرزي مدرسته ومنهجه فقال : «إن تلاميذ أحمد ديدات قد يتفوقون على المبشرين في مناظراتهم كما تفوق هو في مناظرته، ولا يأتي هذا التفوق إلا بدرس الكتاب المقدس»[1] .

وعلى الرغم من انعدام من استطاع منهم لحد الآن أن يلفت الأنظار، ويخلق في الرأي العام القناعة بجدارة خلافته للشيخ ديدات إلا أنه ليس من الوارد بالنسبة لي أن ينضب معينه الثر، وتتبخر جهوده الكبيرة، فلابد من ظهور رائد جديد لهذا المنهج سواء ممن أفاد من علمه على نحو مباشر أو غير مباشر؛ من طلاب وباحثين ؛ ممن شغلهم همّ معرفة حياته، ومنهجه، وجهوده، إلى جانب ما قام لديه من جدلية بين الممارسة والتصور فيما يتعلق بالعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر .

وهي ما ستتجه المحاولة إلى استكمال صورتها في المبحث القادم .



(1) مجلة الأزهر ج 8، 895، س 61، عام 1409 = 1989 م مرجع سابق.

المبحث الثالث

تصوُّره العام للعمل الإسلامي
في عالمنا المعاصر

يحسن التنبيه مسبقاً إلى أن ديدات ممن يغلب عليه الانتماء إلى الكفاءات العملية، أكثر مما ينتسب إلى الطاقات الفكرية، فهو من رجال العمل، وقادة الميادين الدّعوية، قبل أن يكون رجل فكر وصاحب مشروع نظري. مما يعني أنه ليس ثمه توازن في الظاهرة الديداتية بين القطب الحركي، وما يناظره من قطب فكري، ويرجع ذلك فيما أفهم إلى تكوينه الأساسي في منطلقه الدّعوي، حيث إنّه لم يحظ بدراسة نظرية من شأنها أن تدرجه في عداد كبار مفكري العمل الإسلامي ومنظريه، وإنما اندفع إليه مستجيباً لعوامل ظرفية ضرورية، تمثلت في سلسلة التحديات التي كانت تنتابه وغيره من المسلمين في تلك البيئة ذات الأغلبية المسيحية، وليس ضمور الجانب الفكري لديه مما يقلل من شأنه إطلاقاً، حيث إنه لم يكن ناشئاً عن تقصير أبداً، وإنما عن غلبة اهتمامه بأولوية العمل وضرورته. وكم من المفكرين المنظرين قصروا عن تحقيق الحد الأدنى من الأمجاد والانتصارات التي وفق ديدات لتسجيلها دفاعاً عن دينه، وتشريفاً لأمته، ومن ثم فإن ما تقدم من عنونة بجدلية الممارسة والفكر في عمل ديدات طرح يكتسب مشروعيته، ومبرر القول به؛ وذلك لاختلال التوازن عنده بين الطرفين العملي والفكري، لصالح الأول، على نحو يشجع على القول بأنه حتى النزر اليسير من الهامش المتاح للفكر والتصور لديه هو أيضًا عملي، باعتباره إما عوناً على العمل، أو دعوة إليه، أو رصداً لمخاطر التنصير في مختلف جوانبه، للتوعية بها، والتعبئة من أجل المقاومة والتطويق. إذن؛ لا مبالغة في القول بأن خطاب ديدات في جانبه الفكري يمثل خطاب تحد واستنفار للمقاومة، ولكن فقط بالحوار وغيره من الأساليب الواعية المتحضرة؛ لأن جوهر الخطاب يتمحور على المزاوجة بين الإنذار بخطر التنصير، والتبشير بمنهج وأساليب الانتصار.

ولكي تجلو حقيقة هذا الخطاب على النحو المقرر فيما اتضح لنا لا مندوحة من استعراض مداخلته في أحد المؤتمرات الدّعوية الهامة ؛حيث تشرف بالمشاركة فيه وكانت في كلمته التي نستعرض أهم أفكارها ما يعكس جانباً كبيراً من خطابه وتصوره للعمل الإسلامي المعاصر، على أن الشك مقطوع في تعدد المؤتمرات الإسلامية التي شارك فيها مما دفع الباحث إلى اعتبار مشاركته تلك أحد مجالات عمله الإسلامي

المتعددة الوجوه، وتكمن علة التركيز على هذا المؤتمر دون غيره لأهميته العالمية من جهة، ودقة تصويره لتصور ديدات من جهة أخرى وذلك تحت العنوان اللاحق :

أولاً: محتوى خطاب ديدات في مؤتمر طرابلس الدّعوي :

تكرمت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بدعوة ديدات مع غيره من مسلمي جنوب أفريقيا لحضور المؤتمر الثالث للدعوة الإسلامية التي انعقدت في طرابلس في الفترة ما بين 11 إلى 16 عام 1396من وفاة ﷺ الموافق 15-20 من الفاتح 1986 م تحت شعار «**أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**» وفي قراءة تحليلية لخطابه الذي أدلى به تحت موضوع « حركة الدعوة الإسلامية ومشاكلها» : من خلال مداخلته في المؤتمر، تنكشف لنا ما شغل به ديدات في هذا المؤتمر من قضايا حرص على التركيز عليها، وذلك للتّنبيه : بأنها من أهم القضايا التي دأب على حملها معه في كل تجمع إسلامي؛ لعرضها على جمهور الحاضرين، وربما أيضًا لإفادة من سيستقصي أثره من بعده بما جرى عليه في المؤتمرات مما يمكن أن نسميه بأدب المؤتمرات عند ديدات .

ويظهر في مستهل متابعة هذا الخطاب، أن ديدات يتمتع بقدرة إقناعية في إيحائه للمستمع أو القارئ بأن من دأبه حين يشارك في المؤتمرات الإنصات العميق، والمتابعة الدقيقة لما يقدمه الآخرون من بحوث، وما تلقى من كلمات، وتقال من مداخلات؛ وذلك لغرض أن يستفيد منها ويبني عليها مناقشاته، ومداخلاته المؤتمرية .

ومن اليسير التوصل إلى هذا الاستنتاج بمجرد الاطلاع على هذا الخطاب، والذي يقول ديدات في مطلعه : «السيد الرئيس، أخوتي، إن الأخ الأمين العام الدكتور محمد أحمد الشريف قد ذكر هذه الآية ثلاث مرات في خطابه الافتتاحي يوم الاثنين، وبدا لي وكأنه يقترح علي أنه عندما آتي إلى هذه المنصة ينبغي أن أتناول هذا الموضوع : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: 120].

ومن هذه الآية الكريمة ينطلق ديدات في مداخلته مسترسلاً بالإفاضة في تناول ما يبدو لي أهم أفكار هذا الخطاب وموضوعاته واردة في النقاط الآتية :

1- النشرات المجانية الهائلة للحملة التنصيرية العاصفة:

من الحديث عن مضمون الآية بشأن ما يكنه اليهود والنصارى للمسلمين من عداء تاريخي قائم دائم، يتطرق ديدات إلى إيراد إحصائيات عن كم بعض المطبوعات التي ينشط المنصرون في نشرها مجاناً، بصورة يتضاءل مقارنة بها كل الجهود الإسلامية مجتمعة في هذا المجال، ومن ذلك قوله: «. . . منشور صدر في أمريكا بعنوان (الحقيقة الواضحة) . . (وكما هو في الغلاف فإنهم ينشرون منه ثمانية ملايين ألف نسخة شهرياً توزع مجاناً وما عليك إلا أن تملأ قسيمة للحصول على نسختك طول حياتك . . .) ولكن جميع الدول الإسلامية مجتمعة مع عائدات النفط التي لديها لا تستطيع إصدار ثمانين ألفاً فقط من مثل هذه المنشورات بينما هذا العمل تقوم به أسرة واحدة تدعى أسرة (أرمسترونج) في أمريكا، عمل شخص واحد فقط»[1]. وعن جهود نشر مذهلة لجماعة تنصيرية مزدوجة الهوية ما بين نصرانية ويهودية، ولا يتجاوز تعدادها في العالم حوالي مليوني شخص في العالم يقول ديدات: «وتوجد في نيجيريا البلد المسلم، أكبر مجموعة (شهود يهوه) بعد مجموعة الولايات المتحدة، حيث تأسست الجماعة قبل مائة عام وهذه المجموعة تنشر مجلة بعنوان (اليقظان) وتوزع تسعة ملايين وأربعمائة ألف نسخة شهرياً بأربع وخمسين لغة ونحن لا نستطيع إصدار مليون نسخة فقط، نفس هذه المجموعة تصدر مجلة أخرى بعنوان (المرقب) وتوزع عشرة ملايين وأربعمائة ألف نسخة بمائة واثنتي لغة»[2].

2 - ترجمة الكتاب المقدس إلى مختلف اللغات العالمية والمحلية:

يردف ديدات بما تقدم الحديث، عما يبذل من جهود كبيرة في مجال ترجمة الكتاب المقدس، وتوزيعه على أوسع نطاق ممكن على وجه البسيطة، وقد لفت أنظار المؤتمرين إلى ذلك بالقول: «وكما تعلمون أن المسيحيين في أفريقيا قد أصدروا الكتاب المقدس بمائة وسبع من اللغات الإفريقية . . . وأصدروا العهد الجديد بمائة وسبع عشر

(1) المصدر السابق 129.

(2) الصفحة ذاتها من نفس المصدر.

لغة، وفي جنوب أفريقيا أصدروا ثمانمائة ألف نسخة من الكتاب المقدس في سنة واحدة وكل ذلك يوزعونه مجاناً، كما أصدروا للأخوة العرب أحد عشر نوعاً من الكتاب المقدس بإحدى عشرة لهجة مختلفة»[1] .

وفيما يتصل بنشاط الطبع، والترجمة والنشر، ينتقل ديدات للتنبيه بلون آخر من نفس القبيل، وهو أخطر من سابقيه ويتمثل في :

3 - إصدار نشرات تنصيرية ذات نفحات إسلامية :

وهي نشرات من نوعين؛ تصدر إما منسوبة افتراء إلى شخصيات يُزْعَم ارتدادها عن الإسلام إلى الصليبية، وإما تصدر موشاة بآيات قرآنية صحيحة، ويرمي كلا النّوعين إلى تضليل البسطاء بتشويه عقيدتهم، والتشويش عليهم. وقد أورد ديدات أمثلة شاهدة على الصنفين قائلاً: «وإليكم منشور آخر، ها هو كتاب بعنوان «الكتاب» وانظروا إلى الخط الجميل ولأول وهلة يبدو كتاباً إسلامياً ولكن عندما تقرأون عن قرب تجدون أن هذا «الكتاب» ما هو إلا إنجيل متى وأي مسلم في البلاد غير العربية ... إذا وجد مثل هذا الكتاب سيلتقطه ويقبله ثم يضعه إلى جانب القرآن، هذا من شدة احترامنا للقرآن فإن كل شيء يشبه هذا وأي شيء مكتوب بالعربية هو القرآن»[2] وبعد أيضاح وجيز لخطورة هذا النوع من الإصدارات للمسلمين من غير العرب، يشفعه بالحديث عن النوع الأخر من الباب نفسه؛ منصوصاً عليه بقوله «وهذا منشور آخر بعنوان (لماذا تحولت إلى المسيحية) تأليف: سلطان محمد بول، فقد كان محمد وأصبح الآن (بول) وعندما تفتحون الكتاب تجدون عبر صفحاته آيات قرآنية وهي آيات قرآنية صحيحة، فماذا ستفعل تحرقها، وترميها؟ لا نحن متعودون على احترام وتقديس القرآن، هذه آيات قرآنية ونضعها إلى جانب القرآن ومنشور آخر: (من الصوفية إلى المسيحية) تأليف مرتد آخر اسمه جون عبد السبحان ... وإذا فتحتم الكتاب تجدون الآيات القرآنية، فماذا ستفعل تقبله وتضعه مع القرآن، وهنا أيضاً كتاب (المسيح للمسلمين) وخمس كتيبات

---

(1) المصدر نفسه، ص 130 .

(2) المصدر السابق، ص 131 .

أخرى بنفس العنوان موجهة للمسلمين، وهذا كتاب بعنوان: (تحدي الإسلام في جنوب أفريقيا) الإسلام يتحدى في جنوب أفريقيا . . »[1].

والملاحظ على ديدات بهذا الصدد، أنه وإن كان محقاً فيما تملكه من تخوف إزاء هذه الجهود التنصيرية الخطرة الضخمة وهو تخوف في محله حقيقة، إلا أنه ليس في المستوى الذي يتصوره، والظاهر أن تقديره للخطورة مبالغ فيه، الأمر الذي أقلق عليه راحة باله وكدر عليه صفو هدوئه واستقراره النفسيين؛ حيث إن المستهدفين بهذه المنشورات بمن فيهم المسلمون، هم في أغلبهم موزعون بين من يعصمه وازعه الديني عن التأثر بما تتضمنه المنشورات من عقائد فاسدة، وبين من يحول تفشي الأمية في مجتمعه، وانشغال الناس بمتابعة هموم الحياة الاجتماعية والاقتصادية دون مجرد الالتفات إلى مثل هذه المنشورات، ناهيكم عن قراءتها والتأثر بها، فالمؤثر الفاعل في الحركة التنصيرية المعاصرة من واقع متابعتي لها وخاصة في أفريقيا، هي الخدمات الثقافية والاجتماعية بمختلف أصنافها بما فيها الطبية والإنمائية وما يتفرع عنها، وليست منشورات ما أقل من يلتفت إليها، أو يحفل بقراءتها.

4 - التحالف الصهيوني الأمريكي ضد الإسلام والمسلمين:

وهو من القضايا التي نالت اهتمام ديدات في خطابه باعتبارها من أكبر المشكلات التي تواجه المسلمين منذ ما يزيد على نصف قرن، والشيخ ديدات حريص على معلوميتنا بأن الصهيونية استطاعت تطويع أمريكا لخدمة مصالحها، وتحقيق أهدافها، وفي هذا التطويع يكمن سرقوة الصهيونية، حيث إن أي صراع ضدها يعني في حقيقته صراعاً ضد أمريكا في المقام الأول، إذ بدونها لا تساوى الصهاينة شيئاً مذكوراً. وبهذه الرؤية الواضحة يصوغ ديدات حلاً بسيطاً لمشكلة تعتبر أكبر مشكلات التاريخ المعاصر، وهو يقول: «إن مشكلتنا في الشرق الأوسط هم اليهود، ولكن اليهود هم لاشيء بدون أمريكا، وكل مرة نخوض حرباً فإننا لا نخوض حرباً في الواقع ضد

---

(1) المصدر نفسه، ص 131.

اليهود ولكن ضد أمريكا فكيف السبيل إلى التعامل مع ذلك الجالوت أمريكا؟ أقول إن الأمر سهل جداً هل تعلمون ما هو السر وراء قوة اليهود؟ إن قوتهم تأتي من المسيحيين ... هؤلاء اليهود قد أعطاهم الله عقلاً تمكنوا بواسطته من غسل أدمغة المسيحيين وجعلوا المسيحيين عبيدًا لهم وأنتم بإمكانكم القيام بنفس العمل إذا كنتم تسعون لخوض معركة فكرية معهم»[1] .

وإنّ ديدات بهذا التحليل يبدو محللاً سياسياً بارعاً يتجاوز مرحلة التدقيق في تشخيص أسباب المشكلات لطرح حلول واقعية ناجعة لها، لا تخرج عن دائرة استخدام الوسائل الفكرية المضادة. وللأسف نجده مسبقاً ينعى على المسلمين عجزهم عن المواجهة حتى بتلك الوسائل غير المكلفة مقارنة بغيرها، وقد ذهب إلى ذلك في الملاحظة اللاحقة.

5 - عجز المسلمين عن المواجهة بسلاح الفكر، ومقارنة الأديان :

يعيب ديدات على المسلمين - وبالأخص المتعلمين والعلماء منهم - ضعفهم وعجزهم عن المواجهة، لجهلهم بمجال المعركة، وأسلحتها القائمة على المقارنة الدينية. الأمر الذي يوحي بضرورة دوره، وأهمية جهاده في معركة الدعوة الإسلامية ضد مناوئيها، كما يستخلص ذلك من قوله : «فكيف يمكنك مواجهة ذلك فالجماهير الإسلامية ليس لديها وسائل المواجهة وحتى المتعلمين منا ليست لديهم القدرة على المواجهة ولا يعرفون شيئًا، صحيح أنني أرجع إلى علمائنا في أمور كثيرة ولكنهم في هذا المجال لا يعرفون شيئًا، والله لا يعرفون شيئًا . فكيف يمكننا أن نحارب أناساً لا نعرف الذي يتحدثون عنه ؟ . . »[2] هذا إذا صح حكم ديدات على متعلمي وعلماء بلاده فليس بالضرورة أن ينطبق على عامة من في هذا العالم الواسع من علماء ومتعلمين إنه تعميم غير مسلم به لخطئه وعدم دقته .

(1) المصدر السابق، ص 133 .

(2) المصدر السابق، ص 133 .

وهو من الأخطاء التي قد تواجه أي دارس حين يتعامل مع شخصيات قد تتحرر أحيانًا عن مراعاة المقاييس العلمية المتعارف عليها من دقة وموضوعية وغيرها .

وربما لظنه بجهل المسلمين عامة لمجال المعركة وأسلحتها ، تكلّف مهمة إفادتهم بها ، وإرشادهم إليها ، وهي تتمثل عنده في :

6 - المقابلة بالمثل، والمواجهة بسلاح المنهج القرآني:

لم يكتف ديدات بعرض المشكلات منتهيًا عند حد ذلك فحسب وإنما تعقبها ببيان الحل المعتمد لديه لكافة تلك التي أتى على ذكرها من مشكلات تنصيرية وصهيونية ، وفي طرحه لهذا الحل يقول : «نحن بدورنا قد اتبعنا أسلوبًا جديدًا وهو أسلوب مواجهة العدو في مواقعه . وهذه الفكرة مأخوذة من القرآن قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : 111] وفي موضع آخر يقول تعميقاً للأيضاح : (وهذا ما نقدمه في هذه المعركة المستمرة مع اليهود ومع النصارى ، فنحن نحارب ضدهم بالفكر وهذا ما يطلبه الله منا ، أن نخوض المعركة الفكرية وهو يعدنا ويقول : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ ﴾ [الفتح : 28]، وأن دينه سيظهر على جميع الأديان كلها . . . سواء كانت اليهودية أو المسيحية أو الهندوسية أو الشيوعية وأي معتقدات أخرى ، فالإسلام سيعلوها جميعاً ويسحقها جميعاً»[1] .

وبما أن ديدات غير موقن بأن باستطاعة كل راغب في هذه المواجهة الفكرية – ممن يجب عليهم – التوصل بجهده الخاص ، وقدراته الشخصية إلى التوظيف الأمثل لهذا المنهج القرآني الحاسم في فعاليته الحوارية ، فقد أخذ على نفسه ضرورة الإعلان للحاضرين بأنه خبير متبحر في مجال مقارنة الأديان ، وهو الميدان الحقيقي للمعركة ضد الأعداء كما يراه ديدات ، وأنه متاح للكل حق الإفادة من أعماله المنشورة ،

---

(1) المصدر نفسه ، ص 132 .

وخبراته الناضجة، وهذا ما منحه ديدات للجميع في هذا المؤتمر من هدية غالية قائلاً: «ولقد دخلت معارك مع اليهود والنصارى فهناك طرق ووسائل لخوض هذه المعارك ولكنكم متكبرون وتعتقدون أنكم متعلمون لا تريدون التعلم على يد أطفال مثلي، أنا خبير في مجال مقارنة الأديان، واستفيدوا باستعمال منشوراتي وأشرطتي وإذا كانت لديكم أيّ أسئلة فسأكون سعيداً للإجابة عليها»(1).

ومن الواضح أن هذه المنحة الغالية وردت خليطة بألفاظ جارحة كان يجمل بديدات عدم استخدامها، وهو في مؤتمر إسلامي يخاطب إخواناً له ممن يشترك معهم في وحدة العقيدة، والقضية الواحدة، ولعل شدة تحمسه لقضية الدعوة الإسلامية، إلى جانب إحساسه القلق بالمخاطر المحدقة بها، هي التي دفعته في هذا المؤتمر إلى تصريحات لم تخل من حرارة التأنيب والغلظة في القول، الأمر الذي لم يسلم فيه من التناقض مع نفسه في بعض ما قاله، حيث إننا إذا استعرضنا ما ذهب إليه في هذا الخطاب نجده يتسم بشيء من التناقض؛ فهو في الوقت الذي يؤكد فيه عجز المسلمين، وجهل متعلميهم بمتطلبات المواجهة في هذه المعركة الفكرية - وهو أمر غير مسلم - به إلا أنه لا يلبث أن يتراجع عن هذا الحكم مقرراً نقيضه، فيما يشبه - تجاوزاً - عملية نسخ طرح لاحق لسابق، وذلك في قوله أخيراً: «...وكل فرد منكم يمكنه القيام بهذه المهمة فلا تحتاجون فيها إلى أحمد ديدات أو أي شخص آخر فكلكم تستطيعون القيام بالعمل ويكون سلاحكم الفكر، وبالفكر تستطيعون دخول المعركة مع اليهود والنصارى والأمريكيين»(2).

وليس من عجب أن يناقض المرء نفسه أحياناً، وتتضارب أفكاره، ولا سيما إذا كان هذا الشخص ممن ينحدر من مجتمع كان إلى عهد قريب - ولا يزال - يرزح تحت ثقافة المتناقضات، ويعيش واقع المفارقات الصارخة. وإلى جانب ما تقدم يطالعنا في هذا الخطاب على وشك من نهايته توجيه ديدات إلى المسلمين كافة رسالة:

---

(1) المصدر نفسه، ص 133.

(2) المصدر نفسه، ص 133.

7 - الدعوة إلى الدعوة إلى الله :

يوصي ديدات في دعوة مفتوحة كل من ضمه المؤتمر إضافة إلى غيرهم من المسلمين بالقيام بواجب تبليغ الدعوة الإسلامية بكل جد وإخلاص، مفيداً بأن هدفه في عبور آلاف الأميال لحضور المؤتمر يتمثل في حمل هذه الرسالة إلى الحاضرين، وإلا فمعظم المؤتمرات التي تقام حتى الآن في تشهير ديدات بها هي عبارة عن لقاءات إصدار مجرد قرارات، بدون عمل جاد ومجد. وبهذه الكلمات نقل ديدات إلى الحاضرين الرسالة التي أتى من أجلها قائلاً: «لم آت عبر آلاف من الأميال لكي أسليكم وإنما أريد أن يكون كل واحد منكم من الآن حاملاً لشعلة الدعوة لتبليغ البشرية كلها رسالة الإسلام، كل فرد منكم يجب أن يقوم بهذه المهمة وما تفعلونه حتى الآن هو إصدار قرارات بدون عمل شيء، ولم يطبق من هذه القرارات شيء، إنه جميل أن نجتمع ونلتقي جميل والحمد لله ولكن يجب علينا أيضاً أن نفعل شيئاً أهم من ذلك»[1].

إنها حقاً لنصيحة طيبة، لكنها تنم عن عدم معرفة كافية لدى ديدات بالجمعية التي تكرمت بتنظيم المؤتمر ودعوته إليه. فالظاهر أنه ليس على أي علم بأنشطة الجمعية بما أنجزته عبر مسيرتها الزاهرة المعطاءة من إنجازات عملاقة متقدمة، وما أسدته للعمل الإسلامي والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من خدمات جليلة مشكورة.

ومع هذا العذر فليس من الغريب أن يلقى ديدات الحكم جزافاً بقياس هذا المؤتمر مع وجود الفارق على ما شارك فيها من عشرات المؤتمرات التي ربما يصدق عليها حكمه السابق.

وربما نتيجة وقوع ديدات في قيد تأثير هذا الحكم المسبق المعمم تشكل موقفه من المسلمين عامة، والعرب منهم بالأخص؛ حيث إنه يقسو في خطاباته للعرب، وهو يطالبهم بمزيد من الاهتمام الجاد بالعمل الإسلامي على نحو لا يسلم من القول بأنه يميل فيها إلى التهجم، والخشونة. ولعلّ في بعض أجزاء خطابه في هذا المؤتمر ما ينهض دليلاً

(1) المصدر نفسه، ص 133.

على ذلك[1] ، بالإضافة إلى ما كان قد وجهه للعرب وهو في مدينة الرياض من نداء أليم ، بأسلوب حار مثير ، يدعوهم فيه إلى المسارعة لنشر الإسلام ، وإعادة الأمجاد التاريخية المفقودة لأمتنا الإسلامية ، وكان مما جاء فيه قوله : «اعلموا أيّها الرجال . . أن الله اختاركم يا عرب . . إنني أوجه حديثي الآن إلى العرب ولأول مرة . . إن الله اختاركم أنتم . . أنتم ولغتكم . . القرآن أنزل بلغتكم . . في البداية حاربتم لإعلاء كلمة الله أما الآن فأنتم تجلسون وترتكنون على ظهوركم . . لاتفعلون شيئًا في نشر الدعوة ، إنها واجبكم أنتم في المقام الأول وليست بواجبي أنا لأنني هندي . . وهي لكم ويلسانكم»[2] . فيما يخص استنفاره للعرب لإعادة ما سلب ، وتحقيق ما طلب ، يقول في نفس المقابلة الصحفية : «إن الله منحكم - يعني العرب - فرصة ثانية ، فرصتكم الأولى نلتموها في أسبانيا وفي الهند وفي كل مكان أينما ذهبت كنت ترى الإسلام ، أمّا الآن فقد ذهبت تلك القوة من أيديكم . . والآن يمنحكم الله فرصة ثانية من خلال ما أسبغ عليكم من اقتصاد قوي ، ونفط ، ونفوذ ومشروعات عمل ، فإذا لم تستثمروا هذه الفرصة فلن تبلغوا الهدف فإن من رحمة الله بكم أن يمنحكم فرصة ثانية»[3] .

وفيما ينتظم في هذا السياق يحدثنا الدكتور عبد الجليل شلبي في زيارته لديدات أنه ناقم على الأزهر لسبب يتصل بدعوى التقصير في الرد على هجوم أعداء الإسلام[4] . ولعل هذا الموقف الاستثنائي الغريب الذي تبناه ديدات تجاه إخواننا العرب والأزهر كذلك ، وأفصح عنه في كل من طرابلس ، والرياض ، وفي جنوب أفريقيا ، هو ما يبرر اعتقادي بقلة مشاركته في المؤتمرات الإسلامية التي عقدت على الساحات العربية ؛ حيث إن مسلكه في استنهاض همم العرب للقيام بواجبهم نحو الإسلام والمسلمين كان يفتقر إلى الحكمة ، ولطف المداراة الأخوية ، مما قد يسبب النفور منه ، والإعراض عن استدعائه في أي عمل إسلامي ، وجل من قال صادقاً :

---

(1) ينظر : المصدر السابق ص ، 139 ، ص 130 .

(2) مجلة الفيصل ع . 135/ 47 ، س 12 ، سبق ذكره .

(3) نفس المصدر والصفحة .

(4) ينظر : معركة التبشير والإسلام ، ص 186 ، مرجع سابق .

﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران: 159]، وإن موقف ديدات من العرب موقف غير متوازن، ورؤيته للقضية بعيدة عندي عن الصحة، وقد وقع في خطأ يقع فيه الكثيرون معه، ممن يضعون في حسبانهم أن الإسلام دين العرب، وأنه يجلب لهم مصلحة مادية محققة على غرار النشاط التنصيري، ومن ثم يقف أصحاب هذا الرأي مكتوفي الأيدي في اعتماد كلي على المساعدات العربية في عملية خدمة العمل الإسلامي دون تحمل المسؤولية الشخصية في كل الإمكانات المتاحة لهم، صحيح أن للعرب فضلاً تاريخيًا، ودوراً عالميًا في نشر رسالة الإسلام، ولكن ذلك لا يعني الاعتماد الكلي عليهم وفي كل شيء، فبإمكانهم أن يقدموا مساعداتهم الفنية، وتغطية الجوانب اللّغوية والعلمية، دون التعويل على المساعدات المادية السائلة والتي أضرّت بالعمل الإسلامي المعاصر فيما أرى أكثر من أي شيء آخر؛ حيث كاد يخلو من كونه خالصاً لوجه الله إلى التلوث بوجه المال، ومصالح الدنيا.

ومما يعزز هذا الاعتقاد السائد لدى البعض بأن الإسلام دين العرب، وهم أصحاب منفعة خاصة في نشره، أن فرص اللقاء النادرة التي تتاح عادة بين المسلمين من عرب وغيرهم، هي في جملتها من حيث السلوكيات غير مشجعة على التقارب، فكثيراً ما أدت إلى مزيد من التباعد بدلاً من التقارب، إذ قلما سلمت من حزازات ومشاحنات بين أطرافها لتثبت نقائض الصور الذهنية المسبقة التي كان يحملها أحد الطرفين عن الآخر في توهمه أن الإسلام دين العرب وهم ألزم الناس به، وأوثق تمسكًا به من غيرهم. وحين يصطدم بغير ذلك أحيانا ويخيب ظنه تراه يرجع القهقرى منقلبًا على عقبيه خاسراً الدنيا والآخرة، وقد نسي قولة أبي بكر الصديق المدوية حين صدع قائلاً: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144]. وإن من المهم إدراك المسلم وغيره

بأن الإسلام وجود مطلق وإن الإنسان أي إنسان بمن فيهم العرب نسبيّ يتفاوت موقفه من هذا المطلق قرباً وبعداً باختلاف الزمان والمكان، والإنسان. وقد تقرر على ما جرى به الاعتقاد عند أهل السنة أنّ الايمان يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصها .

وإن لديدات أسوة حسنة في موقفه من العرب باعتباره من أهم القضايا التي وقف عندها، وهو يتحدث عن الدعوة الإسلامية في عالمنا المعاصر، وتتمثل تلك الأسوة في الأستاذ أبي الحسن الندوي، وهو من أصحاب الشأن العظيم في مجال العلم والدعوة وقد كان يشاطر ديدات الرأي بشأن ما يرجى للعمل الإسلامي من دور عربي كبير غير أنه كان أو فق خطاباً، وأرفق أسلوباً من شيخنا ديدات.

ويتضح ما بين الأسلوبين من فارق في قول النّدوي في محاضرة ألقاها في جامعة الإمارات العربية: «إن هذا هو الفراغ الوحيد الموجود الآن في خارطة العالم الإنساني، ولا يملأ هذا الفراغ إلا المسلم، ولا تملأ هذا الفراغ الأمة العربية الإسلامية . . . لقد كانت رائدة الإنسانية في القرن السابع وما بعده من القرون، ولا تزال رائدة الرسالة الإنسانية في هذا القرن، لو عرفت قيمتها، ولو عرفت منابع قوتها، ولو عرفت ضخامة رسالتها، ولو عرفت عظم مسؤوليتها، فمتى تنهض الأمة العربية الإسلامية وتحمل الرسالة من جديد والنور الوحيد وهو نور الإسلام، وهو النور الذي لا يزال عند العرب في صفحات القرآن وفي صفحات السيرة النبوية»[1] . بهذا الأسلوب اللين الرقيق يلقي النّدوي خطابه، وذلك لعلمه بأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه. ومع تخصيص ديدات العرب بجانب كبير من المسؤولية والعتاب إلا أنه يتجاوزهم في بعض المواقف إلى مؤاخذة المسلمين جميعاً بالتقصير في الدعوة مؤكداً مسؤوليتهم إزاء جهل الآخرين بحقائق الإسلام، كقوله على سبيل المثال: « . . نحن المسلمون مسؤولون إلى حد ما عن هذا الجهل المذهل للمليار ومائتي مليون مسيحي في العالم، إننا لم نفعل أي شيء هام لكي نزيل نسيج العنكبوت المضروب علينا»[2] .

---

(1) السيد عبد الماجد: أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ص 117، ط2/ 1420هـ 1999م، دار ابن كثير، دمشق؛ بيروت.

(2) محمد ﷺ المثال الأسمي، ص 16، مصدر سابق.

ورغم هذه المؤاخذات الشديدة فإن ديدات ممن يحترم ويقدر كافة الجهود التي تبذل لبناء صرح الدعوة الإسلامية في هذا العالم، وإن قلّت، وأصدق شاهد على ذلك قوله: «.. دعني أعبر على نحو ملائم عن احترامي وإعجابي بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة الذي يقوم بطباعة الملايين من النسخ المترجمة لمعاني القرآن الكريم في عديد من اللغات المختلفة»[1].

وبالجملة، يستشف من خلال ما سبق أن خطاب ديدات في المؤتمرات خطاب تفزيع وانتقاد، يتراوح بين قطبي التنصير والتقصير، أي يفزع الحضور بهول التنصير، وينتقد المسلمين على طول التقصير، ويغض النظر عما يمكن أن يسجل على خطابه من ملاحظات كثيرة، فإن مما لا ينكر أنه كان وهو يحضر الملتقيات الإسلامية صاحب قضية عملية، ورجل دعوة ميدانية، وكان يصدر في مداخلاته عن تجربة ثرة، ويعبر عن معاناة مزعجة، ولذا كان من طبيعته الإفصاح عن مراده بلا مواربة، وإنما بكل وضوح وصراحة، والواقع أن الحقيقة لا تؤلم طالما سيقتْ في أسلوب أدبي محترم يترفع عن الطعن والتجريح، ويبعد عن الاستفزاز والاستخفاف. ولعل ما كان يميزه من بالغ الجدية والصرامة في كل مناشط حياته هو الأساس الذي قام عليه ما عرف به من مصارحة الجميع بجميع الأخطار، وتسديد سهام النقد بالتقصير الدّعوي إلى الخاصة والعامة، وإن بعضاً من الصعوبات والعتابات التي يمكن أن يتعرض لها الحضور في المؤتمرات التي يشارك فيها ديدات بدت واضحة من خلال ظاهرتي التقريع والانتقاد اللتين سادتا مداخلته في هذا الملتقى الإسلامي، وأحسب من خلال استعراض أهم الأفكار الواردة في خطاب ديدات في هذا المؤتمر أنه قد تبين إلى حد ما جانب هام مما أسميناه بأدب المؤتمرات عنده، والذي يحتل مساحة واسعة من تصوره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر.

وقد بادرنا سلفاً إلى الإشعار بأن الجانب الفكري في منهج ديدات للحوار والدعوة أقل خصوبة من نظيره العملي، وهو فضلاً عن قلته، وضيق مساحته يتركز على الإخطار بالحملة التنصيرية بما لها من أهداف ووسائل، وبما تتمتع بها من إمكانيات مادية ومعنوية

(1) المصدر نفسه، ص 28.

وما حققته في عملية تنصير المسلمين من نجاحات قليلة لا يستهان بها .

وكل ذلك من أجل أن يهب المسلمون، وينفروا للمواجهة ويكثفوا من جهودهم الدّعوية لتعم العالم بأسره .

ولخطورة هذه الموجة التنصيرية العاتية سنقف عندها بعض الشيء وفقًا لتأملات ديدات، وتبعًا لوقفته الممتدة معها .

ثانياً - حملة تنصير المسلمين كما يراها ديدات :

تشكل حملة تنصير المسلمين تحديًا خطيراً يستهدف عقيدتهم، ومشكلة مركزية في الآن نفسه تواجه حركة الدعوة الإسلامية المعاصرة، فلذا من الطبيعي، بالنسبة لظاهرة تتوافر على قدر بالغ من الخطورة كما هو شأن الحركة التنصيرية أن تستأثر باهتمام ديدات وفائق عنايته، وهو من عاين عن قرب واقع هذه الحركة ولمس الكثير عن حقائقها، بل إنه قد عاش في بيئة أتاحت له معايشة ما تمتاز الحركة التنصيرية به من نشاط هائل، وجدية لا تفتر في العمل على تنصير المسلمين، بمختلف الوسائل والأساليب، ولو بالاستفزاز والتحدي حينما تستعصي عليها مطالبها الحاقدة، وهو الأغلب في مردود جهودها. فيا للحسرة، ويا للخسارة .

وكان يتملك ديدات عجب لا ينقضي حين يتأمل فيما تهدف إليه الإرساليات التنصيرية بجهودها الهائلة، وإمكانياتها الجبارة في ضوء ما آلت إليه أوضاع الكنائس ورعاياها في بلادها وفي العالم أجمع من فساد في السلوكيات، وتنكّب عن جادة القيم النبيلة، الناجم عن تنكرها للمبادئ الإنسانية القويمة، وهو ما تألم له ديدات كثيراً، فلم يسكت في أيّ مناسبة ملائمة عن التعبير عن شيء من ذلك كما جاء في قوله : «وحتى هذه اللحظة لا يستطيع السود والبيض والملوّنون والهنود أن يصلّوا معاً في أغلب الكنائس الهولندية والبروتستانتية في جنوب أفريقيا» (1) .

والواقع أنه لم يكن يخالجه أدنى شك في أن التنصير الغربي مشروع سياسي،

---

(1) الحل الإسلامي للمشكلة العنصرية، ص 44، مصدر سابق .

يكيد لمحاربة الإسلام باستهدافه المسلمين، حيث إنه: «قد درست عدة مؤتمرات كنسيه الأوضاع السائدة في الدول الفقيرة، ووضعت خطة لتنصير المسلمين والعمل على وقف انتشار الإسلام بين غير المسلمين، وقد رصد لذلك ألف مليون دولار وشكلوا مئات الفرق والكتائب من المنصرين تدعمهم أساطيل من السفن والطائرات المحملة بملايين الأطنان من الطعام والدواء والكساء لتنتشر في مناطق المسلمين التي تتوطن فيها الكوارث والأمراض والمجاعات»[1].

ويأتي هذا القول تأكيداً لحقيقة امتداد النوايا والأعمال التنصيرية في مواجهة الإسلام، وتنصير المسلمين، وذلك فيما سبق أن أشار إليه الأستاذ عبد الفتاح مقلد الغنيمي بالقول: «.. هذا بالإضافة إلى بلايين الدولارات التي صرفتها الحركات التنصيرية لهذا الغرض بما فيها فتح المدارس والجامعات والمستشفيات، ودور الأيتام والمدارس المهنية وغيرها من شتى أنواع النشاطات الخيرية والاجتماعية والإنمائية وتخصيص منح دراسية لأبناء العالم الإسلامي لتتولى الكنائس تربيتهم بالإضافة إلى أنه توضع تحت تصرف بابا روما بلايين الدولارات سنوياً للتبشير ومكافحة الإسلام ورعاية شؤون المسيحية»[2]. إن هذه الشهادات الصادقة تقدم مؤشرات مؤكدة لتاريخية العلاقة الوثيقة بين التنصير، ومشاريع الهيمنة الغربية على العالم. وبالأخص على الشعوب المناضلة، ذات النزعة التحررية؛ حيث استغلت النصرانية منذ قرونها الأولى لمآرب تتناقض مع مهمتهما الدينية، بأن «كانت عناية الرومانيين بتنظيم مراكز الدعاية والبعثات لنشر النصرانية غير خافية على أحد، فقد شرعوا منذ سنة 343 ب، م في إقامة مراكز عديدة للتبشير وكانت بلاد نجران من أهمها وقد نجحت في تنصير العرب نجاحاً عظيماً»[3].

وحين تولت أيام الدولة الرومانية، وظهر مشروع الهيمنة الغربية في وجه جديد،

---

(1) محمد إبراهيم: «دور النشاطات الاقتصادية والإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة» ص 104، من أعمال الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب شرق أسيا، مرجع سابق.

(2) الحركات التبشيرية وكيف نواجهها ص 580 من مجلة الوعي الإسلامي، 1564، عام 1379هـ -1977

(3) عبد العزيز الثعالبي: محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان ص 133، ط 1/ 1985، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

عادت التجربة لتكرّر نفسها من خلال واقع التلازم بين الاستعمار والتنصير، الأمر الذي لا إمكانية إلا في ضوئه لفهم ما قاله أحد الباحثين: «. . . ومعلوم أن الجمعيات والإرساليات التنصيرية بمختلف انتماءاتها المذهبية، واجهت بعضها البعض في الساحة الإفريقية، كل في سبيل الدفاع عن مصالح الحكومة الاستعمارية التي تمول نشاطاتها»[1].

وبمتابعة ديدات في أحاديثه، وكتاباته عن التنصير نجده يقدم بيانًا مسهبًا عن مجمل جوانب هذا النشاط، وتقييمه له وما يتحتم على المسلمين القيام به، في التصدي له، والقضاء عليه، وحتى تنتظم رؤيتنا للصورة التي يحرص على تقديمها عنه، يفضل إيراد عروضه عن التنصير والمنصرين في المحاور الآتية :

1 - تكوين أعداد هائلة من المنصرين :

يذهب ديدات إلى أن الجهات التي تقف وراء الحركة التنصيرية، حريصة على نشر أعداد هائلة من جنودها في كل مكان، لإثارة غبار الحرب الدينية في العالم، ومعظم هؤلاء الصليبين الجدد من الأمريكان بنسبة 60٪ منهم، وذلك في الوقت الذي تبدو فيه أمريكا في أمس الحاجة إليهم أكثر من غيرها، طالما أن الهدف المعلن ديني إنساني كما يدعون. وعن الإعداد الكمي السريع لأركان جيوش التنصير في جنوب أفريقيا يقول ديدات: «من السهل التحدث عن الزمالة الدينية والأخوة في الإنسانية، ولكن هناك في جنوب أفريقيا اليوم ألف من الطوائف والملل المختلفة بين البيض، وثلاثة آلاف من السود، وتفرخ كنائس البيض في بلدتي أساقفة سود بمعدل سريع، ولكن في أول 300 سنة من الاحتلال الأوربي لم يتخرج من كنائس البيض أسقف أسود واحد»[2].

وذلك لأن الاستعمار كان مجسداً بالقوة العسكرية، والوجود الفعلي للمستعمر. وبعد أن انسحب شكلياً نتيجة ضغوطات المقاومة راح يفوض الحركة التنصيرية للنيابة عنه في أداء مهمة الوجود المباشر على الأرض تكملة لما يقوم هو به عن بعد من دور

---

(1) أحمد انداك نوح: الاستعمار الغربي وأثره على علائق التواصل بين شمال أفريقيا والسودان الغربي، ج2، ص 558-559، رسالة ماجستير، نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية عام 1421=2001م.

(2) الرسول الأعظم ﷺ، ص 47

استعماري غير مباشر خلف ستار السياسة والاقتصاد، وعن طريق الثقافة والإعلام .

ونظراً لثقل وخطورة المهمة الاستعمارية الملقاة على عاتق الجنود المنصرين، ومدى تعويل المستعمر عليهم في الوصول إلى ما رسمه لهم من أهداف خبيثة، فإنه يحرص على انتقاء العناصر المؤهلة لها، ممن يتوفر فيهم شرطا الكفاءة والإخلاص، فيزودهم بالمزيد من التدريبات ذات المستوى الرفيع، مستفيداً في ذلك من خبرات متراكمة عبر قرون تنصيرية عديدة، كما ورد في قول ديدات؛ «وهؤلاء لديهم خبرة هائلة، وهم متدربون جيداً وهم قد مارسوا التبشير المسيحي خلال ما يزيد عن خمسمائة عام فهم متمرسون على عملهم ويعرفون أهدافهم ويعرفون كيفية تحقيق أهدافهم»[1]، وهذا التدريب التنصيري عام وشامل يغطي كافة المجالات التي تخدم عملية التنصير، وتحقق الأهداف المرجوة من ورائها، وقد تحدث الدكتور محمد عبده يماني عن التكوين الإعلامي للمنصرين فقال: «من أهم ما تعنى به الإذاعات الدينية التبشيرية إعداد الدعاة الذين يستطيعون استخدام الراديو أو التلفزيون أو كليهما بمهارة فائقة وفقًا لظروف كل من المجتمعات المستهدفة»[2]. وعما يتمتع به القوم على ضلالهم من إخلاص نادر في سبيل نشر باطلهم كتب أحد المؤرخين قائلاً: « . . فإن كثيرين من المبشرين في تحملهم لمشاق الحياة في ظروف شديدة البؤس (منها أنه لم يكن لهم إلا إجازة واحدة كل عشر سنوات» كانوا قد بلغوا في نضالهم بساطة رجال الكنيسة في عصورها البطولية الأولى)[3]. وإلى جانب الرجال وقفت المرأة المنصرة من خلال عملها في مجال الصحة، والخدمات الاجتماعية لبذل ما عز من تضحية غالية عكست إلى حد بعيد مقدار إمعانها في نكران الذات.

2 - وسائل التنصير وأساليبه :

يحصي ديدات عدداً من الوسائل والأساليب المتبعة لدى من يسعون لتنصير المسلمين في مختلف مواطنهم، ومن تلك التي أوردها :

---

(1) هذه حياتي : ص 88، مصدر سابق .

(2) أفريقيا لماذا؟ ص 435، مرجع سابق .

(3) تاريخ أفريقيا السوداء - ج2 / 777، مرجع سابق .

أ - **استخدامهم السفن التنصيرية في إندونيسيا**، وهي سفن تتنقل بين موانئ الجزر الإندونيسية، ويعمل أصحابها لجذب الأهالي إلى متنها كلما رست في ميناء جزيرة من جُزُرِها الزائدة على ألفي جزيرة. وقد صور لنا ديدات هذه التجربة التنصيرية الجديدة بقوله: «لديهم سفن توظف في العمل التبشيري . . من هذه السفن: سفينة تدعى (لوجوس) وسفينة أخرى (دولوس)، وهذه السفن تنتقل بين الموانى ويشجعون الناس للصعود إلى ظهر السفينة، والناس بطبيعتها تسرع إلى ذلك . . فهي تجربة جديدة وطريفة، . . ولذلك عندما ترسو السفن، وتفتح الأبواب للزوار يندفع الجميع إلى ظهر السفينة مسلمين وغير مسلمين ليتفرجوا، وهناك تقدم لهم المطبوعات، وتتم عمليات غسيل المخ»[1]. ومن المعلوم فيما أعتقد ما تتمتع به الحركة التنصيرية في هذا البلد المسلم (إندونيسيا) من نشاطات متنوعة وإمكانيات ضخمة، مما يؤكد استهدافَهَا للإسلام، وملاحقتها للمسلمين في عقر ديارهم، والعياذ بالله من شرها ومكرها .

ب - **أسلوب الدق على الأبواب** : والمقصود به: التنصير بيت بيت، كما نشهده في معظم الأقطار الأفريقية وبالأخص في مناطق المسلمين وأحيائهم؛ إذ ينشط المنصرون طوال نهارهم في اختراق حرمة المنازل للتشويش على أهلها ببضاعتهم الغربية الكاسدة في سوقها، ومن خلال هذه الاتصالات الشخصية يقوم المنصرون بالتكريس لعقيدتهم بالحوار، وبتوزيع المطبوعات، ومختلف الوسائل الفكرية الأخرى، وأما في الدول المحصنة في وجه التنصير، والمجتمعات التي يتعذر فيها النفاذ إليها بالوسائل والأساليب المكشوفة المباشرة فيتسلل التنصير إلى اختراقها بإحدى الطرق الآتية، أو أكثر من طريقة .

ج - **الاتصال بالمستهدفين عبر البريد** : ويتم ذلك خفية بالاستعانة بدليل الهواتف، حيث يلتقط المنصرون منه أسماء وعناوين من يودون الاتصال بهم، فيرسلون إليهم خطابات تستدرجهم للتعرف على المزيد من الفكر الصليبي بالإضافة إلى

---

(1) هذه حياتي: ص 90.

تخصيص نسخ مظروفة من الكتاب المقدس، وبعض الأدبيات التنصيرية [1].

د - **ممارسة التنصير عن طريق الخيامين** : وفي توضيحه لهذه الوسيلة يقول: «. . كان بولس يمتهن صناعة الخيام . . كان خياماً، وفي أيامه كان يرحل إلى أماكن هنا وهناك . . وكان الناس يفدون إليه إما لإصلاح خيامهم أو شراء خيام جديدة فيتحدث إليهم مبشراً، بمعنى أنه كان يبشر . . ويبشر من خلال مهنته، لذلك فإن الخيامين في عصرنا هذا هم من الأطباء . . يختفون في مهنة الطب، ويتسترون ويتخفون في مهنة تدريس الرياضيات أو الإنجليزية، وبحجة أنهم سيدرسون لأولادنا اللغة الإنجليزية أو العلوم»[2]، وقد نبه الدكتور الزيادي في دراسة له إلى خطورة هذه الوسيلة التي يجهلها الكثيرون مفيداً بجملة المزايا التي توفرها للمنصرين، والتي صاغ أهمها في النقاط الآتية :

1 - إنها الوسيلة الوحيدة لدخول التنصير إلى المناطق المغلقة كلياً .

2 - إنها الوسيلة المثلى لتجاوز كافة الصعاب القانونية التي قد تفرضها بعض المناطق المغلقة جزئياً .

3 - انعدام التكاليف المادية بتاتاً .

4 - إمكانية استغلال الفكرة بسعة لا مثيل لها انطلاقاً من حجم العمالة التي تحتاج إليها بعض البلدان المقصودة بهذا النوع من العمل التنصيري»[3].

وبهذه الوسيلة الخفية البريئة في ظاهرها يتسلل المنصرون ضمن وسائل أخرى إلى مجتمعات العالم الإسلامي المحصنة. ولعل أكبر ما يكون خطرهم على الشباب الناشئة، وطلبة المؤسسات التعليمية، ممن لا تتوفر لديهم عادة من الوعي بهذه الوسائل الملتوية ما يحميهم عن مخاطر أهدافها، ويمنعهم عن الوقوع في كمينها . .

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 91.

(2) المصدر نفسه، ص 92.

(3) الدكتور محمد فتح الله الزيادي، «التنصير في واقع العالم الإسلامي» ص 60 من جلسات ووثائق لجنة تنسيق العمل الإسلامي المشترك في مجال الدعوة الإسلامية من 18-22-الفاتح عام 1425، طرابلس، الجماهيرية . .

هـ - **الكتابات المعسولة المسمومة** : يرى ديدات أن المنصرين عدلوا في الغالب بحكم خبراتهم وأخذهم بنصائح المستشرقين عن أساليب التهجم على الإسلام ورسوله ﷺ وانصرفوا عن مختلف الممارسات التي تنفر المسلمين منهم، وتجعلهم في مواقف صدامية معهم. فبعد أن خبروا أن تلك الأساليب فاشلة، إذ لم تجد مع المسلمين، أخذوا في كتابة كتب رائعة عن الإسلام مدسوسة بسموم زعافة، قل من ينتبه من القراء إلى النوايا المضمرة في أعماقها وذلك لممارسة التأثير اللاشعوري عليهم، وهو تأثير وإن كان بطيئاً إلا أنه أكيد المفعول ووخيم العواقب؛ حيث تشوش على القارئ، وتعمل على تشتيت بنية فكره وعقيدته لإتاحة فرصة القبول بسهولة بأي فكر أو عقيدة بديلة. ومن الكتب التي تندرج تحت هذا النوع كتاب نداء المئذنة [the coll of the minaret] لمؤلفه: لاكينيت كراج. الذي عمل في القدس بصفته مطراناً. وفي حديث ديدات عن هذا الاتجاه التنصيري الجديد الذي يمثله هذا الكتاب سجل قائلاً: «حينما تبدأ في قراءة الكتاب وتتصفحه ابتداء من الغلاف، لا يمكن أن تتعرف على الكاتب ولا تظن أبداً أن الرجل يمكن أن يكون مسيحياً، وأنا بكل خبرتي والمعلومات التي لدي عن أساليبهم قرأت هذا الكتاب الذي أهداه إليّ أحد أصدقائي، وقرأت أكثر من نصفه وأنا لا أدري إن كان الكاتب مسلماً أو مسيحياً، ولكن بعد ذلك تكشفت الأمور»[1] .

وإذا كان ديدات مع خبرته بفكرهم وإحاطته بخبثهم ودهائهم لا يكاد يهتدي إلى خفي أساليبهم الجديدة، فما بال العامة من المسلمين ممن هم دونه بكثير في هذا المجال؟ .

و - **استدراج العامة بالحوارات الساذجة** : وهو من الأساليب الذكية التي يعتمدها المنصرون في حوارهم مع العامة، وينطلقون فيه من أرضية المشترك مستدرجين من يريدون استغواءه بطرح السؤال تلو الآخر عن إيمانه بالمسيح وبميلاده المعجز، وسائر معجزاته المؤكدة لرسالته، ويتمادى المنصر في حوار يقوم على المقارنة الضمنية بين المسيح عليه السلام، ومحمد ﷺ للوصول أخيراً إلى استنتاجات غير منطقية تفيدُ أفضلية السابق على

---

(1) هذه حياتي، ص 94، مصدر سابق.

اللاحق، وأنه قد صلب فداء للبشرية من الخطيئة الآدمية الموروثة، فيجد العامي نفسه بذلك أمام حرج، وقد انهزم ولم يبق وفقًا لتعبير ديدات إلى أن «يبدأ المسلم في التخبط في الجدل والمناقشة لأنه غير مدرب، والرجل متدرب، ومجند لعمله . .»[1] .

هذا... بينما لو كان المسلم العادي ممن يتمتع بقليل من العلم بالفكر الصليبي وأسلوب الحوار لا نتصر لدينه موقعًا الهزيمة بغاويه .

ز - الابتعاث إلى الخارج : وقاية لأبناء المسلمين من كيد المنصرين يحذر ديدات من مغبة ابتعاثهم إلى العالم الغربي، وهو ما يشبه عنده قذفاً بالأبناء أمام أنياب الأسد دون سابق إنذار ؛ حيث يعمل المنصرون بشوق ولهفة على تسميمهم وتضليلهم، كما تصور ديدات ذلك بقوله : «إن مهمة التبشير واحتواء أبنائكم مهمة سهلة، فأنتم ترسلون أبناءكم إلى الغرب، وهم يستغلونهم هناك ويقيمون لهم حفلات استقبال وتعارف وهم ينتظرونهم بفارغ الصبر، فإذا وقعوا في أيديهم فلن يفلتوا»[2] .

وأعتقد أنه ليس بالضرورة أن يكون الابتعاث إلى الغرب فرصة ممنوحة من المسلمين لتنصير أبنائهم، وإن تعرض البعض لحملات التنصير أثناءه إلا أن من يقع فريسة لها أقل من النادر جداً، وإلى هذا الحد يلاحظ أن ديدات حين يتحدث في هذا المجال لا يرمي إلى عملية حصر شامل لمختلف الوسائل والأساليب التنصيرية الخفية منها والجلية، بقديمها وحديثها، بل يكتفي فقط بعرض نماذج قليلة منها، مما يجعله لا يعير اهتمامًا لذكر العديد منها، ومن ثم يجد الدارس نفسه في حدود ما بين يديه من أعمال ديدات أمام إغفال شبه تام لمختلف الوسائل والأساليب القديمة وغيرها مما تعارف عليها الناس، وباتت غنية عن التعريف بها، أو ربما حتى مطلق الإشارة إليها إلى جانب سكوته عما أورده الدكتور مبارك قسم الله في قوله : « . . وفي مرحلة متأخرة اتخذ التبشير أساليب أكثر التواءً كالعيادات البيطرية والإرشاد الزراعي، وحفر الآبار الارتوازية بل والمساهمة في توطين الرحل ومكافحة التصحر والجفاف والمجاعة، استغل التبشير المسيحي فقر

---

(1) هذه حياتي، ص 97.

(2) المصدر نفسه ص 13.

ومرض وجهل الأهالي في الأماكن المختلفة ومن ثم ركز على تلك المناطق ليكسب ما يستطيع من أتباع تحت وطأة الحاجة وتحت إغراء الوظيفة المنتظرة للطلاب الذين يكملون دراستهم بالمدارس التبشيرية وفقاً لمناهج البلاد المستعمرة . . »[1] .

وبالإضافة إلى هذه فقد أورد الدكتور شوقي أبو خليل ما نعتبره من الوسائل المكملة لسابقتها ، وهي تتراوح ما بين وسائل إعلامية واجتماعية ، وثقافية واقتصادية ، وغيرها من الخدمات الإنسانية في مناطق الحروب والكوارث ، فضلاً عن بناء الكنائس الاستفزازية الفخمة ، وتشجيع الحركات المارقة من الإسلام[2] ، ودعم الشخصيات القلقة المنشقة عن صفوف المسلمين .

3 – **من جهود المنصرين ومشاريعهم** : يشير ديدات لِمَامًا إلى شيء من الجهود التنصيرية الموجهة صوب القارة الأفريقية ، وإلى إندونيسيا وباكستان الإسلاميتين من القارة الأسيوية[3] ، ويظهر عليه عدم الاستيعاب في التناول فضلاً عن قدم الإحصائيات التي ترد في ثنايا معالجاته للموضوع ، سواء من خلال مقالاته الكتابية ، أو عبر مقابلاته المنشورة ، ولعل الدكتور شوقي (أبو خليل) أظهر توفيقًا منه في تصويره للجهود والمشاريع التنصيرية في أفريقيا بقوله : «يعمل في أفريقية 113 ألف منصر ، ويشرفون على تعليم أكثر من خمسة ملايين فتى وفتاة وبلغت المستشفيات والمستوصفات التي أقامتها الإرساليات 1600 مستوصف ومشفى كنسي وارتفعت قيمة الدعم المالي للمنصرين فبلغت 3.5 مليار دولار سنوياً ، ووصل عدد المدارس اللاهوتية لتخريج المنصرين والقساوسة في أفريقية إلى 500 مدرسة لاهوتية ، بالإضافة إلى عشرين ألف معهد كنسي في أنحاء القارة وكلها

(1) الدكتور مبارك قسم الله «التصدي لما يهدد المسلمين من أخطار» ص 61–62 ، من بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث الدعوة الإسلامية ، مرجع سابق .

(2) ينظر : الدكتور شوقي أبو خليل «المستجدات المعاصرة في حركة التنصير» ص 352 ، 353 ع 9 من مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس الجماهيرية .

(3) ينظر : هذه حياتي ص 88–90–91 .

تعد المنصرين إعداداً خاصاً»[1] .

وطبعاً فإن هذه المشاريع الخارقة ، ومثل هذه الميزانيات الضخمة مما يثير الكثير من الشكوك والأسئلة حول مصادر تمويل الحركة التنصيرية المعاصرة .

4 - **تمويل الأنشطة التنصيرية** : يعزى الجانب الأكبر من مصادر تمويل برامج الحركة التنصيرية والقائمين عليها ، إلى مخصصات الدول وتبرعات الأفراد السخية .

وعلى الرغم من قلة نسبة المسيحيين المتدينين في العالم الغربي ، إلا أن هذا القليل يسهم إلى جانب الميزانيات المرصودة من بعض الحكومات بدور تمويلي وافر في دعم المشروع التنصيري ، بالإضافة إلى الجهود الاستثمارية الواسعة التي تعنى بها الهيئات التنصيرية ، وبناء عليه يمكن القول وبكل ثقة بأن النشاط التنصيري مدين بالكرم في استمرارية وجوده وبقائه المتوسع إلى كل من حكومات العالم الغربي ، وتبرعات أثريائه مناصفة ، وذلك على سبيل التجاوز حيث إن للاستثمارات أيضاً دوراً معتبراً في هذا الشأن ، إلى جانب المجمد من رؤوس أموال المسلمين وفوائدها التربوية .

ولعل بروز الجانب المدني في تمويل النشاط التنصيري هو ما أدى بديدات إلى القول : « . . والناس في الغرب ليسوا متدينين عموماً ، فالذي أعلمه أن ثلاثة بالمائة فقط من الناس في بريطانيا يترددون على الكنسية ، وفي أمريكا يتردد أيضاً ثلاثة بالمائة فقط على الكنسية ، ولكن هؤلاء الذين يترددون على الكنيسة يشكلون جبهة قوية جداً وهم يحركون العالم كله . . »[2] . وهو ما يذكر بما مر بنا من قوله في مؤتمر طرابلس بجهود أسرة أمريكية واحدة في طبع ونشر ملايين النسخ شهرياً من كتاب الحقيقة الواضحة . وتأكيداً للرأي نفسه يقول أحد الدكاترة : «لم يبخل الأغنياء النصارى بأموالهم ، بل بذلوا بسخاء للمبشرين ، وكثيراً ما كان هؤلاء يحضرون المؤتمرات التي تقام لتوجيه أعمال التبشير ولا ينتظرون من يطلب منهم ، بل هم الذين يعرضون

(1) مجلة الكلية ع 9/ 347 ، مرجع سابق .

(2) هذه حياتي : ص 88 ، مصدر سابق .

الأموال»[1]. ويذهب القائل نفسه إلى أن أول اجتماع من نوعه عقده المولون من أغنياء أمريكا كان عام 1906م قرروا فيه تشكيل لجنة تنسيقية مع رؤساء كل إرساليات التبشير الأمريكية للتشاور والتعاون على الأمور الآتية:

1 - بذل المجهودات لأجل تربية المبشرين العلمانيين.

2 - البحث وإعمال الفكر لرسم خطة تنصير العالم قاطبة في مدة 35 سنة.

3 - تشكيل لجنة هامة مؤلفة من 60 عضواً أو أكثر بأقرب ما يمكن لكي تتعهد وتزور مراكز إرساليات التبشير وتعمل التقارير عنها»[2].

وإن أثرياء الغرب - فيما أعتقد - مدفوعون إلى هذا الشأن بإثارة ما تبقت في نفوسهم من نزعة دينية خامدة، وهي في طريقها إلى التلاشي، بالإضافة إلى ما توارثوه عن أسلافهم عبر التاريخ من حقد صليبي دفين على الإسلام والمسلمين، إلى جانب ثرائهم التربويّ الفاحش، والذي لا يجدون له مصرفاً آخر يستمتعون به روحياً أكثر من هذا المجال، إذ يعتبرونه توبة وقرباناً وكأنه امتداد لظاهرة صكوك الغفران المعروفة في تاريخ الديانة الصليبية.

وبالنظر إلى هذا الدعم الكبير للنشاط التنصيري من قبل الأفراد والحكومات فإنه ينعدم أي وجه للمقارنة الموضوعية بين العمل الإسلامي، والنشاط التنصيري. وإن أية موازنة بينهما حتى الآن يظل الفارق فيها قائماً لصالح هذا الأخير باعتباره من أجنحة المكر الغربي بالمسلمين، وسائر شعوب العالم، ﴿.. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30] وممن ينتصر لهذا الرأي القائل بانعدام وجه صحيح للمقارنة بين عملنا ونشاطهم الدكتور مبارك قسم الله، وذلك في قوله: «وليس هناك وجه للمقارنة بين الإمكانات المتاحة للتبشير المسيحي والدعوة الإسلامية..

(1) الدكتور: بركات عبد الفتاح دويدار: الحركة الفكرية ضد الإسلام أهدافها ومقاومتها، ص 119، دار النشر العربي للطبع والنشر د.ت، د. م.

(2) المرجع نفسه ص 120.

بالإضافة إلى مستوى التدريب العالي الذي يتمتع بـه المبشر المسيحي والحماية الأدبية والمادية التي يجدها من الكنيسة ومن الدول المسيحية في أركان المعمورة»[1] .

إن هذه الامتيازات التي يتمتـع بهـا النشـاط التنصيري والمنصرون وإن كـانت لـم تحقـق الهـدف النهـائي الكبير المنشـود مـن ورائهـا ، إلا أنـه مـن المحزن الاعتراف بكـل غضاضة بـأن نشـاطه الجـاد قـد أحـرز نجاحـات معتبرة ، وحقـق أهدافًا فرعيـة مرحلية لايستهان بهـا ، إذ هـي مقلقـة لكـل مسـلم يعي وعيـاً صحيحـاً معنـى الانتمـاء إلـى الإسلام ، ويشهد ديدات وغيره ببعـض مـا تحقـق لهـم مـن نتـائج جاءت ثمـاراً طبيعيـة لجهودهم الضخمة وتضحياتهم الغالية النادرة .

5 - **تقييمه لمردود نشاط المنصرين :** مما يعترف به ديدات قلقًا أنهـم استطاعوا استمالة جموع من المسلمين العدديين ، وتنصير قطاعات عريضة من غيرهم ، وتظهـر نجاحـاتهم أكثر في أوسـاط المجتمعـات الإسـلامية المكتظـة بالكثافـة السكانية علـى مسـتوى القارة الأسيوية ، وبالتحديد في كل من الباكستان وبنغلاديـش وإندونيسيا التـي قـال عنها ديدات : «وهم اليوم يتبجحون لأنهم استطاعوا تنصير خمسـة عشر مليونـاً في إندونيسيا ، وأنـه مـع نهايـة القرن سـوف تتحقـق آمـالهم بـأن تكـون إندونيسـيا أمـة مسيحية ، وكل الدلائـل تشير إلـى أنهـم سـوف ينجحـون في غفلـة منـا»[2] ، وليس فحسب وإنما امتد نجاحهم لاحتواء غير المسلمين ، وتحقـق لهـم في هـذا المجـال الكثير من النتائج المأمولة ، وهو ما أفصح عنه ديدات معترفاً بقوله أيضـاً « فالمسيحيون رغم كل المآخذ ضدهم إلا أنهـم ينجحون في تنصير الأفارقـة ، وينجحـون حتـى في تنصـير الهنود الآخرين من الهندوس ، ولماذا ينجح المسيحيون في ذلك؟

والسبب أنهم يتكلمون ، ويتصلون بالناس ، أما المسلمون فلا يتحركـون لإدخـال الآخرين في الإسلام ، لأنهم لا يفتحون أفواههم بكلمة . . »[3] .

(1) من بحوث ومدخلات المؤتمر الثالث للدعوة الإسلامية بطرابلس ، ص 72 ، مرجع سابق .

(2) هذه حياتي : ص 88-89 ، مصدر سابق .

(3) المصدر السابق ، ص 103 .

وعن مأساة المسلمين في أفريقيا مقابل نجاحات المنصرين تشير معطيات التحقيقات الاستطلاعية بأن موجة الحركة التنصيرية تشهد روحاً صاعدة، وتتقدم من نسب متدينة نسبياً إلى ما هي أعلى، حيث «قد ذكرت مجلة تايم الأمريكية في تحقيق لها عن الوضع الديني في أفريقيا في عددها بتاريخ 13مايو 1980م أن عدد المسيحيين في أفريقيا عام 1960م كان حوالي الثلاثين في المائة وقد ارتفع عام 1980 إلى ما يقرب من الخمسين في المائة من جملة السكان . . وتوقعت أنه بنهاية القرن سيكون نصف الثمانمائة مليون أفريقي مسيحياً»(1) .

وبنجاح المنصرين في جذب وتضليل هذه الأفواج التي لا حصر لها من المسلمين وغيرهم، انساق أحد المنصرين في مؤتمر كلورادو التنصيري في نشوة من السعادة إلى التغني بهذه الخطوات الزاحفة على حساب حركة الدعوة الإسلامية في أفريقيا قائلاً: «وقد ظل هذا الخط الإسلامي يتقدم جنوباً بشكل مضطرد منذ القرن السادس الميلادي حتى حوالي عام 1950م حين وقف هذا التقدم تماماً عندما واجَهَهُ تأثير العمل النصراني في كافة أرجاء المنطقة الوسطى والجنوبية في أفريقيا، والنصرانية تحقق الآن نجاحاً في التنصير في وسط أصحاب الديانات التقليدية بصورة أكبر من الإسلام.

أما الإسلام فهو مستمر في الازدياد نتيجة لكثافة النمو السكاني، ولكن النصرانية تزداد بصورة أسرع»(2) .

والغريب المثير للعجب في أمر هؤلاء القوم، والذي يؤكد القول بكمون الدوافع والأهداف الإمبريالية في نشاطهم الساهر المتواصل، أنهم يجدون في التنصير بزعم تعمير ديار الآخرين وخدمتهم إنسانياً في الوقت الذي تتدمر ديارهم وتتهافت في مجتمعاتهم بُنَى الحياة الإنسانية السّوية، وينحسر الفكر الصليبي يوما بعد يوم من واقع حياتهم،

---

(1) البروفسير: عون الشريف قاسم «الدعوة الإسلامية في أفريقيا» ص 29 -30 من مجلة دراسات أفريقية ع 6/ 1410هـ =1990 -الخرطوم.

(2) التنصير خطة الغز والعالم الإسلامي: ص 349.

وحتى في المعاقل الكنسيّةِ نفسها، ناهيكم عن تصورات العامة، وسلوكياتهم.

وفي تصوير الدكتور شوقي لهذا الواقع ما يقضي بالعجب العجاب، وذلك في قوله: «فبعد رفض صحة الأناجيل المتداولة في بريطانيا وحدها تم خلال العشرين سنة الماضية إغلاق 1800 كنيسة إنجليكانية، بعد أن هجرها المصلون، من بينهما 50 كنيسة في لندن وحدها، عرضت للبيع أو للإيجار، وشهدت جدران كنيسة سانت جيمس بحي هورنس في لندن لافتة حمراء تقول للإيجار، جاء ذلك بعد أن تم بيع الكنيسة بسبب النقص الشديد في عدد المصلين وقيام الملاك الجددِ بتحويلها إلى شقق سكنية للإيجار.. والطريف أن هناك بعض الكنائس لم يتقدم لشرائها، فتقرر هدمها»[1].

وعن الفساد الأخلاقي المتفشي حتى في صفوف رجال الدين الصليبي من كبار المؤتمنين عليه، فحدث ولا حرج إذ تفيد الدراسات بأن نسبة 40٪ من القساوسة الكاثوليك الأمريكيين منحرفون انحرافًا أو قع ببعضهم ضحية فاضحة لمصيبة مرض فقدان المناعة «الإيدز».

وقد انكشفت هذه الحقائق عقب نشر مجلة: نيوزويك الأمريكية لدراسة أجراها عالم نفس أمريكي من خلال مقابلة بحثية مع 1500 شخص من الأوساط الكنسية، تبين من خلالها مدى ما تنطوي عليه حياتهم من فساد أخلاقي شائن، وتلوث قاتم لضمائرهم الاجتماعية، الأمر الذي دفع بالصحف الأمريكية إلى إثارة موضوع الانحراف الجنسي لدى القساوسة، مستشهدة بعدة حالات من مصابيهم بالإيدز[2] والعياذ بالله.

هذا والشيخ ديدات في أحاديثه المتكررة عن التنصير غالباً مالا تخلو من الإشارة إلى هذه الجوانب، والتنبيه إلى العلاقة الرابطة بين العقيدة والأخلاق، وأن فساد الاعتقاد في العالم الغربي أدى بدوره إلى فساد في السلوك، وشذوذ عن مواكبة المسار الإنساني الصحيح، وغيرها من الإشارات التي تنصب في هذا الإطار؛ مما يوحي لكل

---

(1) المستجدات المعاصرة في حركة التنصير، ص 350 ع 9، من مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس.

(2) ينظر مجلة النور الكويتية، ص 30، ع 59، 1408=1988م، مرجع سابق.

من تعامل معه فِكْرًا ومنهجاً بأنه يدرك إدراكاً جيداً مدى ما منيت به العقيدة الصليبية من إفلاس، وفشل ذريع في العالم الغربي، بمختلف مجتمعاته. ومن ثم فإنّ تصديرها للآخرين شأن سياسي محض، وليس دينيًا على الإطلاق.

وإنّ أيّ محاولة إيجابية للتصدي لها تقتضي بالضرورة وعيًا كافيًا بحقيقتها وإحاطة تامة بمختلف أبعادها وتجلياتها مع ضرورة التميز بين شكليهما القديم والجديد، على اعتبار أن الطابع الغالب على الصليبية المعاصرة هو أنها طبقاً لديدات «عملية فكرية وذهنية» [1]، وهو ما يعني اتخاذ أسلحة من طبيعتها لمحاربتها باستخدام الوسائل العلمية والإعلامية، واعتماد الأسلوب الحواري الرفيع، دون إغفال لنشاطها في مجال الخدمات الصحية والاجتماعية، ولعله هو المجال الأنشط والأهم بالنسبة لحركتها في كل من أفريقيا بالذات وجنوب شرق أسيا على وجه التحديد؛ حيث يتفشى الجهل، وترتع الظروف الإنسانية القاهرة، والتي يلهب حماس المنصرين إلى استغلالها، وقد لا يستنكفون عن إثارتها وخلقها، حين تملي عليهم مهمتهم التنصيرية ضرورة القيام بأمور من هذا القبيل.

وعلى الرغم من كل ما قيل بشأن الحملة التنصيرية كما يراها ديدات فإن الأمل يحدوه إلى التفاؤل بقدرة المسلمين على مغالبتها والانتصار عليها، وذلك عن طريق العمل الدّعوي الواسع النشط، ومن خلال جهود الكفاءات المخلصة من أبناء الأمة، وهذه النظرة المتفائلة هي القاسم المشترك الذي يجمع بين ديدات، وبين الكثير من المعنيين بشؤون الأمة المسلمة، وحركة دعوتها إلى الإسلام من أمثال الدكتور صابر طعيمة الذي قال متفائلاً: «تجربة غزو أفريقيا عن طريق التنصير لا تزال وحتى الآن بين مد وجزر، ومن الممكن أن تفشل مخططات الاستعمار فيها ضد الإسلام، لو صدقت نيات بعض القادرين من أمة الإسلام وعملت على تزويد بعض العناصر التي تقاوم صامدة عمليات تنصير أفريقيا» [2].

(1) هذه حياتي: ص 88 –مصدر سابق.

(2) الدكتور صابر طعيمة: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص 194، ط1/ 1404هـ =1984–

وذلك من أمثال ديدات الذي يخشون منهجه، ويتحاشون حواره إذ يطوقهم ويحصر انتشار حركتهم وفكرهم في أضيق النطاقات وأتفهها.

وكيف لا، وقد أخذلها العدة، وظل حياته ينادي في المسلمين عامة أن حيوا على الدعوة وأقبلوا على المواجهة الحوارية الواعية. وإن للسائل في هذا المقام أن يسأل ديدات: «لا مانع من القيام بواجب الدعوة، ولكن من فضلكم أفيدونا بخلاصة تصوركم العام عن قيام الخاصة والعامة بواجب الدعوة إلى الإسلام».

ثالثاً: عمومية مسؤولية المسلمين عن الدعوة إلى الإسلام عند ديدات:

ينطلق ديدات في تحمسه الصادق لقضية نشر الإسلام والتصدي للحملة التنصيرية المشنونة على المسلمين من مسلمة مؤداها أن كل قادر من المسلمين مخاطب بواجب القيام بالدعوة، ومكلف بالمشاركة قدر الوسع في العمل على تحقيق قدر الله للدين الإسلامي بالظهور على الأديان، وذلك بالانتشار الأوسع، والانتصار الأتمّ.

ومن هذا الأساس نجده كثيراً ما ينحو في خطاباته إلى توجيه دعوة جفلى إلى كافة المسلمين لاقتسام مائدة الدعوة إلى الإسلام، وهو في هذا السبيل يستحث المسلمين عامة للنهوض بمهمة التبشير برسالة الله الخاتمة[1]، باعتبارها مسؤولية كل ذي وسع في حدود القدر المتاح له، والذي يتعاظم فيه الواجب ويتضخم باتساعه، كما يتقلص ويضأل بقلته وضيقه، وحتى يتم هذا الهدف الذي يدعو إليه ديدات على الوجه المطلوب فإنه لا يهمل استخدام أيّ وسيلة ممكنة لدفع المسلمين إليه، وبث حيوية القيام به في نفوسهم، فلذلك يقترح اللجوء إلى منابر المساجد، وخطب الجمعة لتحقيق هذا الغرض، وذلك «باعتبار أن للمنبر سلطته وتأثيره، ففي خطبة الجمعة عادة تحدد لنا واجباتنا ومسؤولياتنا، ولكن فيما يتعلق بالدعوة لا تسمع شيئًا. لذلك؛ فإني اعتقد أن على المسلمين واجب النهوض بالدعوة، وأن يقدموا

= عالم الكتب، بيروت، لبنان.

(1) ينظر: محمد ﷺ المثال الأسمى، ص 138، مصدر سابق.

الإسلام للآخرين حتى يتحقق في النهاية وعد الله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : 28] حتى يسود الإسلام ويعم العالم كله»[1]. إن ما يتقدم به ديدات من مقترحات من هذا النوع وغيره، تكشف في واقعها عن سمة مميزة لخطاب ديدات، تتمثل في عملية هذا الخطاب الذي يتجاوز به صاحبه غالباً المستوى النظري في طرح القضايا وعرض المشكلات لتقديم الحلول الواقعية والمقترحات العملية الجيدة.

وبما أن الدعوة مما يتعذر - إن لم يكن يستحيل تحقيقها - على الوجه المطلوب ما لم تكن قائمة على وعي وبصيرة، فإن ديدات إسهاماً منه في تجلية هذا الجانب يعمد إلى تنبيه عامة الدعاة بضرورة إعارة اهتمام كاف لعلمية استكشاف ودراسة حاجة المدعوين وتحديد مشكلاتهم، لتبني الوسائل المناسبة والأساليب الملائمة لهم، والتي تختلف باختلاف العوامل الإنسانية والظرفية، ولهذا السبب يضع بين يدي الدعاة تجربته في تشخيصه للحاجة الدينية لمدعويه إلى الإسلام من أفارقة بلاده قائلاً: «ولكي تفهم الإفريقي، فعليك أن تعلم أنه تواق، وأنه يبحث عن مخرج لما يعاني منه، وفي هذا الخصوص فهو في حاجة إلى شيئين لكي تدخله في الدين . . أي دين . . فإنه يحتاج شيئين اثنين: هو يحتاج إلى كتاب أولاً، ويحتاج إلى كنيسة ثانياً»[2]، والمراد بها المعبد من مسجد وغيره. ولعل غلبة المسْلك الحواري عليه والذي يتوسل بالعقل توصلاً إلى الإقناع ما جعله يلفت الانتباه دائماً إلى مخاطبة العقل باعتماد الأساليب العقلانية في العمل الدّعوي، وذلك لحسن ظنه في وعي الناس وثقته في تعاطيهم مع الأفكار والمعتقدات بتدبر وعقلانية، وهو ما يدل عليه ما طرحه كعنوان فصل من فصول أحد كتبه بقوله: «ليس الناس عمياناً، تزودوا الحقيقة تسطع في الآفاق»[3]، وفضلاً عن هذا نكتشف من خلال متابعته أنه يوغل

(1) هذه حياتي، ص 104، مصدر سابق.

(2) المصدر السابق، ص 105 .

(3) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 162، مصدر سابق.

أحيانًا في التركيز الدّعوي على العقلانيين، وذوي الاتجاهات العلمية، آملاً أن يلقوا في عروضه ما يجذبهم إلى الإسلام من مبادئ وحقائق، تنسجم مع ما تستهويهم من رؤى فكرية ثقافية، ولذا نجده يخاطب أصحاب هذه النزعة بقوله: «إن الثورة العلمية التي فجرها الإسلام كانت عملاقة فلم يترك المسلمون ناحية من نواحي العلوم إلا وطرقوها ووصلوا فيها إلى مكانة عالية مرموقة، وفي الحقيقة فإن الإسلام يهدف إلى جعل المجتمع الإسلامي مجتمع فكر وثقافة، ووضع بذور العلم وسائر فنون المعرفة، يعتبر هدفاً رئيسًا للإسلام»[1]، وإن ديدات لا يتوقف عند حد مخاطبة أصحاب هذا الاتجاه رغم أهميتهم إدراكاً منه بأن جمعاً غفيراً من البشر لا ينتمي إلى هذا الصف، ومن ثم فهم بحاجة إلى خطاب يتواءم مع طبيعته اهتماماتهم، كفيل بالتأثير فيهم، وكسبهم لصالح الإسلام. الجانب الذي في مراعاة ديدات له يتلون خطابه بروح اجتماعية ونفحات أخلاقية، وهو يشيد بالدور العظيم الذي مثله الإسلام في صياغة المجتمعات البشرية؛ بتهذيب الأخلاقيات وتصفية نفوس الأفراد[2] من أجل ترقية الحياة الإنسانية إلى المكانة اللائقة بها في درجات الكرامة، وطبقات الحضارة السامقة وهكذا تتنوع الأساليب، وتتعدد الوسائل الدّعوية عند ديدات والتي لا يقصد من عرضها على المسلمين - وهو يحركهم نحو الدعوة - سوى تزويدهم حين ينهضون بكافة ما لا يتم عملهم الدّعوي إلا بها من تجارب حية، وخبرات غنية.

وفيما يخص العمل الإسلامي المضاد للنشاط التنصيري الذي يشغل حيزاً واسعًا من فكر وعمل ديدات فإنه يقترح على المسلمين مواجهته بما لخصه في قوله: «إنني أريد أن أنصح كل مسلم أن يقوم بنشر الإسلام وهذا لا يمكن إلا إذا تمتعنا بالوسائل والأساليب التي يتبعها أعداؤنا»[3].

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص 43، مصدر سابق.

(2) ينظر: المناظرة الحديثة، ص 169-171، مصدر سابق.

(3) «المسلمون والتحديات التي يواجهونها في جنوب أفريقيا»، ص 35 من مجلة الأمة ع 1 - س 1، مصدر سابق.

وعلى هذا النحو يخلص ديدات في تغذية من يراد منهم القيام بالدعوة بقطوف دانية من دوحة تجاربه المباركة، تلك الدوحة الضارية بعروق تجاربها في أعماق نصف قرن من الصحبة الواعية للعمل الإسلامي في مجاله الحواري الدّعوي؛ حيث ظل فيه ديدات يجول في جنبات الدعوة، وفي شتى ميادينها وما أكثرها، فلذا ظهر لنا وهو ينقل إلى عامة المسلمين ثمار خبراته العملية الخاصة مشكاة نور وحق، وجذوة جهاد مخلص. وبمجوعة ما أسداها إليهم من معطيات تجربته، وما ألقاها إليهم من صيحات دعوية صاحية يرى أنه لم يعد ثمة مبرر مقنع للاستمرار في التقاعس عن الواجب، والاسترسال إلى التقصير أو التراخي، إذ قد يؤدي أي من ذلك إلى تبعة أخروية جسيمة في محاسبة إلهية عسيرة، فيما أخطر بها ديدات في قوله: «إن الدعوة هي مسؤولية المسلمين وإن الله سيحاسب المسلمين عن ذلك يوم القيامة، ويواجههم بالسؤال: (هل بلغتم رسالتي؟).. ولا يعقل أن يقولوا لا، لأننا كنا في شغل عن ذلك، بل الواجب أن نعمل ونقول: (لقد حاولنا قدر استطاعتنا وجهدنا)[1]. وكان كلما تأمل واقع الدعوة المعاصر، ومدى ما عليه أغلبية المسلمين من قصور وتقصير في هذا الشأن، استشاط نشاطًا واندفع همة لتعبئة هذا الفراغ الهائل في رقعة الدعوة الإسلامية ولاسيما حين يقارنها بما يواجهها من نشاط تنصيري حام محموم بعدائه للإسلام والمسلمين، وبذلك ينساق إلى إبلاغ المسلمين جميعاً بأن حياته فداء للدعوة، وأنه متفرغ بالدوام للسعي في كل ما من شأنه أن يسهم في نشر الإسلام، وينشط إيقاعات حركة الدعوة الإسلامية في هذا العالم، فبهذا صدع بقوله معلناً (نحن على استعداد أن نساعد المسلمين في العالم في نشر الإسلام، وهذا هو اختصاصنا وعملنا ونحن نرغب أن نشارك في هذا المسلمين في العالم أجمع)[2]، لأنه وأعوانه اكتشفوا في العمل الدّعوي سر وجودهم، ولمسوا فيه كرامتهم، وأن الله حين وفقهم للعمل في هذا المجال أراد تكريمهم، وإسباغ نعمه وفضاله عليهم».

---

(1) هذه حياتي، ص 104، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه، ص 46.

وقد كان ديدات شاكراً الله على هذا وغيره من آلائه، سعيداً أيما سعادة بتقلده وسام الدعوة السامي، باختيار وتوفيق الله تعالى، ذلك الوسام الإلهي الخالد والذي لا يقارن بغيره من الأوسمة البشرية الفانية، وكأن ديدات يباهي غيره من المسلمين لشحْذ هممهم حين يعبر عن سعادته بهذه المهمة التي وفقه الله لها قائلاً: «إنني أحس أن الله قد كرمني بالتصدي لمهمة كهذه وهي خدمة دين الله.. لقد كنت أستطيع تحقيق الثروة في مشوار حياتي.. لكنني آثرت طريق الدعوة إلى الإسلام»[1]. إن ملامح السعادة والاعتزاز برسالته كانت بادية على محياه بوضوح طوال مراحل حياته مع العمل الإسلامي والذي اعتبره مكرمة حباه الله بها، وكانت شخصيته الوقورة الحازمة تعكس القدر الكبير من عظمة الدعوة الإسلامية وهيبتها، وهو في دعوته إلى الدعوة أمين في مصارحة المسلمين من غير مفاجأة بأن المهمة شاقة وعسيرة، وأن حمل رسالة القول الثقيل يقتضي استعداداً دائماً لخوض حلبات ملاكمات ساخنة، وأن المسيرة كلها متاعب ومعاناة، وهي أبعد من أن تكون مفروشة بالورود والرياحين كما قد يتوهم البعض. وفضلاً عن عظم التحديات وبالغ المشقة فهي غير مضمونة النتائج؛ إذ لا يملك الداعية شيئاً من تلك، فهي موكولة إلى الله تعالى الفعال لما يريده، الهادي إلى سواء السبيل، وإن دور الداعية محدود بحدود التبليغ الأفضل الوافي، والباقي متروك للقيوم الذي يهدي من يشاء عالم الغيب والشهادة جل جلاله، وعلى الرغم من هذه القناعة المعزية للدعاة فإن ديدات كان ممن يغلب عليه التفاؤل في أمر الدعوة وظهور الإسلام في العالم وفق ما يقرره القرآن الكريم وكأنه بتعبيره المتكرر عن هذا التفاؤل يرمي إلى تشجيع المسلمين بضرورة وسرعة المشاركة في نيل الشرف قبل فوات الأوان.

وهو المفهوم عندنا من أقواله بما فيها قوله: «تتنبأ الآية بأن الإسلام سيكون الأكثر سيادة على جميع الأديان، إن انتصارات تعاليمه وعقائده بدأت بالفعل وهو الآن بدأ يتحكم في الفكر والتعاليم والعقائد الدينية لمدارس الفكر المختلفة في العالم

(1) مجلة الفيصل ع 135، ص 46، مصدر سابق.

ليس باسم الإسلام ولكن باسم التحسين والإصلاح الديني ، فإن الطوائف الدينية المختلفة بدأت تتطعم بسرعة بتعاليم وعقائد الإسلام . . »[1] .

وبهذه النظرة المتفائلة لمستقبل الدعوة ومصير الإسلام ظل الأمل يحدوه دومًا لتحقيق فتوحات جديدة لحركة انتشار الإسلام في مختلف أرجاء هذا العالم ، الذي طالما استمع إليه ديدات وشاهده ، وهو يئنّ بنبرة فيها الكثير من الهموم والقلق ، مما أوقد حماسهُ وغيره من الدعاة المخلصين لإسعافه بالحل الحضاري الإسلامي الحاسم ، ولكنه في سبيله إلى ذلك جوبه بتحديات جمة وقوبل أحيانًا باستفزازات محبطة ، وأخرى بتهديدات مفزعة بالإضرار والقتل ومع ذلك فقد ظل صابراً ، ملتزماً الصمود والمثابرة ، على خط سيره الدّعوي غير خجل ولا وجل ؛ حيث رضي عن طيب خاطر بالتضحية بالنفس مقابل تحقيق ما كان يحمله في جعبته من آمال دعوية عريضة لإنسانية القرن العشرين القلقة الحائرة . وفي ضوء تلك الآمال والطموحات الدّعوية الكبيرة كان ينظر إلى عالمه زماناً ومكانًا برؤية متنورة ، ملؤها التضحية والعطاء السخي بلا حدود ، وذلك منذ أن صقل الإسلام شخصيته ، وطور وعيه بذاته ، معمقاً إيمانه برسالته .

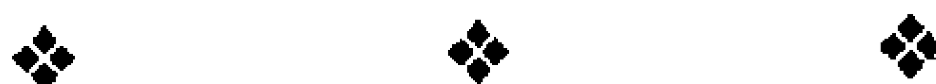
ومن هذا المنطلق فإن تحميل ديدات كافة القادرين من المسلمين تبعة الدعوة إلى الله ، وإسهامه في إمدادهم بالزاد اللازم للسير الناجح الآمن في مسالكها الطويلة الشاقة هو أمر يعبر عن نفسه ضمن أهم القضايا الكلية الكبرى في فكر ديدات وفي ممارسته كذلك ، وإن كان هذا الفكر لا يرتقي في خصوبته إلى مستوى مقارنته بنماء الممارسة ووفرتها ، ومن ثم فإن القول بجدلية الممارسة والفكر في ظاهرته الدّعوية ، يظل – لحد الآن – طرحاً قائماً على جانب كبير من الصحة والاعتبار .

ولعل من الأنسب في هذا المقام الوقوف في الفصل اللاحق على جانب من جهوده في الاستعانة باستخدام مختلف وسائل الإعلام لخدمة مضمون خطابه

---

(1) الرسول الأعظم محمد ﷺ، ص 96 ، مصدر سابق .

الإسلامي في الحوار والدعوة مما قصد به - فيما أرى - الإيحاء للمسلمين بعد أن دعاهم إلى الدعوة بأنه على مستواه الخاص وفي نطاق محدود، لن يقصر في بذل ما وسعه الجهد أداءه من الواجب العام، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها والباقي لله وإليه، وهو خير ثوابًا وخير عقبًا .



الفصل الخامس

توظيفه مختلف وسائل الإعلام
لخدمة قضية الحوار والدعوة

المبحث الأول : الإعلام عند ديدات فكرًا وتوظيفاً

المبحث الثاني : نماذج من كتاباته في موضوعات الأديان المقارنة :

المسيح في الإسلام مسألة الصلب عتاد الجهاد

المبحث الثالث : من كتاباته الدّعوية في موضوعات إسلامية :

القرآن معجزة المعجزات الرسول الأعظم ﷺ

المبحث الرابع : من أبرز محاوراته العالمية في أمريكا – السويد – وبريطانيا .

المبحث الأول

الإعلام عند ديدات فكراً وتوظيفاً

إنّ اهتمام ديدات بتوظيف الجانب الإعلامي ووسائله المتعددة، الناجم عن ثاقب وعيه بأهميته ومدى خطورة دوره هو جزء من الاهتمام العالمي الواسع بالجهاز الإعلامي، بمختلف وسائله وأساليبه، حيث إن ثورة الاتصال الجماهيري التي شهدها عالم القرن العشرين كانت ذات دور كبير ومؤثر في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، اكتسبت الوسائل الإعلامية في ظلها اهتماماً خاصاً، الأمر الذي أغرى العلم التجريبي في تطبيقاته الصناعية إلى المسارعة في ملاحقة الإنسان كل يوم بنوع جديد منها، تعمل على جذبه، والتأثير عليه أينما كان دون أن تقف حواجز الزمان والمكان سدًّا في سبيلها لأداء الغاية المناطة بها. وبناء عليه؛ فإن ثمة فضلاً عظيمًا في دور الإعلام المعاصر ووسائله يرجع إلى التقدم العلمي الذي حققه الإنسان خلال القرنين الأخيرين، حيث إنه «قد أفرز التقدم العلمي كثيراً من وسائل الإعلام وقد تطورت آلية هذه الوسائل حتى أصبحت من أفضل الطرق وأيسرها للوصول إلى عقلية الجماهير والتأثير فيها، وأضحى السّواد الأعظم من الجمهور يعتمد عليها في تلقيه لكثير من معارفه وعلومه، ولذلك فقد عمد أصحاب الدعوات المختلفة إلى استخدام وسائل الإعلام الحديثة بمختلف الطرق والأساليب من أجل الوصول إلى أهدافهم»[1]

ولعظم ما تمارسه الوسائل الإعلامية من تأثير بيّن على الجماهير المعاصرة أكد علماء الاجتماع بأن الإعلام من أمضى الأسلحة الفكرية، وأقواها في التأثير على عقول الناس إيجابًا وسلبًا، وذلك بقدرته على كشف الحقائق وتزييفها لتوجيه أغلبية الناس على الوجهة التي يرتضيها المصدر الإعلامي[2].

والظاهر أن هذا التأثير يتم أحيانًا بطريقة عفوية تلقائية لمجرد تحقق صدور الفكرة أو الرسالة من أجهزة الإعلام دون تمحيص أو تبين، وبالأخص بالنسبة لمن من الناس

---

(1) عبد الله رمزي قناديلو: وسائل الإعلام الحديثة وأثرها في حركة الدعوة الإسلامية، ص ج، هي رسالة علمية نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية عام 1994م لنيل درجة الماجستير.

(2) ينظر: الدكتورة عوشة محمد حقيق، الرأي العام بين الدعاية والإعلام، ص 154 من منشورات الجامعة المفتوحة لعام 1994 م طرابلس، ليبيا، د.ر.و.د.د.

لا يتمتعون بحظ معتبر من العلم، والوعي. وهم من يعنيهم الدكتور يماني بقوله: «فقد أصبح الناس يصدقون ما يقال وما ينشر في أجهزة الإعلام، ويأخذونه على أنه قضية مسلم بها، فكيف إذا كان جهداً منظماً، وإعلاماً موجهاً ؟؟»[1] كما هو شأن الإعلام الغربي في بعديه الاستعماري والتنصيري، وذلك في نشاطه المتمثل في التدفق الإعلامي الهائل كما وكيفاً تجاه المسلمين بالأخص؛ لغزوهم ثقافياً، وتنصيرهم دينياً، وهو ما يفسر لنا قضية العدد الكبير من الإذاعات التنصيرية والتي أفرد لها الدكتور: كرم شلبي مؤلفاً خاصاً بعنوان «الإذاعات التنصيرية» تناولها بإفاضة كاشفاً عن حقيقتها.

وبجوار الإذاعات تستغل كافة الوسائل الأخرى من نوعها لمحاربة الإسلام والمسلمين، حيث «تستخدم الحركةُ التنصيرية كل الأسلحة الإعلامية المتوفرة لها لمقاومة العقيدة الإسلامية، ونشر أفكارها، وخاصة بين الشبان المثقفين»[2].

وليس ما ورد في هذا النص من استخدامهم لمختلف الأسلحة الإعلامية تقولاً عليهم، بل وإنما هو مما يقرون به، ويتواصون بمضاعفة التركيز في الاستعانة به لتنصير المسلمين. ولعل أصدق دليل على ذلك ما أورده أحد مؤتمري كلورادو في تحديده للمطبوعات والوسائل الإعلامية الموجهة لتنصير المسلمين بقوله: « . . ولتنفيذ كل ذلك تشكل المطبوعات ووسائل الإعلام المناسبة ضرورة قصوى، فإننا نعتبر أن المطبوعات ووسائل الإعلام تشمل الكراسات الدينية والصحف، والرسوم الكرتونية المتحركة والكتيبات والكتب والمجلات، ودورات المراسلة، والنصوص الإذاعية، والتسجيلات والمسرحيات، ومواد القراءة والكتابة، وترجمات الكتاب المقدس، والصور والملصقات وأي مواد إضافية أخرى»[3].

(1) أفريقيا لماذا؟ ص 47، مرجع سابق.

(2) الدكتور: محمد علي محمد شكري: «الثقافة الإسلامية والإعلام الإسلامي ودورهما في مواجهة التنصير» 69-70 / ن الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية في جنوب شرق آسيا، مرجع سابق.

(3) ريمود جريس «الوضع الحالي للمطبوعات ووسائل الإعلام الموجهة لتنصير المسلمين»، ص 519، من كتاب التنصير خطة -لغزو العالم الإسلامي، مرجع سابق.

هـذا . . . وإن الأدهى والأمرّ حقّـًا أن حركـة الدعـوة الإسـلامية تفتقـر إلـى إمكانيات إعلامية مماثلة، مما لها القدرة من جانب على مواجهة الحملات الإعلامية التي تشن على المسلمين ضمن وسائل تنصيرية أخرى، وتحقيق السّبق الإعلامي من جانب آخر.

وذلك في تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة، قبل تعرضهم لتشويش الإعلام التنصيري في مختلف تجلياته، إذ يعتقد ديدات وغيره أن من العبث القول بأن الحق يظهر وحده دون جهد إعلامي أو دعوة شارحة مفسرة، لذلك كان للإعلام الإسلامي ضرورة حتمية تمثل جانباً هاماً من جوانب الدعوة الإسلامية حتى يكون الكافر بعد ذلك قد كفر عن بينة، وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15].

ولهذا السبب يدعو ديدات إلى ضرورة تكثيف العمل الإعلامي لنشر الدعوة الإسلامية في كل مكان قائلاً: «إن الإعلام يمثل ركيزة أساسية للتعريف بالدين الإسلامي وحضارته ومبادئه، وأطالب بضرورة الإنفاق في مجال خدمة الدعوة الإسلامية أو شراء محطات تلفزيونية لبث البرامج عبر الأقمار الصناعية لنشر مبادئ الإسلام، مع تكثيف الجهود لنشر الدعوة في أفريقيا وأمريكا وجميع دول آسيا إلى جانب مساعدة الأقليات الإسلامية في العالم»[1]. وفي ضوء هذه الدعوة يستقر العلم بأن الإعلام عند ديدات يمثل أداة هامة من أدوات الدعوة، ووسيلة متميزة بسرعة نقلها وفاعلية تأثيرها بالحق الإسلامي في الطرف المستقبل، وخاصة حين يكون الإرسال الإعلامي مبنياً على أسس علمية وفنية معتمداً على المناقشات العلمية والحوارات الناضجة، والأساليب الإقناعية الرفيعة. وإذا أضيفت إلى ما سبق مراعاة العمل الإعلامي لما هو شريف من حاجة الناس، وذو قيمة إنسانية عندهم، فإنه يكون حينئذ أرجى للقبول وأكثر ترشيحاً من غيره لجذبهم والتأثير فيهم. وبالنظر إلى حجم وحدة الهجوم الإعلامي التنصيري على

---

(1) «أنباء وآراء» ص من مجلة الأزهر ج 7، س 61، 1409هـ= 1989م.

المسلمين فإن ديدات يسعى للرد بالمثل من منطلق تقييمه للظاهرة بأنها معركة حامية وجادة، يخوضها ديدات حامداً الله على توفيقه له بتسليح الآخرين، من خلال توزيعه عليهم ملايين الأسلحة الخاصة بهذه المعركة الفكرية، والتي تتمثل في كتبه وأشرطته من حوارات ومحاضرات، وصفها ديدات بقوله: «وهذه هي أحجاري: هذا الكتيب وهذا الشريط» . . وحتى إن لم تكن تقوم بأي عمل إلا أنك عند سماعك وقراءتك ما قدم فإن روحك المعنوية ترتفع أكثر . . وتتعزز وتقوى[1].

وهو في هذه المعركة البعيدة عن التكافؤ بين طرفيها يدرك تماماً مختلف المنافذ التي يمكن أن يباغت منها العدو، أو يؤلب من خلالها الآخرين على خصمه الضعيف، ولو أدى إلى مالا يستنكف عنه في الغالب من تعتيم إعلامي لمزايا الآخر، وتقييم جبان لصورته، مع تشويه كاذب لسمعته. ولكن على الرغم من إدراكه البصير بمختلف الأساليب الحقيرة التي يلجأ إليها العدو في معركة الفكر والعقيدة إلا أنه لا يضعف أمامها، ولا ييأس، وإنما يشتد بها في المقاومة؛ إذ يراها فرصة إلهية سانحة تمنح للمسلمين لغرض تهيئة الذات في المجال الإعلامي، ومن أجل الدفاع عن النفس، وملاحقة العدو في عقر داره. وبذلك يتحول عند ديدات هول هجوم الإعلام الغربي الماكر إلى عامل إثارة وتحد، يستدعي الرد، ويستحث عوامل الدفع، بشحذ الهمم المعطلة وشحن الطاقات الفكرية والإعلامية لخوض معركة المصير الحضاري. وقد أفاد بمقتضى ذلك في قوله: «إن تشويه وسائل الإعلام الغربية لمفهوم الأصولية ينبغي أن ينظر إليه على أنه فرصة وهبها الله لنا لنستفيد منها في الصحافة، إلا أننا لا نستفيد منها، إننا لكي نستفيد منها يجب أن نكتب للصحافة؛ المرة تلو الأخرى وبلا ملل ودون انتظار المختصين . . للقيام بالرد لأن الرد مهمة كل مسلم»[2].

فيالها من فلسفة سامية تمتاز بالقدرة على النفاذ إلى حقائق الأمور والكشف عن جوانب الخير حتى في أعمق أعماق ما يعتبر غالباً ضرباً من الشر، ولونًا من العداء. وفضلاً

(1) العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 78، مصدر سابق.

(2) محمد ﷺ المثال الأسمى، ص 140-141، مصدر سابق.

عن ذلك فهو في التنبيه إلى هذا الجانب والدفع إلى تكامل الجميع في القيام بالرد على الهجوم يبدي تفاؤلاً مشجعاً في إمكانية الوصول إلى هداية اليهود والنصارى بالمجادلة بالبرهان والإقناع بالحجة[1] . وهو تفاؤل في محله ؛ إذ ليس مبنياً على أساس من الوهم أو الحلم ، أو ممارسة الانخداع ، بل وإنما هو من مفرزات تجربة عملية طويلة ، واستنتاجات عميقة صادقة ، وإن تحقق هذا التفاؤل النبيل يستلزم القيام بجهد إعلامي مضاد لا يقل – إن لم يفق – عما عليه الإعلام التنصيري ، وذلك للرد القاضي على قدراته التأثيرية ، وبالتحديد من قبيل النشاط الذي يقوم به ديدات بجوار غيره من الأنشطة الإعلامية المتعددة ، فيما صوّرهُ لنا للإفادة منه بقوله : «إننا نقوم بإصدار منشورات على أساس مبدأ محاربة العدو على أرضه مثل هذا المنشور ، (ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد) . . أي منشور لي مجانيّ وإذا فتحتم الكتاب ستجدون هذا الكلمات : (طلب مفتوح) فأنت لست مضطراً إلى طلب الإذن إذا أردت نشر أي كتاب لي ، دعوني أقرأ لكم نمنحك نشرها للبيع أو التوزيع المجاني دون طلب إذن مسبق منا ولا نطالب بنسخ منها ، والله لو كان لدينا الإمكانية لأغرقنا العالم بمنشوراتنا المجانية هذه ، وإذا أرسلت إلينا بعض النسخ من قبل نفسك لكي نسجل هذا العمل فسيكون موضع استحسان من جانبنا»[2] .

بهذا الإخلاص النادر وهذه الحكمة الإعلامية البارعة يتصدى ديدات للنشاط التنصيري الذي سالمه المسلمون ضعفاً وتقصيراً وتركوه لشأنه يصول ويجول في ديار المسلمين بإعلامه ومختلف وسائله محارباً دينهم ومصمماً على تنصيرهم . وقد أبدى ديدات في تصديه الإعلامي الحكيم استعداداً استثنائياً لبذل كافة ما أتيحت له من إمكانيات مادية محتسباً الأجر عند الله ، ونجد هذا الاستعداد الكريم يفصح عن نفسه في مواقف حوارية متعددة ، متمثلاً في تحديه لمناظريه بدفع عشرات الآلاف من الدولارات مقابل عقد مناظرات علنية معهم[3] ، يتم تسجيلها إعلامياً ، وتوزيعها

(1) ينظر المصدر نفسه ص 141 .

(2) بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية في طرابلس ، ص 132 ، مصدر سابق .

(3) ينظر المناظرة الحديثة ، ص 189-190 ، مصدر سابق .

عالميًا لتعم فائدتها؛ وليدرك الناس الحقيقة من خلالها، ولا لشيء آخر سوى إظهار الحق، وهو منطلق ديدات وغايته.

إنه بهذا السعي الحثيث لتوظيف الوسائل الإعلامية والإفادة منها ولو بالمقابل يكشف للآخرين مدى ما يوليه من أهمية قصوى لدور تلك الوسائل في خدمة الرسالة الإسلامية نشراً لصحيح العقيدة، وإصلاحاً لما فسد من عقائد الناس. ودافعه في ذلك هو ما ترسخ لديه من قناعة مشتركة مفادها، «أن على الذين يعملون في جهاز الإعلام الإسلامي أن يفهموا تماماً أن واجب الدعوة والإعلام للإسلام أمر لا يحتاج للتأكيد فهي مسؤولية شرعية وليست عملاً هامشياً بل هي من صميم الدعوة وركيزة دينية أساسية»[1]. ولإيمانه بهذه القناعة راح ديدات يتعمق في دراسة فنون الإعلام ويتوسع في استخدام وسائلها وأساليبها المتاحة له إلى أن تمكن منها وبلغ فيها مستوى يستحق الوصف معه بأنه خبير ضليع في فن الاستخدام الأمثل للإعلام في نشر رسالة الإسلام، حواراً ودعوة. وفي نطاق ما يدل على وافر خبرته الإعلامية يرد حديث وصفه لميزات وخصائص أنجح العروض الصحفية، وذلك في قوله: «فالعرض الصحفي الناجح هو ذلك العرض الموحد الذي يجذب الغالبية العظمى من الطوائف المختلفة كل يوم هذه هي قمة النجاح في العمل الإعلامي، ولاشك أن كل الصحفيين وافقوني على ذلك»[2]. وفي غمرة الانفجار الإعلامي الهائل الذي يشهده العالم المعاصر لم يجد ديدات من أجل النجاح في الإبلاغ المؤثر برسالة الإسلام بُدّاً من تكييف وسائل وأساليب الدعوة بحال العصر، إذ أدرك «أن من فقه الدعوة خطاب الناس بلسان عصرهم ووسائل زمانهم وأن أجهزة الإعلام الحديثة تيسير جديد أمام التطبيق الإسلامي إذا أحسن الدعاة التكيف معها وتطويعها للإسلام»[3] وقد توصل في

(1) الدكتور عبدالقادر حاتم: الإعلام في القرآن الكريم، ص 371، ط / 1405هـ=1985 م مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، مصر، د.ر.

(2) القرآن معجزات: ص 65-66، مصدر سابق.

(3) زين العابدين الركابي «نحو نظرية إسلامية في الإعلام»، مجلة المسلم المعاصر، ع 10/ 71، عام 1397هـ=1977م.

إطار جهده التكييفي بين المسالك الدّعوية ومبتكرات العصر إلى استحداث فكرة ومصطلح الإعلام القرآني محدداً مواصفاته في مجموعة العناصر المميزة له من اختزال حاسم، واعتماد أسلوب البرقيات الإعجازية، وجاذبية التأثير في المحيط وفي المستقبل عامة لكونه نداء موجها للجميع[1].

وطبقًا لتصوره الصحيح لعالمية رسالة الإسلام وضرورة قيام جهد إعلامي يوازي هذا البعد العالمي ويستوعبه، فقد تمثلت لديه أجهزة الإعلام الحديثة كمنابر عالمية فاعلة، يتحقق بحسن استخدامها الفني النشط الجانب الكبير مما قدر في الأزل للإسلام من ظهور وانتصار، وما يرجى له في الحاضر من انتشار سريع، وتفوق حاسم. ولذا عمد ديدات إلى تكثيف الاتصال الإعلامي بالناس لربطهم عن طريق الدعوة بالإيمان الصحيح، والإسلام القيم، وذلك إسهامًا منه في إزالة ما يكتنفهم من هم الجهل بهذا وذاك، ولإشباع حاجتهم في توجيه حياتهم بالعقيدة الحقة الصحيحة. وكان رائده في كل ما بذله في هذا الشأن من جهاد مشكور صدق الانصياع لمشيئة الحي القيوم، والإخلاص في إعلان الحقيقة بأعلى أصواتها[2]. وقد ساقه هذا الإخلاص في الإعلام بالإسلام، كما دفعه ما لازمه من رغبة صادقة في إعلان الحقيقة بصوتها الأعلى إلى استخدام مختلف وسائل الإعلام العصرية من صحف وكتب، وأشرطة مسموعة ومرئية، بجوار الاتصالات الشخصية والمحاضرات العامة.

وكان لتنويعه الجامع بين كل هذه الوسائل الإعلامية أثر لا ينكر في حمل خطابه الإسلامي، ودور معتبر فيما تحقق له من ظهور إعلامي وانتشار عالمي. ومن ثم فإننا لا نعدو الحقيقة إن قلنا بأن ديدات قد بلغ بإعلامه مالا يبلغه بعلمه. ويشهد لذلك الفارق القائم لصالحه بينه وبين الكثيرين من العلماء المغمورين ممن لا يقلون عنه كفاءة في القدرة الحوارية، وليسوا أقصر منه باعاً في الدراسة المعمقة للأسفار المقدسة، فقط وإنما بهمته المخلصة، ووعيه الإعلامي، وباستخدامه القوي والأوسع لوسائله، ظهر

(1) ينظر: القرآن معجزة المعجزات 66-73، المصدر ما قبل السابق.

(2) ينظر: المسيح في الإسلام، ص 10، مصدر سابق.

عليهم بساطع نجمه، وحجبهم بوارف ظله، وعظم شخصيته .

ولكي ندرك مدى استخدامه الواسع المنوع لمختلف الوسائل الإعلامية فلا مندوحة لنا من استعراض طرف من نشاطه الهائل في هذا المجال جرياً على تصنيف كثير من الدراسات الإعلامية لتلك الوسائل[1]، وذلك على النحو الآتي :

1 - **الوسائل المقروءة**، وتتمثل في مقالاته، ومنشوراته الصحفية، إلى جانب الملصقات اللافتة بمضمونها الإسلامي من عادية ومضيئة، بالإضافة إلى مجموعة كتيباته المنشورة في موضوعات عديدة بلغت في مجملها ما لا يقل عن عشرين عنواناً. وشهد بعضها رواجاً هائلاً مما دعا إلى نشر مئات الآلاف من نسخها ككتاب الاختيار، والعرب وإسرائيل. شقاق أم وفاق، ومسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء وغيرها. بالإضافة إلى جهوده في نشر عشرات الآلاف من تراجم معاني القرآن الكريم، والتي شجع القراء على تداولها، وتوسعة دائرة انتشارها بقوله: «ويستطيع من يشاء منكم أن يشتري أكثر من نسخة ليهديها إلى من يشاء، تستطيعون اقتناءها أو إهداءها إلى صديق أو تقديمها كمنحة أو كمكافأة لموظف من موظفيك من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود كأحسن هدية وأكرم منحة»[2].

وفضلاً عن ذلك فإنه في استخدامه للوسائل المقروءة يُعْنَى بانتقاء بحوث ودراسات الآخرين من النوع الذي يستحسنه لقيمته العلمية، واتصاله بمجال دراساته الدّعوية، وقد سبقت الإشارة فيما يخص منشوراته بأنها جميعاً تحمل إذنا مطلقاً ومفتوحاً يخول الجميع حق التصرف بها، والإفادة منها دون حقوق محفوظة للمؤلف.

وتقديراً منه للقراء فإن ديدات يعير اهتماماً لمراجعة المعلومات المنشورة في كتبه وذلك لمواكبة العصر، وملاحقة طبعاتها بالإضافات العلمية الجديدة المفيدة، التي من شأنها أن تثري المنشورات القديمة، وتخلع عليها لباس الجدة وطابع الطرافة. ومما يدل

(1) ينظر: الإعلام في القرآن الكريم، ص 36، مرجع سابق.

(2) العرب وإسرائيل شقاق. . أم وفاق ص 34، مصدر سابق.

على ذلك قوله : « . . فإنني كنت قد كتبت كتاباً صغيراً بعنوان « هل صلب المسيح ؟» منذ حوالي عشرين عاماً .

ونفذت طبعة الكتاب وأكثر من ذلك فإنه يحتاج إلى إضافات جديدة حيث إن مياهًا قد جرت تحت القنطرة[1] .

2 - **الوسائل السمعية** : وتندرج تحت هذا الصنف مختلف محاضراته ، وكلماته العامة إلى جانب ما استحدثه بنجاح من برنامج زيارة جامع دربان الكبير ، بما تتخلله من دروس مفيدة ، وإجابات على أسئلة الضيوف الزوار . وتشغل أشرطته وأحاديثه في الإذاعات المسموعة حيزاً كبيراً من نوع الوسائل السمعية . ولعل عرضه لخمسين ألف جنيه إسترليني مقابل الحديث لمدة خمس دقائق في الإذاعة البريطانية كاف لإدراك ما يخصصه من قيمة واعتبار لمختلف الوسائل الإعلامية وللسمعية منها خاصة .

3 - **الوسائل البصرية** : هي عند ديدات جملة اللافتات والملصقات التي أتينا على ذكرها وهي في الغالب تحمل مقولات إسلامية أو ما يثير فضول القراء من أقوال تجذبهم في الغالب للاهتمام بالتعرف على الإسلام ، وهي أقوال تصاغ خاصة بطريقة إعلامية مثيرة ومؤثرة ، ليكون لها وقع قوي في النفس بمجرد ما يقع البصر عليها ، ويستوعب العقل مضمونها اللفظي . وقد أدت هذه الوسائل في جنوب أفريقيا دوراً فاعلاً ، مما أثار نقمة البعض واستياءهم فطالبوا بالتوقف عنها ، وإزالة المعلق من لوحاتها ، كما مرّ سابقاً متمثلاً في موقف رئيس بلدية مدينة دربان تجاهها ، وحجته في ذلك .

4 - **الوسائل السمعية والبصرية** : وتكاد تكون أوسع استخدامًا عند ديدات أكثر من غيرها ، إذ لا يضاهي سعة استخدامه لهذا النوع سوى الوسائل المقروءة والشخصية . ويتمثل إعلامه بهذه الوسائل في برامجه المسجلة في الإذاعة المرئية

---

(1) المسيح في الإسلام ، ص 88 ، مصدر سابق .

وأشرطة الفيديو الكثيرة، والتي جاوزت حد السبعين شريطاً من محاضرات وحوارات الشيخ ديدات[1]. مما قد سجلت في ظروف متباعدة، ومناسبات مختلفة، وهي موزعة على المعنيين بها في مختلف أنحاء العالم، ويمكن بالنسبة لمن يجيدون لغتها التعرف على الكثير من منهجية ديدات الحوارية والدّعوية، وأهم القضايا التي حاور فيها أو تناولها في مختلف محاضراته المحلية والخارجية. وفيما يخص تأثير تلك الوسائل فإن الحديث قد سبق عن إسلام ألفي شخص من الفلبين بعد مشاهدتهم لأشْهَرِ أشرطته المرئية، وهو شريط مناظرته العالمية الشهيرة مع القسّ الأمريكي سواجارت[2]. ولتعميم فائدة تلك الأشرطة وإفساح نطاقها الإعلامي أخذ الأستاذ علي الجوهري في تعريب عدد منها، وتفريغها إلى كتب مقروءة، تتيح الفرصة واسعة للقراءة المتأنية والمتابعة الدقيقة للفكر والمنهج، وتقصّي ديدات بالدراسة والتأمل.

5 - **الوسائل الشخصية**: وتشمل في إعلام ديدات كافة اللقاءات العامة والخاصة التي دعا أو دعي إليها من مقابلات، ومحادثات موسعة ومحدودة. ومن الجدير بالذكر أن العدد الكبير من حواراته المحدودة النطاق البعيدة عن الأضواء الإعلامية، تنتمي إلى هذا النوع من الوسائل، بالإضافة إلى المقابلات الشخصية للتعريف بالإسلام، وغيرها من الدروس الخاصة التي ألقاها أو شارك في إلقائها على مختلف الأصعدة، إلى جانب الدورات التكوينية، والمحاضرات التثقيفية العادية أو الموقوتة بمناسبات معينة. وهذه الوسائل في استخدام ديدات لها كثيرة جداً لا مطمع في حصرها؛ إذ لا تنحصر لسعتها وشموليتها لمختلف مواقفه الحوارية والدّعوية. والملاحظ في ختام استعراض توظيفه لهذه الوسائل أن حالة من التقاطع والاشتراك تجمع أحياناً بين نوعين مختلفين من الوسائل حول نشاط واحد، الأمر الذي يمكن في إطاره تصنيفه وإضافته لكل من النوعين على حدة،

---

(1) ينظر: هذه حياتي: هامش 2 من الصفحة 35، مصدر سابق.

(2) ينظر: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 78، مصدر سابق.

كالملصقات الإعلامية مثلاً، أو نشاط المحاضرات والحوارات المغلقة. ولكن ذلك لاينال من صلاحية هذا التصنيف المقتبس من علماء الإعلام، بقدر ما يدل على وحدة نسقية متشابكة بين عناصر الجنس الواحد، ولتمام تصورنا لفكره الإعلامي وتوظيفه لآلياته المتعددة يجدر الوقوف على أبرز السمات المميزة لمسلكه الإعلامي في عمله الإسلامي، وذلك بتسجيلها في الملخصات الآتية:

أ - **الوضوح في المحتوى الإعلامي**: تمتاز رسالته الإعلامية بسمة البساطة والوضوح، حيث إنّ لغتها وأفكارها تتناسب مع مستوى العامة من الناس، ويمكن أن يفيد منها أبسط الناس وعياً وأدناهم في المستوى العلمي. ومن مميزاتها كذلك أنها تعتمد على العقل، وتقوم على الحوار والإقناع.

ب - **تنوع الأساليب، وتعدد الوسائل**: يعمل ديدات في خطابه الإعلامي على المزاوجة بين أساليب متنوعة، ووسائل متعددة ولعل القصد من وراء ذلك تلبية رغبات جمهور كل وسيلة من الوسائل بأسلوب خاص ملائم لطبيعة هذا الجمهور المستقبل، حيث تتكامل على نحو عفوي تلك الوسائل والأساليب لتغطي ميول وخصوصيات الأفراد والفئات، وصولاً إلى التأثير فيهم واستمالتهم.

ج - **مجانية عطائه الإعلامي**: ينحو ديدات منحىً متميزاً في توزيع رسالته الإعلامية بالمجان، مستجيباً ومشجعاً لمختلف السبل الكفيلة بضمان التوزيع الواسع، والانتشار السريع للفكرة التي ينقلها من خلال تلك الوسائل المتعددة إلى الناس جميعاً، وبالأخص من يستهدفهم ديدات أكثر من غيرهم. ومن الأساليب الخاصة في هذا الشأن أنه يتنازل عن حقوق الملكية الفكرية لإغراء الآخرين بالمشاركة في توسعة نطاق التوزيع والتعريف بهذه الرسالة التي لا يسعد ديدات بشيء كسعادته بظهورها واعتناق كافة الساحات والآفاق لمقتضاها الإسلامي، والتسليم بعقيدتها وتعاليمها.

د - **التركيز على الوسائل المتاحة للجميع**: وهذه السمة ذات صلة بسابقتها وتظهر في تركيز ديدات إعلاميًا على الوسائل العامة والتي غالبًا ما تكون في متناول

الجميع، أو يتيسّر الوصول إليها بسهولة دون كلفة أو مشقة قد تصرف عن متابعة ما يحرص ديدات على إرساله إلى الجمهور المستقبل عبر تلك الوسائل. وبالطبع فإن أيّ رسالة إعلامية يستهدف بها الناس جميعاً تظل ذات حظ قليل من النجاح ما لم تراع عمومية الوسائل التي تعتمدها للوصول إلى المخاطبين برسالة المصدر الإعلامي .

هـ - **العقيدة والأخلاق موضوعان أساسيان لخطابه الإعلامي** : ليس بمفاجئ على الإطلاق في إعلام داعية كديدات أن يتمحور خطابه حول العقيدة والأخلاق كقطبين أساسيين، تدور حولهما مختلف القضايا التفصيلية المتناثرة في خطاباته، والتي يوردها فقط من أجل أيضاح ما يصبو إليه من قضية جوهرية تتمثل في رسالة العقيدة، وما يلحق بها من دعوة إلى التحلي بالقيم الأخلاقية، والتمسك بالمبادئ الإنسانية الرفيعة في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية. وذلك - فيما أعتقد - التزام منه في منطلقه الإعلامي بمحدّدات مهمة الداعية في تأسيس أصول الدين في نفوس المدعوين قبل غيرها من تعاليم الإسلام في مجالي العبادة والشريعة .

و - **الالتزام بمعايير الأدب وطيبة الكلمة** : يخاطب ديدات في مختلف وسائله الإعلامية جمهوره بأساليب متأدبة، وبعبارات طيبة، وكلمات محترمة. إنه إعلام يقوم في أغلبه على اللين من القول، والجميل من الألفاظ والصحيح من الأفكار. يلقي رسالته إلى الجمهور في ظل الرفق والهدوء بعيداً عن الصخب والأساليب القاسية الجارحة إلا لضرورة ملزمة، لا تتعدى قدرها .

وهذه هي أهم ما توصل إليه استنتاجي الكليل مما بدت لي بمثابة سمات عامة للجانب الإعلامي عند ديدات باعتباره الآلية الأساسية التي يقوم عليها ومن خلالها مختلف جهوده في الحوار والدعوة، وفي سائر مجالات عمله الإسلامي على نحو أعم وبصورة أوسع .

هذا . . وإذا كانت هذه الوسائل مع أهميتها الكبيرة لا تمثل في جملتها سوى أدات نقل، وآليات اتصال اعتمد عليها ديدات في نشر رسالة الإسلام، وإبلاغ خطابه

العالمي إلى الناس، فما هو جوهر الفكرة ومضمون الرسالة التي طوع لحملها ونقلها تلك الآليات في مختلف تجلياتها الحوارية والدّعوية؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي عقد مباحث مستقلة لاستعراض عدد من كتاباته، بطابعيها المقارن والدّعوي، بالإضافة إلى أشهر محاوراته مع النصارى. وذلك في عرض يتسم بالتحليل والنقد على النحو الآتي:

المبحث الثاني

نماذج من كتاباته في موضوعات الأديان المقارنة

المسيح في الإسلام
مسألة الصلب
عتاد الجهاد

1 - في الكتاب الأول وعنوانه «المسيح في الإسلام ومحاورة مع قسّيس حول ألوهية المسيح»[1] :

يعرض ديدات في فصوله الثمانية للمسيحيين عقيدة المسلم بشأن شخصية المسيح عليه السلام، ووجوده المعجز وطبيعة ما مثلها من مهمة تاريخية في حياته الدينية، مع الإشارة البارزة إلى ما تحظى به أمّه عليها السلام في عقيدة القرآن من حفاوة وتبجيل، باعتبارها صديقة، وأم رسول من أعظم رسل الله عليهم الصلاة والسلام .

ولمعالجة ما يطرحه الكتاب من موضوع أساسي على نحو علمي متسلسل، ينطلق ديدات في الفصل الأول بالتنبيه إلى ما يكتنف المسيحيين من جهل عام بالروح الطيبة التي يحملها القرآن الكريم للمسيح وأمه عليهما السلام، وذلك باعتباره منبع إيمان المسلمين عامة . إذ تتجسد مكانة المسيح في القرآن بورود اسمه فيه خمساً وعشرين مرة مقابل خمس مرات لموارد اسم النبي الأعظم ﷺ. وفي مختلف تلك الموارد المبثوثة في ثنايا سور عديدة يكون ذكره مقترناً بألقاب حميدة، وأوصاف محترمة . وبمقتضى هذا الموقف القرآني الكريم من المسيح عليه السلام، فإن المسلمين يسلمون برسالته الإلهية كجزء أساسي لا يتم إيمانهم بدونه، كما أنهم بموجبه لا يسوغون لأنفسهم ذكر اسمه إلا ملحقاً باستدرار السلام عليه كلما ذكروه .

ولتعميق الفكرة يتجاوز ديدات إلى بيان ما أسبغ على أم المسيح عليهما السلام في القرآن الكريم من نعوت مجيدة، ومكانة سامية، على نحو لم يتح لها حتى في أناجيل المسيحيين، ممن يرونها أمّاً لإلههم أو مكلمة لآلهتهم، وحتى تتضح لهم الصورة القرآنية عنها فإن ديدات يضطر إلى إيراد قصتها باختصار، بداية من ظروف مولدها ونشأتها في المعبد، إيفاء بالنذر السابق على وجودها، مشيراً إلى تناقش الكهان على كفالتها، واقتراعهم في هذا الشأن . وهو في هذا العرض المختصر يفيد بحدود السرد

---

(1) الكتاب محدود الحجم إذ لا يتجاوز النص الأصلي مع تعريبه مائة صفحة، قام بتعريبه الأستاذ علي الجوهري ونشرته دار الفضيلة بالقاهرة.

القرآني دون أن يطلق لنفسه العنان في خوض التفاصيل الإسرائيلية المنقودة في الغالب، ويتخذ ديدات من هذا المنطلق القرآني دليلاً على صدق المصطفى عليه الصلاة والسلام وأمانته في نقل الوحي القرآني عن الله عز وجل إلى خلقه بحذافيره دون أدنى تصرف تلقائي فيه، بدليل الرواية القرآنية لقصة مريم في القرآن الكريم، وما يحيط بشخصيتها من الإخْبار عنها بالفضيلة، وهالة التمجيد والامتياز على نساء العالمين مع أنها يهودية، واليهود تاريخياً من أعدى أعداء العرب، ورغم كل ذلك فإن الرسول ﷺ لم يلوّنْ الوحي الإلهي بشيء من ظلال علاقات الجفاء السائدة بين العرب واليهود، ولو كان هو المؤلف الحقيقي للقرآن الكريم لأقحم فيه بالتشريف بدلاً من اليهودية اسم أمه أو زوجته أو إحدى بناته عليهنّ رضوان الله جميعاً، كما يستبعد في تأليفه له أن يخصص سورة كاملة منه باسم مريم عليه السلام تكريماً وتبرئة مما لا وجود لمثلها حتى في أسفارهم المقدسة، والتي لا تتجاوز تضمن عناوين وإشارات أقل أهميّة وقيمة مقارنة بالواردة في القرآن الكريم.

وفيما يتصل بميلاد المسيح يلتزم ديدات بمتابعة السياق القرآني وعرض القصة كما وردت فيه مبرئاً السيدة مريم من قذف القاذفين بمعجزة تكلم المسيح إلى قومه وهو في المهد بما يفيد براءة أمه. وبمناسبة الحديث عن هذه المعجزة المسيحية الأولى في القرآن الكريم يستحسن ديدات مقارنتها بما يناظرها في الكتاب المقدس، من دعواهم معجزة تدفق الماء خمراً على يد المسيح عن عمر جاوز الثلاثين[1]. ومن منظور أخلاقي يجد ديدات في حديثه عن معجزة الخمر في الكتاب المقدس مَنْفَذاً للتطرق إلى إثارة قضية إفراط الأمم المسيحية في معاقرة الخمور، وبالأخص في جنوب أفريقيا، وأمريكا التي بلغ فيها المدمنون الذين يقل الأمل في إفاقتهم وصلاحهم حوالي عشرة ملايين خمار.

وفي سياق المقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في موضوع المسيح ومعجزاته، وصفاته يناقش ديدات ما ينسب إلى المسيح وهو عنه بريء من نداء وقح لأمه بلفظ «يا امرأة مالي ومالك» طبقاً للوارد في الإنجيل، وذلك في مناسبة عرس أقيم

(1) ينظر: المسيح في الإسلام، ص 36-40، مصدر سابق.

بمدينة قانا، بالإضافة إلى ذمّه وقدحه لكبار السن من قومه بوصفه إياهم: «أيها المنافقون الأشرار . . يا أبناء الزناة. . يا أبناء الأفاعي»[1].

وهذه من السلوكيات التي تتنافى مع ما يوصف بها من وداعة، وتسامح، ومسالمة، كما يقرر القرآن الكريم في وصفه له ببر الوالدة وأنه ليس جباراً ولا عصياً.

إن هذه اللفتات القوية التي يثير بها ديدات المسيحيين عن عقيدة القرآن إزاء المسيح وأمه، تشكل في واقعها عوامل استقطاب فعالة؛ إذ تتسم بجاذبية أخاذة من شأنها أن تقدم للآخرين مؤشرات هادية تقود خطاهم في الطريق المستقيم إلى الإيمان الصحيح.

وعلى هذا النمط المتكامل يسير ديدات على امتداد الكتاب، مبيّنًا للقارئ أنه ليس مجرد قصاص أو راو تتلخص مهمته في مجرد السرد والوصف دون غيرهما، بل هو بجوار السرد يقارن ويحلل ويناقش ويغذي هذا السّرد بنقولات ومقارنات كاشفة، يظهر للقارئ من خلالها أنّ حكاية ديدات للقصص والوقائع منطلق وبداية، وليست هدفاً أو نهاية.

ومن ثم يسترسل في المزيد من المقارنة بين آدم والمسيح عليهما السلام في مسألة استثنائية خَلْقِهِمَا، للوصول إلى ما تولده المقارنة من استنتاج عقلي بأحقيّة ترشح آدم للألوهية أكثر من المسيح لو كانت المسألة بمعيار الخلق المعجز، ومنطق الوجود العجيب لكليهما، وهو في هذا الاحتكام القرآني لا يزيد ولا ينقص شيئًا عمّا ناقش به القرآن الكريم مؤلهي المسيح مستندين إلى حجج واهية، ودعاو متهافتة. ولفاعليّةِ المنطلق القرآني يستنجد به في مواجهة أدعياء ألوهية المسيح بقوله: «إن المنطق المعقول في هذا الموضوع يتلخص في أنه لو كان مولد عيسى دون أب مدعاة أن نعده مناظراً ومساوياً لإله فإن آدم عليه السلام لديه فرصة أكبر لنيل هذا الشرف، وهو ما يرفضه أي مسيحي، وبهذا يكون من حق المسلم أن ينكر على المسيحي مثل هذا الكذب على الله»[2].

---

(1) ينظر المصدر نفسه ص 42.

(2) المسيح في الإسلام: ص 56 مصدر سابق.

وحيث إن ديدات خبير في دراسات الكتاب المقدس فإنّهُ يجود على الدارسين بإسعافهم بالقضايا العقدية التي يستعصي أيضاحها حتى على علماء اللاهوت، كبيان المقصود من قولهم «إن المسيح مولود وليس بمخلوق». ويستقصي في إفادة القارئ بأنّ استخدام تعبير «ابن الله» كان أمراً شائعاً لدى اليهود، وكانوا يطلقونه من باب الثناء والإطراء على كل شخص تميز بالتزامه وعرف بتدينه. ولتأكيد محتوى ما ذكره يستشهد بإنجيل لوقا الذي استخدم فيه التعبير بصيغتي المفرد والجمع معاً، الأمر الذي يدل على ما قرره.

ويرى ديدات أن القول ببنوّة المسيح لله يستلزم القول بشبهه له بطبيعة الحال، وهو ما يعكس عنده نزعة عنصرية بغيضه، ونظرة دونية سافلة إلى الأجناس المخالفة له في الخلقة والتكوين، والذي ربما يدعي القائلون بالبنوّة اشتراكهم مع المسيح فيه دون غيرهم.

وفي مناقشته لذات القضية يعيب على المسيحيين المعاصرين مغالطاتهم الفكرية المتطرفة، في الاستدلال على هذه العقيدة الباطلة بمعادلة ثنائية مبينة على نقيضين متقابلين دون حد وسط بينهما، مع إمكانية قيامه، وذلك لإلزام الطرف الآخر بضرورة التسليم بمعتقدهم كقولهم مثلاً: «إما أن يكون المسيح إلـهًا، وإما أن يكون كذاباً، أو إما أن يكون المسيح إلـهًا، وإما أن يكون مجنوناً، أو إما أن يكون المسيح إلـهًا وإما أن يكون مدعيًا»[1].

هذه وغيرها من المغالطات المتطرفة التي تقوم على نفي البديل الأصوب وهو كونه رسول الله، وعبده.

وفي ختام مناقشته لدعاويهم يحسم الأمر ببيان القول الحق فيه، وفق مقررات عقيدة القرآن الكريم المفيدة بأن المسيح عليه السلام سوف يتعرض يوم القيامة للاستجواب بشأن تأليه البشر له، وسوف يبرئ نفسه على رؤوس الأشهاد من مسؤولية الأمر به أو الدعوة إليه. ويخلص ديدات في هذا الصدد إلى تسجيل حقيقة مفادها: أن الأناجيل في حد ذاتها خالية بمختلف رواياتها الطائفية من قول صريح

(1) ينظر المصدر نفسه، المسيح في الإسلام، ص 68 مصدر سابق.

للمسيح عليه السلام بأنه إله، أو أنه في مقام يؤهله للمشاركة في صفة الألوهية .

وإن هذا الكتاب الذي نعرض لموضوعاته هنا يتضمن إلى جانب ما تقدم محاورة هادئة عقدها ديدات مع أحد كبار اللاهوتيين الكنديين في جنوب أفريقيا، جاءت المبادرة إلى إجرائها من قبل الشيخ ديدات، وكان هذا اللقاء في تقييمي له صادقًا وجاداً؛ حيث تحدى فيه ديدات محاوره بإيراد نص يفيد قولاً صحيحاً وصريحًا للمسيح بأنه والأب شخص واحد[1]، وقد أخفق الرجل مع ما هو عليه من مكانة علمية ودينية مرموقة، وكلما أراد تلفيقًا نبهه ديدات إلى عدم دقة اقتباساته، وأنها منزوعة من سياقها لتوظيفها لأغراض، ولدعم قضايا بمعان لا تحتملها تلك النصوص. وهو ما يسميه ديدات بصدمة السياق، وحتى يسلم المحاور من هذه المآخذ الفاضحة يرشد ديدات إلى الوقوف على سياق النص وسباقه جيدًا، وصولاً إلى تحديد المعنى المراد منه بدقة وموضوعية .

والملاحظ أن ديدات في هذه المحاورة كعادته في غيرها يركز على البعدين النقلي والعقلي، مناقشاً الرجل بطريقة علمية هادئة، يأخذ فيها التحليل اللغوي حيزاً واسعًا من ناحية مراجعته ترجمات الكتاب المقدس عن اللغة اليونانية، وما ترتب على ذلك من تزييف، وإساءة ترجمة الألفاظ التي جاءت خلافًا لمعانيها الصحيحة. وقد أبدى ديدات في تناوله لهذا الموضوع، دراية بأساسيات اللغة اليونانية في حالة مقابلة ألفاظها العقدية بما وضع لها كترجمات في اللغة الإنجليزية من حيث النطق وطريقة الكتابة والرسم[2].

والشيخ ديدات لا يحدثنا فيما يلحق عن بقية وقائع هذا اللقاء الهام، وكيف انتهى وإلامَ توصل، وإنما ينقلنا إلى الفصل الأخير من الكتاب مخصصًا فيه اهتمامه لمعالجة ثلاثة موضوعات أساسية في الحوار الإسلامي الصليبي، وتتمثل في قضية الصلب، ورسالة المسيح ومعجزاته، والبشارة بظهور خاتم الأنبياء والمرسلين بعد المسيح عليهم الصلاة والسلام. وفيما يخص الموضوع الأول يكتفي ديدات بإحالة

---

(1) ينظر: المسيح في الإسلام ص 47.

(2) ينظر: المصدر نفسه، المسيح في الإسلام ص 86-87.

القارئ إلى ما أفرده له من كتاب صدر قبل عشرين سنة، خصصه لمعالجة الموضوع، ويكفي القارئ الرجوع إليه لاستيعاب ما ورد فيه، كما أنه بشأن الموضوع الثالث يعد بدراسته مستقبلاً في كتاب مستقل.

وأما الموضوع الثاني وهو رسالة المسيح فإن ديدات يراها كرسالة غيره من الأنبياء جاءت لرسم طريق الخلاص للعباد بإرشادهم للسير وفق منهج التوحيد وطاعة الله عز وجل، وليس وفق الاعتقاد بصلب المسيح وافتدائه كما يدعي المدعون.

ولتعزيز قوله فإنه يستشهد بقصة رجل يهودي استوضح من المسيح طريق الخلاص فلم يزد له في رده عليه على أمره له بحفظ الوصايا، وهو ما يعني تقوى الله وطاعته بالتزام ما أمر به وترك ما نَهَى عنه وزجر.

وعن قضية معجزات المسيح فإنّ رأي ديدات في خوارق العادات بعامة هو أنها لا تثبت نبوة ولا تؤكد ما إذا كان من يقدر على صنعها صادقاً أو كاذباً في دعواه؛ حيث إنّ المسيح عليه السلام قد تنبأ بظهور دجالين وأفاكين من بعده، يستغلون قدرتهم في الإتيان بخوارق الأمور لتضليل الناس، بمن فيهم حتى الصفوة المتميزة بصدق إيمانها.

وحديث ديدات عن المعجزات والخوارق يجره إلى شيء من الاستخفاف بالمسيحيين واصفاً إياهم بسذاجة المنطق، وسخافة العقل، وأنه يستعصي عليهم استيعاب معجزات قد تفوق ما ظهرت على يد المسيح كمعجزة موسى عليه السلام في قلب العصا الجامدة حية تسعى مقارنة بمعجزة إحياء الموتى التي يؤمن بها المسيحيون بكل فخر واعتزاز. والمعلوم أن تحول المادة من عالم الجماد إلى عالم الحيوان أصعب وأعجز من عودة الروح إلى جسم قد فارقته بعد أن تلبست به حيناً من الدهر. هذه وغيرها من المعجزات التي يعترف المسيح نفسه فيما نقل عنه في الأناجيل بأنّ قدرته عليها ليست ذاتية وإنما هي مستعارة ومستمدة من الله العلي القدير، الذي تتم الأمور بإذنه وإرادته، وبذلك يتنصل المسيح من أيّ قدرة أو معجزة تسند إليه خارج اعتباره عبداً من عباد الله إذ لا حول له ولا قوة إلا بالله.

وللبيان يورد ديدات قصة الرجل الذي تضرع المسيح إلى الله بإعادة الحياة إلى جثته بعد مضي أربعة أيام من المفارقة، وكان تدخل المسيح بالابتهال رضوخاً لاحتجاج وإلحاح أخت الرجل والتي كانت من أتباعه المؤمنين.

ولعل ديدات بهذه القضايا التي ناقشها أدرك أخيراً الحاجة إلى تحديد مخاطبيه الذين يعنيهم بمحتوى هذا الكتاب أكثر من غيرهم، وهم من تؤمل فيهم الهداية ويتوسم فيهم الإيمان، من الذين تحدث عنهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 111].

وأما الطائفة الأخرى فيلزم في رأي ديدات إيجاد سبل ووسائل أخرى مناسبة لمخاطبتهم والتوجه إليهم. ولكنّه وفجأة يرتد عن هذا الرأي ليقرر بأن ما يقدمه صالح للفريقين معاً داعياً كل قارئ إلى المساعدة في تمرير الكتاب بَعْدَ قراءته إلى شخص آخر، كي يستفيد منه بدوره. وقد جمع ديدات بين الأمرين في قوله: «وإلى أولئك المؤمنين نتجه بمثل هذا الكتاب، أما الطائفة الأخرى فهم أولئك الذين وصفوا بأنهم الفاسقون يلزم أن نجد السبل والوسائل الأخرى كي نتوجه إليهم، إن ما نقدمه يصلح بإذن الله وتوفيقه للفئتين، ويصلح «بعون الله» للجميع، ومن المرجو أن تعطي هذا الكتيب لغيرك بعد الفراغ من قراءته»[1].

وأخيراً يختم بآية قرآنية كخلاصة حاملة لمجمل التصور القرآني عن السيد المسيح عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: 34-36].

وترد الآية في هذا المقام لتمثل دعامة متينة، وخلفية تشدّ وتعزّز تلك الأطروحات التي سبق وأن أطلقها في ثنايا الكتاب عن المسيح عليه السلام، كما أنها تؤكد في الآن

(1) المسيح في الإسلام ص 48.

نفسه ما تقرر في حينه من قرآنية المنهج، وأن النص يشكل ركيزة أساسية من مرتكزات منهج ديدات في الحوار والدعوة .

ومما يلاحظ في معالجة ديدات لموضوع المسيح في الإسلام أنه كان من الأوفق التركيز على إبداء العقيدة القرآنية بشأن المسيح وأمه عليهما السلام، مركزًا على توحيد الله عز وجل وتنزيهه ببيان الحدود الفاصلة بين الخالق والمخلوق في العقيدة الإسلامية، مستعينًا في ذلك إلى جانب النصوص القرآنية بالتفاسير، ومؤلفات المسلمين في هذا المجال. وعلى الرغم من افتقار معالجته إلى التعمق والتركيز؛ إلا أني لا أدعي عليها مطعنًا جوهريًا يسحب عنها قيمتها العلمية أو الإعلامية .

2 - مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء[1]:

إن قضية افتراء صلب المسيح من أهم وأنجح الموضوعات التي تناولها ديدات، وتركزت عليها دراسته الناقدة للفكر الصليبي، وتعود صلته بدراسة الموضوع إلى إثارة المستفزين إياه بمناقشته فيه من أجل إقناعه به. مما جعله يقبل على دراسته فيه بموضوعية وروح متعمقة، مستخدمًا نفس المصادر التي ينطلقون منها في هذا الشأن، فكانت هذه الدراسة الممتدة عبر صفحات الكتاب تمثل في تصريح ديدات: «حصيلة بحث ودراسة طوال سنوات وسنوات من عمري»[2]. وإن خطورة الموضوع ومكانته في الفكر الصليبي يغري بالقول بأنه من أهم القضايا المحورية التي تركزت عليها حوارات ديدات بنوعيها الصامت والناطق منها، أي كتابة وخطابة. ولعله عند ديدات يعد أهمها على الإطلاق، وذلك فيما يستفاد من قوله: «إن وفاة عيسى على الصليب هي عصب كل العقيدة المسيحية، إنّ كل النظريات المسيحية عن الله، وعن الحقيقة، وعن الخطيئة، وعن الموت، تستمد محورها من المسيح المصلوب، وكل النظريات المسيحية عن التاريخ، وعن الكنيسة، وعن الإيمان، وعن التطهر، وعن المستقبل، وعن الأمل إنما تنبع من «المسيح المصلوب» فيما يقول البروفيسور جودن مولتمان في كتابه عن «الإله المصلوب»

---

(1) هو أحد كتب ديدات المنشورة عن دار الفضيلة بتعريب الأستاذ علي الجوهري.

(2) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء ص 183، مصدر سابق.

ومجمل القول: هو أن انتفاء الصلب انتفاء للمسيحية، وتلك هي تجربتنا نحن المسلمين الذين نعيش في خضم المسيحية في جنوب أفريقيا»[1]. وفي ضوء هذا الاعتبار تكتسب الدراسة قيمتها الكبيرة ممثلة إحدى أنضج المحاولات العلمية التي قدمها ديدات في مجال نقد الفكر الصليبي، حيث إنّ مسلكه فيه قد اتسم بطابع كتابي مختلف عن أسلوب المناظرات بما يلابسها من انفعال وارتجال مما لا يسلم معه المناظر غالباً من سقطات وردود ضعيفة، فضلاً عن إغفال أو نسيان مناقشة بعض ما تطرح من قضايا هامة.

وأخذاً بموضوعية الأسلوب الكتابي فإن الكتاب يعالج موضوع دراسته معالجة ملتزمة ومركزة، يقل فيها الاستطراد والحشو بقضايا غير ذات علاقة بالموضوع، من قبيل ما يظهر في بعض أعمال ديدات. وهو من الناحية المنهجية يعتمد طريقة السرد المفصّل لقصة الصلب المزعومة عارضاً لظروفه، وشخصياته، وكافة الملابسات التي اكتنفته للخروج باستنتاجات علمية تتمثل في ثلاثين برهاناً عقلياً على بطلان القول بموت المسيح على الصليب. وبطبيعة الحال فإنه يُعْنَى ببيان موقفه من القضية محدداً فيها عقيدته التي لا تخرج في جوهرها عما يقرره القرآن الكريم والذي اعتمد عليه ديدات وانطلق منه؛ إذ رأى فيه الإجابة الشافية الكافية من العليم الخبير. وعلى الرغم من أنه كان متاحاً له الاكتفاء بمقتضى النص القرآني بالإضافة إلى الاستنتاجات العقلية التي أوردها إلا أنه آلى على نفسه التوسع في دعم قضيته بسيل من المراجع المنسوبة لمستشرقين ونقاد غربيين ممن تعرضوا لنقد المسيحية، ونقض اللامعقوليات فيها، كما تكلف ديدات في هذا الأمر التعزز بكم من الصور الشمسية، ومنسوخات من الصحف لإثبات أطروحاته التي يدعمه فيها بعض معطيات الأحداث الجارية، والتي تحكيها الصحف موثقة بالصور، والرسوم. وهذا الإجراء العلمي الذي سلكه ديدات في خدمة قضيته العلمية يعبر بحق عن سعة أفقه الفكري، وعراضة دائرة اطلاعاته، وعمق ملاحقته لكل ما يمتّ بصلة إلى مواضيع اهتماماته الحوارية من مصنفات علمية، ودوريات يومية، وأفلام سينمائية. إن تلك المراجع بمختلف أنواعها، تشكّل لديدات قاعدة متينة يجدها من أنسب ما ينهض عليها

---

(1) المصدر السابق، ص 10-11.

المحاور للإفحام والإلزام في مختلف حواراته المنطوقة والمكتوبة .

وإنّ الكتاب بهذه المرجعية المتنوعة، يمثل خلاصة ما وقف عليه ديدات من آراء الدارسين في موضوعه، مضافة إلى قدراته، وجهوده الشخصية قراءة، وتحليلاً واستنتاجاً، إذ تقوم مناقشته فيه على أسس محاكمات عقلية، واستدراج منطقي لمن يفترض اعتراضهم على صواب ما يراه، ويتخلل سرده الهادئ ردود مسكتة، قد تدل من منظور آخر على أن ديدات يحظى بصفة القدرة على التحليل والمناقشة، ولكنه يفتقر لحد ما إلى الرّبط والتنسيق الجامع لأطراف موضوعه .

ومن ملاحظاته الذكية التي تستوقف الدارس أنه يعيب على الصليبيين تناقضهم في وصف المسيح بأنه وديع ومسالم وأنه أمير السلام، في حالة إقرارهم بصحة نصوص تفيد دعوته إلى سفك الدماء وإشعال النار والدمار، حيث قد ورد أكثر من نص وفي أكثر من مصدر لهم عن هذا الجانب في شخصيّة المسيح، أو بالأحرى في خطابات لحظاته الأخيرة تحديداً[1] .

وهو الجانب الذي يتكتم عليه الصليبيون، ويتغاضون عن إبرازه استغفالاً لغيرهم في إظهار وجه واحد فقط لعملة ذات وجهين متناقضتين . إن اكتشاف هذا البعد، وما يستتبعه من استخدامه في مواجهة أدعياء المعاني الجوفاء، والألفاظ الرنانة المفرغة من محتواها قد يضع حداً لتلك المزاعم الباطلة، ويكشف للمستغفلين كامل حقيقة القضية بوجهيها المتناقضين .

ومما يثيره ديدات ضمن ما يتناوله قضية أعظميه الرسول ﷺ باعتباره الإنسان الأنجح في تاريخ العالم . ولإثبات هذه الحقيقة يستعين ديدات بمراجع غربية - وربما مسيحية في الغالب تفيض إشادة بعظمة الرسول ﷺ - مقابل حظ عاثر للمسيح عليه السلام في تلك الرؤى الذي تتصوره أتعس الرسل حظّاً في المهمة الدّعوية[2] .

---

(1) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 46، مصدر سابق .

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص: 52.

إن هذه المقارنة الواعية التي يقتبسها ديدات من غيره ويقحمها في نطاق سرده لهي ذات مغزى ودلالة لافتة توحي بعظمة الرسول عليه الصلاة والسلام للقارئ العام الذي لم تتكون لديه فكرة مسبقة عن شخصيته العظيمة، ليقوده الإعجاب بهذه العظمة إلى التأثر بشخصيته، والاقتناع بصدق رسالته ﷺ. وإن متابعة ديدات عبر صفحات هذا الكتاب من شأنها أن ترسخ أيّ قناعة سابقة عن واسع معرفته بالخلفية التاريخية للأجواء الزمانية والمكانية التي ظهرت في إطارها الرسالة المسيحية، كما تدفع المرء للتسليم بعمق درايته بحياة شعوب تلك العصور بتاريخها وثقافتها[1].

ومن اللافت للنظر أنه في معرض سرده لتفاصيل القصة من أجل نقدها يميل إلى مسايرتهم في عقيدتهم، على نحو يوهم بتصديقه بموجب تلك الروايات الصليبية، والتي ليست معقد إجماع تام بين المسيحيين، وقد تدفع هذه المجاراة التي يتصنعها ديدات في خضم عفوية السرد بالقارئ المتسرع إلى الحكم عليه باعتقاد ما يعتقدون، حين لا يعمل النظر في موقفه الحواري، أو عندما يعتريه نسيان منطلق ديدات في وضعه لهذا الكتاب، ومقصده من هذه الدراسة التي تشكل خلاصة سنوات من رحلة البحث عن الحقيقة لإثباتها. ودرءاً لأي ظن نقيض لحقيقة عقيدته يلجأ ديدات إلى تسليط الضوء على آراء خارجة عن العقيدة الصليبية الموروثة، مما يفهم منه أن ديدات يعرض من خلال الآخرين عقيدته التي تتقاطع مصادفة في هذا الجانب منها مع بعض الاتجاهات المنشقة عن صف الفكر الصليبي العام[2].

وفي سبيل نقده العقلاني لموضوعه الأساسي وهو مسألة صلب المسيح «يعرض صورة فوتوغرافية لاجتماع ناد يضم سبعة أشخاص ممن يقال تجاوزاً بأنهم عادوا من عالم الموتى»[3]. ويأتي هذا العرض إثباتاً لما مفاده أنه قد يحكم على المرء بالموت في حالة تعرضه لنوبة قلبية أو وقوعه في غيبوبة طويلة، ثم لا يلبث أن يفيق ويصحو من

---

(1) ينظر المصدر نفسه «مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 66.

(2) ينظر المصدر السابق ص 84-86.

(3) ينظر المصدر نفسه ص 83-84.

الموت الحكمي الذي قد يقع في خطأ توثيقه والتصريح به بعض كبار الإخصائيين من الأطباء. الأمر الذي لا يستبعد معه خطأ العامة أو تواطؤهم على الكذب فيه. وما يرمي إليه ديدات من وراء هذه الظاهرة هو إثبات أن يكون المسيح عليه السلام قد خضع للتسمير على المصلبة دون أن يستلزم ذلك بالضرورة موته على الصليب .

وفي هذا الموضوع كغيره من موضوعاته، تفرض العناية بالمسائل اللغوية نفسها على ديدات، فيبدى نحوها اهتماما خاصاً، بتحديده للمصطلحات وضبط المراد من بعض الألفاظ تفادياً من أيّ فوضى فكرية، وإجهاضاً لأي نقاش محتمل حول المفاهيم بمعزل عن جوهر المشكل وطبيعته العقدية[1] .

وتتجه عنايته في هذا الكتاب إلى إيراد إشارات متفرقة عن نطاق التحدي والضعف في العقيدة الصليبية الملفقة، وهي مطاعن حساسة، اكتسب ديدات العلم بها من واقع تجربته الحوارية مع المسيحيين كمناظر، ودارس خبير بالمسيحية. على أن إثارته لتلك الملاحظات بالإشارة إليها تعكس عن نتاج قلمه - رغم هدوء جو الدراسة - روح المناظرة وطابع التعبئة والمواجهة، إذ من اليسير أن يتخيل القارئ في ظلها مناظرة جارية بين طرفين، يتجاذبان فيها أطراف الحوار، ويتقاذفان بالقضايا والردود على نحو متبادل[2] . ويبدو لي بذلك أن الشيخ ديدات حتى بقلمه المناقش محافظ دوماً على قدرته الفذة في محاصرة الخصم في زوايا ضيقة ومظلمة للإجهاز عليه بعد إحْراج شديد، وتجريح مقعد طالما ظل معانداً ومكابراً أمام الحقيقة. ومن ذلك قوله: «ولقد كان يسوع قد قال: إنه سيكون مثل يونان، وأتباعه المتحمسون يقولون إنه (لا يماثل) يونان، من يكذب من، يسوع أم أتباع يسوع؟ أدع لكم الإجابة»[3] .

والواقع أن لا سبيل إلى إنكار ما بذله ديدات في هذا الكتاب من جهد غير يسير في قراءته وتحليله للنصوص الواردة بشأن قضية الصلب، للوصول إلى حجج منطقية تفيد

(1) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 136 .

(2) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء ص 124-125 .

(3) المصدر نفسه ص 144 .

في جملتها أن القضية مفتعلة، ولا أساس لها من الصحة إطلاقاً. حيث يحتوى الكتاب دراسة نقدية تخترق ظاهر النصوص، لتقدم ما يثبت بطلان أكبر قضية عقدية في الفكر الصليبي، وهي قضية الصلب التي ينتمي إليها هذا الفكر، ويدين لها بالوجود.

وإزاء هذا الجهد الكبير وفي خضمّه، يتلاشى ويهون كل ما يمكن أن يلاحظ عليه، أو يسجل من سقطات هينة غير ذات أهمية اعتبارية، والتي من أمثلتها قوله عن مدينة نينوى: وهي مدينة عظيمة كان تعداد سكانها يبلغ مائة آلف نسمة[1]؟.

وهكذا يرد دونما أي سند أو نقد لهذا العدد المرتفع الذي قلما يسلم من الرمي بسهم المبالغة.

كما أنه من جانب آخر تغلب عليه ظاهرة الإفراط في العنونة، وذلك ربما لإعانة القارئ على الفهم والاستيعاب المفصل، لمختلف الجزئيات الواردة في الكتاب جليلها ودقيقها، ليسهل هضم الموضوع على العوام من القراء، وهو مالا يستبعد أن يكون الشيخ قد تصوره بعين الاعتبار. ولكن هذه الظاهرة تمثل في الوقت نفسه بالنسبة للقارئ المتخصص أو المنهجي على الأقل عاملاً قاضياً على الوحدة الموضوعية، وذلك لحشوه الموضوع بعموميات لا صلة قريبة بينه وبينها أحيانًا مما يعمل على تفكيك نسيج الصورة العامة للموضوع المحوري الذي يراوح حوله الكتاب.

ومن حيث أسلوب الحوار والمناقشة يبدي قدرة فائقة على استدراج الخصم للاعتراف بالحقيقة، والتي لا تكون في صالح عقيدته غالبًا. ومن ذلك ما ورد ضمن أسئلته التي وجهها إلى أحد محاوريه بقوله: «وقلت: من ذا الذي خدع ملياراً ومائتي مليون من المسيحيين في العالم بمن فيهم الروم الكاثوليك، الذين يدّعون وجود سلسلة متصلة الحلقات من البابوات لديهم بدءاً من القديس بطرس حتى اليوم، من الذي خدعهم بخرافة تمجيد يوم الجمعة؟، وأجاب السيد فاهاي دونما خجل «الشيطان» فقلت: إذا كان الشيطان يستطيع أن ينجح في أن يضلل المسيحيين وأن يبقيهم في

(1) المصدر نفسه ص 138.

ضلالهم لمدة ألفي عام في أبسط مظاهر الإيمان؛ فكم يكون الأمر أسهل على الشيطان ليضلهم فيما يتعلق بطبيعة الله ؟، واحمرَّ وجه السيد فاهاي ومشى مبتعداً[1].

على أن من المثير حقاً في هذا الكتاب أن مناقشات ديدات تعكس واضحاً اعتقاده بعملية صلب المسيح من غير موت على الصليب، إذ يرى أنه لا تلازم بين الأمرين. فلذا يجهد في التكثيف من أمثلة حية - تمت في محاكاة ما ينسب للمسيح من صلب مزعوم -، دون موت أصحابها، وذلك في الفلبين وجنوب أفريقيا وغيرهما[2]. فكان ديدات يناقشهم بمنطق من يريد أن يقول لهم: وإن اشتركنا في الاعتقاد بمبدأ الصلب المجرد إلا أن الأدلة التي تدلون بها من خلال النصوص والروايات لا تدل على موته على المصلبة، إذ لا يلزم بشهادات واقعية معاصرة من تحقق حمل الشخص على المصلبة موته في كل الأحوال، ومن ثم يتهافت صرح ديانتكم ببطلان عقيدة الفداء والتكفير. ولا شك أن هذا الرأي الذي يتبناه ديدات يُعَدّ شاذًا في ضوء الرواية القرآنية المعبرة في نفيها للحادثة بلفظتي القتل والصلب، إذ يقول تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء: 157].

وهذا النفي المنصب على اللفظين معـًا أمر له أهميته في الدلالة على استقلالية معنى كل منهما عن الآخر وإن كليهما مقصودان على وجه التحديد؛ إذ لو كان لفظ الصلب في حد ذاته يحتوى بالبداهة على معنى الموت لاكتفى القرآن بنفيه لوحده، دون اللجوء إلى اللفظين معًا، وذلك تفاديًا من هذيان لا طائل من ورائه أو إطناب لا مبرر له مما لا خلاف بين المسلمين في معصومية كتاب الله المحكم عن كل ما ينتمي إلى هذا القبيل. ومما تجدر الإشارة إليه في ختام مناقشاتنا لهذا الكتاب هو أن معربّه قد ألحق به حواراً طريفـًا يصب في جدول المقارنة بين الإسلام والمسيحية، مركزاً على التثليث

(1) المصدر السابق ص 152.

(2) ينظر: المصدر نفسه في كل من ص 13-174-178.

وتاريخ الأناجيل، ومسألة الصلب، ومصير المسيح بعد المؤامرات التي نجاه الله منها. وقد أردف هذا الحوار لتمام الفائدة بفتوى أزهرية من فضيلة الشيخ محمود شلتوت بشأن نهاية أمر المسيح، ومسألة عودته وبيان حكم الاعتقاد بالعودة وعدمه[1].

وإن هذا الحوار الذي أضافه الأستاذ علي الجوهري - مع قصره - يترجم بحق حماس الإنسان المسلم في كل المستويات وبمختلف التخصصات في الإدلاء بدلوه للدفاع عن عقيدته وذلك كلما توفر قدر ولو قليل من القدرة على ذلك.

3 - عتاد الجهاد: خلاصة خمسين عاماً من البحث عن الحقيقة[2]:

يشير ديدات في هذا الكتاب الذي وصفه المعرب بأنه أهم وأحدث كتيب أصدره العلامة أحمد ديدات[3] قضايا بالغة الأهمية، ويلفت فيه الانتباه إلى موضوعات ذات خطورة صارخة في دراسة ونقد الكتاب المقدس. ويظهر أن ديدات قد وضعه ليكون بمثابة فهرس موضوعي يستعان به في الاهتداء إلى متناقضات الكتاب المقدس ومطاعنه، وهو بذلك كشاف يوفر على القارئ جهد الدراسة النقدية والتأمل الفاحص في مغالطات ما وصفوه بالمقدس، إذ بمجرد الحصول على نسخة من الكتاب المقدس بجانب هذا الكشاف يكون بإمكان الدارس في هذا المجال الاستغناء عن غيره في بيان ما يتعين التركيز عليه من قضايا نقدية. وهو ما أشار إليه ديدات مبيناً طريقة استخدامه في قوله: «وأول شيء يلزمك هو أن تحصل على نسخة من الإنجيل، ثم قم بلصق وتثبيت نسخة من هذا الكتيب (عتاد الجهاد) بالغلاف الداخلي للكتاب المقدس، ثم استخدمها كفهرس، وتصفح هذا الفهرس الذي قمت بتثبيته، ثم .. في الخطوة الثالثة اختر موضوعاً من موضوعات الفهرس»[4]. ولأهمية الكتاب ومكانته في خدمة الدارسين والباحثين صوره المؤلف صاروخاً علمياً مضاداً لصواريخ الأعداء بقوله: «وسيمكنك

---

(1) ينظر بشأن كل من الحوار والفتوى: مسألة صلب المسيح، ص 189-203.

(2) كتاب عرّبه علي الجوهري ونشرته دار الفضيلة.

(3) ينظر: عتاد الجهاد، ص 5 مصدر سابق.

(4) المصدر نفسه ص 8.

هذا الكتاب الصغير عندما يكون في متناول يدك أن تعترض مسار صاروخهم من طراز سكود بصاروخ من طراز (باتريوت) ولتحقيق هذه الغاية من الضروري أن تقوم ببعض الجهد»[1]. جهد لابد منه ثمنـًا للنجاح في أي عمل شريف، وسعي نبيل، وبالأخص في ظرف تدأب فيه الجهود التنصيرية على نحو حثيث ومكثف؛ حيث قامت بترجمة الكتاب المقدس إلى ألفي لغة من لغات العالم، مخصصة خمس عشرة ترجمة للإخوة العرب وحدهم باللغة العربية الفصيحة، ومختلف اللهجات الدارجة. وهذه حقيقة يؤكدها ما نص عليه أحد مؤتمري كلورادو بقوله: «ونظراً إلى تعدد اللهجات في اللغة العربية فإنه يجري العمل في ترجمة الأناجيل الأربعة إلى اللهجة العربية اللبنانية، وقد نشرت الكتب المقدسة أيضـًا باللهجات العربية الجزائرية والتشادية، والمصرية والفلسطينية والسودانية، إلا أن تلك الترجمات لم تجد قبولاً يذكر، وعلى الرغم من أن هناك دائمـًا اهتمامـًا ثقافيـًا أو قوميـًا باللهجات المحلية إلا أن سيطرة اللغة العربية الفصحى لم تتأثر بأيّ محاولة في هذا الصدد»[2]. وقد أشار ديدات إلى هذه الترجمات مقرونة بتواريخ نشرها في كتابه «عتاد الجهاد» والذي هو في واقعه مجهر مطاعن اليهود والنصارى، إذ يقوم على حشد وعرض تناقضات كتابهم في قضايا ذات موضوع واحد لا سبيل بحال من الأحوال إلى التوفيق بينها، مركزاً بعناية خاصة على ما ورد فيه من حكايات غير أخلاقية، وما يتضمنه من بذاءة وفحش ينأيان به عن أبعد مسار لصفة الوحي الإلهي الصحيح، ويسلب عنه كل صفة للقداسة ولو مزعومة؛ حيث يفيض الكتاب بخلاعة ما جنة ووضاعة سافرة.

إن المتابعة النقدية للجوانب الأخلاقية في الكتاب المقدس قد أوصلت ديدات إلى حكم موضوعي صاغه في قوله: «سل المبشر المسيحي المنصر عندما يقترب منك، سله عن تعريفه للنكاح المحرم بين أقرب الأقارب كالأب وبناته، أو الأم وابنها، أو الأخ وأخته،

(1) المصدر نفسه ص 8.

(2) التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، ص 546، مرجع سابق.

وسله عن رأيه فيه . . . وهكذا يثبت ويتضح أن الكتاب المقدس كتاب غير أخلاقي»[1] .

إن ديدات وهو ينقد الكتاب المقدس موضوعياً يهتم بالمقارنة بين الترجمات الإنجليزية والعربية ، للكشف عن واقع التزييف والخداع والتلاعب بالألفاظ من خلال الترجمة ، بتسريب وتمرير معان غير دقيقة في مطابقتها للنص المترجم ، كما يعمد المترجمون إلى إسقاط بعض الألفاظ ، والتصرف في البعض الآخر منها ، بتلطيف أسلوب التعبير أثناء الترجمة أحيانًا .

وفي هذا الكتاب كغيره من تراث ديدات يظهر بجلاء أنه قد استفاد من القرآن الكريم في نقد عقائد النصارى وذلك باعتماده عليه في بطلان ألوهية المسيح وإثبات بشريته بمختلف المناقشات والإلزامات التي يواجه بها القرآن الكريم أدعياء ما تنزه الله عنه وتعالى عن التلبس به علوا كبيراً. وأهم الموضوعات التي يعرضها الكتاب ضمن موضوعاته الأربعة والأربعين يتراوح ما بين إلهيات وأخلاقيات ، منها الله وصفات متناقضة له عندهم ، ليس الله سبب الفوضى ، أبناء الله ، هل كان عيسى عليه السلام إلهًا معدوم القدرة . وأما الأخلاقيات فمن أمثلتها : نكاح المحرمات من الأقارب ، هل كان عيسى عنصرياً ، أنبياء ولكن عراة ، الرق والعبودية بقرار إلهي ، البغاء ، وغيرها من موضوعات تفوح برائحة الوقاحة ، وتنم عن عقلية منحطة ، وحياة شاذة منحرفة . وإنّ تصفحًا سريعًا لفهرس محتويات الكتاب كاف لوحده لتكوين صورة عن أهم تلك القضايا ، والخروج بتصنيف موضوعي لها .

إنّ كتاب عتاد الجهاد - والذي يمثل خلاصة ما خرج به ديدات من رحلة نصف قرن في أعماق دراساته النقدية للكتاب المقدس - كتاب متواضع في مظهره ، بسيط في حجمه ولكنه غال نفيس في جوهره ، جليل في موضوعه ، فهو يشكل بحق عتاداً وافياً بمتطلبات الحوار والمناظرة مع أهل الكتاب المقدس . ولهذه الأهمية الكبيرة لهذا الكتاب فليس من قبيل التجاوز أو المبالغة وصفه بأنه بداية للمجتهد ونهاية للمقتصد في علم

(1) عتاد الجهاد ، ص 8-9 ، مرجع سابق .

مجادلة اليهود والنصارى. ولعل تأليف هذا الكتاب مما يؤكد مجدداً رغبة ديدات في التهيئة لخلافته في أداء الدور العظيم الذي اضطلع به في معظم فترات حياته، الأمر الذي دفعه إلى المبادرة بتسجيل أهم ما يمكن أن يوجه إلى الكتاب المقدس من قضايا نقدية حساسة، وذلك إسعافاً لمريديه وكل ذوي الهمة في التصدي لحملات التنصير والتهويد بما يعينهم على المواجهة الناجحة، والمقاومة الحاسمة. وإنّ الطريق إلى حلبات الحوار مع اليهود والنصارى بات ممهداً بفضل جهود ديدات وغيره إلى حد يشجع على اقتحامه برؤية واضحة، ومنهجية فاعلة، وعدة فائضة. ومن هذه النماذج عن كتابات ديدات في مجال الحوار ننتقل لعرض لون آخر منها، مما ينتمي إلى الخط الدّعوي العام.



المبحث الثالث

من كتاباته الدّعوية في موضوعات إسلامية
القرآن معجزة المعجزات
الرسول الأعظم محمد ﷺ

في إطار نشاطه الدّعوي الواسع، واهتمامه بكل ما يرفد حركة العمل الإسلامي في مختلف مناحيها الفكرية والثقافية، كتب ديدات عدداً من الكتيبات في موضوعات إسلامية عديدة هادفاً منها تزويد عامة القراء من المدعوين بمعلومات جذابة ومؤثرة عن الإسلام ورسوله ﷺ ومن بين تلك الكتيبات الكثيرة نستعرض اثنين منها، وذلك عن القرآن الكريم باعتباره مصدر الإسلام الأساسي، وعن الرسول الأعظم مبلغ هذا المصدر بكل ما لا يتم البلاغ التام بدونه.

1 - القرآن معجزة المعجزات[1]:

إنّ كتاب «القرآن معجزة المعجزات» للشيخ أحمد ديدات، يمثل بالنسبة لي محاولة متواضعة في حقل الدراسات القرآنية، وفي الجانب الإعجازي منها خاصة، ونظراً لعدم ضلوع المؤلف في هذا الفن، وقصر باعه في هذا المجال المجهول لديه، والذي يقتحمه للمرة الأولى بهذا الكتيب، فإنه ظل أميناً وحريصاً على معلومية القارئ بأنه غير متخصص في هذا الشأن، وأن هذا الجهد الأوليَ لا يعدُو كونه محاولة فجة في جانب ضيق من موضوع فسيح قد بهره واستحوذ على عنان قلمه، مما دفع به إلى إصدار هذا الكتيب. على أن القيام بالمهمة على أوفى وجه مسلم به أولاً وأخيراً متروك للمؤهلين لها من أولى الاختصاص، وللأعلمين بالدراسات القرآنية من علماء المسلمين. وكأنّ هَمّ ديدات حين يلقى معاذيره على هذا النحو هو أن يعلن للقارئ براءته من الرغبة في مزاحمة المتخصصين، حيث إنه يصرح بذلك في قوله: «القرآن الكريم معجزة كبيرة، هو كتاب معجزات يمكن أن يعرض من جوانب لا تحصى، ولقد حاولت أن أشارك في بعض هذه الجوانب التي بدت لي كرجل غير متخصص والتي بهرتني، وليس هناك نهاية لمثل هذه الأبحاث، وأترك هذه المهمة إلى أخوتي الأكثر علماً والمتخصصين بالدراسات الإسلامية، وأتمنى أن أعيش لأرى نتيجة جهدهم»[2].

(1) كتيب يقع في مائة واثنتي عشرة صفحة، نشرته دار المختار الإسلامي المصرية بتعريب علي عثمان، ويمثل الحلقة الـ 20 من سلسلة مكتبة ديدات المنشورة عن هذه الدار.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص 104 مصدر سابق.

وتأكيداً لعدم اختصاصه، تدفعه الأمانة العلمية إلى الاعتراف بمصدر فكرة البحث، وتاريخ الاهتمام بالموضوع، مفيداً بأن بذوره الأولى تمتد إلى ثلاثينات القرن الإفرنجي المنصرم، وتحديداً عام 1934م، وذلك إثر استماعه - وكان لا يزال تلميذاً - إلى محاضرة بنفس العنوان كان قد ألقاها أحد الدعاة الرحالين في إحدى زياراته لجنوب أفريقية، وهو الداعية عبدالعليم صديق وقد أبدع ديدات في الإشادة به وأوفى في التنويه بشأنه الذي تناول في تلك المحاضرة موضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ودعوة الإسلام إلى العلم وما يتصل به من بحث وتأمل، معرّجاً في وقفة ممتدة على دور علماء المسلمين، وجهودهم العلمية الكبيرة في إثراء وتشييد صرح الحضارة الإنسانية. وقد لازمت الشيخ ديدات إيحاءات هذه المحاضرة التي نالت إعجابه فظلت بعض معلوماتها عالقة بذاكرته، الأمر الذي ما برح دوماً يشده قويّاً نحو هذا الموضوع، فدفعته بقايا تأثيرات المحاضرة على مر السنين إلى الإقدام على كتابة ما أظنه خلاصة المعلومات والأفكار الواردة في تلك المحاضرة.

وتأسيساً عليها؛ يحاول ديدات في مطلع كتابه تقديم عدد من التعريفات لتحديد وضبط مفهوم المعجزة باعتبارها محك البحث والدرس في هذه المحاولة، وقد ساق لهذا الغرض عدداً من التعريفات متمثلة في قوله:

1 - «حدث لا يمكن تفسيره حسب قوانين الطبيعة إلى قوة خارقة، أو أنه من صنع الله القادر.

2 - المعجزة هي شخص أو شيء أو حدث يثير الرهبة والرعب المقترن بالإعجاب.

3 - هي فعل فوق طاقة البشر، أي يستحيل حدوثه بشرياً»[1].

والملاحظ عندي على تعريفاته للمعجزة قصورها، وأنها تنم عن نقص المعرفة بمفهوم المعجزة وأركانها في تحديد علماء المسلمين لها، وذلك فيما أورده الزحيلي في حديثه عن حجية القرآن الكريم بقوله: «الإعجاز: معناه نسبة المعجزة عن الغير في محاكاته والإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه، ولا يتوافر معنى الإعجاز إلا بثلاثة

(1) المصدر السابق، ص: 8.

أمور: التحدي، أي طلب المباراة، والمعارضة، وأن يوجد المقتضى الذي يدفع المعارض للمباراة، وأن ينتفي المانع الذي يمنعه من هذه المباراة»[1]، وهذا المفهوم للمعجزة أمنع من تعريف ديدات لها .

ومن تعريفه للمعجزة ينتقل ديدات للحديث عن الطبيعة الإعجازية للقرآن الكريم مقَدّمًا دليلين عليها، يقوم أحدهما على دليل أمية الرسول ﷺ، ويستند الآخر إلى محتوى القرآن الكريم من حيث اشتماله على علوم ومعارف إنسانية متعددة تخرج معرفتها بطبيعة الحال عن طوق أميٍّ عاش في عصور جاهلية لم تتوفر فيها على المستوى الإنساني العام أسباب المعرفة بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الجمة. ومن منظور آخر نجد أن هذين الدليلين لا يخرجان عما عرف عند المحدثين بالسند والمتن وذلك حين نمعن فيهما النظر ونرجعهما إلى الأصل .

وفيما يبدو حديثاً عن وجوه الإعجاز القرآني، يشير ديدات أولاً إلى النسج الدقيق والتركيب الأسلوبي المحكم للقرآن الكريم. وقد قال عن هذا الإحكام: «كل كلمة في النص الأصلي للقرآن الكريم، اختيرت بدقة متناهية وأخذت موضوعها بحكمة الله القدير، فالكلمات تحمل معانيها من قبل الله وهي معجزة من معجزاته، وفيض من روحانية القرآن»[2]. وهذا الوجه الأول يفتح الباب واسعاً لدراسة الجوانب البيانية في المعجزة القرآنية بلغتها العربية، ولأهمية هذا القيد اللغوي يتطرق ديدات إلى إثارة قضية تراجم معاني القرآن الكريم، مشيراً إلى ما يعتريها من عجز في الحفاظ على هذا الجانب الإعجازي في التركيب والنسج، وأن بعض المغرضين قد تعمدوا الإساءة إلى الإسلام من مدخل الترجمة، من أمثال المستشرق البريطاني جورج سيل الذي قال عنه ديدات: «لقد كان فحسب يبر بوعده في الإساءة للإسلام»[3]، وهذه الوقفة التي يخصصها ديدات لهذه

(1) الدكتور وهبة الزحيلي، أصول الفقه، ص 24، ط1/ 1400، من و. ر_ 1990 م من منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص 17 مصدر سابق.

(3) المصدر نفسه ص 16.

القضية هي عبارة عن دعوة لبذل المزيد من الاهتمام بشأن موضوع خطير طالما تدارسه المسلمون في مقالات، وبحوث، وندوات، وسعوا فيها لوضع ضوابط ملزمة لا بد منها لمن يتصدّى لترجمة معاني القرآن الكريم. وقد أوردها الزرقاني فيما نصه :

أولها : معرفة المترجم لأوضاع اللغتين : لغة الأصل، ولغة الترجمة .

ثانيها : معرفته لأساليبهما وخصائصهما .

ثالثها : وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده على نحو مطمئنّ.

رابعها : أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل بحيث يمكن أن يستغنى بها عنه، وأن يحل محله كأنه لا أصل هناك ولا فرع»[1] وعلى الرغم من اكتفاء ديدات بمجرد الإشارة فحسب دون العناية بضبط قواعد العمل الترجمي لمعاني القرآن الكريم فإني أعتقد أنها ليست أموراً غائبة عنه .

والوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن في كتاب ديدات هو : اتساق النسق القرآني : أي تناسق محتواه، وانسجام مضمونه دون قلق ولا تنافر، وهذا الانسجام البديع، والعصمة من التناقض رغم تنجمه على مدى ثلاث وعشرين سنة يعد من أقوى الأدلة على بطلان القول بأنه مؤلف بشري .

وجريًا على المعهود عنه في كتاباته يطالعنا ديدات في تعزيز فحوى ما ذهب إليه، بإيراد عبارات ثناء غربي على القرآن الكريم وأسلوبه الفريد مركزاً على إبراز بعض الإشارات العلمية في القرآن في جوانبها الفلكية، والجيولوجية والبيولوجية، الأمر الذي يدل على تجاوبه مع أصداء البحوث والدراسات الحديثة عن وجوه الإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى. ولعل أهم ما في هذا الإيراد هو وعيه بالبعد الوظيفي لتلك الإشارات في مجال الحوار والدعوة، ويتجاوز وعيه مدى هذا البعد إلى محاولة رسم معالم منهج محاورة العلميين الملحدين من مختلف التخصصات؛ وذلك بالاستعانة بمعطيات

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 2/ 123، ط1/ 1409هـ= 19888م، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان. .

الإعجاز العلمي . للقرآن ، والتي تشكل عدة وزاداً للمحاور المسلم على الصعيد العلمي ، وهو ما وجه إليه ديدات الدعاة بقوله : «إذا عوّدنا أنفسنا على التعامل مع حقائق القرآن سنكون قادرين على فتح مجالات الحديث مع أي متخصص في فروع العلم»[1] .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستخدام للإشارات العلمية في مجال الدعوة والحوار هو توجه سليم ، وله ما يبرره ، ولكن بشرط تأطيره بالضوابط العلمية التي ذكرها بعض العلماء في منهجية التفسير والإعجاز العلميين للقرآن الكريم . وتتلخص فيما أَوْرَدَهَا الدكتور مصطفى مسلم في كتابه : «مباحث في إعجاز القرآن» وهي كما يلي :

1 – اعتقاد أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى وليس كتاب علوم وكونيات .

2 – ترك الإفراط والتفريط لدى النظر في الآيات الكونية .

3 – الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن المضامين العلمية بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهًا في التأويل .

4 – الاكتفاء بالحقائق العلمية مناط الاستدلال ، وعدم الاستدلال بالنظريات والفرضيات العلمية .

5 – عدم حصر الآية على الحقيقة الواحدة ، بل إبقاء دلالة الآية مفتوحة تحتمل كل ما يتفق مع معناها .

6 – اليقين باستحالة التصادم بين الحقائق القرآنية ، والحقائق العلمية .

7 – اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة ، بالنظر في الآيات الربانية في الكون والنفس والآفاق والوقوف على سنن الله في ذلك[2] .

والوجه الإعجازي الثالث من كتاب «القرآن معجزة المعجزات» هو الإبداع في

---

(1) القرآن معجزة المعجزات ، ص : 60–61 ، مصدر سابق .

(2) نقلاً عن الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي من كتابه : البيان في إعجاز القرآن ، ص 273 ، ط3 1413هـ=1992م ، دار عمار ، عمان ، الأردن .

صياغة القرآن : حيث إنه فريد دقيق في أسلوب تعبيره الذي يعلو على النمط البشري العادي في الكلام تركيزاً وإيجازاً ، وإن هذا الجانب يشكل إعجاز إعلامياً ابتكره القرآن وتفرد به دون سائر ما هي متداولة من الأسفار المقدسة ، فسجل بهذا الابتكار ذروة الكمال الإعلامي[1] .

والقرآن الكريم في إعلامه النموذجي يقوم على الاختزال الحاسم بإيراد معان مكثفة في ألفاظ قليلة على نحو يغري بوصفه طبقاً لديدات بأن : «القرآن الكريم من الممكن وصفه بأنه كتاب البرقيات الإعجازية ، وهكذا أوحي الكتاب في صورة رسائل تلغرافية موجهة كجواب على الأسئلة»[2] . والواقع أن كونه إجابات مما يصدق على بعضه لا على كله .

وتجلية لما وصفه بالأسلوب البرقي يعقد ديدات مقارنة قصيرة بين كل من الأسلوبين ؛ القرآني الكريم ، والنبوي الشريف ، وذلك في مسألة تحريم الخمر ، مريداً الوصول من ورائه إلى فارق جوهري بين تعبيرين أحدهما إلهي مطلق ، وآخر ينتمي إلى عالم النبوة وهو عالم بشري نسبي .

ويذهب ديدات إلى تقرير ما يفيد : أن مترجمي معاني القرآن الكريم قد أفادوا من هذا الاختزال في الأسلوب القرآني متأثرين بنهجه في ذلك ، وقد دعا القارئ إلى التأكد من صحة هذا التأثير بقوله «من فضلك قارن الآيات السابقة[3] مع أي ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم ، ترجمة بواسطة صديق أو خصم وستجد نفس الإيجاز والاقتصاد في الكلمات» [4] .

ومن الأمثلة التي ترد في سياق البرهنة على الأسلوب التلغرافي إلى جانب مثال تحريم الخمر ينطلق ديدات من قصة موسى عليه السلام في نزوحه إلى مدين وإقامته بها ،

---

(1) ينظر : القرآن معجزة المعجزات ، ص 60-61 .
(2) المصدر نفسه ص 73 .
(3) هي آيات عن قصة موسى عليه السلام في أول وحي إلهي إليه بطور سيناء .
(4) القرآن معجزة المعجزات ، ص : 68 .

وخبر تلقيه للخطاب الإلهي بسيناء إثر عودته مع أهله من مدين، مُرُوراً بأجوبة على أسئلة من سألوا عن الأهلة، والإحسان، وعن الساعة، والروح. للوصول أخيراً إلى الإعجاز العقدي في سورة الإخلاص التي نعتها الشيخ بمحك الذهب القرآني[1].

وفي حديثه عن سورة الإخلاص يستطرد في بيان المناسبة الحوارية التي نزلت في أجوائها السورة، مفيداً بأنه عليه الصلاة والسلام استضاف وفداً من نصارى نجران فأكرم وفادتهم، وكان مما طرحوه عليه من الأسئلة في نطاق حوارهم معه قولهم: «قل لنا يا محمد ما هو مفهومك عن الله؟» .. وتأتي الإجابة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2].

والصحيح الأرجح عند المفسرين في بيان واقعة نزول السورة خلافاً لما ذهب إليه فضيلة الشيخ ديدات أنها نزلت إما جواباً على المشركين، أو على أحْبار اليهود في حوار عقدي بينهم وبين رسول الله ﷺ[3]، فنزلت السورة رداً على استفسارهم عن جوهر الله الأحد، أوكنه ذاته الصمدية المقدسة. وبالجملة فإن ديدات يرى في سورة الإخلاص مركز الثقل الذي يدور حوله الخطاب القرآني، وهو المحور الجوهري الذي تنزلت بقية آي القرآن وسوره لتوضيحه وحمل الناس على الاعتقاد به، وقد كتب معبراً عن هذه الرؤية فيما نصه: «في كل الكتب الدينية في جميع أنحاء العالم لا توجد أي كتابة يمكن مقارنتها حتى بهذه السورة الصغيرة[4]، وهي سورة الإخلاص، وإذا كانت هذه السورة هي الاختبار الحاسم في علم اللاهوت والقدرة الإلهية في تركيز

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص 85.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص: 91.

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني، ج 5/ 131، ط2/ 1419هـ=1988م دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، وينظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج 30/ مج 15، ص 611 ط، دار سحنون عام 1997 في تونس، وأيضاً: صفوة التفاسير محمد علي الصابوني، مج 3/ 621، ط 1/ 1414هـ=1994م من منشورات دار القلم العربي، بيروت.

(4) والأولى: التعبير بالقصيرة بدلا من الصغيرة.

أعظم المعاني في أقل الكلمات، فبقية القرآن هي تفسير وتوضيح لها . . »[1].

وفي ضوء تأمل ديدات في سورة الإخلاص يكتشف منها وجهـاً رابعـاً مـن أوجه إعجاز القرآن الكريم، يتمثـل في : تفـرد الله في صفاتـه : وهـو لـون إعجـازي في مجـال اللاهوت ؛ حيث تظهر إعجازيته في قصور البشر - من تلقاء أنفسـهم - عـن إيـراد ولـو بضـع صفـات لله عـز وجـل فضـلاً عـن عشـرات منهـا ؛ ولـذا يتحـدى ديـدات أحبـار اللاهوت بقوله : «ستكون تجربـة جيـدة لنـا أن نسـأل أكثر أصدقائنـا علـى أن يسـرد لنـا بعض صفات الله، وأنا أؤكد لك أنه مع كل ما لديهـم مـن علـم فـإن أسـاتذة اللاهـوت والحاصلين على درجة الدكتـوراه في اللاهـوت لـن يستطيعوا أن يعـدوا لنـا حتـى اثنتـي عشرة صفة»[2] في حين نجد أن القرآن الكريم يزودنا بتسعة وتسعين اسماً من أسماء الله تعالى مبثوثة في ثناياه، تتضمن تلك الأسـماء أروع وأجـل مـا يليـق بمقامـه الأعلـى مـن صفـات الجمـال، ونعـوت الجـلال، وفي مقدمتهـا اسـم الجلالـة [الله] باعتبـاره الجوهـرة الكبرى فيما شبهه ديدات بعقد من حبات اللؤلؤ.

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار لدلالتها الهامة، أن قائمة القـرآن بأسـماء الله تعـالى تخلو تماماً من لفظ «الأب» مع أنه أقرب الصفـات البشـرية التـي يتهيـأ للإنسـان العـامي لأول وهلة، وبكل عفوية وبساطة إطلاقها على الله تعالى في حال افتقـاره إلـى الوحـي الإلهي الصحيح، وفضلاً عن ذلك، فإن : «كلمـة الأب كصفـة مـن صفـات الله كـانت تـتردد أمامـه ؛ النبـي ﷺ خـلال سـنوات نبوتـه الثلاثـة والعشـرين التـي قضاهـا في تبليـغ الدعوة، لكنه نحّاها وأبعدها عن مجمـوع الصفـات التي كـان يسـتخدمها عامـة ولمـدة تزيد عن العقدين من الزمان، وبالتالي من علم اللاهوت الإسلامي»[3].

وتأكيداً على إلهية المصدر القرآني بجوار الأوجه الإعجازية المتقدمة يجتر ديـدات في هذا الكتيب معلومة تتكرر عنده في أكثر من مصدر، مبناها : أن القرآن الكريم يذكـر

(1) القرآن معجزة المعجزات : ص 93.
(2) المصدر السابق ص : 96.
(3) القرآن معجزة المعجزات ص 97-98 المصدر السابق.

المسيح بالاسم أكثر من المواطن التي يسمي فيها النبي ﷺ، كما يتضمن سورة تكريمية لأم المسيح على نحو فريد لم تحظ بمثله امرأة غيرها، وتفاديًا مما يمكن أن يترتب على هذا الطرح من سوء فهم مبني على مقارنة خاطئة بين الرسولين العظيمين، يبادر ديدات إلى تعليل هذه الظاهرة القرآنية المثيرة بقوله:

ما السبب؟ هل لأن عيسى وأمه أهم من محمد عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه؟ لا، ليس كذلك، إذن لماذا هذه التغطية الإعلامية غير العادية؟ ببساطة، لأن هناك العديد من الاتهامات الزائفة للأم وابنها، كان لابد من دحضها لذلك فإن قصة بشارة الملاك والحمل بلادنس ومولد عيسى عليه السلام لابد من تسجيلها، ولم يكن نسب محمد ﷺ في أي وقت موضع سؤال لذلك لم تذكر كلمة واحدة في كل الكتاب عن مولد محمد أو نسبه، القرآن ليس كتابًا عن سيرة محمد ﷺ هذا شيء يصعب على غير المؤمنين فهمه[1].

وأخيراً في سياق عرضه لأوجه إعجاز القرآن الكريم يعرض ديدات وجهاً خامساً يراها معجزة من معجزات القرآن الكريم، وتتمثل في حفظ الله تعالى لكتابه العظيم؛ حيث قد تعهد الله بحفظه من الضياع، وعصمته من التحريف، وكل محاولات العبث، وضروب التزييف التي تعرض لها غيره من كتب الرسالات السابقة؛ وذلك لحكمة يعلم الله وحده حقيقتها. وقد قال تعالى عن حفظه لما أسماه ديدات بالعهد الأخير: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

إن هذا الوجه الأخير يصح اعتباره لطيفة من لطائف ديدات في دراسة الإعجاز القرآني إذ لم أقف في حدود اطلاعي الضيق على من سبق ديدات في الإشارة إليها[2]. وهي ملاحظة طريفة تستحق الاعتبار باعتبارها إضافة إلى تلك الكنوز الزاخرة في بحر الدراسات القرآنية. وبقيام هذا الحفظ الإلهي ودوامه للقرآن الكريم تظل كل الجهود

---

(1) المصدر نفسه، القرآن معجزة المعجزات، ص: 81.

(2) مع ملاحظة عدم إنكاري إمكانية وجوده الفعلي.

العدائية الرامية إلى محاكاته هراء وضرباً من الهذيان، والطرق في حديد بارد. وعليه فإن أيّ محاولة قائمة أو لاحقة من هذا القبيل تعتبر من غير شك فاشلة وكيداً يائساً مآله الخزي والعار في الدنيا والآخرة. وقد سقنا في مورد سابق ما نعيده هنا لأهميته من قول ديدات بشأن تلك المحاولات العدائية الضائعة، والتي قال عنها: «ولقد حاول البعض تقليد القرآن الكريم، فاستعاروا الجمل والكلمات وحاولوا تقليد الأسلوب حتى بِسْمِ اللهِ الرَّحِمَنِ الرَّحِيمِ أخذوها محاولين أن يخرجوا كتاباً مقدساً على طريقة القرآن، لكن هيهات وإن هذه المحاولة برهان آخر على أن القرآن لا يمكن مضاهاته، حاول ما شئت لكن التحدي يظل قائماً»[1].

هذا وإن كانت ثمة من ملاحظة خاتمة لعرض كتاب «القرآن معجزة المعجزات»، فلا تتعدى تسجيل قناعتي بأن الشيخ ديدات رغم قلة بضاعته العلمية في هذا الموضوع، إلا أنه عالجه بروح ذواقة لأسلوب القرآن الكريم، ونفس مستمتعة بجمال صياغته، وفرادة نسجه، وتركيبه، على أنه وإن كان إلى حد كبير لا يصب جديداً في هذا البحر المحيط إلا أن ما قدمه يظل مفيداً في موضوعه، وتبقى له أهميته البينة بالنسبة للجمهور العارم ممن يتوجه ديدات بخطابه الدّعوي إليهم، ومن ثم لا يطعن في قيمته وطرافته، كونه لا يرقى في نضجه واستيعابه إلى مستوى دراسات قرآنية من قبيل تلك التي قام بها عدد من العلماء المعاصرين من أمثال مناع القطان، صبحي الصالح، ومحمد عبدالعظيم الزرقاني، وصلاح عبدالفتاح الخالدي، وكثير غيرهم ممن توفرت لهم العدة الكافية من أهلية علمية معتبرة لخوض غمار موضوع فسيح من هذا القبيل.

حسبه عذراً أن شتّان ما يفرّق بينه وبينهم من نشأة عملية، وبيئة تعليمية إسلامية، وحسبه عذراً أنه ألقى معاذيره وهو يتلمس سبيله إلى اقتحام مالا قبل له به، وله في كل الأحوال فضل الجراءة والمخاطرة في ولوج هذا اليم الذي لا ساحل له، وهو ينادي على المتخصصين أن أقدموا على القيام بما يتحتم عليكم من واجب دعوي قبل

---

(1) القرآن معجزة المعجزات: ص 112.

فوات الأوان، وإنّ تأخركم عنه في وجه ضغط الحاجة يدفع بأمثالي من المتطفلين إلى تكلف مالا وسع لهم به، تحمساً لنشر الإسلام المتربص به، وإخلاصاً لقضيته الإنسانية السامية وحبا لله ولرسوله وللبشرية جمعاء.

هذا . . ومن أجل رؤية شبه متكاملة - على الأقل - ننتقل بعد هذه الدراسة القرآنية إلى عرض كتيب آخر من تراث ديدات في موضوع قريب الصلة من السيرة النبوية، بل هو - تجاوزاً - جانب من جوانبها مما يتصل بمناقبه وعظمته ﷺ.

2 - الرسول الأعظم محمد ﷺ (1).

يخيل للمرء في بداية اطلاعه على عنوان الكتاب أنه لون من ألوان التراجم، وأنه مؤلف على شاكلة كتب السيرة، والواقع أنه سرعان ما يتلاشى هذا التصور ليتأكد لدى القارئ حيث يتصفح الكتاب ويتهيأ لقراءاته، أنه عبارة عن معرض علمي مصغر لجملة من النعوت والشهادات المنصفة مما أدلى بها بعض الكتاب المستشرقين، إمّا في محاضراتهم أو سجّلوها في مؤلفاتهم عن رسول الإسلام ﷺ في الإشادة بأعظمية شخصيته، وأنه الإنسان الأول نجاحًا وسمواً في هذا الكون وعلى مرّ عصور التاريخ.

ونتيجة لطبيعة ديدات الحوارية المتوسعة تستهويه قضايا هامشية دون أن تكون لها اتصال مباشر بعنوان الموضوع الذي يطرحه الكتاب، وبذلك قد ينسب إليه الافتقار إلى التركيز الموضوعي إلى حدّ ملحوظ.

ومن الناحية الكمية يحشد ديدات في هذا الكتاب نصوصاً منقولة تبلغ حوالي إحدى عشرة شهادة إجلال وتوقير للرسول الأعظم من شخصيات فكرية متعددة، يتصدر قائمتها كل من مايكل هارت، وجيمس ما سرمان، والبرفسور الهندي راماكرشناراو، برناردشو، لاماري، وتوماس كارلايل، غير أنه يخصص لنفسه مع هذين الأخيرين وقفة ممتدة لعرض وتحليل ما يتصل من أفكارهما بتقييم شخصية

(1) كتيب يقع في 144 صفحة، قامت بنشره دار المختار الإسلامي، بعد أن عمل على تعريبه علي عثمان، وهو يشكل الحلقة التاسعة عشرة من سلسلة مكتبة ديدات وفقًا لترقيم الدار الناشرة.

النبي ﷺ وفي ذلك يخضع كتاب الأبطال لتوماس كارلايل لعملية اقتباس مكثف، عارضاً لرأي المؤلف في نبي الإسلام، وعظيم مكانته عنده، وتنويهه بما يمتاز به الرسول الأكرم عن غيره من العظماء من إخلاص، وصدق، وجدية وأمانة. وتأثراً بمبالغة أعداء الإسلام في إشاعة تهمة انتشاره بالسيف فإن ديدات يجد في كارلايل محاميه المفضل وربما الأنسب من غيره - وذلك لأنه جمع بين صفتي الانتماء إلى الغرب وموضوعية البحث العلمي - لدحض هذه الفرية الحاقدة، وتسخيف آراء القائلين بها بالكشف عن عدائهم التاريخي الدفين، نحو كل ما هو إسلامي.

ولا يألو ديدات من جانبه جهداً في تعزيز ودعم مواقف كارلايل الدفاعي، حيث يستعرض عدداً من الدول ذات الكثافة الفائضة من المسلمين، والتي لم تعرف في تاريخ إسلامها سوى جهود الدعاة الصادقين المخلصين، التي دعمت القوة الذاتية لتعاليم الإسلام بكل ما لها من بساطة، وفطرية، ورقي حضاري. ومن الدول والمناطق الكثيرة التي تقع في نطاق هذه الخريطة الواسعة يرد كل من إندونيسيا، وماليزيا، والقارة الإفريقية بساحليها الشرقي والغربي، وما يقع بينهما منحدراً نحو الجنوب، ونظراً لما عليه هذه المساحة الدّعوية من امتداد هائل يتوسع ديدات في دفاعه عن الحق، ومواجهة الخراصين الأفاكين بعرض أمثلة ونماذج كثيرة من هذا النوع، من مناطق انتشار المسلمين في العالم قديماً وحديثاً، وإزاء تلك الأمثلة الكثيرة والشواهد البينة يتساءل مستغرباً:

ماذا يمكن أن يقول الأعداء عن البلاد التي لم يضع فيها جندي مسلم واحد عليها قدمه؟

1 - إندونيسيا: يوجد بها أكثر من 100مليون إندونيسي مسلم لكن لا يوجد جيش إسلامي فاتح أبداً ذهب إلى أي من جزرها الألفين.

2 - ماليزيا: الأغلبية العظمى من شعبها مسلمون بالرغم من أنه لا يوجد جندي مسلم قد دخلها أيضاً.

3 - أفريقيا: أغلبية الشعوب على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى موزامبيق جنوباً وأيضاً معظم السكان على الساحل الغربي للقارة مسلمون لكن التاريخ لم

يسجل أي جيوش مسلمة مهاجمة في أي مكان[1].

وفضلاً عن شواهده الداحضة في هذا الصدد، يُعنى ديدات بالتركيز على مبدأ التسامح في الإسلام ومدى التزام المسلمين به، ومراعاتهم لمفهوم الحرية الدينية في كل من الهند والأندلس في ظرف بلغ فيه الحضور الإسلامي عزه وذروته فيهما، وعلى الرغم مما يسجل للمسلمين من إدارة حضارية متسامحة لشؤونهما إلا أنهم ما قوبلوا في نهاية المطاف بعد زوال دولتهم بغير الاضطهاد، والتنكيل والتهجير والتنصير فيا للتسامح والمروءة ويااللعنف والعار، فأين هذا من ذلك؟؟

وفيما يخص عرض ديدات في كتابه لوجهة نظر المؤرخ الفرنسي لا مارتين إلى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه يضع بين يدي القارئ ما حدده المؤرخ لنفسه في دراسته للقادة العظام وتحديد العباقرة، من مقاييس موضوعية ثلاثة توصل من خلالها إلى استنتاج ما مفاده: أن الرسول محمداً ﷺ أعظم إنسان في تاريخ الوجود الإنساني على الإطلاق، وينقل لنا ديدات معايير لامارتين وما نتج عنها من حكم بأفضلية الرسول الأعظم في قوله: «ويعتقد لا مارتين أن: إذا كانت عظمة الغاية وقلة الوسائل والنتائج المذهلة هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان فمن يجرؤ على مقارنة أي رجل عظيم بمحمد ﷺ[2]؟».

هذا . . . ولتأكيد حضارية طرق ووسائل انتشار الإسلام تأكيداً يدفع كل مظنة لعامل الانتشار بالسيف، يبدي ديدات في هذا الكتاب تفاؤلاً عريضاً بشأن انتصار الإسلام، ومستقبل الدعوة إليه في العالم؛ وذلك استناداً إلى الوقائع المفيدة بأن الإسلام يعتبر أسرع الأديان نمواً وانتشاراً في عالمنا المعاصر، لاعتماده في دعوته على سيف العقل واستلهام نموذج قدوته عليه الصلاة والسلام الذي شق طريقه بنجاح

---

(1) الرسول الأعظم محمد ﷺ ص 87-88.

تعزيزاً لصحة ما قاله وبالأخص في الجملة الأخيرة من النص يتعين التنبيه إلى تلك المعارك السياسية التي اندلعت بين أطراف مسلمة وأنها لم تكن إطلاقاً لغرض فرض الإسلام على الآخرين بحد السيف.

(2) الرسول الأعظم ﷺ، ص 101.

عظيم نحو عالمية الدعوة الإسلامية بالقدوة الحسنة، ومكارم الأخلاق، وبالأسلوب الحواري الرفيع، إلى جانب الرسائل الدّعوية التي وجهها إلى ملوك العالم وأمراء الأمم[1]، ممن حاقبوه ﷺ في ذلك العصر التاريخي الذي خصه الله تعالى وآثره بشرف ظهور رسوله الأعظم فيه.

ولتوثيق علمية ما سجله من سرعة انتشار الإسلام يورد ديدات جدولاً إحصائياً مقارناً بين حركة انتشار كبرى العقائد الدينية في العالم[2]، مع إيلاء اهتمام خاص بالعدد الإجمالي لأتباع كل من المسيحية والإسلام. وفي الموازنة بين الجماعتين يُبَصّرُ بأن اعتماد معيار الكم والانتماء الاسمي الشكلي في هذا الأمر يجعل الميزان راجحاً لصالح الطرف المسيحي بفارق بسيط هو أقل مما يلزم، وذلك إذا أدخلنا في الاعتبار الفاصلَ الزمني القائم بين تاريخ ظهور الدعوتين النصرانية والإسلامية.

وأما إذا كان المعيار النوعي التطبيقي هو المعتبر؛ فإن المسلمين بلا محالة أكثر عدداً وأوفر حظاً من غيرهم. وقد ناقش ديدات هذه القضية موضحاً حقيقتها بقوله: «تقدمت المسيحية الإسلام بـ600 سنة ويدعي المسيحيون أنهم يفوقون أي دين آخر من حيث العدد، هذا صحيح ولكن دعونا ننظر للصورة من منظور صادق.

هناك مسيحيون معلنون إيمانهم في العالم أكثر من المسلمين الذين يعلنون إيمانهم، ولكن هناك مسلمون يطبقون الإسلام في العالم أكثر من المسيحيين المطبقين للمسيحية»[3]. وفضلاً عن ذلك فإني أجد أن ما يفرق بين هذا الكم الفارغ من المسيحيين من فوارق عقدية صارخة هو أكثر مما يجمعهم، بعكس ما عليها الأمة الإسلامية من وحدة نسبية لها اعتبارها.

وإن من الملاحظات الأساسية التي لا غنى عنها لأيّ نظرة موضوعية تهدف إلى عقد موازنة إحصائية بين عدد المسلمين والمسيحيين في العالم، فلابد لها من أن تأخذ في

(1) ينظر المصدر السابق ص 91-107-93.
(2) ينظر المصدر نفسه، ص 93.
(3) المصدر نفسه، ص 116-117.

الحسبان اعتبار القرون الستّة الفارقة بين تاريخ ظهور المسيحية والإسلام من بعدها، مع عدم إغفال معيار الالتزام العقدي وتطبيق الشعائر الدينية عند كل من الجماعتين.

هذا . . وبكلمات مقتبسة تفيض أملاً وتفاؤلاً يختتم ديدات كتابه محدداً دور المسلمين وواجبهم تجاه العالم في إشراقه بنور الإسلام، وإشراك عامة البشر في رحمته تعالى المهداة للعالمين جميعاً، ولا يتهيأ للمسلمين النجاح في أداء هذا الدور الإنساني العظيم في غياب التنور بالإسلام والالتزام به عقيدة وشريعة وأخلاقًا، ومن ثم يتسرب شعاع هذا النور الذي يحملونه في حياتهم بسلوكياتهم الفاضلة، وعقيدتهم المثلى تلقائيًا إلى الآخرين، فيرشدوا بعد ضلال وعماية وتنفسح آفاق حياتهم، وتستنير أعماق نفوسهم لينقشع عنها وإلى الأبد هذا الظلام الموحش، وتتبدد من أجواء إنسانيتهم غموم الشقاء الهالك، ليحفل وجودهم بالنور والبهجة، والسعادة الأبدية .

إن هذا الدور الذي يستنفر ديدات المسلمين له لهو من غير شك فاضل عظيم، وقد اقتبس له عبارات جميلة تغري بنقلها كما نقلها ديدات عن أحد مصادره الأساسية في ترجمة معاني القرآن الكريم وبألفاظها الواردة على هذا النحو :

ماذا يمكننا أن نفعل لنجعل نور الله يشرق عبر الظلمة التي تحيط بنا؟ لابد أولاً أن نجعله يشرق بداخل نفوسنا الصادقة، بهذا النور في أعماق قلوبنا نستطيع أن نمشي بخطوات واثقة وصارمة، تستطيع بتواضع أن نزور التعساء ونرشد خطاهم لسنا نحن ولكن النور هو الذي سيرشدهم! إنّ السعادة نابعة من كوننا جديرين بحمل الشعلة وأن نقول لإخواننا: نحن أيضًا كنا في ظلام وتعب، ولكن انظروا الآن، إننا وجدنا العزاء وفرحنا برحمة الله لهذا يجب أن ندفع ديون الأخوة بأن نسير بتواضع جنباً إلى جنب في طريق رضى ربنا بتعاون وتشجيع متبادلين، ودعاء من القلب مؤيد بالعمل بأن تتحقق فينا جميعاً غاية الله الطيبة[1].

وأخيراً، يتقرّر بأن الكتاب ليس موضوعاً في السيرة كما قد يتصور، وإنما هو باب

---

(1) المصدر السابق: ص 138-139.

في فن التمجيد، والإشادة بنبي العظمة الإنسانية، والرحمة العالمية، ولقد أعده ديدات بروح دعوية مدافعة تنويهـًا بعبقريته ﷺ من خلال شهادات الآخرين له بالمرتبة الإنسانية الأعلى عن جدارة واستحقاق وذلك فيما تفرق في الكتاب من نصوص وأفكار، معزوة إلى الموضوعيين من عقلاء غير المسلمين .

وبنظري إنّ هذا اللون من الكتابة الدّعوية مع أهميته وتأثيره في العامة والخاصة، فإن من تمام القصد أن يعتضد متكاملاً بكتابات ميسرة تختص بعرض خالص سيرته ﷺ كما عاشها مجردة عن غيرها من آراء عامة وأفكار خاصة، بأن تقوم تلك الكتابات على تقديم نسق متكامل عن مختلف جوانب حياته الكريمة يتم انتقاؤها مصفاة من كتب السيرة والسنة النبويتين . بالإضافة إلى ما ورد منها في القرآن الكريم من شمائل حميدة وأخلاقيات رفيعة. ولعل من يعقد العزم على القيام بشيء من هذا - بجوار ما تحقق من خطوات متنوعة على هذا الخط - لا يعدم إسعافاً له في الخطة التي رسمها الإمام الغزالي في هذا المجال، محدداً موضوعاتها بقوله: «واعلم أن من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه، وأفعاله، وأحواله، وعاداته، وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق وقوده إياهم إطاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولاشك في أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه»[1] .

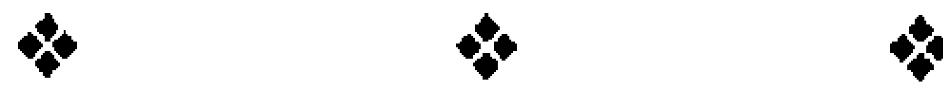
وفي موطن آخر وهو ينحي باللاّئمة على من يتشبثون أمام قواطع حجج سيرته الصادقة بالجحود عناداً ومكابرةً يورد الغزالي بقية العناصر المكملة لهذه الخطة المنهجية التي طرحها ودعا إليها، متيقنا بفعاليتها الحاسمة وذلك في قوله: «فأعظم بغباوة من

---

(1) محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين ج2/ 548، الطبعة المحققة الأولى 1412هـ=1992م، ط دار قتيبة، بيروت - دمشق.

ينظر في أحواله ثم أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره، وبعد عصره، مع ضعفه ويتمه، ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه»[1].

إن هذه المنهجية التي تحدد للسيرة النبوية اتجاهًا دعويًا وتسلك بها مسار إرشاد وتبليغ هي قطعاً ذات قدر كبير على صعيد المنهج الذي يقوم في دعوته على الوسائل الفكرية والأساليب الحوارية. وهو عين المنهج الذي اعتمد عليه ديدات وعرف به في نشاطه الدّعوي الحافل وإن كان قد فاتته خاصية توظيف السيرة النبوية الكريمة للعمل الدّعوي طبقًا للرّؤية التي ابتكرها الغزالي، ووفق المنهجية التي اختطها وأخذ فيما تبين في رسم معالم أبرز موضوعاتها. ، ولعل ذلك يعود إلى ما تعكسه منشوراته الدّعوية من محدودية إمكانياته في مجال الكتابة والتأليف، مقابل ما يتمتع بها من قدرات حوارية هائلة، مما يمكن الإهتداء إلى جانب منها في المبحث اللاحق .



(1) المصدر نفسه ج2/ 553.

المبحث الرابع

من أبرز محاوراته العالمية

أ - حواره مع جمي سواجارت[1] :

من متابعتنا لوقائع هذه المناظرة العالمية الشهيرة التي جرت بين ديدات والقس الأمريكي سواجارت في الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ 3/ 11/ 1986م وكان موضوعها : هل الكتاب المقدس كلمة الله؟ نسجل أهم ما ورد فيها في الصفحات التالية من قضايا ومجاوبات بالإضافة إلى ما أمكن من ملاحظات .

إن القس سواجارت باعتباره المتحدث الأول تظاهر إلى حد بعيد بالموضوعية مبديًا تطوراً نوعيًا في تحسّن فهمه للقضايا الإسلامية ولواقع المسلمين وأخلاقياتهم، وقد جَرّته هذه الموضوعية المزعومة إلى تقديم اعتذار علنيّ للمسلمين، جراء ما صدر منه في برنامج إذاعيّ سابق في التلفزيون من عبارات نابية ضد القرآن الكريم[2] .

ويظهر عليه أنه انفعل بهول الموقف وهيبته ففزع إلى تكثيف الصلاة والدعاء على الطريقة الكنسية لاستمداد النصرة، والدعم النفسي من إلهه الذي ظل عليه عاكفاً. ويبدو أن إلهه كان منتصراً للحق فأنطقه - عفواً - في مستهل حديثه بعبارة تشكل المحصلة النهائية لما ترمي إليها المناظرة، فكأنها انتهت فور بدايتها وذلك بقول سواجارت : «لا يوجد مسيحي واحد يمكن أن يقول أن الرب هو الذي كتب الإنجيل، فالرب لم يكتب الإنجيل، وحتى أكون صريحاً معكم، لأن الشيء الوحيد الذي أعرف أن الرب قد كتبه هو الوصايا العشر على الحجر، ولكن الرب لم يكتب أبداً كلمة، الرب الإنسان هو الذي كتب الإنجيل، والإنجيل مجلد من عدة كتب كتبها الإنسان بوحي من الروح القدس كما يروي لنا سمعان بطرس[3]» .

ومع هذا الإقرار الصريح الذي انطلق منه إلا أنه ظل يعاند محاولاً إقناع كل من المناظر والحضور بأن الكتاب المقدس وحي من الله لكاتبي أسفاره، وفي تأكيده لهذا الطرح الذي نراه في منتهى السقوط يستنجد بشخصيات علمية بارزة من الجامعات

---

(1) يعتبر أشهر حواراته، وقد قام الدكتور أحمد حجازي السقا بتفريغ شريطه في كتاب نشرته مكتبة الزهراني المصرية بعنوان : المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقس سواجارت .

(2) ينظر : المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، ص 113 .

(3) المصدر السابق : ص 114-115 .

الغربية، تتفق معه على حد قوله في الاعتقاد بما ذهب إليه[1]. وبهذا الأسلوب الماكر يحاول شن حرب نفسية على السامع، ليستسلم بدوره كما استسلم قبله من يعتقد أنهم مفكرون بارزون وباحثون جادون.

وفيما انتقل إليه من حديث عن تعدد الروايات الإنجيلية نجد أن المقارنة الخاطئة تستهويه كغيره من المكابرين، حين يقرر أن تعدد روايات كتبهم هو بمثابة تعدد تراجم معاني القرآن الكريم، فهما متشاكلان، وعليه فلا حرج عندهم في هذا التعدد، طالما هو مسلم به لدى المسلمين فيما عندهم من هذا النوع. ولاشك أن هذه المقارنة التي عقدها واهية ومنقودة من أساسها؛ لأنها تتجاهل أن المترجم هو معاني القرآن الكريم، وليس نصه الذي تستحيل ترجمته، والمعلوم أن هناك عدداً من الفروق الواضحة بين النص الأصلي، وترجمة معانيه، ويتمثل بعضها في الوجوه الآتية:

1 – إن القرآن الكريم وحي موثق من الله تعالى لرسوله الكريم متواتراً في روايته، معجز بلفظه ومعناه.

2 – هو معصوم عن الخطأ والتناقض في مضمونه.

3 – يشكل مصدر الإسلام الأساسي، ودستور حياة المسلمين.

4 – نصه الأصلي هو الوحيد الذي يتعبد به دون غيره من المعاني والتراجم.

5 – متكفل من الله تعالى بحمايته ورعايته.

6 – التفاسير والتراجم عبارة عن جهود نسبية في حدود الطاقة البشرية.

ولتأكيد ما أطلقها من مقارنة خاطئة يلجأ سواجارت إلى إثارة مسألة جمع القرآن في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه، معتبراً أن هذا الجمع كان بمثابة عملية توحيد النصوص والتوفيق بين الروايات المختلفة. وبهذا يجهل أو يتجاهل سواجارت حيثيات هذا الجمع، وجملة الاعتبارات المنهجية التي سبقت عملية الجمع ولازمتها، من ضبط وتحري الدقة وشرط مطابقة المحفوظ في السطور لما هو في الصدور، إلى جانب الأهلية العلمية للجنة التي عُهِدَتْ إليها مهمة القيام بهذا الواجب العظيم.

ومن هذا المنزلق الساقط يتسلل سواجارت إلى إعلان دعوى انتحال القصص

---

(1) ينظر المصدر نفسه ص 117-118.

القرآنية من الخرافات والأساطير اليهودية[1] . وهذه القضية وسابقتها من القضايا التي أفاض المستشرقون وأعداء الاعلام في إثارتها ، وتعميق البحث فيها ، من أجل الخروج بنتائج هي في أغلبها عدائية مردودة .

وبعد هذه الجولة الهجومية يعمد القس سواجارت إلى المبادرة بالكشف عن المطاعن الذاتية وتعرية مواطن النقد في متناقضات كتابهم المقدس ؛ وذلك تأميناً للدفاع المسبق وتخفيفاً لحدة هجوم الخصم ، وربما هي إستراتيجية تستخدم في تحطيم أسلحة المساجل لصرفه عن استخدامها ، وفي إطار هذه المبادرة يشير إلى أمثلة كثيرة منها : ورود أفعال تنسب إلى الله تارة ، وإلى الشيطان تارة أخرى ، وإشكالية اختلاف الروايات في ضبط عدد مرابط خيل نبي الله داود عليه السلام بالإضافة إلى اختلاف كل من إنجيل لوقا ومتى في تحديد نسب المسيح عليه السلام ، وهو في عرضه لهذه التناقضات التي يراها مزعومة يسعى لتوجيهها موفقاً بين الروايات من جانب ، ومحاولاً من جانب آخر انتقاد القرآن الكريم بدعوى تناقضه في بعض محدداته العددية[2] .

ومن كل ذلك يخلص سواجارت إلى دعم زعمه بصحة الأناجيل بدليل أنه صمد في وجه الحفريات الأثرية التي لم تسفر عما يناقضه ، بل تحقق كل ما تضمنه الكتاب من آلاف النبوات[3] . وتبلغ المبالغة بسواجارت ذروتها في نفي بطلان عقيدتهم الناتج عن بطلان المصادر التي يستقون منها معتقدهم ، مؤكداً أن العهدين القديم والجديد لم يعترهما أي تبدل عبر العصور على اختلاف الزمان والمكان . وفي ذلك يقول : «أنا أسلم أمامكم الليلة بأن العهد القديم الذي أحمله في يدي ، هو نفس العهد القديم الذي كان لدى اليهود في أيام وزمان محمد ، وأنه لم يتبدل ، وأن الإنجيل أو العهد الجديد الذي أحمله في يدي هو نفس الكتاب الذي كان لدى الكنيسة في أيام وزمان محمد ﷺ»[4] .

وفيما يتعلق بنوبة ديدات في الحديث نجده يفتتحها بآية قرآنية ذات دلالة قوية على وقوع التحريف وممارسة التكسب بالتقول على الله عز وجل ، وذلك في قوله تعالى :

---

(1) ينظر المصدر السابق : ص 122 .

(2) ينظر المصدر نفسه : ص 124 .

(3) ينظر المصدر نفسه : ص 125 .

(4) المصدر السابق : ص 121 .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: 79].

من هذا الاستهلال البارع يمهد ديدات لمناقشته بتقديم صورة مجملة عن المسيح عليه السلام في العقيدة الإسلامية ونظرة المسلمين إليه. ومن الجدير بالإشادة أن تمهيداً كهذا هو أمر له اعتباره وتأثيره في مثل هذا المحفل الحاشد والذي قد يجهل معظم من ضمهم حقيقة الإسلام في معتقداته، وتعاليمه.

ثم ينتقل الشيخ ديدات في أولى خطوة نقدية إلى إطلاع الجمهور الحاضر على مدى الفرق القائم بين النسختين الإنجيلية عند كل من الكاثوليك والبروتستانت، مبيناً أن مذهب البروتستانت يقوم على عدم اعتماد النسخة الكاثوليكية الزائدة بسبعة أسفار مرفوضة عند البروتستانت[1].

ومن باب احترام قواعد المناظرة وأصول الحوار يجنح ديدات إلى تحديد مصدره الذي يبني عليه مناقشته في هذا المقام، مما سيوجّه إليه سهام نقده في هذه المناظرة.

والملاحظ أنه يسبقُ نقده اللاذع المفحم بتقريظ أنيق، شحنه بمعاني الإعجاب بالنسخة الإنجيلية المعتمدة لدى مناظره، مشيداً بصياغتها الأدبية البارعة[2].

ومن أهم القضايا التي انصبت عليها مناقشة ديدات مسألة بُنوّة المسيح عليه السلام، بين إشكالية الخلق والولادة، أي أهو مخلوق أم مولود، وهي مسألة غالباً ما ترد في حوارات الشيخ وكتاباته، وقلما نفقدها في أعماله ذات الصلة بموضوعها. وقد جرت عادته بالتنبيه إلى أنه تحدى بها كبار اللاهوتيين بمختلف طوائفهم على مدى نصف قرن ظل يحاورهم فيه، ولكنه لم يلق منهم سوى التهرب والمواربة، الأمر الذي تحرّج إزاءه بعض القساوسة فحذفوا الكلمة الدالة على الولادة والتي تنزه الله تعالى عنها علواً كبيراً. وقد تم هذا الإسقاط بإقرارهم أن اللفظ دخيل على الإنجيل، وأنه تلفيق وتحريف، وهو ما أثبته ديدات بقوله: «ثم إن اثنين وثلاثين من أرفع علماء المسيحية قدراً يساندهم خمسون من الطوائف الدينية، قد حذفوا هذه العبارة، هل

(1) ينظر المصدر السابق: ص 130.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص 131.

هددكم المسلمون إذا لم تحذفوا هذه الكلمة من الإنجيل بأنهم لن يزوّدوكم بالبترول؟ لماذا حذفتموها إذن؟ حذفتموها لأنها كلمة دخيلة لأنها ليست كلمة من الله»[1] . وعلى هذا النحو يستفزهم ديدات كاشفاً قابلية المساومة لديهم في أخص الأمور وأنفسها، حتى العقيدة؛ طالما تُؤمّن هذه المساومة فرصة تحقيق المصالح المادية . وهو ما ينمّ عن فتور الروح الدينية الصادقة فيهم، هذا إن لم تكن بالفعل معدومة لديهم .

ولكي ينفذ الشيخ ديدات إلى صميم نقد صارم لمحاوره في هذه المناسبة، رجع إلى مؤلفاته البالغة ثلاثين كتاباً، وعكف على قراءتها كلها ليعرف عن كثب أفكار وأسلوب الطرف الآخر، وليقف على القضايا التي تشغله في دراساته، وأيضًا للإحاطة بعقيدته على نحو أخص، إذ يرى ديدات أن كل مسيحي في العالم، يشكل حالة فريدة قائمة بذاتها قياماً ينفرد فيه في الغالب بمعتقدات مخالفة لعقيدة الطائفة التي ينتمي إليها[2] .

وفي ضوء هذا الاطلاع العام على أعمال الطرف الآخر ونتيجة له يورد الشيخ ديدات إحصائيات منقولة عن كتب سواجارت تحدد نِسَباً عالية للانحرافات الأخلاقية في المجتمعات المسيحية، وبالأخص في المجتمع الأمريكي، الذي تركزت عليه كتابات سواجارت التي تفصح عن واقع الفساد في هذا المجتمع الهش حتى من مجرد إلقاء نظرة على عناوين تلك المؤلفات، التي تحكي واقعًا وصفه سواجارت نفسه بأنه وصمة عار، وفضيحة في جبين المجتمع الأمريكي[3] .

وفجأة يجد سواجارت نفسه واقعاً في شرك الشيخ ديدات باعترافه من خلال كتبه بأن الكتاب المقدس يحتوي على عشر حالات من زنى المحارم . وبهذه الفرصة النقدية السانحة يَنْقَض ديدات على عقيدة مساجله مبيّنًا للحضور أن كتاباً يضم حكايات سخيفة من هذا القبيل هو أبعد أن يكون موحًى به من الله بل يستحيل .

ويشاء الله القدير بعد هذه المناظرة العالمية أن تسجل الأحداث على سواجارت فضائح أخلاقية مزرية، تمثلت في تورطه الفعلي في معصية الله تعالى بارتكاب ما يربأ بنفسه عنه كل شريف محترم، بله رجل دين عالمي .

(1) المصدر نفسه: ص 136 .

(2) ينظر المصدر نفسه: ص 134 .

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 140 .

والواقع أن ديدات في هذه المحاورة، يركز كعادته على المسألة الأخلاقية من المنظور الديني. وأمام ما يُقرّ به سواجارت من فساد عارم في مجتمعه مما يعرض هو وغيره عن معالجته، لا يجد ديدات بداً من فضح حقيقة مهمته الدينية للآخرين، والتي ليست أكثر من التحايل لجمع مئات الآلاف من الدولارات يومياً باسم الدين والدعوة إلى النصرانية الغربية.

وبهذه الميزانية اليومية الضخمة التي ترصد لسواجارت باسم التنصير، يشكل أنموذجاً من نماذج عديدة تصور مدى الإمكانيات التنصيرية الهائلة، وما تحظى به حركتها من دعم غربي واسع بلا حدود، تشترك في رفده الأفراد والمؤسسات. وإضافة إلى ما تقدم يشير ديدات في معرض النقد إلى التناقض الواقع بين الروايات الإنجيلية وهو نقد مدعوم باعتراف بعض الكتاب من المسيحيين بأن النساخ لم يكونوا معصومين من الخطأ، وأن الرب تركهم لشأنهم ولم ير داعياً لحمايتهم منه[1]، ولذا لا وجود لمخطوطين متماثلين تماماً مما يتباهى به بعضهم من توفر أربعة وعشرين ألف مخطوط لكتابهم المقدس، وهو نقيصة، وليس محمدة. وقد ناقش ديدات سواجارت في ذلك بالقول: «وفيما يتعلق بالتباهي بأربعة وعشرين ألف مخطوط، أنت تعرف أخي سواجارت أن ليس بينهما اثنان متماثلان وعلماؤك يقولون بأنه بين الأربع والعشرين ألفاً التي كتبوها لا يوجد اثنان متشابهان، إذن فكيف لك أن تحكم بأن هذه من عند الله وأن الأخرى ليست من عند الله»[2].

وبالمناسبة يبدو لي أن تطوراً تاريخياً قد طرأ في نظرة المسيحيين إلى رجال مصادرهم المقدسة، إذ تختلف النظرة المعاصرة عما كانت عليها في أيام الإمام أبي المعالي الجويني الذي كتب يقول: «وأما دعوى النسيان والغلط، فإن رجال الأناجيل عندهم منزهون عن ذلك فإنهم جازمون بعصمتهم، وإن روح القدس لما حلّت عليهم أوجبت لهم العصمة»[3].

---

(1) ينظر المصدر السابق: ص 150.

(2) المصدر نفسه: ص 151.

(3) أبو المعالي الجويني: شفاء العليل في بيان ماوقع في التوراة والإنجيل من التبديل، ص 63، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط3/ 1409هـ=1989م، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

وفي ختام حديثه المقيد بعامل الزمن يثير ديدات موضوع اختلاف الأناجيل في حلقات السلسلة التي وضعوها نسبًا للمسيح، وقد وردت إشارته إلى ذلك في قوله: «سلسلة الأنساب فيما بين أنجيلي متى ولوقا، نجد أن للمسيح ستة وستين أبا وجداً وفي هذه الأنساب الستة والستين من الآباء والأجداد لا نجد اسمين متشابهين، فيما عدا اسم واحد». ويتساءل ديدات، كيف ساغ لهم إثبات هذه السلسلة الطويلة المتناقضة مع الأنساب مع أنهم ينسبون المسيح إلى الله، ومختلف قوائمهم خالية من اسمه تعالى الذي يدعون أنه هو الذي أملى عليهم هذه الكتب!!؟ .

وإن مما يلفت النظر في هذه المناظرة أنّ ديدات قد خلع عليها الكثير من تواضعه، وعلق عليها أهمية بالغة، وهو ما يلمس جلياً في تعبيره الحار عن سعادته وامتنانه، وأنّ حواره مع سواجارت يعني بالنسبة لشخصيته امتيازاً وتكريماً[1]. وذلك ربما لأنها هي مناظرته العالمية الأولى والتي ترتبت عليها نتائج مستقبلية هامة في حياته الدّعوية، وفتحت له آفاقاً رحبة لم تكن في حسبانه في يوم من الأيام .

وفي الجولة الثانية للقس سواجارت من ذات المناظرة يتبدى للمتابع مدى توتر أعصابه وشدّة انفعاله، مما دفع به إلى التعبير بلهجة قاسية شاتمة خرج بها خروجاً سافراً عن حدود الأدب، فخرق صارخاً أصول الحوار، ومقاييس الانضباط فيه. وذلك في تعريضه بديدات قائلاً: «لقد تصفحت الأناجيل التي مع السيد ديدات، وفي القرآن في السورة التي نسميها الفصل الثاني والستين تقول الآية الخامسة: «كمثل الحمار يحمل أسفاراً، مثل الحمار الذي لا يدرك قيمة الحمل الذي يحمله على ظهره، بعض الناس الذين يجهلون الكنز الروحي الذي بين أيديهم»[2].

وهكذا بدلاً من الرد الموضوعي على بعض إلزامات ديدات وإفحاماته له فإنه فضل العدول عن ذلك، وركن إلى التخاذل والاستسلام متبجحاً بألفاظ رنانة عن مفاهيم الخلاص، والحب الموهوم في الفكر الصليبي والتباهي بالدّور التهذيبيّ للكنيسة، وعن مساعيها في إعادة تأهيل المجرمين والمنحرفين. والظاهر أنه غالباً ما يميل محاور ديدات إلى الاعتصام منه بالامتداح والثناء على النفس، والمفاخرة بالأدوار، بدلاً من المنافرة بالحوار.

---

(1) المناظرة الحديثة ص 154 .

(2) المصدر السابق ص 160 .

وعلى العموم فتلك شيمتهم، وطوق نجاتهم حين يتعرض مركبهم للغرق، ويسحب البساط من تحت أقدامهم. وبالنظر إلى الفقرة المخصصة لاستفسارات الحضور عقب المناظرة تتفتق من خلال التأمل في أسئلة الحضور وأجوبتها جملة ملاحظات منها:

1 – شملت الأسئلة قضايا متعددة وحصرتْ في طياتها مختلف المسائل التي تعرض لها المتناظران أثناء حديث كل منهما، وتأتي في مقدمة تلك القضايا الجمع العثماني للقرآن الكريم، وتعدد المصاحف والروايات، الدور الأخلاقي للإسلام في حياة معتنقيه، مصير من لا يؤمنون بألوهية المسيح أو بنوته الحسية طبقاً للمعتقد الكنسي يوم القيامة وبخاصة المسلمين، والتثليث، وتحريف الأناجيل، وغيرها.

2 – عمد سواجارت وقد عجز عن تقديم إجابة مقنعة لبعض الاستفسارات إلى تفويض الأمور إلى الإيمان، والذي يحتّم – فيما يرى – التسليم بها على عواهنها، وبسخافاتها ومتناقضاتها، دون إعمال فِكْرٍ، أو حتى مجرد حق التدبر فيها.

3 – تَعثّر ديدات في الرد على بعض الأسئلة مما جعل الدكتور أحمد حجازي السقا يعنف في التعليق والتعقيب عليه مستخدماً عبارات من قبيل «هذا باطل» أو «زعم ديدات»[1].

4 – قام القس سواجارت متجرئاً بتلاوة فقرات إنجيلية ملؤها الفحش والدعارة، وذلك ردا على تحدّي ديدات إياه بمائة دولار مقابل قراءتها علناً على مسمع الجمهور. ولعله ارتكب مطية الجرأة بقراءتها حتى يوهم الحضور بأنه ليس في الفقرات التي يتشبّث بها الشيخ مساجلا – من الخجل والحرج ما يدعو إلى التكتم عليها وبالأخص في المجتمعات التي شُلّ حسّها الأخلاقي، وفقدت سلامة تذوقها لقيم الفضيلة، وضوابط الحياة الإنسانية الكريمة.

5 – يلاحظ من خلال إجابات ديدات أنه لحين المناظرة لا يزال الجهل بالإسلام ومصادره مطبقاً على بعض الأحبار والقساوسة[2]، على الرغم مما تحقق للقليل منهم من تقدم نوعي، وتعمق في مجال الدراسات الإسلامية. وما من شك في أن لهذا الجهل الرّائن على عقولهم وقلوبهم دوراً في الهيمنة عليهم بصدهم عن سواء السبيل.

6 – يتحدى ديدات مناظرهُ، بإبداء استعداده التام لمنازلته في أربعة مواقع أخرى متفرقة

---

(1) ينظر المصدر السابق في الحاسية الثانية من الصفحة 166، وفيما يماثلها من الصفحة 173.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص 187.

في الولايات المتحدة الأمريكية، متعهداً بدفع عشرة آلاف دولار لقاء كل لقاء[1].

7 - افتقد سواجارت صوابه، وفلت منه توازنه المعهود عنه منذ أن زعزعه ديدات، وهزّ عقيدته، فتبين للآخرين أن الأمر قد سقط من يديه، وربما كانت هذه المناظرة بداية النهاية بالنسبة له ولمشاريعه التنصيرية العملاقة التي طالما تستر من ورائها مخادعاً لمموليه، وهو في واقع الأمر يرمي إلى التكسب بالعقيدة والمتاجرة بالدين في دار الفناء والمكاسب الرخيصة الزائلة. وقد انتهى به الأمر إلى إقرار ما يعمقّ روح العلمنة، ويعزز سلوك التسيب؛ وذلك بالفصل بين العقيدة والممارسة وفقاً لما يعتقدونه، وفي هذا يقول: «إن خلاصنا يتم بالاعتقاد وليس بالأعمال، حتى لا يتباهى أي إنسان، إن خلاصنا هو الاعتقاد بالرب يسوع المسيح»[2] فكأنّ سواجارت كان يتحين فرصة هذا اللقاء العالمي الهام لإلقاء دعوته إلى هذا الاتجاه اللامسؤول في الحياة.

8 - استبد القلق أخيراً بسواجارت وانتابته هزة نفسية عنيفة، عبرت عن نفسها فيما تعرض له من ارتباك وذهول، أدّيا به إلى تصريح كاشف لأحد أساليبهم الإعلامية الملتوية، التي لا يتورعون عن الإقدام عليها، والاستعانة بها في دعاياتهم التنصيرية الماكرة وغيرها، طالما هي محققة لمقاصدهم، وتضمن لهم الوصول الرخيص إلى تلك الأهداف الخبيثة التي يرمون إليها غالباً. وقد ساق هذا الاعتراف في قوله: «.. وكما تعلم، فإن لي دراية بالتلفزيون، فبإمكانك أن تجعل أي شخص يقول عن أي موضوع، ما تريده أنت بالغش، نحن خبراء في ذلك»[3]، ولا غرور في هذا، طالما ظلت الغاية عندهم تبرر الوسيلة، ومادامت البرجماتية منطقهم ومذهبهم في كل شؤونهم.

9 - انفضّتْ المناظرة بين الطرفين مسجلة انطباعاً عاماً لدى الجميع وشعوراً خاصاً ومريراً لدى المناظر المسيحي بهزيمته، وهو انطباع توهم بتأثيره بعض المتحمسين فيما بعد بأن الشيخ ديدات كان متآمراً مع سواجارت، وأنّ المناظرة لم تكن أكثر من مسرحية جاهزة للتمثيل جرى ترتيبها بين الطرفين مسبقاً، فرسمت معالمها بوضوح، وحدّدت قضاياها سلفاً، وحسمت نتائجها بدقة؛ وذلك مقابل أجر

---

(1) ينظر المصدر السابق: ص 198-190.

(2) المصدر نفسه: ص 191.

(3) المصدر نفسه: ص 200.

يتقاضاه الطرف المسيحي من نظيره المسلم، والذي ينمي أي وهم من هذا القبيل هو أن الحوار بين الجانبين قد انحسم بلا امتراء بانتصار الطرف المسلم، والذي يعني في حقيقته انتصار الإسلام على الصليبية. وإن هذا الانتصار الرمزي يبشر عبر حركة الزمن بظهور ساحق عليها وعلى غيرها من النحل والمذاهب، كما هو مقطوع به نصاً واعتقاداً.

10 - إن هذه المناظرة تعد أخطر مناظرات ديدات وذلك لأوليتها وعالميتها؛ إذ تعتبر أولى مناظرة ناضجة يعقدها ديدات مع أحد كبار المسيحيين فكراً ونشاطاً، له انتشار عالمي واسع، ووزن معتبر في الأوساط الغربية، وصفه ديدات بأنه «أكثر المتحدثين سحراً في العالم اليوم»[1]، فبهذه الاعتبارات تتجاوز المناظرة طرفيها لتعكس لقاء دينين عالميين، تمثل العلاقات بينهما صفحات ممتدة من التاريخ، خليطة من الصراع والتسامح، ومن ثم يأتي البعد الجغرافي في انتماء المتحاورين ليرمز من جانبه إلى أن المناظرة كانت بمثابة لقاء بين الروحين الشرقية والغربية.

ومن حيث عالميتها، فقد حظيت بتغطية إعلامية واسعة، كما تميزت بحضور حاشد مميز يقلّ نظيره. وقد تطرق خبرها إلى مختلف أصقاع المعمورة، فشكلت بذلك انطلاقة جادة لمسيرة ديدات نحو مرحلة أكثر تطوّرًا وتوسّعًا، يمكن وصفها بالعالمية، حيث تحرّر الشيخ خلالها من القيود المحلية والقارية ليخاطب العالم بدعوته، ومنهجه المجدد، وليبشر الناس مع غيره من دعاة الإسلام بالعهد الأخير المتمثل في الإسلام دين الحق والعدل، والسلام والمحبة. وعليها؛ فإن هذه المناظرة قد رشحت ديدات لدور عالمي عظيم؛ إذ جعلته في تاريخ عالمنا المعاصر فارساً لا يشق له غبار في ميادين الحوار وحلبات المناظرة.

على أن المناظرة مع بالغ نجاحها، وعظم انتصار ديدات فيها، لم تسلم من تعقب الدكتور أحمد حجازي السقا للشيخ ديدات فيها، بإبطال بعض ردوده الضعيفة الناتجة عن عدم توثيق المعلومات، شأن كل من يخوض مناظرات حامية، ويتصدى لخطابات مرتجلة، مما لا ينفك غالباً عن الوقوع في بعض الهنات الهينة، فضلاً عن ورود مسائل لا تخلو من اختلاف وجهات النظر بشأنها. ومع ذلك يميل المخالفون فيها إلى تخطئة آراء غيرهم، وتصويب ما يرونه دون غيره.

---

(1) المناظرة الحديثة: ص 159.

ومن هذا المنطلق يلازمنا ونحن نتابع رحلتنا في أرجاء هذه المناظرة من خلال كتاب «المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان» حواشٍ مثقلة بالتعليقات على امتداد الكتاب واستخدمها مُعِدّ الكتاب في إضافة ما تقتضي الضرورة بيانه من تعقيبات وتصويبات لأخطاء ديدات في المواطن التي تزل قدمه، ويكبو جواده. وعلى العموم هي في واقعها وفي أغلبها معلومات مفيدة ومثرية .

ب - مناظرتان في استكهولم بين ديدات وكبير قساوسة السويد[1]:

جرت وقائع هاتين المحاورتين في عاصمة السويد بتاريخ 27/ 10/ 1991م بين الشيخ ديدات وكبير قساوستها المسمى «استانلي شوبيرج» وهو رجل قد عاش سنوات عديدة في أقطار إسلامية، ساعد خلالها حسب دعاية مُقَدِّمِه كثيراً من المسلمين اجتماعياً وصحياً. ويفهم مما تنسب إليه من مساعدة المسلمين والإقامة في ربوع ديارهم أنه كان يتعاطى مهمة تنصيرهم، مزاولاً الوسائل التنصيرية المعروفة عنهم، والتي تستغل مجال الخدمات الاجتماعية والثقافية، وتتلبس بعباءة الإنسانية، وهي أبعد ما يكون عنها، بل هي وسائل خبيثة ومعادية للعقيدة الحقة، وللقيم الإنسانية السامية .

وفي هذه المحاورة الهامة التي كان عنوانها هل الإنجيل كلام الله؟ يوجد لكل من المتناظرين مرافق يتولى تقديم صاحبه، ويشتركان معاً في إدارة اللقاء وضبط الحوار بين الطرفين. وقد بدأ الشيخ ديدات باعتباره المحاور الأول بإهداء نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية إلى مناظره: وقد اختار له هذه الهدية الغالية باعتبار أن القرآن الكريم على حد قوله أقيم شيء عنده في الوجود[2] .

وإن من المتوقع أن تثير قضية إهداء القرآن الكريم، وما يتصل به لغير المسلم تساؤلات بشأن جوازها ومشروعيتها، رغم ما يظهر بأن العصر قد تجاوز مسألة من هذا النوع؛ حيث إنّه متاح لهم من تلقاء أنفسهم اقتناء القرآن وغيره رغم إرادتنا، وذلك عن طريق المكتبات العلمية والتجارية، ومن خلال الانتشار الواسع للثقافة، ووسائل العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أن هذا الإهداء يعد فرصة ثمينة، ووسيلة

---

(1) عنوان كتاب مفرغ من أشرطة المناظرتين -أصدرته دار الفضيلة، والتعريب للأستاذ علي الجوهري، عام 1992م.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم ص 16، مصدر سابق.

دعوية حكيمة، إذ تمكن الآخرين من الاطلاع على حقيقة الإسلام عقيدة وحضارة من مصادره الأصلية المعتمدة عند المسلمين، ومن خلال ما ينتقونها لغيرهم بدقة من الكتابات الإسلامية الرصينة الجيدة .

وبعد الشكر، والإهداء، يستهل ديدات مطالباً محاوره بتحديد المصدر المعتمد لديه، والذي سيتمحور الحوار حوله، وينضبط به النقاش دون غيره من النسخ الإنجيلية الكثيرة المختلفة، بل والمتناقضة غالباً. ولتأكيد هذا الاختلاف الواسع بين رواياتهم المقدسة يقدم ديدات اثنتي عشرة ملاحظة نقدية تدور حول عدم دقة الترجمات الإنجيلية، وتحتوي مقارنات تمثيلية من العهد القديم لمعلومات تختلف فيها النسخ اختلافا متناقضاً. وفيما يخص العهد الجديد يضيف بضع ملاحظات أخرى تتضمن انتقادات موجهة إليه .

وفي هذا المضمار يحيط ديدات - كلا من المحاور والحضور معاً - علماً بمعلومة ذات أهمية استثنائية تتصل بموثوقية الأناجيل، وفيما إذا كانت وحياً من الله أم لا ؟ مقابل الحكم نفسه بشأن القرآن الكريم. وقد أفاد في ذلك بقوله : «دعني أخبرك أن كثيراً من أكبر علماء المسيحية قد أخبروني بصراحة أن الإنجيل ليس وحياً إلهياً مباشراً، بينما المسلمون يعتقدون أن القرآن الكريم وحي إلهي مباشر، وأن القرآن الكريم هو كلام الله أوحاه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، دون أن يغير كائن بشري أي حرف أو كلمة أو جملة من كلام الله سبحانه وتعالى» [(1)] .

وعلى هذا النحو يستقطب ديدات الحضور في الوقت الذي يمارس فيه تأثيراً نفسياً على محاوره، وذلك حتى يلين ويضعف مستسلماً دون تماد في عناد أو حجاج، وبذلك يقتنع الحضور بتحريف الأناجيل وأنها ليست وحياً من الله تعالى بخلاف القرآن الكريم الذي هو وحي مباشر توثق جمعه، وتأكد حفظه وصونه. وعلى خلفية نقده للكتاب المقدس يتوقف للطعن في قيمته التربوية على اعتباره أنه قد يسهم سلبياً في انحراف الأحداث، والناشئة من الأولاد، ؛ بما يتضمنها من قصص فاحشة وحكايات بعيدة عن جو الأدب والأخلاق النبيلة، وما يتصل بها وبعد ما ساقه من دليل قد ورد في مجلة غير إسلامية عن تَفسّخ الكتاب المقدس، يصفه ديدات قائلاً : «إن هذا دليل

---

(1) المصدر السابق، ص : 25-26.

ناصع قاطع على أن هذا هو أخطر كتاب في العالم، وهو أشد الكتب ضرراً على وجه الأرض من الناحية التربوية»[1].

وأما القس الكبير فقد اعتمد في محاورته أسلوباً دبلوماسياً منمقاً يقوم على التذكير بالوحدة العامة بين الناس في أصل خلقهم، والإشارة إلى المشتركات بين الإسلام والمسيحية، متسللاً إلى انتقاد القوانين المعمول بها في أغلب البلاد المسلمة، متهماً إياها بأنها تهدّد الحياة، الأمر الذي لجأ بسببه بعض المسلمين إلى السويد تهرباً منها. وقد فجر بهذا الاستفزاز ردّ فعل حادّ وعنيف، عم جنبات القاعة بهتافات وتكبيرات مدوية أطلقها الحضور المسلم لمقاطعة الرّجل، وإعاقته عن الاستمرار في الاسترسال بإيراد دعاوٍ مثيرة تخلصاً من هذه المقاومة التي وُوجه بها حيث تَنكّبَ إلى الحديث - متباهيًا - عن موقفه المتعاون والمتعاطف مع المسلمين في بلاده، وخاصة في تأييد مشروعية مطالبهم الدينية. وحماية بعضهم من الإجلاء عن البلاد ممن سبق وأن اتخذت بشأنهم قرارات ومواقف رسمية، ولا نجد أيّ مناسبة تقتضي في هذا المقام الإعلان عن مثل هذه الأمور سوى أن الرجل قصد به الْمنّ على المسلمين، والتشدق بالتسامح الديني، والتظاهر بالنضال من أجل إرساء مبدأ حريّة الاعتقاد، وضمانه كحق قانوني للمواطنين والمقيمين في بلاده على قدم المساواة. والملاحظ أن الرجل ذو أسلوب ماكر خبيث يوهم الحضور بأن منطلق ديدات في دراسته ونقد الكتاب المقدس ناجم عن ثورة انفعالية، ولدت عنده ردود فعل دائمة ضد المسيحيين؛ جرّاء ما تعرض له هو وغيره من مسلمي جنوب أفريقيا من اضطهاد وامتهان على يد المسيحيين. ومن ثم فإنه بالنظر في الكتاب المقدس بعيداً عن العقد والترسبات النفسية القديمة، وبمعزل عن خلفية الأحكام المسبقة يتأكد أن ما ورد فيه صحيح ومسلَّم به»[2]، وذلك على الرغم من إقراره بأنهم لا يؤمنون بوحي إلهي مباشر لعظمته تعالى وتنزهه عن ذلك، وإنما يؤمنون بما أسماه بوحي كلي شامل؟ وهو ما أفصح عنه قائلاً: «إننا لا نؤمن بالوحي الإلهي المباشر الذي يكتب كما أنزله الله بالضبط، وإننا نؤمن بوحي كلي شامل، إن الله عظيم جداً إن الله لم يقصد أن يتكلم في الآذان . . »[3].

(1) المصدر نفسه: ص 33.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص 40.

(3) المصدر نفسه: ص 41.

ومن جانب آخر يثير عن جهل أو عمد - ومن غير مناسبة - معلومات في غاية السفسطة والتفاهة عن موقف الإسلام من المرأة، معبراً بذلك عن عميق جهله بالإسلام وتعاليمه، وعما تنطوي عليه نفسه من سوء نية تجاهه. وتأتي تلك المغالطات - فيما يظهر - في سياق التهرب من مواجهة ديدات بالحجج الموضوعية والبراهين العلمية، ومن ثم أبعد النجعة في التهرب متجرئاً بقذف النبي عليه السلام في حادثة إبطال عادة التبني التي قصر وعيه عن درك حكمته، وحتى مطلق الإحاطة بملابساته، وقد سَاقَهُ جهله وحقده في وقاحة سافرة إلى قوله: «والآن كيف نستسيغ أن محمداً وقد كان له ابن، أو بالأحرى ابن بالتبني، وكان محمد قد عقد قران ابنه بالتبني على شابة صغيرة السن، وعندما شاهد محمد حسنها وجمالها وقع محمد في غرامها فتزوج منها، وقال محمد لقومه: مثل هذا الصنيع حرام عليكم، حلال لي أنا وحدي هذا سهم نقدي محرج»[1].

وإن من الخطورة بمكان أن تساق هذه المغالطة الفاحشة في مثل هذا الموقف الحاشد ويفوت ديدات الرد عليها بشدة في معرض حديثه وردوده على هذا المغالط الكبير، والذي تمادى على هذا النهج لإثارة قضية قتل المرتد ناسباً القول به إلى القرآن الكريم زوراً وبهتاناً، عامداً من ذلك إلى مقارنة كاذبة تقوم على أن الإنجيل بخلاف القرآن يدعو إلى إلتزام مبدأ الرّحمة والعفو العام والمساواة بين الناس، بينما ينزع المسلمون على حد زعمه إلى التعصب والتمييز العنصري ضد اليهود[2]. والغريب في الأمر أنه يستند في مزاعمه الخطيرة إلى مصدر مجهول لم يسمه، ولا قدّم بيانات توثيقية عنه، وإنما ينسبه تلفيقاً إلى مجمع البحوث الإسلامية على نحو ممقوت وبعيد عن المنهجية العلمية.

وفضلاً عن ذلك يدّعي في محاولة منهُ لكسب المعركة بأنّ ديدات في انتقاده للتوراة والإنجيل مخالف للقرآن الكريم الذي ينص على الأمر بالتصديق بهما[3]. وهو بهذا يتجاهل أن المعترف به قرآنيّا لا يستوعب كتابهم المقدس بل يدعو القرآن الكريم إلى الإيمان بكتب الأنبياء الصحيحة دون غيرها من المحرفة أو المزيفة.

وإن من سقطات الرجل الكثيرة أنه ناقش طوال الفترة المخصصة له عموميات

---

(1) المصدر نفسه: ص 54.

(2) ينظر: المصدر نفسه: ص 55-56.

(3) المصدر السابق: ص 40.

تخرج عن إطار العنوان المحدد كموضوع للمناظرة، فعاد أخيراً لمحاولة الرد على أقوال ديدات في الدقائق الثلاث عشرة الأخيرة من مداخلته رداً خليطاً بقصص خيالية مختلقة، لدعم منطلقاته مقابل تضعيف موقف الطرف الآخر بأي ثمن كان، غير متورع ولا آبه بالمسؤولية الأخلاقية. وهو في هذا الصدد يورد قصة مفادها أن امرأة مسلمة استجارت بالمسيح عليه السلام من كثرة ما عانت من ضرب زوجها لها؛ وذلك لإدمانه الخمر فأجارها المسيح بأن استسمحها الزوج ولم يعد يقدم على ضربها بعد ذلك[1].

وأخيراً يسرّب إلى الحاضرين بدهاء ولباقة ما مفادهُ أن العالم الإسلامي في بعض دوله يضم كنائس ينتمي إليها آلاف المسيحيين، وهم يؤيدونه في عقيدته ورؤاه، ويدعمونه بالصلاة من أجله وغيره. وبهذا يتضح للقارئ بأن الرجل ظل يتهرب من المواجهة الموضوعية، الأمر الذي دفعه إلى حشر أنفه في قضايا لا تمت بصلة مباشرة إلى موضوع المناقشة كعقيدة التثليث، وعلم الله المطلق، ومساعداته للمسلمين وغيرها. وعلى هذا الأساس تعقبه ديدات في جولته الثانية كاشفاً للحضور تنصله وتملصه من الإجابة على القضايا المثارة، وأنه تحدث عن أشياء غير مطلوبة إدراكاً منه لأبعاد تلك الأسئلة المطروحة عليه وعمقها، غير أن الشيخ ديدات سجل هو الآخر حالة من القصور في عدم رده على مغالطات مناظره كما كان ينتظر منه. وهو أمر خطير ومؤسف، لعله اضطر إليه تقيداً بالموضوع واحتراماً للوقت من جانب، أو نتيجة عدم توفر الاستعداد الكافي لذلك من جانب آخر، وخصوصاً حين يفاتح المرء بالنقاش في قضايا مفاجئة، مما لم يحضّر لها سلفاً، لعدم توقع ورودها. وعليه نلتمس له العذر بقول صاحب كتاب العقد الفريد: «الجوابات هي أصعب الكلام كله وأعزه مطلباً، وأغمضه مذهباً، وأضيقه مسلكاً، لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة واستعمال القريحة يروم في بديهته نقص ما أبرم القائل في رويته، فهو كمن أخذت عليه الفجاج، وسدّت عليه المخارج، قد اعترض الأسنة، واستهدف للمرامي، ولا يدري ما يقرع له فيتأهب له ولا ما يفجأه من خصمه فيقرعه بمثله، ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بذمامه بعد أن روّى فيه واحتفل»[2].

---

(1) ينظر: المصدر نفسه: ص 61.

(2) أحمد محمد بن عبدربه الأندلسي: العقد الفريد، تح: محمد عبدالقادر شاهين، ج1/ 81، ط2/ 1420هـ=1999م المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

ومن طرائف هذه المناظرة أن القس الكبير تعرض لعملية تحدٍّ واختبار من قبل أحد السائلين من الحضور، عندما تقدم إليه السائل بقارورة من السم طالباً منه تجرعه، طالما هو جاد ومتأكد بأن مجرد إيمانه بالإنجيل يؤمن له السلامة، ويضمن له العافية من مخاطر من هذا النوع، طبقاً لما ورد في إنجيل مرقس[1]. وأمام هذا التحدي المعلن على رؤوس الأشهاد، لم يجد القس لنفسه بداً سوى التخلص من هذا المأزق بالالتواء والمراوغة مُؤْثِراً طريق السلامة ليتبين للحاضرين بذلك الحق من جانب، وضعف إيمانه بما يدّعيه من جانب آخر.

وفي المناظرة الثانية في الليلة التالية والتي كان عنوانها «هل عيسى إله ؟» لم يكن الرجل فيها بأوفر حظًا من سابقتها - إن لم يكن أسوأ منها - ويظهر أن مناظرة ديدات للقس السويدي تجري في نفس ما تناظر عليها ديدات وسواجارت من موضوعات، مما يبرر القول بأنه لم يستَسغْ الاقتناع بما مُني به هو وشريكه في الدين «سواجارت» من فشل وهزيمة على يد ديدات الذي ساجلهما بتفوق ساحق حاسم؛ الأمر الذي دفع به إلى المطالبة بإجراء مناظرة أخرى عن العنوان المتقدم كي يتمكن من الثأر لنفسه ولعقيدته، ويتخلص من عار الهزيمة الذي تلطخت به سمعته، واهتزت به مكانته الدينية.

وهو في هذا اللقاء الأخير يتهم ديدات بشتمه إياه، ومحاولة قتله، وأن عائلته قد تلقت تهديداً هاتفياً بالقتل في حال حضوره للمناظرة وذلك فيما ورد عنه قائلاً: «فإن بعض الناس قد طلبوا مني ألاّ أشارك في لقاء الليلة ولكن لماذا؟ لأنك في الليلة الماضية أردت أن تقتلني ولقد تلقت عائلتي تهديداً تلفونياً بالقتل لو أنني جئت إلى الكنيسة الليلة من أجل هذه المناظرة»[2]. وهكذا يسترسل في كيل التهم جزافًا ضد الشيخ ديدات، مدّعيًا أنه في أحد كتبه ذهب إلى السخرية والتجديف بعقيدتهم وإيمانهم. وقد اتضح من رد ديدات عليه أن الكتاب المشار إليه موضوع، وليس صحيح النسبة إلى من نسب إليه[3].

والواقع أن الرجل قد فشل في تقديم معالجة مركزة لموضوع المناظرة، فأصبح يتخبط. ويتموج ما بين قضايا اجتماعية، وبين كيل التهم، والافتراء على الشيخ في

(1) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص 88.

(2) المصدر نفسه: ص 111.

(3) ينظر: المصدر السابق كلاً من ص 121 -142.

أمور عديدة، منها أنه لا يحب معجزات المسيح وأنه يفاضل موسى على عيسى عليهما السلام. وقد قال فيما نقل عنه «أنا أعرف أن السيد ديدات لا يحب معجزات المسيح، وهو يعتقد أن موسى أعظم من عيسى؛ لأن موسى استطاع أن يخلق من العصا التي بيده حية تسعى، وهذا شيء مخيف، ولكن عندما جاء عيسى كانت أول معجزاته أنه حوّل الماء إلى خمر»[1].

إن سخافات القس الكبير في هذا اللقاء تشجع على ترجيح الاعتقاد بأنه كان فاقداً لبعض وعيه - إن لم يكن كله - إذ كان فيما يبدو لي يعاني من شدة الاضطراب والارتجاف، كما قد أقر هو نفسه واعترف بذلك.

وقد سجل الأستاذ علي الجوهري مظاهر اضطراب أسلوبه التعبيري في أكثر من موقع من حواشي الكتاب، حيث لاحظ عليه أنه لم يكن يهتم في حديثه باستخدام جمل مفيدة، ذات معان مستوفية، مما جعله يعلق على بعض جمله قائلاً: «الجمل مفككة لا قوام لها بالأصل»[2].

ومن ثم يستطرد الرجل في جوه الدائخ المتماوج متّهمًا القرآن الكريم بدعوى خلق وإثارة العداوة نحو اليهود، وضد دولتهم المزعومة، مما يؤكد انتماءه الصهيوني، وتبنيه وهو مسيحي موقف المحاماة عن الصهيونية[3].

وبهذه الصورة يتمادى الرجل في ثرثرة لا طائل منها، محاولاً تزجية الوقت، ولكنه لم يفلح فيها، فانتهى إلى التصريح بذلك قائلاً: «وقبل أن أنهي حديثي . . أنا لم أستهلك كل الوقت، أنالم أستهلك كل الوقت . . أنا سأنهي . . أنا لمست ذلك من قبل، دعوني أخبركم بأمانة أنه على المستوى العقلي يجوز ألاّ نتفق . . وأنا أعتقد أن كلماتي ربما لا تقنعكم وربما تغضبون مني . . ولكني آمل أننا نستطيع أن نصبح إخوة، ولو احتجتم شيئًا اتصلوا بي وأنا أعدكم أننا سنكون أخوة حتى لو لم تصبحوا

---

(1) المصدر نفسه: ص 125-126.

(2) المصدر نفسه الحاشية الثالثة من الصفحة 129، وينظر أيضاً الحاشية الثانية من الصفحة السابقة على ما قبلها.

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 128

مسيحيين، أنا سأحبكم كإخوة . . أين الباكستانيون هنا»[1]، وبهذه الكلمات الفارغة من أي مضمون معقول مفيد ظل يشوش على الحضور إلى أن قال أخيراً «والآن أنا أشعر بالتعب الشديد . . وأنا أعتقد أنني يجب أن أجلس»[2]، وذلك بعد أن رَوَّج لـدَوْر الكنيسة في بلاده، وأشاد بمساعيها في إنقاذ ما يزيد عن ألف شاب من المجرمين ومدمني المسكرات، من الذين وإن لم يكن هو بالفعل أحدهم فلا يختلف عنهم كثيراً.

وكان لفرط فقدانه صوابه قد أعلن على الملأ أنه مهدّد ومعرّض للتحدي من قبل ديدات، ناسيًا بذلك أن الدعوة إلى هذا الحوار تمت بمبادرة ذاتية منه، وأنه هو المتحدي الأول، وما حضور ديدات إلا لإظهار الحق دفاعاً عن عقيدته[3].

وصفوة القول: إن القس قد فلت عن المواجهة الموضوعية أمام ديدات ولم يكن ثمة مخلص مما لابد منه، سوى التسلل إلى الحديث في عموميات وسخافات بعيدة عن جوهر الموضوع. وبوهن دفوعاته الواهية التي واجه بها ما ألقاها ديدات من أسلحة فكرية نفاذة قاضية، يكون قد سجل على الصليبية مجدداً هزيمة من أكبر الهزائم التي تضاف إلى قائمة ما اعتادت عليها من هزائم تاريخية مشهودة.

وفيما يخص الشيخ ديدات في هذه المحاورة فقد اتسم مسلكه فيها بالتركيز في انتقاداته وفي ردوده على السواء، وقد استوفى حق نقد الكتاب المقدس، وبصريح نصوصه. ومن ذلك ما قمع به مناظره من نص إنجيلي ينعى عليهم المفاخرة بإبراء العاهات المزمنة والأمراض المستعصية باسم المسيح، كما ردّ أيضًا على مناظره بنصهم المقدس في المباهاة بالقدرة على الإتيان بخوارق الأفعال.

وقد عقب بنص من الكتاب المقدس ساقه ديدات للاستشهاد به في هذا الصدد، بمخاطبة القس الكبير قائلاً: «إنك تدعو الناس بالسويد وأفريقيا وبنجلاديش أن يتصلوا بك للخلاص من متاعبهم ومتاعب أسرهم، ويسوع يقول لك: يا سيد، ابتعد عني، أنا لا أعرفك؟ أنا لا أريد أن أعرفك. . . يحذر المسيح ممن يزعمون القدرة على

(1) المصدر نفسه: ص 130.

(2) المصدر نفسه: ص 131.

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 175.

عمل المعجزات لكي يضلوا الناس الذين يتبعونهم ويخدعون بمزاعمه»[1] . وبالجملة فإن مما يميز هذه المناظرة هو أنها قد عكست قدراً وافراً من المغالطات التنصيرية والاستشراقية القديمة ، التي كانت وما زالت في بعض الأوساط تحاك ضد القرآن الكريم ، وشخصية الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ؛ حيث إن نفس الأباطيل والافتراءات التي درج الأعداء منذ قرون خلت على ترويجها ضد الإسلام ورموزه الفكرية والشخصية ، هي التي ردد بعضًا منها كبير قساوسة السويد ، وجانب من جملة الحاضرين ممن سألوا وناقشوا في الحلقة الأخيرة من هذه المحاورة العالمية الكبيرة . واعتباراً لهذه الميزة البارزة التي طبعت هذه المحاورة قيمها الأستاذ علي الجوهري بقوله : «ولا ريب أن النتائج التي حققتها هذه المناظرة بالفعل نتائج مهمة وكبيرة ومدهشة»[2] ، وذلك لتقليدية القضايا التي طرحت فيها ، وفجيعة ما ألم فيها بالطرف المسيحي من هزيمة فادحة ، بانت لعامة حاضري المحاورة ومتابعيها لاحقًا ، ولا سيما في الليلة الأخيرة منها ؛ إذ تجلى فيها هذيان القس الكبير ، وسخافة منطقه الفارغ ، متوّجة بوضاعة شخصيته الحوارية ، التي تختلف كثيراً عن شخصية أنيس شروس الذي عقد معه ديدات من قبل واحدة من أخطر محاوراته العلنية المشهورة .

ج - مناظرة العصر بين الشيخ ديدات والقس أنيس شروش بلندن[3] :

رُتِّب لهذه المحاورة أثناء عقد ديدات مناظرة سابقة مع أحد أكبر علماء اللاهوت المسيحي في مدينة برمنجهام البريطانية ، حيث كان القس أنيس شروس حاضراً من الولايات المتحدة الأمريكية خصيصاً لغرض اغتنام فرصة تحدي ديدات ، بأخذ موافقته على إجراء مناظرة علنية خاصة معه ؛ فلذا تظاهر بالاستفسار ، مفاجئًا الحضور بإعلان تحديه للشيخ في مناظرة لاحقة ، بدلاً من إلقاء ما كان يتوقع منه من سؤال أو تعليق .

وسرعان ما وافق ديدات على هذا الطلب الرخيص ، الذي يعتبره فيئاً نفيساً لا يقدر بثمن مهما غلا وارتفع . ومن ثم تم الاتفاق على اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحديد ظرف مناسب زمانًا ومكانًا لعقد هذه المحاورة المدبرة ، بتخطيط محكم من

---

(1) المصدر السابق : ص 148-149 .

(2) المصدر نفسه : ص 109 .

(3) فرغها الأستاذ علي الجوهري معربة في كتاب نشرته دار الفضيلة القاهرية .

الجهات ذات الشأن والعناية بهذا الأمر، حيث إن القس أنيس شروش من عرب فلسطين، هاجر إلى أمريكا سنة 1948م، وتحصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت من إحدى جامعاتها، وبحكم كل من العرق، والموطن، والتخصص فإنه يجيد عدداً من اللغات الهامة، منها العربية والإنجليزية، بالإضافة إلى اليونانية القديمة[1].

وهو فيما أعتقد مدفوع به كنسياً لمواجهة ديدات لمآرب إعلامية تتمثل في تضليل الناس بأن الرجل رغم أصله العربي وإجادته لغة المصادر الإسلامية أكثر من ديدات، ومعرفته بمحتوى تلك المصادر كما يظهر في استشهاداته فإنه مع كل ذلك نتيجة دراسته المقارنة لكل من الإسلام والمسيحية، فضّل اعتناق المسيحية بدلاً من الإسلام، وهو من أقرب الناس إليه وأولى به من ديدات الذي شغل العالم بحماسه الأعمى للحوار والدعوة، مع أنه لا يداني القس شروس في تلك المزايا اللغوية والثقافية التي يتمتع بها.

ومن هذا المنطلق هُيِّئتْ أجواء المناظرة من خلال اتصالات بين الطرفين دامت عدة أشهر، فوقع الاتفاق أخيراً على عقدها تحت موضوع: هل عيسى حقاً هو ابن الله؟ على أن تكون في مدينة برمنجهام الإنجليزية بتاريخ 15/ 12/ 1995م.

وفي ساعة اللقاء من يوم المناظرة كان مع كلا المتناظرين صاحب مرافق له، يعينه على ترتيب أوراقه، ويقدم له المساعدة في استخراج ما تدعو الحاجة إليها في المراجع من نصوص وشواهد. فكان صاحب ديدات بريطانياً اعتنق الإسلام، ومع مناظره مسيحي لبناني الأصل أمريكي الجنسية.

وقد ظهرت صعوبات فعلية في ضبط طريقة إجراء هذه المناظرة، فلجأ أصحابها إلى الاقتراع للوصول إلى تحديد المتحدث الأول، والتوزيع الزمني لفرص الحوار، وما يعقبها من مداخلات، واستفسارات. وإسهاماً من ديدات في تجاوز تلك الصعوبات الإجرائية فقد تكرم على الطرف الآخر بالتنازل عن حقه المكتسب بالقرعة في أوليّة الحديث والمبادأة، وقد وُفق بهذا التصرف في الجمع بين التسامح والإيثار من جهة، وبين الحكمة والوعي الثاقب من جهة أخرى، حيث إن الوضع منظوراً إليه بعين الحكمة كان يقتضي من ديدات منح المتحدي شروش حق المبادأة، باعتباره مصدر المبادرة بالدعوة إلى هذا التحاور. ومن ثم يكون الرد أصوب وأنكى.

(1) ينظر: مناظرة العصر، ص 7.

وقد دشن القس شروش حواره بتقديم هدية مجهولة إلى الشيخ ديدات، وهدايا تذكارية لمن كان برفقته، بالإضافة إلى تخصيصه مدير الجلسة بهدية ذات مدلول رمزيّ كبير وهي مفتاح مدينة «ألاباما» الأمريكية الذي قال عنه شروش: «وهو يمنح لمن يسدون جميلاً إلى هذه المدينة، كما أنه يمنح أيضًا لمن يسدون جميلاً إلى البشرية عمومًا»[1]. إن هذا الصنيع من القس شروش يؤكد تأكيدًا قاطعًا صادقًا مدى ارتباط مهمته الدينية بالأجهزة المدنية والسياسية في أمريكا، فضلاً عن تعبيره عما يحظى به النشاط التنصيري والمنصرون من دعم غربي واسع على المستويين المادي والمعنوي.

وعندما أخذ في الكلام استطرد في خطاب فارغ أجوف، شحنه بالمغالطات المتهافتة، والإطلاقات الطائشة، مكتفياً في استدلاله على صحة الكتاب المقدس ومصداقيته بوثائق محفوظة في المتاحف لم يعن بجلبها معه للعرض والتوثيق بدلاً من مواجهة الموقف بالاستدلال للإنجيل بالإنجيل[2]، وذلك بمضمونه وتعاليمه. وفي إثباته لعقيدة «الثالوث الموحد» يلجأ إلى الاستعانة بالظواهر الطبيعية والتحليلات العلمية البعيدة في صلتها بموضوعه من قبيل ما ورد في قوله:

ولننظر إلى الطبيعة حيث قدم الله بعض الأدلة على التثليث، لدينا العناصر كم عددها؟ ثلاثة أجسام: الصلبة والغازية والسوائل، وكل مادة إنما تنحدر من هذه العناصر الثلاثة، والهواء الذي نتنفسه يتكون من ثلاث ذرات: ذرة أوكسجين وذرة هيدروجين، وذرة نيتروجين، ولننظر إلى الشمس التي تبعد عنا آلاف الأميال، إن الشمس ضوء وحرارة ودفء، وهي تأتي إلينا مع ذلك شمساً واحدة، والزمن ينقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل، والإنسان نفسه: نفس وعقل وجسم والأسرة تنقسم إلى الأب والأم والأطفال[3].

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة يجهد شروش نفسه في تعزيز قضيته بنصوص وردت فيها مصادفة ألفاظ ومكررات ثلاثية، ولكنه أصر على استخدامها للبرهنة على صحة عقيدته الباطلة، وفي أثناء ذلك يعرض شروش لدعوى أفضلية المسيح على آدم عليهما السلام بقوله: «لقد كان آدم مخلوقًا من تراب الأرض، ونحن تراب أيضًا، ولكن

---

(1) مناظرة العصر، ص 31.

(2) والمقصود كتابهم المقدس، في إطلاق لفظ الإنجيل عليه نوع من التجاوز.

(3) ينظر المصدر السابق: ص 38-42.

يسوع المسيح قد ولد بواسطة روح الله»[1]، ولعل لنا في هذا المقام أن نسأل شروش عن العنصر الذي تنتمي إليه تلك الصديقة الفاضلة التي وضعت المسيح عليهما السلام ؟؟ .

وبهذه المغالطات البينة، والمقارنة الفاسدة، يتجاوز شروش إلى الاستدلال على ألوهية المسيح عليه السلام بما تحقق بإذن الله على يديه من معجزات[2]، وبما تنبأ به من مغيبات[3]، إلى جانب ما أثر عنه من عفو وتجاوز عن المسيء وقد صاغ استدلاله بهذا النوع في قوله: «ولقد كانت ليسوع المقدرة على العفو والمغفرة، ومن ذا الذي يعفو ويغفر سوى الله وحده؟ لقد غفر يسوع لكل من آذاه وأساء إليه ولكنه لم يطلب العفو والمغفرة لنفسه»[4]؟

وفي سياق هذه الخزعبلات يمرر شروش غير متورع افتراءه على القرآن بنسبته إليه الاعتراف بعقيدة صلب المسيح وقيامته التي نفاها القرآن وردها رداً لاهوادة فيه، وقد جاء هذا الدس الماكر المذموم في قوله: «إنني أرى وأسجل أن هذا ابن الله وأن آدم الأول قد خاض المعركة وخسرها، ولكن آدم الثاني (المسيح) خاض المعركة وربحها، إن القيامة بعد الصلب تؤكد هذا الانتصار كما أقر به اليهود واعترف به القرآن لأنه بدون إراقة الدم، دم المسيح، لتخليص البشرية من الخطايا»[5].

وعلى هذا النمط يطلق الرجل العنان لنفسه متهرباً تارة، ومفنداً تارة أخرى، الأمر الذي يفقده أدب الخطاب أحياناً فيصدر منه ما يقرب من اتهام الحضور بالخمول والبلادة، ومن أمثلة ذلك تعبيره قائلاً: «دعوني أنشط ذاكرتكم وأشف قلوبكم المتطلعة إلى المعرفة. . .»[6].

وعلى الرغم من محاولة إثباته ألوهية المسيح بكل ما أوتي من قوة فكرية ومقدرة حوارية، فإنه يعود أخيراً لهدم كل ما أرهق نفسه بكلفة بنائه، ضاحكاً على نفسه، في اعترافه الضمني بسخافة الفكر الصليبي، وسفاهة الإيمان به، وقد جرى على لسانه

---

(1) المصدر نفسه ص 46.

(2) ينظر: المصدر السابق ص53.

(3) ينظر: المصدر نفسه ص56-57.

(4) المصدر نفسه ص57.

(5) المصدر نفسه، ص59.

(6) المصدر نفسه، ص56.

القول بما يستنتج منه ذلك، فيما نصه: «دعوني أؤكد لكم أن الله في الحقيقة هو يسوع، إن الله الإنسان فكرة مضحكة طوال التاريخ، ولكن هذا هو الإله الإنسان الأول والوحيد بحق هو يسوع المسيح»[1].

وبهذا الفكر الساذج ينهي حديثه - كعادتهم - بدغدغة العواطف وتنويم المشاعر والأحاسيس بخيالات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، حشاها في قوله: أودّ أن أقول لكم ما أعلنه يسوع إذ قال: «لقد أتيت لتعيشوا حياتكم، ولتعيشوها على نحو أفضل»، وهكذا. . . نصبح جميعاً محل عناية الله ورعايته، إن يسوع قد جاء بحثاً عنك وعني، وهو يريد أن يهبك وأن يهبني الحياة الأبدية ولكن النعمة الإلهية بحق إنما هي الحياة الأبدية ليسوع المسيح إلهنا، وينكشف لنا هذا السرّ عندما نتسمّع إلى يوحنا المعمدان مبشراً بميلاد يسوع المسيح عندما يقول: «ترقبوا مجيء حمل الله الذي يمحو آثام الدنيا»[2].

وأما ديدات فما كاد يستوي قائماً لأخذ دوره في الحديث حتى وقد بادر مرافق الدكتور شروش في دهاء وتضليل إلى معانقته متودداً إليه، بإعلان حبه له وتقديره إيّاه، مما أثار عاصفة من التصفيق، والهتافات. وبعدها استهل ديدات حديثه بتلاوة قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 18] ثم أردفه بالتذكير بموضوع المناظرة، وذلك لضبط مجرى الحوار، وحصره في نطاقه المقرر له كي لا يتسرب إلى ما لا علاقة له به، فيسلك الكلام مذاهب أخرى.

ويظهر أن حديثه قد تركز في مجمله على نقض ادعاءات عقيدة التثليث، وأن عقيدة وحدة الأقانيم المتفرقة بقدر ما هي فكرة متناقضة وغير معقولة، فهي كذلك باطلة ومفتعلة، حيث إن المسيح عليه السلام لم يدّعِ البتة أنه إله كما يزعمون، وقد أثبت ديدات بطلان هذه العقيدة باللجوء إلى عملية إحصائية لموارد استخدامات كل من كنيتي «ابن الإنسان» و«ابن الله» في الكتاب المقدّس مراداً بها وصف المسيح، فخرج ديدات بحقيقة علمية مفادها أن اللفظ الأول في موارده يفوق الأخير بسبعين مرة أي 83 مقابل 13[3]، كما أنه قدم محاكمات عقلية

(1) المصدر نفسه، ص58.

(2) المصدر نفسه، ص58-59.

(3) ينظر: مناظرة العصر، ص67.

عن صلب المسيح متسائلاً بأنه إذا كان مسيحهم المصلوب هو الله فمن الذي حكم العالم، وقام بتصريف شؤونه خلال الأيام الثلاثة التي صلب فيها، وسبقت عملية قيامه من عالم الصلب، وفي ذلك يقول ديدات: «وإنني لأسألهم: هل تعتقدون أن الله يموت؟! ألا تقولون إن الله خالد لا يموت، ثمّ تقولون إنه يموت!؟ وإذ يموت فماذا يحدث لمخلوقاته؟! وإذا كان قد مات ودفن في أحد المدافن لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال كما يزعم أصحاب الوثائق المقدّسة فمن الذي كان يعنى بالعالم طوال تلك الأيام الثلاثة وتلك الليالي، من الذي كان يسيطر على العالم في ذلك الوقت بالذات»[1]؟، وتلو هذا الاستفهام التعجبي الإنكاري، يستدل لهم ديدات على بشرية المسيح عليه السلام بممارسة عادة الأكل كحاجة أساسية من حاجات الكائن الحي، بالإضافة إلى ما ورد في الكتاب المقدّس من دليل تضرع المسيح إلى الله، واستنقاذه إياه حين أحدقَ به خطر الصلب الذي يرونه تكفيراً اختيارياً مع إقرارهم بتهرب المسيح منه، وابتهاله إلى الله طالباً النجدة والخلاص.

والملاحظ أن الشيخ ديدات ملازمٌ في حديثه بأسلوب المقارنة الذي هو مولعٌ به كثيراً، وبالأخص في مسرح حواراته، ففي هذه المناظرة كغيرها نجده يفند ويصحح القضايا التي يعرض لها طبقاً للتصور الإسلامي، وهو في ذلك يبرز مقدرة نادرة المثيل، في تسخيف عقيدة الطرف المناوئ له، وعرضها على الجمهور بشكل يمجه العقل السليم وينفر منه الإنسان السوي.

وقد ترتب من الناحية المنهجية على تذكير وضبط ديدات لموضوع المناظرة في مطلع حديثه، التركيز عليه باستفراغ الجهد في معالجته، وتفنيد القول بموجبه، فلذا لا يُعنى غالباً في هذا اللقاء كغيره بتعقب شروس، وملاحقته، بالرد المتسلسل على ما ورد في حواره من قضايا، وطروحات. ولعل هذا المسلك هو ما شجّع مناظره في حديثه للمرة الثانية على تزوير الحقيقة وتعمد الكذب بأن نسبة 75٪ من القرآن الكريم هي مقتبسة من الإنجيل، وذلك فيما نقل عنه: «دعوني أتحداكم وأقول لكم إن خمسة وسبعين بالمائة 75٪ من القرآن المكتوب باللغة العربية المدهشة، وهي لغتي القومية الأصلية، إنما هو من الإنجيل»[2].

---

(1) المصدر نفسه، 69.

(2) المصدر السابق، ص82.

وبعد هذه الأكذوبة التي لا يحفل بتبعتها العلمية أو الأخلاقية، يجنح متستّراً إلى الالتحاف بلفائف كلمات رنانة تقوم على الزعم بتحقيق معاني الحبّ، والمغفرة والحياة، والخلاص باعتناق العقيدة الصليبية، والتي أساسها الاعتقاد بصلب المسيح تكفيراً عن خطايا البشر باعتباره أحد أركان ألوهية الأقانيم الثلاثة. ويختم شروش أخيراً بأسلوب عاطفي معسول لا رابط مباشر ولا صلة قريبة بينه وبين موضوع المناظرة، وقد بان للحضور ما لحق به من عجز بيّن، وما ناله من هوان لا يحسد عليهما.

وأمّا ديدات فقد كان مسنداً بروح من الله ثمّ بتصفيق صارخ، وهتاف مهيب، يعلوه تكبير الله سبحانه وتعالى، ولكنه مع هذا التشجيع الحار ظلّ يشير إلى مؤيديه بالهدوء، شاكراً لهم دعمهم الروحي المعنوي، وقد استطاع أن يكشف للحضور فشل مناظره وأن القضية التي جاء هو للدفاع عنها هي الصحيحة، وليس نقيضها.

وقد أثار في اللحظات الأخيرة ضد مناوئه قضية أخلاقية محرجة، كان قد سطرها هذا الأخير باعتراف حر منه، في كتاب له اطلع عليه ديدات ضمن ترتيبات تحضيره للمناظرة، وهي قضية تعكس قمة الانحطاط في حضيض الفسق والفحش في حياة من يعرفون برجال الدين المسيحي وكبار قساوسته ولاهوتييه، وفي مقدمتهم الساقطون من أمثال القس شروش بطل هذه القضية الأخلاقية المخجلة ومدير وقائعها[1].

وحيث إن شروش قد تجرع كأس الهزيمة المرة، وآلمه ما أفشاه عليه ديدات، أخذ في تلطيف الموقف متودداً إلى الجمهور بالتظاهر لهم بالحب، والإحساس بالسعادة في دوام اللقاء بهم، وقد ضمن اعتذاره بالتعبير عن أمنيته الغالية في عقد مناظرة أخرى مع ديدات، على أن يتولى هو شروش تحديد موضوعها، مقابل تحديد ديدات لهذه المناظرة[2]، التي تبين فشله فيها. وبهذا يوحي شروش - كاذبًا - للحضور بأنّ الشخص الذي حدد موضوع المناظرة وهو ديدات - بافترائه - استجمع لها العدة والعتاد، بعد أن اختار لها موضوعاً كان واثقاً من استعداداته في حسمه لصالحه، وكان شبه ضامنٍ لفوزه وانتصاره في مناقشته.

---

(1) ينظر: المصدر السابق، ص92، وقد ورد الاستشهاد بهذه القضية في ص271من هذا البحث وذلك في معرض الحديث عن التصور العام للعمل الإسلامي عند ديدات.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص97.

وفي آخر كلام للقس شروش في هذا اللقاء - باعتباره المتحدث الأخير - وهو يرد على سؤال موجّه إليه عمّا إذا كان المسيح هو ابن الله فكيف واتته الوفاة؟ اعترف شروش بالحقيقة قائلاً في نهاية الإجابة: «. . . لقد قدم لنا نفسه وابنه الوحيد والروح القدس واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد، سرّ ليس عليكم أن تفهموه بل عليكم أن تتقبلوه»[1].

وهذا إيذان منه بالهزيمة، وإقرار بالاستسلام أمام الدفوعات المنطقية القوية التي أدلى بها ديدات، مسلماً بأن القضية محل البحث لا تدخل في حدود المسلمات العقلية، بل تنتمي إلى عالم المعتقدات اللامعقولة، المضادة للعقل السليم والتفكير المنطقي الصحيح.

إن هذه المناظرة الجارية بين ديدات وأنيس شروش تعتبر في رأي معربها الأستاذ علي الجوهري أهم وأخطر حتى من مناظرته الذائعة الشهرة مع القس الأمريكي سواجارت[2]. وقد ذهب الأستاذ الجوهري بدفع من هذه الأهمية القصوى التي يضفيها على هذه المناظرة، إلى اعتبارها مناظرة القرن العشرين[3]. وقد أفصح قبل ذلك عن تقييمه لها حين اتخذ «مناظرة العصر» عنواناً للكتاب الذي فرّغ فيه تعريبه لهذه المناظرة.

وبالنسبة لي فإن أهمية هذه المناظرة تكمن في دحضها رأي من يقول بأن ديدات لا يقوى على مناظرة مسيحيي المشرق العربي وغيرهم، ممن يتمتعون بإجادة اللغة العربية، ولهم اطلاع واسع على الثقافة الإسلامية، ويقال بأنه لو عرض نفسه لمناظرة هذا الفريق فلن يكون الأمر في صالحه كما كان مع غيرهم.

ولعل من الأنسب بعد هذه الجولة الاستعراضية في رياض مؤلفاته وحواراته الزاهرة التصدي بالإجابة على ما يمكن أن يثار من سؤال عن جوانب الإبداع والاتباع في منهج ديدات، وذلك في ضوء موازنته في الفصل اللاحق بعدد من قدامى المحاورين المسلمين ومن معاصريهم، للوقوف على مواطن التقليد والتجديد في منهجه الحواري وموضوعاته.

---

(1) مناظرة العصر، ص105.

(2) ينظر المصدر نفسه، ص5.

(3) ينظر المصدر السابق، ص30.

سلسلة الرسائل الجامعية

بعد المسيرة الميمونة التي قطعتها كلية الدعوة الإسلامية في حقل الدراسات العليا وأسفرت حتى الآن عن أكثر من خمسين رسالة في مستوى درجة التخصص العالي (الماجستير) ورأت أن بين هذه الأعمال العلمية ما ينضوي على قيمة علمية رفيعة تستوجب أن يصل مداها العلمي إلى آفاق أرحب من القراء ، وعدد أكثر من المختصين الذين لا يمكنهم الرجوع إلى المرقونات في مظانها ، فقررت تعميماً للفائدة وتشجيعاً للباحثين، وخدمة للعلم أن تنشر هذه الرسائل في سلسلة خاصة تسمى سلسلة الرسائل الجامعية .

وسوف تنشر هذه الأعمال تباعاً تعميماً للثقافة وتشجيعاً للعلم .

لجنة كلية الدعوة الإسلامية

